

القسم الثاني
بحوث نحويّة وأدبية

٧. النحو العربي والمنطق اليوناني (*)

لا جدال في أن نشأة النحو العربي كانت مرتبطة بالقرآن الكريم ارتباطا وثيقا، فلولا هذا القرآن لما نشأ النحو وتطور هذا التطور الكبير، ذلك لأنه بعد أن انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية كانت الحاجة ماسة إلى هذا العلم ليصون الألسنة من فساد قد استبد بها، ولحن قد سيطر عليها، ولا أبالغ إذا قلت: إن هذا اللحن قد امتد خطره إلى كتاب الله، فكثرة التحريف، ونطق الآيات على غير ما تنطق به حينما تقرؤها الألسنة التي نشأت في بيئة أعجمية، ولم تتمرن على النطق السليم.

وظل اللحن يتفاقم خطره يوماً بعد يوم مما جعل عمر بن الخطاب يأمر بجلد من وقع في اللحن كان اللاحن ارتكب جريمة لا يكفرها إلا الجلد، مع أن الجلد عقاب من يرتكب الكبائر كشرب الخمر ورمي المحصنات.

ويحدثنا الرواة أن كاتب أبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب على لسان الوالي أبي موسى: «من أبو موسى...» فكتب إليه عمر «سلام عليك: أما بعد فاضرب كاتبك سوطا واحداً، وآخر عطاء سنة».

وروي الجاحظ أنه ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في ميراث فقال: «إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال أبينا فأكله، فأما زياد فقال: إن الذي أضعت من لسانك أضرت عليك مما أضعت من مالك. وأما القاضي فقال: فلارحم الله أباك، ولا نبح عظم أخيك^(١) قم في لعنة الله». ولا أستطيع في هذا البحث الموجز أن أعدد صور اللحن في القرآن الكريم وصور لحن الخاصة والعامة، فقد سجل الكثير منها الجاحظ في «البيان والتبيين» والذي يهمني ذكره هنا هو أن هذا اللحن على الرغم من كثافته كان يواجه بحرب عنيفة لا هوادة فيها، فعبد الملك بن مروان يقول: «اللحن هجته على الشريف». .. وأبان بن سعيد يقول: «اللحن في الرجل ذى الهية كالمدنس في الثوب الجيد». ويخطيء الحجاج فيوجهه ابن يعمر، فتشور ثورته، وينفى ابن يعمر إلى خراسان حتى لا يكتشف أمره فتضيع هيئته.

(*) نشر في مجلة الأديب بلبنان - يوليو سنة ١٩٧١.

(١) دعاء عليه بالهلاك.

وكانت أكبر ثورة مقدسة وجهت ضد هذا اللحن الوافد تتمثل في نشأة النحو العربي حفاظاً على كتاب الله تعالى من التحريف، وصيانة للغة من الضعف.

وعلى الرغم من الروايات العديدة التى دارت حول نشأة هذا العلم فإن رأى الراجح أنه نشأ على يد أبى الأسود فى خلافة علي كرم الله وجهه.

والذى جعلنى أستريح إلى هذا رأى هو أن أبا الأسود كما يقول المؤرخون عنه: من أكمل الرجال رأياً، وأسدهم عقلاً.

وكان له حس مرهف بمواقع الخطأ حينما تنحرف الألسنة عن جادة الصواب والروايات التى قيلت عنه فى هذا المجال عديدة سجلتها كتب الأدب وتناقلتها ألسنة الرواة ولا أدل على ذلك من هذا العمل العظيم الذى قام به وهو تنقيط المصحف تنقيط إعراب، فقد طلب من زياد أن يبعث إليه بتلاثين رجلاً، فأحضرهم زياد، فاختار منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس، فقال له: خذ المصحف، وصبغاً يخالف المداد، فإذا فتحت شفتى فانقط نقطة واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة فى أسفله.. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره».

هذه رواية ابن الأنبارى فى كتابه «نزهة الألبا» وهى دليل واضح على أن أبا الأسود هو الذى وضع البذور الأولى للمصطلحات النحوية، ثم جاء خلفاؤه من بعده وساروا فى هذا الطريق حتى نما النحو على يدهم وأتى ثماره بفضلهم.

هذا ولم يكن النحو الذى تطور على يد النحاة بعد أبى الأسود نحواً منطقياً لأن النحاة استقرءوا كلام العرب، شعرهم ونثرهم، وحاولوا أن يضعوا فى ضوء هذا الاستقراء قواعدهم التى توصلوا إليها، وهذا أمر طبيعى، فالخليل بن أحمد مثلاً استخرج بحور الشعر العربى من استقراء أشعار العرب. وحاول بعلم العروض الذى ابتكره أن يرد جميع ما ورد من أشعار العرب إلى أوزان قلما تتخلف.

أقول فعلى هذا المنوال نسج النحاة الأولون فى مجال بناء القاعدة، أو وضع الأصول النحوية.

حقاً: إن عبدالله بن أبي اسحاق أخذ عن «عنبسة القيل» تلميذ أبي الأسود وقد قالوا عن عبدالله: إنه أول من علل النحو، وكان شديد التجريد للقياس مما دعا الزميل الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه «النحو العربي» إلى أن يقول ما نصه ص ١٩ «إن التماس العلة والتمسك بالقياس لا يلتزم والطبيعة النحوية وكان عليهم أن يقتصروا على وضع شيء يعصم اللسان من اللحن إلى أن يقول: ولكن النحاة ابتداء من عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي ساروا في هذا السبيل محاكاة للمناطقة والمتكلمين، وأصحاب الجدل، وكان من تمام الأدوات لدى المثقف أن يلمّ بمنطق أرسطو، وأراء أفلاطون، وحكمة سقراط. ولذلك أقبلوا على ذلك اقبالا، كلفهم عناء، ولا سيما في علوم العربية».

وأحب أن أذكر للزميل الفاضل أن قياس النحاة من عصر أبي الأسود إلى سيويه لم يكن قياس منطق أو جدل، بل قياس فطرة وطبيعة، فالإنسان بحكم إدراكه يقارن بين الأشياء فيعرف ما اشبه منها وما لم يشبهه، ما اتفق وما لم يتفق. ثم يستنبط من هذه الظواهر المتشابهة، أو الظواهر المتقاربة مقاييسه وأصوله ولا ادل على ذلك من أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟.

قال: أفضى بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن، قال فبسنة رسول الله، قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله قال: اجتهد رأيي ولا ألو. قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله.

وفي هذا النص ما يدل على أن من أصول التشريع الاجتهاد بالرأى وهو القياس.

ودليل آخر: فقد رووا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى قاضيه أبي موسى الأشعري «الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. اعرف الأشباه وقس الأمور عند ذلك» هل تأثر معاذ حينما يجتهد برأيه بمنطق أرسطو، أو جدل فلاسفة اليونان؟ وهل كان عمر بن الخطاب يجرى على سنن المنطق اليوناني حينما يقول: اعرف الأشباه، وقس الأمور عند لك؟.

الأمر في نظري لا يعدو أنه من طبيعة الإنسان أن يبحث عن العلة أو السبب في كل حكم يصدره وفي كل رأى يميل إليه.

أكبر الظن أن بعض المستشرقين لا يسلمون بأن النحو عربى النشأة، وإنما نقل إلى بلاد

العرب من اليونان ولذلك تسربت العلة إلى بنائه وكان القياس الأساس الأول فى كل أحكامه. والحقيقة أن هذا القول مفروض، فإن المستشرقين الذين وضعوا الحق نصب أعينهم اعترفوا بما لا يدع مجالاً للشك أنه كما تنبت الشجيرة فى أرضها كذلك ينبت علم النحو عند العرب.

ومن الرائع فى هذا المجال أن أسجل شهادة «يوهان فك» حيث ذكر فى مقدمة كتابه «العربية» ما نصه: «ولقد تكفلت القواعد التى وضعها النحاة العرب فى جهد لا يعرف الكلل، وتضحية جديرة بالإعجاب - بعرض اللغة الفصحى وتصويرها فى جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ وتركيب الجمل، ومعانى المفردات على صورة محيطية شاملة حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا تسمح بزيادة لمستزيد»^(١). وحتى فى العصور المتأخرة بعد ترجمة منطق اليونان وفلسفة سقراط وأرسطو إلى العربية احتفظ النحو العربى باستقلاله التام، وطابعه الخاص وأقيسته المتميزة، ذلك لأن أقيسة النحاة تسير فى درب وأقيسة المناطق تسير فى درب آخر.

ولقد أشار إلى ذلك أبو حيان التوحيدى فى كتابه «الهوامل والشوامل» فقد جاء فى صفحة ٢٩٣ ما نصه: «ستل بعض العلماء بالنحو واللغة فقيل له: أيستمر القياس فى جميع ما يذهب إليه فى الألفاظ؟ فقال: لا، فقال السائل: فينكسر القياس فى جميع ذلك؟ فقال: لا فقيل له: فما السبب؟ فقال: لا أدرى ولكن القياس يفزع اليه فى موضع ويفزع منه فى موضع.

قال أبو على مسكويه مفسراً هذا الكلام: أما قياس النحويين فليس مبنيًا على أوائل ضرورية فلذلك لا يستمر، وإنما أجاب هذا الرجل العالم بالنحو عن القياس الذى يخص صناعته ولم يلزمه إلا ذلك. فإما الفيلسوف فقياساته كلها مستمرة لا ينكسر منها شيء ولا سيما ضرب من القياس يسمى برهانا.

وما لى أذهب بعيداً والخليل نفسه لم تكن أقيسته إلا من وحي الفطرة والطبيعة مع أن السير فى كما نص على ذلك السيوطى فى بُغية الوعاة يقول عنه: «كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه» وما أظن أن السير فى معنى أنه تتلمذ على الفكر الأرسطى وتأثر بمنهجه فى القياس، وأنه كان يعنى فى رأى أن الخليل كان يدرك بذكائه

(١) العربية/٢.

الخارق، وفكره المتقدم، وعقليته النادرة ظواهر الأساليب العربية - فيقيس أسلوبيا بأسلوب،
وظاهرة بظاهرة فيستنبط ما يريد أن يستنبطه من قواعد.

ولا ادلال على ذلك من اجاباته الرائعة حينما سأله بعض العلماء:

«أعن العرب أخذت هذه التعليقات أم اخترعتها من نفسك؟ فقال الخليل: إن العرب
نطقت على سجيها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله وان لم ينقل
ذلك عنها - وعللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمس
وأن تكن هناك علة غير ما ذكرت فالذي ذكرته محتمل أن يكون علة له، ومثلى في ذلك مثل
حكيم دخل دارا محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام وقد صحت عنده حكمة بانها بالخبر
الصادق والبراهين الواضحة فكلما وقف هذا الرجل الداخل الدار على شىء منها قال: انما
فعل هذا (هكذا) لعلة هي (كذا) لعلة سنحت له وخطرت، فجائز أن يكون الحكيم البانى
للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الرجل الذى دخل الدار وجائز أن يكون فعله لغير
تلك العلة إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة. ثم قال الخليل: فإن صحت
لغيرى علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرته للمعلول فليات بها»^(١).

والذى أريد أن أخلص إليه في هذا البحث أن النحاة الأقدمين من عصر أبى الأسود إلى
عصر سيويه لم يتأثروا بالمنطق اليونانى، فتعليقاتهم وأقيستهم ليست يونانية الأصل أو أجنبية
المنبت ولكنها عربية في صميمها استخرجوها في ضوء الفطرة والطبيعة لا في ضوء المنطق
والجدل، ثم نمت هذه التعليقات على يد خلفائهم، فكمل البناء للنحو وأصبح حصنا يحرس
بناء اللغة من التصدع ويحافظ على كتاب الله من العامة المستبدة والشعبوية الجائرة.

ولو استنطقنا تاريخ ترجمة المنطق اليونانى إلى العربية لرأينا أن هذا المنطق لم يترجم إلى
العربية فى هذه الفترة من التاريخ حتى يمكن للنحاة الأوائل أن يتأثروا به كما يقول بعض
الباحثين.

وقد اعترف بذلك كثير من علماء الاستشراق نذكر منهم ت.ج. دى بور حيث يقول فى
كتابه: تاريخ الفلسفة الإسلامية ما نصه: «جمعت الأمثال والحكم والخطابات الوصايا.
وجمع كل ما له علاقة بتاريخ الفلسفة بوجه عام وترجم منذ العهد الأول.. ثم يقول: ولكن
لم يشرع فى نقل كتب اليونان فى الطبيعة والطب والمنطق إلى اللسان العربى إلا فى عهد

(١) إيضاح علل النحو للزجاجي / ٦٥ - ٦٦ .

المنصور^(١). وخلافة أبي جعفر المنصور في سنة ١٣٦ هـ مع أن أبي إسحاق توفي سنة ١١٧ هـ فكيف تسنى لابن أبي إسحاق ومن عاصره أن يتأثر بهذا المنطق اليوناني هذا الأثر الكبير؟.

على أن الترجمة لم تنتشر وتزدهر إلا في عصر المأمون ذلك الذي أنشأ لها مدرسة في بغداد سميت باسم بيت الحكمة وكانت الترجمة في النصف الأول من القرن الثالث الهجري إلى السريانية وفي النصف الثاني ازدهرت حركة الترجمة إلى العربية شيئاً فشيئاً^(٢).

من هذه النصوص نتبين في جلاء أن النحو العربي ظل مصنونا من أقيسة المنطق إلى أن ازدهرت الترجمة ونقلت الفلسفة والمنطق إلى العربية وذلك في القرن الثالث الهجري حيث تأثر النحو العربي بعض التأثير بالمنطق اليوناني، وظهرت في بنائه العلل بأقسامها العديدة مما صعب النحو وأبعده عن العلل الطبيعية التي لا تحتاج إلى كد ذهن، أو عناء فكر في استنباطها واستخراجها ولكن مع هذا كله، فإن الحرص البالغ على سلامة اللغة كان هو الدافع الأول لمثل هذه الدراسات النحوية العديدة التي ملأت المكتبة العربية بشروحها وحواشيها والتعليقات عليها ولا أملك في هذا المجال إلا أن أختتم مقالى هذا بكلمة المستشرق دي بورحيث يقول: «إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربي بما له من دقة في الملاحظة، ومن نشاط في جمع ما تفرق، ويحق للعرب أن يفخروا به»^(٣).



(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية: ترجمة الدكتور أبو ريده ص ٣٥.

(٢) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية - ترجمة عبدالرحمن بدوى ص ٢٨.

(٣) تاريخ الفلسفة الرسلامية: ت - دي بور ص ٥٧ ترجمة «أبو ريده».

٨. النحو العربي والتجديد (*)

أشرقت شمس الإسلام على الجزيرة العربية، وامتدت أشعتها إلى أرجاء العالم لتنسخ ظلامه، وتبدد قمامه، وتحيل الجهل إلى معرفة، والفوضى إلى نظام، والعبودية إلى الحرية والحياة.

ومن أجل القيم والمثل التي أتى بها الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجا، لا فرق بين سيد ومسود، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين حر وعبد.

وللتفقه في دين الله، وتلاوة القرآن، وفهم أحكامه كانت الحاجة ماسة إلى تعليم العربية والتفقه فيها، فجلسوا في حلقات الدرس ليلموا بها، وشاركوا في نهضتها، وليشعروا بجمال القرآن وبلاغته، فيملك عليهم مسامعهم كما يملك مسامع غيره من العرب.

يقول المرحوم الأستاذ أمين الخولي «ولما عزت الممارسة اللغوية، والتلقى المباشر فزعوا إلى الطريقة الثانية وهي المدارس وكسب اللغة بالتعلم، وهي طريقة تحتاج إلى القواعد والأصول، والأسس التي يراض بها متعلم اللغة»^(١).

ومن الطبيعي أن تتعثر السنة هولاء الأعاجم في نطق العربية، مما كان سببا في ظهور اللحن فصهيب الرومي من صحابة رسول الله ﷺ كان يقول: «إنك لهائن، يريد، إنك لخائن، وكان صهيب يرتضخ لكنة رومية»^(٢).

والشاعر سحيم المشهور بعبد بنى الحسحاس المعاصر لرسول الله ﷺ «كان يرتظن لكنة أجنبية»^(٣)، وسحيم هذا حبشى الأصل اشتراه عبدالله بن أبى ربيعة المخزومي وكتب إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه: أنى قد اشتريت لك غلاما حبشيا شاعرا فكتب إليه «لا حاجة لنا فيه، انما حظ أهل الشاعر منه إذا شيع أن يشيب بنسائهم، وإذا جاع أن يهجوهم»^(٤).

(*) نشر في مجلة البيان الكويتية - يونيو سنة ١٩٧٠.

(١) محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية: ص ١٣: أمين الخولي.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٧٢، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

(٣) العربية: يوهان فك ص ١٣.

(٤) الشعر واشعراء لابن قتيبة ص ١٥٣.

وقد امتد شر هذا اللحن إلى القرآن الكريم على عهد النبي عليه السلام، فعن أبي الدرداء قال: سمع النبي ﷺ رجلاً قرأ فلحن، قال: أرشدوا أخاكم^(١) وفي رواية سجلها ابن جنى في الخصائص أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل^(٢).

ومن أجل ذلك، ومن أجل أن يبقى كتاب الله مصوناً من كل تحريف محفوظاً من كل عبث، دعت الحاجة إلى علم يعرف به خطأ الكلام من صوابه، ليحافظ على بناء العربية ليمتد إلى الأجيال، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لغة قوية تتحدى الزمن. جبارة لا تمنى رأسها لعواصف العامية، ولهجات السوق، وصيحات الجهلة، دعاة الهدم باسم التجديد وباسم التطور.

أقول من أجل ذلك: نشأ علم النحو، وليس المجال متسعاً في هذا البحث الموجز لبيان نشأة هذا العلم وتطوره واختلاف الآراء حول هذه النشأة، أعربية خالصة هي كما يقول علماء العرب، أم يونانية المنبت، أم فارسية الاتجاه كما يقول المستشرقون؟ ولكن الذى يمكن قوله فى هذا المجال أن بذور هذا العلم لم تؤت أكلها الا على يد سيويه بكتابه العملاق الذى أعجز من قبله، وعز على من بعده.

وقد اشتغلت مدن العراق الثلاث، البصرة، والكوفة، وبغداد بهذا الكتاب، فمن معينه شربوا ومن علمه اقتبسوا، ومن قضاياه تعلموا.

ولم يكن الكتاب وقفاً على هذه المدن فحسب، بل تجاوزها إلى غيرها، وسارت به الركبان إلى كثير من أقاليم العالم الإسلامى.

فمن المصريين الذى شربوا من معينه أبو على أحمد بن جعفر الدينورى المصرى، كان يخرج من منزل خنته ثعلب، فيتخطى أصحابه، ويمضى معه محبرته ودفتره، فيقرأ كتاب سيويه على المبرد^(٣). وأبو الحسن محمد بن الوليد بن ولاد المصرى، لقى المبرد وثلعب، وأقام ثمانية أعوام يدرس كتاب سيويه على المبرد^(٤).

ولحرص أبى الحسين على كتاب سيويه أراد أن ينقل نسخة الكتاب من المبرد، وكان يضمن

(١) كثر العمال فى سنن الأئوال والأفعال: علاء الدين بن حسام الهندى ج ١ ص ١٥١.

(٢) الخصائص ج ٢ ط دار الكتب.

(٣) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى. ص ٢٣٤ ط ١٩٥٤م.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

بها ضنا شديدا فكلم ابنه على أن يجعل له فى كل كتاب منه جُعلًا، قد سماه، فأجابه إلى ذلك، فاكمل نسخه^(١).

وفى الأندلس تبارى العلماء فى حفظه، وفهم مسائله، وإدراك قضاياها ومن أشهر حفاظه فى هذه البلاد حمدون النحوى المتوفى بعد المائتين.

وفى القرن الثالث كان من أشهر حفاظه الأفشين القرطبى المتوفى سنة ٣٠٦هـ وقد أخذه فى مصر عن أبى جعفر الدينورى رواية^(٢).

وفى العصور المتأخرة ظل هذا الكتاب النجم اللامع فى سماء المعرفة، فالزمخشرى أشهر نحوى فى عصره بشيد بسيويه وبكتابه، وذلك عند تعرضه لرأى سيويه فى «مهما» من قوله تعالى.. «وقالوا مهما تأتنا به من آية».. يقول الزمخشرى معقبا على رأى سيويه: «إنه يجب الجئو بين يدى الناظر فى كتابه سيويه»^(٣).

ولما جلس أبو حيان الأندلسى فى القاهرة مجلس الأستاذ التزم ألا يقرىء أحدا إلا ان كان فى كتاب سيويه أو التسهيل لابن مالك، أو فى تصانيفه^(٤).

والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذا المجال، هو: لم كل هذا الاهتمام بكتاب سيويه؟ وما الدافع لهذا الدوران حوله؟ وما الداعى لهذه الدراسات الضخمة التى أقيمت فى رحابه؟ أقول: إن السر فى ذلك هو معرفة كلام العرب للوقوف على تراكيبه، وفهم أساليبه وإدراك معانيه، وكان ابن جنى قد أحس بهذا الاهتمام، وهذا الدوران فى فلك النحو فقال عند تعرضه لمعنى النحو ما نصه: «النحو هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير، والإضافة والنسب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها فى الفصاحة، فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها»^(٥).

(١) طبقات النحويين والغويين للزبيدي، ص ٢٣٦ ط ١٩٥٤م.

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ٣ ص ٢٣٢.

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٦٥.

(٤) نكت الهميان ج ١ ص ٢٨٠. لصلاح الصفدى ط ١٩١٠ مصر. وانظر كتاب «القرآن الكريم وأثره فى

الدراسات النحوية»، لصاحب هذا البحث نشر دار المعارف.

(٥) الخصائص: ابن جنى ج ١ ص ٣٤. مطبعة دار الكتب.

ومعرفة كلام العرب، وإلحاق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها أمر يوجبه الدين وتفرضه العقيدة فكتاب العربية الأكبر، وهو القرآن الكريم لا يفهم أسرارها، ولا يعرف معانيه، ولا يحس بجماله إلا من فهم العربية، وإدرك أسرارها.

فمن ابن مسعود أنه قال: أعربوا القرآن فإنه عربي.

وعن عمر بن الخطاب أنه قال: تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه.

وعن يحيى بن عتيق قال: سألت الحسن، فقلت الرجل يتعلم العربية، يلتمس بها المنطق ويقيم بها قراءته، فقال الحسن، فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية، فيعيا بوجهها فيهلك فيها^(١).

ويؤكد صاحب كتاب «الزينة» هذه الحقيقة فيقول «ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين والأئمة الماضين، لبطل الشعر، وانقرض ذكر الشعراء، ولغى الدهر على أثارهم، ونسى الناس أيامهم، ولكن الحاجة بالمسلمين ماسة إلى تعلم اللغة العربية، ومعاني الألفاظ في القرآن والحديث.. إذ كان الإسلام قد ظهر بحمد الله في جميع أقطار الأرض، وأكثر أهل الإسلام من الأمم هم عجم، وقد دعتهم الضرورة إلى تعلم لغة العرب إذ كانت الأحكام والسنن مبينة بلسان العرب»^(٢).

ومن الطريف في هذا المجال أن أبا عبيد يقول: سمعت الأصمعي يقول، سمعت الخليل ابن أحمد يقول: سمعت أيوب السجستاني يقول: عامة من تزندق بالعراق لعدم علمهم بالعربية^(٣) وما لي أذهب بعيدا، وسيبويه العجمي، عميد العربية، وصاحب الكتاب، وحامل لواء النحو، لم يكن عربيا، واستطاع بالتعلم والمحاكاة أن يصل إلى ما لم يصل إليه العرب، فقد أبت عليه نفسه الكريمة أن يتهم باللحن ويعاب بعدم فقهه بالعربية، فيشمر عن ساعد الجهد، ويعقد النية على أن يجد في طلبها، ويبذل قصارى جهده من أجلها حتى يسلس له القيادة، فتتقاد إليه، وهي أطوع من بنانه.

يحدثنا ابن الأنباري فيقول: «كان سيبويه يستملي على حماد بن سلمة، فقال يوما: قال

ﷺ، ليس أحد من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عنه علما ليس أبا الدرداء، فقال سيبويه:

(١) الزينة: أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي ص ١١٧، ص ١١٨، مطبعة دار الكاتب العربي.

(٢) الزينة: ص ١١٦. (٣) الزينة: ص ١١٧.

ليس أبو الدرداء، فقال حماد: لحت يا سيويه ليس أبا الدرداء، فقال سيويه: لاجرم لأطلبن علما لا يلحنتني معه أحد، فطلب النحو، ولزم الخليل^(١).

من أجل ذلك كان النحو هو العلم الذي تمت له السيطرة، على العلوم الإسلامية كلها، فعلماء الفقه والأصول، والتفسير والحديث، والفلسفة والتوحيد لم يستطيعوا أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه في مجال هذه العلوم إلا بعد التبحر في علم النحو، ومعرفة أسرارها، والنظر في مسائله.

لذلك، فإن ابن قتيبة يحدثنا عن خطورة هذا العلم وأثره في غيره من العلوم الإسلامية.

يقول: «وللعرب الإعراب الذي جعله الله وشيا لكلامها، وحلية لنظامها، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين، والمعنيين المختلفين، كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب، ولو أن قاتلا قال: هذا قاتلٌ أخى بالتنوين وقال آخر: هذا قاتلٌ أخى بالاضافة لدل بالتنوين على أنه لم يقتله، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله.

ولو أن قارئنا قرأ: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٢) وترك طريق الابتداء بيان، واعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب أن بالقول، كما ينصبها بالظن لقلب المعنى من جهته، وأزاله عن طريقته، وجعل النبی عليه السلام محزوننا لقولهم: أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وهذا كفر ممن تعمده، وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به، ولا يجوز للمأمومين أن يتجاوزوا فيه^(٣).

بيد أن هذا النحو دخل فيه ما ليس منه، فبعد أن كانت اللغة رواية ونقلًا صارت جدلا ومنطقا، استبدت به السعلة، وتحكم فيه القياس، وتغلب على قضايها المنطق والجدل. وبعد أن كان النحو يطلب من أجل الحفاظ على كيان هذه اللغة أصبح يطلب لذاته، فقد أغرموا بعلمه، وتباهوا بمنطقه، وتباروا في أقيسته، مما جعل بعض النحويين يقول عن الرماني الذي كان يجرى وراء العلل حتى لا تغفل منه، ليبنى عليها حكما، أو يقرر في ضوئها قاعدة: «إن

(١) نزهة الألباء - ابن الأثير ص ٢٨.

(٢) سورة يس - آية ٧٦.

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٢ مصطفى الحلبي.

كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن، فليس معه منه شيء.

وأنا لا أنكر أن القياس في اللغة والنحو له مكانته، وأنه إذا استعمل استعمالاً صحيحاً أئمتنا اللغة وأثرها، ولكنه يجب إزاء هذا القياس أن نحترم السماع، فاللغة رواية ونقل لا منطق وقياس.

ورحم الله أبا علي الفارسي الذي يقول: «إنَّ الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين، وتبعه من هذه القوانين إنما هو ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها، ويستوى من ليس بفصيح، ومن هو فصيح، فإذا ورد السماع بشيء.. عدل عن القياس إلى السماع»^(١).

ومن أجل هذه العلل، وما يتبعها من عوامل اشتعلت ثورة التجديد في النحو العربي على يد ابن مضاء القرطبي، حامل اللواء، وموقد الشعلة.

حركة ابن مضاء القرطبي التجديدية:

ومن حق القارئ أن يتعرف على شخصية قائد هذه الثورة، فأقول في إيجاز: هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعد.. بن مضاء اللخمي، قاضي الجماعة ولد بقرطبة ٥١٣ هـ، قال عنه ابن الزبير: أحد من ختمت به المائة السادسة من أفراد العلماء، وكان له تقدم في علم العربية.

ومن مؤلفاته النحوية: المشرق في النحو، الرد على النحاة، تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان. وروى أن ابن خروف ناقضه في هذا التأليف بكتاب سماه «تنزيه أئمة النحو مما نسب إليهم من الخطأ والسهو»، ولما بلغه ذلك قال: نحن لا نبالي بالأكباش النطاحة، وتعارضنا أبناء الخرفان؟ توفي بأشبيلية ١٧ من جمادى الأولى سنة ٥٧٢ هـ^(٢).

ثورته على النحو العربي:

هذه الثورة أخذت على عاتقها هدم النحو الموروث القائم على العامل، وعلى العلة أو القياس، وعجبت لم انفرد ابن مضاء القرطبي بهذه الثورة العارمة في كتابه «الرد على النحاة»، على النحو، وعلى البصريين والكوفيين، وإجماع النحاة؟

(١) المنصف لابن جني ج ١ ص ٢٧٩ الحلبي.

(٢) بغية الوعاة للسيوطي ص ١٣٩.

أكبر الظن أن التحرر من الأفكار القديمة أو من تراث الماضين كان شعار المفكرين في هذه الفترة من التاريخ.

ففي عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أبرز خلفاء دولة الموحدين «أمر برفض فروع الفقه، وأن الفقهاء لا يفتنون إلا بالكتاب والسنة النبوية، ولا يقلدون أحدا من الائمة المجتهدين المتقدمين بل تكون أحكامهم بما يؤدي اليه اجتهادهم»^(١) وتتلخص ثورة ابن مضاء في إنكار العامل، وما لا شك فيه أن إنكار العامل إنكار للنحو كله، لأن النحو إذا جرد من العامل اختلطت مسائله، واضطربت قواعده.

من حقنا أن نسأل ابن مضاء: كيف نستطيع أن نميز بين الظواهر النحوية المختلفة من رفع، ونصب وجر، وجزم إذا هدمننا العامل؟.

ويجب ابن مضاء عن هذا التساؤل بقوله: «قصدي من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحو عنه، وأنبه على ما أجمعوا الخطأ فيه، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والحذف والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي،

فقالوا في ضرب زيد عمرا: إن الرفع الذي في زيد، والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضرب، وذلك بين الفساد، وفي الحقيقة، ومحصول الحديث أن العمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه، لا شيء غيره»^(٢).

وابن مضاء لم يقف في الرد عند هذا الحد، وإنما حاول أن يضع النقاط على الحروف في قضية العامل فقال: «وربما ظن شخص أن معاني هذه العوامل هي العاملة لألفاظها المدومة. ويرد على ذلك بأن العامل أو الفاعل، إما أن يفعل بإرادة كالإنسان، وإما أن تفعل بالطبع كما تحرق النار، والعامل في النحو ليس فاعلا بالإرادة ولا بالطبع، وإذن فتصور النحاة له بأنه عامل أو فاعل تصور واهم»^(٣).

والباحث منا لا يقف عند ظواهر الأمور ليسجل هذه الثورة من غير أن يتعرف على أسبابها أو العوامل المؤدية إليها، وقد عرفت حقيقة هذه الثورة حينما أطلت بوجهها من بين سطور هذا الكتاب، وذلك أن النحويين حينما يطبقون آقيستهم وعللهم في مجال القرآن الكريم يكثرون التأويلات في آياته، ويعمدون التخريجات والزيادات والمحذوفات، وهذا لا

(١) الرد على النحاة: لابن مضاء ص ٩ تحقيق الدكتور شوقي ضيف.

(٢) الرد على النحاة: لابن مضاء ص ١٨ تحقيق الدكتور شوقي ضيف.

(٣) الرد على النحاة: لابن مضاء ص ١٩ تحقيق الدكتور شوقي ضيف.

يليق فى مجال هذا الكتاب العظيم، يدل على ذلك قوله: «أما بعد، فإنه حملنى على هذا المكتوب قول رسول الله ﷺ: «من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ» وقوله عليه السلام: «من قال فى كتاب الله بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». وقوله عليه السلام: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»^(١). فمن هذه الأحاديث التى ساقها يتبين السر فى ثورته على النحو الموروث.

والحقيقة ان ابن مضاء جانبه التوفيق فى إشعال هذه الثورة، لأنه أراد أن يغلط باب الفكر، ويحول بينه وبين الانطلاق، وبذلك تتعطل هذه القوة الجبارة، ولا تتاح لها أن تؤدى عملها فى التطور العقلى، وبذلك تتجمد الأفكار، وتموت القرائح، وتشل إرادة الإنسان الخلاقة، وذلك كله يتناقض مع الإسلام دين الفكر، ودين العقل، ودين الحرية.

وليس ابن مضاء فى هذه الثورة مبتكراً أو مجدداً، فقد سبقه آخرون بهذه الآراء وما هو إلا تابع مقلد وحاك غير مجدد.

سبقه فى هذا المضمار الأصمعى، عبدالمملك بن قريب كان يحفظ عشرة آلاف أرجوزة من الشعر العربى، ويسميه الرشيد «شيطان الشعر»، وكان راوية نحوياً، ومع ذلك فكان يتحرج من تفسير القرآن الكريم، لأنه يخشى أن يقول فيه بالرأى فيتردى فى الهلاك. ومنهج الأصمعى فى هذا منهج السلفى المحافظ، وهو منهج التزمه أبو بكر الصديق والخليفة عمر، أما أبو بكر فقد روى أنه سئل عن قوله تعالى «وكان الله على كل شىء مقبلاً»^(٢) فقال: أى سماء تظلمنى وأى أرض تقلنى، إن قلت فى كتاب الله ما لا أعلم^(٣).

وأما عمر فقد روى أنه قرأ على المنبر «وفاكهة وأبا»^(٤) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: لعمرك، إن هذا هو التكلف يا عمر^(٥).

ويجانب ذلك كان فريق من الصحابة على رأسهم ابن عباس يرون أن القرآن الكريم عربى، وأن كلام العرب يوضح ألفاظه ويبين معانيه، يدل على ذلك ما رواه طلحة بن عمرو

(١) الرد على النحاة: لابن مضاء ص ٨٤ تحقيق الدكتور شوقى ضيف.

(٢) النساء: آية - ٨٥.

(٣) مقدمتان فى علوم القرآن: ص ١٨٣ تحقيق ارثر جفرى.

(٤) عبس: ٣١.

(٥) مقدمتان فى علوم القرآن: ص ١٨٣.

عن عطاء قال: سمعت ابن عباس إذا سئل عن عربية القرآن أشد الشعر، فقيل له: ما زعيم؟^(١) فقال:

زعيم تداعاه الرجال زيادة

كما زيد في عرض الأديم الأكارع^(٢)

وعن أبي صالح قال: سمعت ابن عباس ينشد للناس هذا البيت في قوله:

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾^(٣).

وما الناس بالناس الذين عهدتهم

وما الدار بالدار التي كنت أعرف^(٤)

فالأصمى إذا سار على هذا النهج، وسلك هذا الدرب، وأعفى نفسه مثونة الرأي في

تفسير كتاب الله.

ومن الطريف أن أبا عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٣ هـ ألف كتابه «مجاز القرآن»

فعبأ عليه الأصمى ذلك، واتهمه بأنه يفسر القرآن بالرأي.

يحدثنا التوزي أن أبا عبيدة لما بلغه ذلك سأل عن مجلس الأصمى في أي يوم هو؟

فركب حماره، ومر بحلقة الأصمى، فنزل عن حماره، وسلم عليه، وجلس عنده وحادثه،

ثم قال له: يا أبا سعيد، ما تقول في الخبز؟ قال: هو الذي تخبزه وتأكله، فقال له أبو عبيدة

فسرت كتاب الله برأيك، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾^(٥) فقال له

الأصمى: هذا شيء بان لي فقلته ولم أفسره، فقال له أبو عبيدة: وهذا الذي تميمه علينا كله

شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا ثم قام فركب حماره وانصرف^(٦).

فموضوع الحذف والتقدير، والزيادة، التي يلجأ إليها النحويون، فيقدرون في كتاب الله أو

(١) من قوله تعالى (عتل بعد ذلك زعيم) من سورة القلم آية ١٣.

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ص ١٩٨.

(٣) إبراهيم: ٤٨.

(٤) مقدمتان في علوم القرآن ص ١٩٩.

(٥) يوسف: ٣٦.

(٦) نزهة الالباء - ٧٣.

يحذفون، أو يزيدون جعله يشتعل ثورة على النحو والنحاة، مستدلاً بما قدمت من أحاديث شريفة وهو موضوع بالغ فيه ابن مضاء مبالغة غير محمودة، فإن كتاب الله جاء وفق ما تتكلم به العرب ليتحدى من أوتوا فن القول، أو وهبوا قوة الاقتدار في مجال الفصاحة والبيان.

وكلام العرب يكثر فيه الحذف، والزيادة، ويلجأ في ميدانه إلى التقدير وقد أثبت في كتابي «القران الكريم وأثره في الدراسات النحوية» الذي نشرته دار المعارف بالقاهرة أثبت فيه كثيراً من هذه الزيادات مثل زيادة الواو في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقِيحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(١)، وزيادة الباء في قوله تعالى ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾^(٢) وزيادة (لا) في قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٣) وأما المحذوفات فعديدة الصور، كحذف الباء، وحذف المبتدأ، وحذف الموصول وإبقاء صلته، وحذف المضاف وإبقاء عمله^(٤).

وهذه المقدرات أو المحذوفات أو الزيادات يرى العلماء أنها ليست من كتاب الله، وليست من اللفظ المنزل على رسول الله ﷺ.

وعلماء التوحيد لهم في هذا المضمار بيان وهو وضع كل شيء موضعه حيث إنهم لم يعتبروا هذا التقدير من كتاب الله، والأمر لا يعدو أن تركيب الأسلوب القرآني ليس غريباً على الأسماع فهو من طبيعة ما يتكلم العرب، بيد أنه في الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة.

لهذا الذي قدمت أستطيع أن أقول: إن ابن مضاء فشل في ثورته ضد النحو والنحاة، وإنه كما يقول الدكتور طه حسين «لم يفكر في الإصلاح بقدر ما فكر في هدم النحو القديم»^(٥) ولا شك أن النحاة القدماء حينما وضعوا لنا هذه القواعد، واستنبطوها من أساليب العرب ومن نهجم في كلامهم قاموا بعمل علمي خطير، وأن هذه العوامل النحوية ليست لها روح وإرادة، أو طاقة وقوة كما تصور ذلك ابن مضاء، ولكنها أمارات ودلائل صناعية استعملها

(١) الزمر: ٧٣. (٢) المائة: ٦.

(٣) الأنعام: ١٥١.

(٤) انظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: عبدالعال سالم ص ٣١٢ ط دار المعارف.

(٥) مجلة المجتمع اللغوي ج ٧ ص ٧٦.

النحاة ليفرقوا بين الأساليب، وبين ظواهر الكلام من رفع، ونصب وجر وجزم، وقد سأل أبو إسحق الزجاج نفسه بعد أن ذكر أن من رفع الفاعل، ونصب المفعول، إنما فعل ذلك للفرق بينهما، فقال: فإن قيل: فهلا عكست الحال، فكانت فرقاً أيضاً، قيل الذى فعلوه أحزم، وذلك أن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد، وقد يكون له مفعولات كثيرة، فرفع الفاعل لقلته، ونصب المفعول لكثرتة، وذلك ليقبل فى كلامهم ما يستثقلون، ويكثر فى كلامهم ما يستخفون^(١).

وقد عرف هذا الجهد العظيم الذى قام به نحاة العرب وقدره ومكانته، وخطورته كثير من المستشرقين أمثال يوهان فك، حيث يقول: «ولقد تكفّلت القواعد التى وضعها النحاة العرب فى جهد لا يعرف الكلل، وتضحية جديدة بعرض اللغة الفصحى، وتصويرها فى جميع مظاهرها، من ناحية الأصوات، والصيغ وتركيب الجمل، ومعانى المفردات على صورة محيطية شاملة حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد»^(٢).

ويبدو أن ابن مضاء كان يقدر لشورته الفشل، لأنه هدم ولم يبن، وخرّب ولم يعمّر، وأفسد ولم يصلح، يدل على ذلك قوله: ولعل قائلاً يقول: أيها الأندلسى السرور بالإجراء بالخلاء^(٣).. أتزرى بنحوى العراق وفضل العراق على الآفاق كفضل الشمس فى الإشراف على الهلال فى المحاق، وأنتك أخمل من بقعة فى شقة، وأخفى من تينة فى لبنة، ولا تعرف الزائف من الخالص: فليس هذا بعشك فادرجى^(٤).

خل الطريق لمن يبنى المنار به

وابرز ببرزة حيث اضطررك القدر^(٥)

(١) الخصائص لابن جنى ج١ ص ٤٩ ط دار الكتب.

(٢) العربية: يوهان فك ص ٢ تحقيق المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار.

(٣) من مثل قديم: كل مجر فى الخلاء يسر. انظر كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام/ ١٣٦.

(٤) مثل يضرب لمن يرفع فوق قدره.

(٥) البيت لجرير وبرزة أم عمرو بن لجأ أحد خصوم جرير الذين هجاهم.

حركة إبراهيم مصطفى التجديدية:

ومن الحركات التجديديه فى العصر الحديث حركة أستاذنا المرحوم إبراهيم مصطفى فى كتابه «إحياء النحو» لأنه دعوة إلى ربط النحو بالبلاغة، ودعوة أخرى إلى عدم الاهتمام بهذه العوامل اللفظية التى أكثر منها النحاة. أما دعوته إلى ربط النحو بالبلاغة، فإنه يعيب على النحويين قصر بحثهم على أواخر الكلم، وبذلك ضيقوا دائرة النحو، وحرمونا من الاطلاع على كثير من أسرار العربية وأساليبها^(١).

وشيد بأبى عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه مجاز القرآن حيث يحاول أن يبين ما فى الجملة العربية من تقديم أو تأخير أو حذف. وكان باباً من النحو جديراً أن يفتح.. إلى أن يقول.. ولكن النحاة والناس من ورائهم كانوا قد شغلوا بسبويه ونحوه، حتى كان الإمام عثمان المازنى المتوفى سنة ٢٤٧هـ يقول: «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى»^(٢).

وتلا أبا عبيدة فى مجال ربط النحو بالبلاغة الإمام عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه «دلائل الإعجاز» يقول أستاذنا رحمه الله بصدد كتاب دلائل الإعجاز: «وقد رسم فى كتابه دلائل الإعجاز طريقاً جديداً للبحث النحوى تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب، ومن أن للكلام نظاماً، وأن رعاية هذا النظم هى السبيل إلى الإبانة والإفهام.. ثم بين أنه ليس شىء من هذا النظم إلا وبيانه إلى علم النحو»^(٣).

وأما دعوته الأخرى التى تتمثل فى عدم الاهتمام بهذه العوامل أو العلل قوله بصدد نقده للعامل: «أكب النحاة على درس الإعراب وقواعده فوق ألف عام، وأساس كل بحثهم فيه أن الإعراب أثر بجلبه العامل، فكل حركة من حركاته، وكل علامة من علاماته إنما نجيء تبعاً لعامل فى الجملة، إن لم يكن مذكوراً ملفوظاً فهو ملحوظ، ويظيلون فى شرح العامل وشرطه، ووجه عمله حتى تكاد تكون نظرية العامل عندهم هى النحو كله»^(٤).

ويبين فى موضع آخر أن النحاة تأثروا بالفلسفة السائدة فى عصرهم، فقالوا: عرض حادث لا بد له من محدث، وأثر لا يد له من مؤثر.. وطلبوا لهذا الأثر عاملاً مقتضياً، وعلّة موجبة، وبحثوا عنها فى الكلام، فعدّدوا هذه العوامل، ورسموا قوانينها^(٥).

(٣) إحياء النحو ص ١٦.

(٢) إحياء النحو ص ١١.

(١) إحياء النحو ص ٨.

(٥) إحياء النحو ص ٣١.

(٤) إحياء النحو ص ٢٢.

وفى رأى أستاذنا الفاضل أن علامات الإعراب دوال على معان، وأن هذه الحركات علينا أن نبحث فى ثنايا الكلام عما تشير اليه كل علامة منها، وعلينا أن نعلم أن هذه الحركات تختلف باختلاف موضع الكلمة من الجملة، وصلتها بما معها من الكلمات... ثم أخذ بفصل هذه العلامات علامة علامة ويناقشها فى أبواب النحو باباً (١).

ولا يتسع المجال هنا للرد على أستاذنا فى أن النحويين لفظيون، لا يهتمون بالمعنى، ولا يحسون بجمال نظم الكلام، فإن سيويه فى كتابه استطاع أن يطرق هذه الأبواب التى طرقتها عبد القاهر من بعده، فى الحذف والتقديم والتأخير النخ، وأحب أن اسجل هنا أن عبد القاهر فى دلائله، انتفع بسيويه فى كتابه.

وأما إهمال العامل، والبعد عن العلة، فإن النحويين القدماء كانوا يرون أن العوامل ما هى إلا أمارات تكون بعدم شىء، كما تكون بوجود شىء، فإذا صبغت أحد الثوبين وتركت صبغ الآخر لكان الثوب الذى ترك صبغه فى التمييز بمنزلة الثوب المصبوغ، والعرب كانت تتكلم على سجيته ودور النحاة هو جمع النصوص والنظر فى تراكيبها، واستقراء أساليبها، فمرفوا بهذا الاستقراء أن الفاعل يكون مرفوعاً والمفعول يكون منصوباً النخ. وبموجبى فى هذا المقام ما رد به الخليل بن أحمد على سائله حينما سأله قائلاً له:

«أعن العرب أخذت هذه التعليقات أم اخترعتها من نفسك؟ فقال الخليل: إن العرب نطقت على سجيته وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقامت فى عقولها علة، وإن لم ينقل ذلك عنها، وعللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته، فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمس، وإن تكن هناك علة غير ما ذكرت، فالذى ذكرته محتمل أن يكون علة، ومثلى فى ذلك مثل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجبية النظم، والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيتها بالخبر الصادق، والبراهين الواضحة، فكلما وقف هذا الرجل الداخلى الدار على شىء منها، قال: إنما فعل هذا هكذا لعلته هى كذا، سنحت له وخطرت، فجاثر أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك للعلته التى ذكرها هذا الذى دخل الدار، وجاثر أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة، ثم قال، فإن صحت لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها» (٢).

(١) إحياء النحو ص ٤٩.

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، مجلد ٣٤ ج ٢ ص ٣٧٦.

ربط القرآن بالنحو:

هذه الحركات التجديدية قديما وحديثا أغفلت جانبا مهما فى دراساتها وهو ربط القرآن الكريم بالنحو لاستخراج القواعد منه، فكان لى شرف عظيم، وفقنى الله تعالى إليه أن أقضى سنوات متعدّدة فى دراسة هذا الموضوع حتى كمل فى كتاب عنوانه «القران الكريم وأثره فى الدراسات النحوية» وقد نشرته دار المعارف بالقاهرة.

ولا ادعىّ بأننى مجدد فى هذا الربط، أو صاحب دعوة جديدة تضاف إلى هذه الدعوات السابقة ولكن الذى أستطيع أن أقوله، ولم يقله أحد من قبلى فيما أعلم، أن للقرآن الكريم نحواً له أصوله، ويحتاج هذا النحو إلى علماء متخصصين يعيشون فى كتب معانى القران، وغريبه وإعرابه، وكتب التفسير لإخراج هذا النحو، واستنباط قواعده سواء وافقت قواعد النحو الموروث أو اختلفت، وبذلك نكون ربطنا قواعداً بذلك النص الأدبى العظيم، لأن القرآن الكريم الصورة العليا للغة العرب فى أوج مجدها، وسمو بيانها.

وما لى أذهب بعيداً، وقد كان نقاد الأدب يصححون الشعر على هدى من أسلوب القرآن الكريم، لأنه النموذج الذى يحتذى، والمثال الذى يحاكى.

يحدثنا أبو عبيد الله بن عبدالعزيز البكرى المتوفى سنة ٤٨٧هـ أن أبا على القالى رحمه الله أنشد للفرزدق:

فقلت ادعى وادع إن أندى

لصوت أن ينادى داعيان

وهذا البيت ليس للفرزدق، والصحيح أنه لدثار بن شيبان، وقوله: وادع على توهم اللام، ولو أظهرها كان خيراً كما قال الله سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ (١).

ويروى صاحب الطراز أن ذا الرمة فى تصيدته الحائية قال:

إذا غير النأى المحبين لم يكد

رسيس الهوى من حب مية يبرح

فناده ابن شيرمة: أراه الآن قد برح، فأخذ يفكر ثم قال:

(١) العنكبوت ١٢ وانظر: (التنبيه على أوام أبي على فى أماليه للبكرى ص ١٠٠).

إذا غير النأى المحبين لم أجد

رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال عنسة فحكيت لأبى القصة، فقال: أخطأ ابن شبرمة، حين أنكروا على ذى الرمة وأخطأ ذى الرمة حيث غير شعره لقول ابن شبرمة، إنما هذا كقول الله تعالى ﴿ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾^(١) والمعنى أنه لم يرها ولم يقارب رؤيتها^(٢).

ويروى ابن جنى فى الخصائص. أن رجلا من أهل المدينة أنشد أبا عمرو قول ابن قيس الرقيات.

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعنى وقرعن مرّوتيه

فانتهزه أبو عمرو، فقال: ما لنا ولهذا الشعر الرخو، إن هذه الهاء لم توجد فى شيء من الكلام إلا أرخته، فقال له المدينى، قاتلك الله، ما أجهلك بكلام العرب، قال الله عزوجل فى كتابه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ﴾^(٣) وقال: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَهٗ وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِيَهٗ﴾^(٤) فانكسر أبو عمرو انكسارا شديدا^(٥).

لهذا الذى قدمت يجب أن يكون القرآن الكريم هو المصدر الأول لقواعد اللغة، وبناء الأساليب، وتكوين الجمل.



(١) النور: ٤٠.

(٢) الطراز ج ٢ ص ١٩٩ بتصرف.

(٣) الحاقة ٢٨، ٢٩.

(٤) الحاقة ٢٥، ٢٦.

(٥) الخصائص ج ٢ ص ٢٩٣.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- إحياء النحو - المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٢- بغية الوعاة - جلال الدين السيوطي - مطبعة السعادة، طبعة أولى.
- ٣- البيان والتبيين - الجاحظ، تحقيق المرحوم الأستاذ عبدالسلام هارون - طبعة ثانية مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٤- تاريخ أداب العرب - الرافعي - طبعة ثانية ١٩٤٠.
- ٥- تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - تحقيق السيد أحمد صقر - طبع دار إحياء الكتب العربية.
- ٦- التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه - البكري - طبعة أولى - طبع دار الكتب العربية.
- ٧- الخصائص - ابن جنى - طبع دار الكتب.
- ٨- الرد على السحابة - لابن مضاء القرطبي - تحقيق الدكتور شوقي ضيف - طبع دار الفكر العربي.
- ٩- الزينة في الكلمات الإسلامية والعربية لأبي حاتم الرازي - طبع دار الكتاب العربي.
- ١٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة - مطبعة المعاهد - طبعة ثانية.
- ١١- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي تحقيق الأستاذ محمد أبي الفصل سنة ١٩٥٤م.
- ١٢- الطراز - يحيى بن حمزة العلوي - مطبعة المقتطف بمصر ١٩٢٤م.
- ١٣- العربية - يوهان فك ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار - مطبعة دار الكتاب العربي.
- ١٤- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية - دكتور/ عبدالعال سالم مكرم، عدة طبعات - دار المعارف بالقاهرة - مؤسسة الصباح - الكويت - مكتبة التراث بالأزهر.
- ١٥- الكشاف للزمخشري - مطبعة الاستقامة
- ١٦- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - علاء الدين علي الهندي - دائرة المعارف النظامية.

- ١٧- مجلة البيان الكويتية.
- ١٨- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.
- ١٩- مجلة المجمع اللغوي - بمصر.
- ٢٠- محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية أمين الخولي - مطبعة معهد الدراسات العربية.
- ٢١- مقدمتان في علوم القرآن - مطبعة السنة المحمدية.
- ٢٢- المنصف: ابن جنى - مطبعة الحلبي.
- ٢٣- نزهة الألباء - الأنباري طبعة ١٢٩٤.
- ٢٤- نكف الهميمان = صلاح الصفدي طبع ١٩١٠ بمصر.



٩. ابن برى المصرى (*)

من أعلام النحو واللغة فى مصر

كان ابن برى يعيش فى مصر فى ظل دولة بنى أيوب. وقد ورث بنو أيوب من الفاطميين الذين سبقوهم حبهم للمعرفة، وتنافسهم فى طلب العلم. والحياة فى مجال البحث والدراسة.

وكان النحو فى مقدمة العلوم التى اهتم بها ملوك بنى أيوب، لما له من فضل كبير فى تقويم الألسنة، وفهم القرآن، ومعرفة أسرار السنة، فضلا عن أنهم أكراد، واللحن فى ألسنتهم سليقة وطبيعة، فرأوا أنهم أحوج إلى تعلم النحو واللغة ممن سبقهم من الفاطميين ليكونوا قريبين من الشعب العربى الذى يخضع لحكمهم.

وقد بلغ بالملك العزيز أن يتقل لطلب العلم بين الإسكندرية والقاهرة، ولا يجد حرجا فى أن يجلس مجلس التلميذ أمام معلميه.

وكما أخذ هذا الملك الحديث فى الاسكندرية عن الحافظ السلفى والفقه عن أبى طاهر ابن عوف الزهرى أخذ النحو بمصر عن العلامة ابن برى النحو^(١).

أما الملك الكامل، فإنه اشتهر بعلم النحو. وله فيه آراء وبحوث مما جعل العلامة ابن برى يمنحه إجازة فى هذا الفن^(٢).

يقول صاحب النجوم الزاهرة «وكان عنده مسائل غريبة من الفقه والنحو يوردها فمن أجابه حظى عنده»^(٣).

على أن هذه المنزلة التى وصل إليها الكامل فى علم النحو لم تصل إلى الدرجة الكبيرة التى وصل إليها أخوه الملك المعظم عيسى ملك الشام فى هذا المضمار، فقد قرأ المعظم عيسى كتاب سيويه على التاج الكندى، وألم بشرحه الكبير للسيرافى، وكتاب سيويه مدرسة قائمة

(*) نشرت فى مجلة الأزهر فى سبتمبر ١٩٦٨.

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٧.

بذاتها، فكل من فهم هذا الكتاب، وركب البحر، ووقف على أسراره، وغاص إلى درره كان حرياً به أن يتصدر في النحو، وأن يكون علماً من أعلامه.

ولم يقف أمر المعظم عند هذا الحد، بل إنه نبغ في القراءات، والقراءات والنحو متلازمان فقرأ كتاب الحجة لأبي على الفارسي على شيخه تاج الدين الكندي. وقرأ أيضاً عليه كتاب «الإيضاح» لأبي على الفارسي حفظاً^(١).

في هذه الحياة الفكرية المتوثبة، وفي هذه البيئة العلمية الناهضة في مصر والشام عاش ابن برى يتأثر بما يحيط به من شتى ألوان المعرفة، ويؤثر في بيئته بما وصل إليه من نبوغ في الدراسات النحوية واللغوية.

وابن برى شخصية لم تظهر بعد بالدراسة والبحث، فحتى هذه اللحظة - على الرغم من تعدد البحوث في اللغة والنحو والتراجم - لم أجد باحثاً تناول هذه الشخصية الفذة بالبحث والدراسة.

ولعل في هذه الخطوط العريضة التي أرسمها لشخصية هذا الرجل ما ينير الطريق إلى علمه، ويهدي الباحث إلى فضله.

١ - نسبه:

هو عبدالله بن برى بن عبدالجبار، أبو محمد المصري النحوي، اللغوي، وأصل أجداده من «القدس». واتفق المؤرخون على تاريخ ولادته في سنة ٤٩٩هـ. واتفقوا أيضاً على تاريخ وفاته فذكروا أنه توفي في شوال ٥٨٢هـ.

٢ - ثناء العلماء عليه:

قال عنه أبو المحاسن في «نجومه»: «كان بارعاً في علم النحو والعربية، وكان حجة ثقة وقد تحدث عنه القاضي الأكرم في «أخبار النحاة» فقال عنه: «لقد شاع ذكره واشتهر أمره، ولم يكن في الديار المصرية مثله^(٥)».

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٧.

(٢) إنباه الرواة ج ٢ ص ١١٠ القفطي.

(٣) حسن المحاضرة (السيوطي) ج ١ ص ٢٢٨.

(٤) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٠٣.

(٥) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٥٦.

٣ - مصادر دراسته: -

قرأ ابن برّي العربية على مشايخ عصره من المصريين أو القادمين على مصر، فنبغ نبوغاً كبيراً واستطاع أن ينفرد بالنحو واللغة في عهده^(١).

ولعل نبوغ ابن برّي في النحو يرجع إلى أنه قرأ كتاب سيويه، وفهم علله، فضلاً عن «دراسة الكتب النحوية التي شاعت في عصره دراسة مستفيضة مكنته من أن يكون إمام هذا الفن، مما جعل الخلفاء يستعينون به في ديوان الإنشاء، فكان إليه التصفح في هذا الديوان «فلا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه، ويصلح ما فيه من خلل خفي»^(٢).

٤ - شيوخه: -

من شيوخه الذين كان لهم أثر كبير في تكوينه النحوي أبو طالب عبد الجبار بن محمد المعافري المغربي، كان إماماً مجتهداً في اللغة والأدب واشتغل عليه ببغداد خلق كثير، وانتفعوا به، ولما عرف أن في مصر دولة تشجع العلم وتكافئ عليه وتقدر النحو وتهب الجوائز للناخبين فيه أقبل إليها ودخلها في سنة ٥٥١ هـ وقد تتلمذ عليه فيها أبو محمد عبدالله بن برّي^(٣).

ولابن برّي شيخ آخر، تلقى عليه علم العربية. وهو محمد بن عبد الملك الشتريني أحد أئمة العربية، والمبرزين فيها، وقد قرأ عليه ابن برّي، وله من المؤلفات النحوية كتاب «تلقيح الإعراب في عوامل الإعراب»^(٤).

٥ - تلاميذه: -

ولهذه المكانة التي وصل إليها ابن برّي قصده الطلبة من كل مكان ليأخذوا عنه علوم النحو واللغة.

وقد انتفع بعمله عدد كثير من هؤلاء التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد أعلاماً في هذا الفن ونجوماً في سمائه.

(١) إنباه الرواة ج ٢ ص ١١٠.

(٢) الإنباه ج ٢ ص ١١٠.

(٣) وفيات الأعيان (ابن خلكان) ج ٢ ص ٣٨٤.

(٤) بغية الوعاة (السيوطي ص ٦٨).

قال صاحب الإنباه: إنه رئى جماعة من تلاميذه متصدرين متميزين^(١).

وقد كان ابن برى يعرف لجامع عمرو قدره، وأنه المدرسة الأولى التى أضاءت لمن حولها منذ الفتح الإسلامى، فاختره ليكون مقر دراسته لهذا الفن، فكان التلاميذ يردون إليه ويشربون من رحيق علمه (لأنه كان متصدراً بهذا المسجد)^(٢).

وقد انضم إلى حلقة ابن برى فى مسجد عمرو ملوك مصر وأمرأؤها، وقد قدمت سابقاً أن الملك الكامل كان تلميذاً لابن برى، وأنه تلقى عليه علم النحو واللغة، ونبغ فيهما وأجازه ابن برى لنبوغه^(٣).

وقد سمع الملك العزيز بمصر النحو من العلامة أبى محمد بن برى النحوى^(٤).

ومن أشهر تلاميذ ابن برى الذين كان لهم أثر مشكور فى علم النحو، وجهد مذكور فى علم اللغة والقراءات، أبو موسى الجزولى.

وكان أبو موسى إماماً فى النحو، ملما بدقائقه دخل الديار المصرية، وقرأ على الشيخ أبى محمد ابن برى، ويظهر كما يحدثنا الرواة أنه قرأ عليه كتاب (الجمل للزجاجى)^(٥) وكتاب الجمل فى نظر علماء مصر لا يقل أهمية عن كتاب سيويه، فطالما اشتغل علماؤهم به شرحاً ودرساً، وتعليقاً، وقد قالوا عنه: إنه من الكتب المباركة لم يشتغل به أحد إلا انتفع به، ويقال: إنه ألف بمكة المكرمة. وكان إذا فرغ مؤلفه من باب طاف أسبوعاً ودعا الله سبحانه أن يفر له، وأن ينفع به قارئه^(٦) وشهرة الجزولى فى النحو ترجع إلى كتابه (المقدمة) الذى سماه (القانون) واشتهر فيما بعد (بالجزولية).

وقد أتى فى هذه المقدمة بالمعجائب، وهى فى غاية الإيجاز مع الاشتمال على كثير من النحو، ولم يسبق إلى مثلها، وقد بلغ بالنحاة الذين لم يكونوا قد أخذوها عن موقف يمتنون بقصور أفهامهم عن إدراك المراد منها فإنها كلها رموز وإشارات.^(٧) ويظهر أن هذه المقدمة

(١) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٥٦.

(٢) النجوم ج ٦ ص ٢٢٨.

(٣) النجوم ج ٦ ص ١٢٧.

(٤) الإنباه ج ٢ ص ١١٠.

(٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٠ طبع بولاق.

(٦) كشف الظنون ج ١ نهر ٦٠٣.

(٧) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٠.

إجابات نحوية لابن بري عن كثير من المشكلات النحوية التي كان التلاميذ يوجهونها إلى أستاذهم، وهو يقرأ لهم الكتاب لسيويه «وقد نتجت من هذه المناقشات فوائد جمة فنقلها الجزولي مفردة فجاءت كالمقدمة، فيها كلام غامض وعقود لطيفة، وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة، فنقلها الناس عنه، واستفادوها منه»^(١).

ولشهرة هذه المقدمة، وتسبق العلماء على شرحها، وفهم أسرارها وحل غامضها، اشتهر بها الجزولي فسميت بالجزولية.

ومع هذه الشهرة فإن الجزولي كان متديناً ورعاً، فكان إذا سئل عنها: هل هي من صنعك، ومن تأليفك؟ قال: لا، لأنه كان يعلم أنها من: «خواطر الجماعة عند البحث ومن كلام شيخه ابن بري»^(٢)، فلم يشأ أن ينسبها إلى نفسه، وإن كان له فيها فضل الترتيب والتنسيق.

على أية حال كانت، فإن أثر ابن بري في تلميذه الجزولي أثر كبير، دعاه إلى أن يسجل عنه كل ما له من آراء. ولما عاد إلى المغرب اشتهرت مقدمته هناك، وتسبق الطلاب على درسها وفهمها. وأخذ النحو عنها، وأقام بمدينة «بجاية» زمناً طويلاً، والناس يشتغلون عليه، لأنه كان متصدراً في الجامع للإقراء، ولدراسة النحو ويبدو أنه كان يدرس مقدمته، ويشرحها لتلاميذه، فقد ذكر ابن خلكان أنه تصدر في الجامع للإقراء، وأنه شرح مقدمته في مجلد كبير أتى فيه بغرائب وفوائد^(٣) وإن كان الجزولي أشهر تلاميذ ابن بري، فإن لابن بري تلميذاً آخر غطت شهرته على الجزولي لبراعته في النحو، ولكثرة تأليفه فيه، إنه صاحب الألفية المشهورة التي سجلها ابن مالك في مقدمة ألفيته حيث قال:

وهو بسبق حائز تفضيلاً

مستوجب ثنائى الجميلاً

والله يقضى بهيات وافرهِ

لى وله فى درجات الآخِرهِ

ذلك هو العلامة (يحيى بن معط) وإن لم يتلمذ على ابن بري إلا أنه أخذ عن تلميذه

(١) المصدر السابق.

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق.

الجزولي، وكانت روح ابن برى العلمية فى الجزولى ظاهرة واضحة، بل إن المقدمة التى اشتهر بها هى من وحى أستاذه ابن برى.

وإذا كان يحيى بن مُعَظ قد درس هذه المقدمة على أستاذه الجزولى فمن غير شك أقرر أنه أخذ عن ابن برى من طريق غير مباشر.

٦ - كتبه ومؤلفاته:

أما كتب ابن برى ومؤلفاته، فقد تحدث عنها صاحب الإنباه فقال: «وكانت كتبه فى غاية من الصحة والجودة، وإذا حشاها أتى بكل فائدة»^(١).

ويمكن لنا أن نفسر جودة كتبه ودقتها، بأن حبه للتخصص، وولمه بالتعمق فى بحوثه جعلت كتبه فى غاية من الدقة، كاملة فى الجودة ولهذا السبب لم تكثر تصانيفه لأن كثرة التصانيف قد تبعد عن الجودة.

لهذا فإن صاحب الإنباه يقرر: «أنه كان قليل التصنيف لم يشتهر له سوى مقلمة سماها «اللباب»، وجواب المسائل العشر، وحاشيته على كتاب الصحاح»^(٢).

٧ - أخلاقه:

ينسب إليه بعض المؤرخين أنه كان مع علمه وغبارة عقله ذا غفلة^(٣).

وقال عنه ابن العماد: «كان يلبس الثياب الفاخرة، ويأخذ فى كمة العنب والبيض فيسقط على رجله ماء العنب، فيرفع رأسه ويقول: العجب إنما تمطر مع الصحو»^(٤).

وفى نظرى، إن هذه فرية نسبت إلى الرجل من غير وجه حق، لأن ذكاءه، وغبارة عقله ويقظة فكره التى شهد له بها المؤرخون تحول بينه وبين الوقوع فى هذا السخف، وكيف يجوز فى المنطق، ويثبت فى العقل أن رجلا يثق فيه خلفاء الدولتين فيتولى ديوان الإنشاء للمراقبة النحوية فى عهد الفاطميين، ويجلس ملوك بنى أبوب فى حلقتة كما يجلس التلاميذ، ثم

(١) الإنباه ج ٢ ص ١١١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٥٦.

(٤) شذرات الذهب لابن العماد ج ٢ ص ٢٧٣.

تصدر منه هذه الأعمال الصبيانية التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على تفاهة العقل، وبلادة الحس والإدراك.

وقد تنبه إلى هذه الفرية صاحب «الإنباه» فنفاها عنه وأنصف الرجل وأعطاه حقه من الإجلال، حينما قال: «ويحكى عنه حكايات في التغفل أجله عنها وعن ذكر شيء منها».

ولا أدل على مكانة الرجل بين قومه أنه لما حضرته الوفاة، وعرضت كتبه للبيع حضرها الجرم الغفير من الإجلال بمصر في ذي القعدة سنة ٥٨٢هـ.

ومن غير شك أن تهافت هذا الجرم الغفير على كتبه دليل ملموس على قيمة هذه الكتب التي تضمها مكتبته، ومنزلة هذا الرجل في نفوس مواطنيه، لأن حفظ آثاره، والتنافس على اقتنائها دليل الحب والتقدير.



مصادر البحث

- ١- إنباه الرواة للفقطى - تحقيق - تحقيق الأستاذ أبى الفضل - مطبعة دار الكتب.
- ٢- بغية الوعاة للسيوطى - مطبعة السعادة - طبعة أولى.
- ٣- حسن المحاضرة للسيوطى - المطبعة الشرفية.
- ٤- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى طبع ٩٣٥هـ.
- ٥- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون - لحاجي خليفة - طبع وكالة المعارف باستنبول.
- ٦- مجلة الأزهر.
- ٧- معجم الأدباء - ياقوت الحموى - مطبعة الحلبي.
- ٨- النجوم الزاهرة - ابن تغري بردي - مطبعة دار الكتب - طبعة أولى.
- ٩- وفيات الأعيان لابن خلكان طبع ١٣١٠هـ.



١٠. ابن مالك الأندلسي (*)

سبويه زمانه فى الدراسات النحوية

اتفق المؤرخون على أن محمد بن عبدالله بن مالك الطائى الأندلسى، ولد بمدينة «جيان» وهى تبعد سبعة عشر فرسخاً عن «قرطبة» بالأندلس.

وشذ عن إجماع المؤرخين المستشرق «بروكلمان» الذى يقرر أنه ولد فى غير مدينة «جيان» ولست أدرى المصدر التاريخى الذى اعتمد عليه فى هذا القول اللهم إلا كتاب «معجم المطبوعات» لسركيس الذى يبين فيه أن ابن مالك ولد بدمشق، وسمع بدمشق. ويبدو أنه قد خانه التوفيق فى هذا بدليل تقريره فى نفس الترجمة أنه نزيل دمشق، وهذا يتنافى مع ولادته فى دمشق.

وقد اختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها ابن مالك، وذلك لأن الدقة فى الموالي لم تكن متوفرة فى هذه المهود وبخاصة فى الأسر المتوسطة أو الفقيرة التى لا تهتم بهذه الأمور فإن العالم يترك لحظه وعمله فى الحياة، فإن علا شأنه، وسطع نجمه ونبع فى العلم والأدب سارع المؤرخون إلى تنبغ آثاره، ورصد أفكاره، فإذا مات سجلوا تاريخ موته تسجيلاً مضبوطاً فى الكثير الغالب، لا يكتفون فيه بسنة الوفاة، ولا بالشهر الذى توفى فيه، وإنما يقيدون ذلك باليوم واللييلة، لهذا لا نرى اختلافاً كبيراً فى تاريخ الوفاة على حين يكتر هذا الاختلاف فى تاريخ الميلاد.

والذى يعنيننا من ميلاد ابن مالك أنه كان فى نهاية القرن السادس الهجرى، أو مفتتح القرن السابع، وقد شاء الله أن يكون ابن مالك نجم هذا القرن فى الدراسات النحوية.

هجرته إلى الشرق

إن كثرة الفتن التى ظهرت على مسرح الأندلس بين ملوك المسلمين بعضهم مع بعض، من ناحية، وبين هؤلاء وبين النصارى الذين يحتنون إلى إعادة بلادهم صليبية كما كانت من

(١) نشر فى مجلة العربى التى تصدر فى الكويت - سبتمبر ١٩٧٢م.

ناحية أخرى. كل ذلك جعل الحياة فى الأندلس لا تطاق، فلا غرو إذا أن يرحل علماء هذه البلاد عنها، لأن حياة العلم لا تشرق إلا فى ظلال الأمن والطمأنينة. وقد كان هؤلاء العلماء الذين هاجروا من بلاد الأندلس وبخاصة إلى مصر والشام كثيرين جداً.

ومن هؤلاء العلماء الذين هاجروا إلى المشرق «ابن مالك».

متى هاجر؟

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو: فى أى سنة هاجر ابن مالك إلى الشام؟ إن كتب التاريخ التى وقعت فى يدي، لم تحدثنا عن الوقت الذى هاجر فيه ولا السنة التى رحل فيها إلى الشام.

وكل الذى يمكن أن أقوله هنا: إن ابن مالك هاجر إلى الشام فى ريعان شبابه، لأن كتب التراجم والتاريخ تقرر أن من شيوخه فى دمشق أبا المفضل نجم الدين مكرم بن محمد القرشى، وأبا صادق الحسن بن صباح، وقد توفى أبو الفضل سنة ٦٣٥ هـ وتوفى أبو صادق سنة ٦٣٢ هـ^(١)، ومعنى ذلك أن ابن مالك المولود فى نهاية القرن السادس أو فى مفتتح القرن السابع - على اختلاف فى الروايات - قد هاجر إلى الشام وأخذ من هذين الشيخين وهو فى نهاية العقد الثالث من عمره، فهو لم يهاجر شيخاً كبيراً أو حدثاً صغيراً إلى المشرق، إنما هاجر، وقد بلغ أشده.

ثقافته

وأترك المجال للإمام ابن العماد ليبين لنا قدر الرجل من النواحي الثقافية والعلمية. قال: «صرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وحاز قصب السبق، وأربى على المتقدمين، وكان إماماً فى القراءات وعللها. وأما اللغة فكان إليه المنتهى فى الإكثار من نقل غريبها. وأما النحو والتصريف فكان فيه بحراً لا يجارى، وحبوراً لا يبارى. وأما أشعار العرب التى يستشهد بها على اللغة والنحو، فكان الأئمة الأعلام يتحIRON منه، ويتعجبون من أين يأتى بها، وكان ينظم الشعر سهلاً عليه»^(٢) وقال الصفدى: «أخبرنا أبو الثناء محمود قال: ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهرى فى اللغة. قال الصفدى: وهذا أمر معجز لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما فى الكتابين»^(٣).

(١) شذرات الذهب ١٧٤/٥ طبع ١٣٥١.

(٢) المصدر السابق ٣٣٩/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٦٠/٧ مطبوعات دار المأمون.

فرواية ابن العماد والصفدى عن ثقافة ابن مالك ونبوغه تدل فى وضوح على شخصية ابن مالك العلمية، وأنه أحاط بجميع العلوم، ولا عجب فى ذلك.

وهذا صاحب نفع الطيب يقول عنه: «كان رحمه الله كثير المطالعة، سريع المراجعة لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه فى محله، وهذه حالة المشايخ الثقات، ولا يرى إلا وهو يصلى، أو يتلو، أو يصنف أو يقرئ».

وحكى أنه توجه يوماً مع أصحابه للفرجة بدمشق فلما بلغوا الموضع الذى أرادوا غفلوا عنه سوية فطلبوه فلم يجدوه، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبا على أوراق.

وأغرب من هذا أنه حفظ يوم موته عدة أبيات، وهذا مما يصدق ما قيل، بقدر ما تتعنى تنال ما تمنى^(١).

حاله المادية والاجتماعية

كان ابن مالك يعيش فى مهاجرة غريباً، لا أهل ولا مال، ولا جاه ولا سلطان، فلم يحدثنا التاريخ أنه كان له صناعة يتعيش منها، ويغلب على ظنى أنه حينما وفد إلى دمشق انتظم فى سلك طلبة العلم بها، وكان يعيش على الأوقاف المرصودة، لطلبة العلم، ولعله هاجر وحيداً لم تكن له زوجة، فلما أحس أنه أصبح علماً فى العلم، وناطقة فى النحو رأى أن يتقلد منصباً علمياً يدرّ عليه الرزق، ويغنيه عن الحاجة، ولما وصل إلى غرضه أنشأ له عشا، وكون له بيتاً، وتزوج من هناك، وأنجب ابنه الإمام بدر الدين، وقد بحثت فى التراجم عن ميلاد هذا الابن فلم أجد تاريخاً يدل عليه، وكل الذين ترجموا له ذكروا تاريخ وفاته سنة ٦٨٦ هـ.

وقد ذكر السبكى فى طبقات الشافعية أنه توفى كهلاً شاباً^(٢)، ومعنى ذلك أنه ولد فى حدود سنة ٦٤٠ هـ تقريباً.

والذى يدل على أن ابن مالك كان يعيش فى مفتح حياته العلمية فى شظف العيش، وقلة المال أنه رفع لصاحب دمشق - أو بعارة أدق - للظاهر «بيبرس» كتاباً يبين فيه مكانته العلمية، وأنه فى حاجة إلى صدقة تكفيه همّ عياله وتغنيه عن تشتت باله:

ومن هذا الكتاب أنقل هذه العبارات التالية كما نقلها السيوطى من خط شيخه الإمام تقي الدين الشّمْنى: قال: «الفقيه إلى رحمة ربه محمد بن مالك يقبل الأرض، وينهى إلى

(١) نفع الطيب ٧/٢٨٢-٢٨٣ مطبوعات دار المأمون.

(٢) طبقات الشافعية ٥/٤١.

السلطان أيّد الله جنوده، وأيّد سعوده أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات، والنحو، واللغة، وفنون الأدب، وأمله أن يعينه نفوذ من سيد السلاطين، ومبيد الشياطين، خلد الله ملكه، وجعل المشارق والمغرب ملكه - .. بصدقة تكفيه همّ عياله، وتغنيه عن التسبب في صلاح حاله، فقد كان في الدولة الناصرية عناية متيسر بها الكفاية..

وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية خصوصا وعموما، وكشف بها عن الناس أجمعين غمومًا، ولمّ بها من شعث الدين ما لم يكن ملموما^(١).. إلخ».

وقد استجاب السلطان لكتابه، فعين في عدة وظائف، ففي «حلب» كان متصدرا لتعليم العربية، وكان إمام المدرسة السلطانية، وفي «حماة» تصدر مدّة، وفي «دمشق» ولي مشيخة «العادلية الكبرى» التي من شرطها أن يكون شيخها نابغا في القراءات والعربية^(٢).

وهذه الوظائف التي وليها ابن مالك كانت تدر عليه رزقا يكفيه هم الحياة، وتعيّنه على الإنتاج والتأليف، ونشر العلم، ويقال عنه: وكان يقول: القراءات القراءات، العربية العربية، يريد بذلك أن يخلّى ذمته، ويريح ضميره حتى لا يكون مقصرا في نشر العلم والمعرفة^(٣).

آراء علماء عصره فيه

إن ابن مالك كان أسطع نجم لمع في سماء العلم في القرن السابع الهجري، وكان له منزلة كبرى يقدرها علماء عصره كل التقدير. سواء أكانوا معجبين، أو حاسدين. فمن المعجبين به، المعظمين لشخصه قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان فقد قال الصفدي: «إن ابن مالك كان إذا صلى في العادلية - وكان إمامها - يشيعه قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان تعظيما له»^(٤).

ويرى ركن الدين بن القويح أن ابن مالك ما خلى للنحو حرمة^(٥).

ويروي أن الشيخ تاج الدين عبدالرحمن الفزاريّ العالم المشهور تأسف يوم موت ابن مالك تأسفا كثيرا فقليل له: أكان الشيخ جمال الدين ابن مالك في النحو مثلك في الفقه؟ فقال له: والله ما انصفتموه، بل كان في النحو مثل الشافعي في الفقه^(٦).

(٢) غاية النهاية لابن الجزري ٢/ ١٨٠.

(٤) بغية الوعاة ٥/ ٥٥.

(٦) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٢٢.

(١) حسن المحاضرة ٢/ ٦٧.

(٣) المصدر نفسه والصفحة

(٥) المصدر نفسه والصفحة

ولما توفي ابن مالك سارع الأدباء لراثته بشعر يحمل في طياته الأسى والألم مما يدل على مكانة الرجل في نفوس معاصريه، فقد رثاه الشرف الحصني بقصيدة طويلة. قال الصفدي: ما رأيت مرثية في نحوى أحسن منها على طولها.

وقد رثاه من تلامذته النجباء الشيخ بهاء الدين بن النحاس بقصيدة منها:

قل لابن مالك إن جرت بك أدمعى

حُمراً يحاكيها النجيج القانى

فلقد جرحت القلب حين نُعِيت لى

وتدفقت بدمائه أجفانى (١)

رأى أبى حيان الأندلسى فى ابن مالك

وعلى الرغم من تقدير علماء العصر لابن مالك، فإن أبى حيان الأندلسى كان له من ابن مالك موقف معين.

فقد كان أبو حيان أندلسياً كابن مالك ورحل إلى المشرق كما رحل، وكان ابن مالك إذ ذاك شيخاً تقدمت به السن وطبقت شهرته الآفاق. «ولم نسمع أن أنا أبى حيان جلس فى حلقة ابن مالك مع أنه عاصره بنحو ثلاثين سنة» (٢) على حين جلس فى حلقة تلميذه بهاء الدين ابن النحاس، فما السبب فى هذا الإعراض عن رجل ملأ الدنيا علماً؟.

يبدو لى أن غرور أبى حيان، غرور الشباب، والثقة فى النفس جعله يبتعد عن حلقة الشيخ، ولا يخلو عصر من منافسة الشباب للشيخ، والإزراء عليهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نرى أن الرجلين كانا من موطن واحد، والمنافسة بين أبناء الوطن الواحد تصل فى أكثر الأحيان إلى قمته، وتبلغ أشدها.

ومن هنا كان أبو حيان مضطرباً فى آرائه بالنسبة لابن مالك، لا يثبت على فكرة، ولا يستقر على رأى، مما يدل على تسرع الشباب وعدم التريث فى الحكم على الأشياء.

نراه يذمه، ثم يعود بعد ذلك ليثبت عكس ما ذكر، ويمدحه بما ينقض آراءه السابقة.

(١) نفع الطيب ٤٢٥/٢ تحقيق الشيخ محى الدين.

(٢) المصدر السابق ٤٢٧/٢.

وبيان ذلك: أن صاحب نفع الطيب نقل عن كتاب أبي حيان «التذليل والتكميل» في باب الجواز أن ابن مالك «لم يصحب من له البراعة في علم اللسان، ولذا تضعف استنباطاته، وتعقباته على أهل هذا الشأن، وينفر من المنازعة والمباحثة والمراجعة، قال: وهذا شأن من يقرأ بنفسه، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه»^(١).

ثم نقل تعقيب العلامة يحيى العجيسى، الذي تولى الرد على أبي حيان حيث قال معقبا على قوله السابق: «وليس ذلك منه بإنصاف ولا يحمل على مثله إلا هوى النفس، وسرعة الإنحراف»^(٢).

ويا ليت أبا حيان يقف عند هذا الرأي، لأنه لو كان كذلك لقلنا: هذا رأى كونه بعد تجربة، وجمعه بعد خبرة، ولكن أبا حيان لم يكن كذلك بالنسبة لابن مالك، فقد كان يلقي القول على عواهنه من غير تثبيت أو روية وأناة، وهذا عيب كبير وبخاصة في رجل كأبي حيان.

ولعل مرد هذا كما قلت إلى الشباب الذي لا يفكر في العواقب حينما تسيطر عليه الاندفاعات، ولا أدل على ذلك أيضا من كلام أبي حيان نفسه في ابن مالك حينما قال عنه في موضع آخر يناقض كلامه السابق، ونقله صاحب نفع الطيب: «إنه نظم من هذا العلم - يقصد النحو - كثيرا ونثر، وجمع باعتكاف على الاشتغال به، ومراجعة الكتب، ومطالعة الدواوين العربية وطول السن - من هذا العلم غرائب، وحوث مصنفاته منها نواذر وعجائب، وأن منها كثيرا استخراجه من أشعار العرب، وكتب اللغة إذ هي مرتبة الأكابر النقاد، وأرباب النظر والاجتهاد»^(٣).

وقال عنه أيضاً: «لا يكون تحت السماء أنحى ممن عرف ما في تسهيله» وقرن التسهيل في البحر المحيط بمصنف سيويه^(٤).

وقد أسهم أبو حيان نفسه في المشاركة العلمية في كتب ابن مالك.

يقول صاحب بغية الوعاء: «فهو الذي جسر الناس على مصنفات ابن مالك، ورغبهم في قراءتها، وشرح لهم غامضها، وخاض بهم لججها»^(٥).

(٣) نفع الطيب ٢/٤٢٩.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٢٩.

(١) المصدر السابق ٢/٤٢٨.

(٥) البغية/١٢٢.

(٤) المصدر نفسه

أشهر مؤلفات ابن مالك

من أشهر مؤلفات ابن مالك كتاب: «الخلاصة أو الألفية» واسم «الخلاصة» يشير إلى أن ابن مالك صنع قبلها منظومة طويلة سماها «الكافية الشافية»، ولما قصد «حماة» بعد تصدره في «حلب» اختصر من الكافية الشافية «الخلاصة» أو «الألفية» لأن هذه الخلاصة نظمها في ألف بيت. وقد ذكر الصفدي عن الذهبي أن ابن مالك صنف الألفية لولده تقي الدين محمود المدعو بالأسد، ولكن العلامة المعجسي اعترض هذه الرواية برواية أخرى ذكر فيها أن تقي الدين محمودا صنف له «المقدمة الأسدية» وأما الألفية فذكر لى من أثق بقوله أنه صنفها للقاضي شرف الدين الشهير بابن البارزى ويتفق ابن الجزرى مع العلامة المعجسي فيقرر أن ابن مالك نظم «الخلاصة» بحماة للشيخ شرف الدين البارزى^(١).

موقف المعاصرين لابن مالك من الألفية

على رأس هؤلاء المعاصرين أبو حيان الأندلسي، فقد كان ينقص من قدرها ويعيبها ويقول: «ما فيها من الضوابط والقواعد حائد عن مهيج الصواب والسداد»^(٢). وقد ذكر بعض أصحاب أبي حيان نقدا شعريا للألفية فقال أحدهم:

ألفية ابن مالك

مطموسة المسالك

وكم بهما مشتغل

أوقع فى المهالك^(٣)

ولكن لابن مالك أنصاراً لم يقفوا من هؤلاء العابثين فى صمت وسكون، بل ردوا عليهم قولهم، ومن هؤلاء ابن الوردي حيث قال:

يا عائباً ألفية ابن مالك

وغائباً عن حفظها وفهمها

(٢) نفع الطيب ٢/ ٤٣٠.

(١) نفع الطيب ٢/ ٤٣١

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

أما تراها قد حوت فضائلا

كثيرة فلا تجر في ظلمها

وازجر لمن جادل من يحفظها

برابع وخامس من اسمها

يعنى «صه» من اسمها «الخلاصه» فإن «صه» عند الاستقلال بمعنى اسكت^(١).

وكشأن أبى حيان فى إصدار آرائه نحو «ابن مالك» «مادحا وذاما» قال عن هذه الألفية فى موضع آخر: «وهى غزيرة المسائل، كثيرة الإفادة، موسومة بالإجادة، وليست لمن هو فى هذا الفن فى درجة ابتدائه، بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه»^(٢).

وبمقارنة قوله نجد الاضطراب واضحا. والحكم مزعزعا شأن أبى حيان دائما مع منافسه الكبير ابن مالك.

ولكن الذى يدعو إلى العجب، ويستوجب الدهشة والغرابة أن ابنه، وفلذة كبده بدر الدين نهجم على أبيه بأسلوب إذا صح، فإنه يدل على عقوق كبير نحو أبيه الذى دوت له الدنيا فى ميدان العلم والفكر.

قال ابن الوردي فى تاريخه الشهير: إن ابنه بدر الدين كان يقول - على ما بلغنى - ما زال والدى يتخبط حتى نظم «الخلاصة»^(٣).

وإنى كباحث لا أسلم بهذه العبارة السيئة فى مجال النقد الموضوعى، فإن ابنه أعماه الضلال فقال ما قال، ذلك لأن العلاقة التى كانت بينه وبين أبيه لم تكن على ما يرام، فقد ذكر الرواة أنه وقع بينه وبين أبيه خصومة أدت إلى ابتعاده عن أبيه متجها إلى «بعلبك» التى سكن بها^(٤).

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٢٢.

(٤) معجم المطبوعات لسركيس ٢٣٤١.

مكانة الألفية

اهتم بها علماء النحو إلى يومنا هذا شارحين ومعلقين واضعين نصب أعينهم شرح غامضها، وتذليل مصاعبها، وتوضيح خفيها.

ومن أهم الشروح التي ما زالت تدرس في أقسام اللغة العربية بالجامعات العربية إلى الآن.

شرح العلامة أبي محمد عبدالله بن عبدالرحمن الشهير بابن عقيل النحوى المتوفى ٧٦٩هـ

وشرح العلامة نور الدين أبى الحسن على بن محمد الأشمونى المسمى «منهج السالك إلى ألفية ابن مالك».

نثر الألفية

وقد أسهم الشيخ نور الدين إبراهيم بن هبة الأسنوى المتوفى ٧٢١هـ بنشر الألفية، وكذلك قام بهذا المجهود برهان الدين إبراهيم بن موسى الكركى المتوفى ٨٥٣هـ.

ومن هذا القبيل كتاب: «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» للعلامة ابن هشام النحوى المتوفى ٧٦١هـ والذي اشتهر فيما بعد بالتوضيح.

وبعد، فإن الألفية كانت الكتاب الوحيد الذى شغل العلماء منذ عصر ابن مالك بشرحها، والتعليق عليها، وإن الألفية بما دار حولها من شروح وتعليقات ما زالت حية نابضة قوية متحركة لم تضعفها كثرة السنين التى مرت على تأليفها، ولا أدل على ذلك من أن معاهدنا التى أخذت على عاتقها دراسة اللغة العربية ظفرت فيها دراسة الألفية بشروحها وتعليقاتها بنصيب كبير.

منهج ابن مالك فى الدراسات النحوية

كان لابن مالك منهج خاص فى الدراسات النحوية، صنفه بنفسه وكونه من ثقافته ومعارفه، فما هى الأصول التى يقوم عليها هذا المنهج؟

ذكر المقرئ أنه «كان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن شاهد عدل إلى الحديث، وإن لم يكن شاهد فيه عدل إلى أشعار العرب»^(١).

واستشهاد ابن مالك بالقرآن الكريم لا يقف عند القراءات المتواترة فحسب، بل يأخذ بها جميعاً فى بناء القاعدة: سواء أكانت متواترة أو شاذة، قال السيوطى:

«ابن مالك أخذ بالقراءات الشاذة ورد على النحويين المتقدمين الذين يميون على عاصم، وحمزة، وابن عامر قراءات بعيدة فى العربية، وينسبونهم إلى اللحن، وهم مخطئون فى ذلك فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التى لا مطمئن عليها، وثبوت ذلك دليل على جوازه فى العربية»^(٢).

فابن مالك إذن لا يتشدد فى قبول القراءات كما كان يفعل علماء البصرة، بل كان يرى أن هذه القراءات رويت عن عرب خلص، ومن الغين أن نستشهد بكلام لم تبلغ درجة العناية به كما بلغت فى القراءات التى هى أولى فى مجال الاستشهاد من شعر الشعراء، وخطب الخطباء.

الاستشهاد بالحديث الشريف

وابن مالك يذهب إلى صحة الاحتجاج بالحديث الشريف لأن الرسول عليه السلام أفصح العرب لساناً، وأقواهم بياناً، وأحسنهم بلاغة، وقد اهتم رواة الحديث بما نقل عنه ﷺ، وتشددوا فى ضبطه، ودققوا فى روايته، وتكبدوا المشاق والرحلات فى سبيل ضبط هذه الأحاديث، ومعرفة الرجال الذين نقلوها أو رووها. ولهذا كان الاحتجاج بالحديث فى نظر ابن مالك يلى القرآن الكريم فى مرتبة الاحتجاج به.

وقد صنع فى ذلك كتاباً سماه: «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» وقد حققه المرحوم محمد فؤاد عبدالباقي.

(١) نفخ الطيب ٢/ ٤٢٩.

(٢) الاقتراح/ ٧.

وابن مالك لا يلجأ إلى الاستشهاد بأشعار العرب فى إثبات القواعد النحوية إلا بعد الرجوع إلى القرآن الكريم وقراءته ثم الأحاديث النبوية فهى فى نظره أقوى فى الاستشهاد، وأبلغ فى الاحتجاج من أشعار العرب.

وهو إذا استشهد بأشعار العرب أتى بالعجائب والغرائب مما يدل على مقدرة كاملة، وإطلاع شامل، ويصير باللغة دقيق، ويكفى أن علماء عصره شهدوا له بطول الباع فى هذا المضمار كما سبق بيانه.

واتساع ابن مالك فى روايات أشعار الشواهد النحوية جعله كالكوفيين يأخذ من كل القبائل. ومما يدل على ذلك أن أبا حيان فى شرح التسهيل اعترض على ابن مالك حيث قال: «وعنى فى كتبه بنقل لغة لحم، وخزاعة وقضاعة وغيرهم. وقال: ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن»^(١).

القياس

وابن مالك كان يراعى فى أقيسته السهولة، كان يحترم كل مسموع ويقيس عليه، لأنه يرى أن اللغة متطورة، وكلما زادت أساليبها وكثر المروى منها، وكلما اتخذ هذا المروى - مهما كان قليلا - أساسا ليقاس عليه، كانت اللغة حية نامية متحركة.

وابن مالك فى رأى محق فى هذا كل الحق، لأن الرواة لم يحيطوا بكل لهجات العرب ولغاتهم حتى يردوا ذلك المسموع القليل، وربما كان لهذا المسموع نظائر كثيرة لم يستوعبها الرواة.

وبعد، أليس ابن مالك شخصية فذة فى تاريخ الفكر العربى يستحق منا كل تقدير وإعجاب؟.



(١) الاقتراح/٢٤.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- الاقتراح: جلال الدين السيوطى - مطبعة دائرة المعارف النظامية.
- ٢- بغية الوعاة- جلال الدين السيوطى - مطبعة السعادة - طبعة أولى.
- ٣- تاريخ ابن الوردي - الشيخ زين الدين عمر بن الوردي - المطبعة الوهبيّة.
- ٤- حسن المحاضرة - جلال الدين السيوطى - المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٧هـ.
- ٥- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى: أبو الفلاح عبدالحى المتوفى ١٠٨٩ هـ.
- ٦- طبقات الشافعية - السبكي - المطبعة الحسينية بالقاهرة.
- ٧- غاية النهاية في طبقات القراء - ابن الجزرى - مطبعة السعادة.
- ٨- معجم المطبوعات لسركيس طبع سنة ١٩٢٨.
- ٩- نفع الطيب: للمقري، تحقيق الأستاذ محمد محى الدين - مطبعة السعادة.



١١. أثر أبي الأسود الدؤلي في النحو العربي

نشأة ودراسة (*)

رأى في نشأة النحو

قضية نشأة النحو العربي احتدم حولها النقاش منذ عهد مبكر، فالناظر لكتب الطبقات تروعه كثرة الاختلافات حول هذه النشأة، فمن قائل: إن النحو العربي نشأ على يد علي بن كرم الله وجهه، فقد سمع أعرابيا يقرأ ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئِينَ﴾^(١) فوضع النحو^(٢). ومن قائل: إن هذه النشأة تمت على يد أبي الأسود الدؤلي، فهو الذي ألحَّ على زياد أمير البصرة بأن يأذن له «أن يضع للعرب ما يعرفون به كلامهم»^(٣).

ولعل أبا الأسود راعه ما سمعه من ابنته، فقد قالت له ابنته: «ما أحسنُ السماء برفع كلمة (أحسن) فقال لها: (نجومها)، فقالت: إني لم أرد هذا، وإنما تعجبت من حسنها، فقال لها: إذا فقولِي: «ما أحسن السماء»^(٤) بفتح الكلمتين. أقول: لعل هذا الاضطراب في الفهم والجهل بمواقع الكلام هو السبب في أن يلح أبو الأسود على زياد بأن يأذن له بوضع ما يعرف به الكلام.

وهناك بعض الروايات تبين أن أول من وضع النحو هو عبدالرحمن بن هرمز^(٥). كما أن هناك روايات أخرى تبين أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم^(٦).

وتتضارب الروايات مرة أخرى إذ نرى أن بعض الروايات تنسب نشأة هذا العلم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد «قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ فأقرأه رجل سورة (براءة) فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾^(٧) بالجر، فقال الاعرابي: أو قد برىء الله

(*) نشر في مجلة كلية الآداب جامعة الكويت - ديسمبر سنة ١٩٧٦م.

(١) الحاققة: ٣٧. (٢) نزهة الالباه ص ٧.

(٣) نزهة الالباه ص ١٢. (٤) المرجع نفسه والصفحة.

(٥) المرجع نفسه ص ١٣. (٦) المرجع نفسه ص ١٤.

(٧) التوبة: ٣.

من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الاعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي: أبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قدمت المدينة، ولا علم لى بالقرآن، فسألت: من يقرئنى؟ فإقرأنى هذا سورة (براءة) فقال: أن الله بريء من المشركين ورسوله فقلت: أو قد بريء الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر رضي الله عنه: ليس هكذا يا أعرابي. فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بالرفع، فقال الاعرابي: وأنا والله أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم، فأمر رضى الله عنه ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو^(١).

ويرجع ابن التميم في (الفهرست) أن أبا الأسود هو الذى وضع النحو ووضع بعض مصطلحاته الأولى، ويستدل لهذا بما رواه محمد بن إسحاق «أنه كان بمدينة (الحديثة) رجل يقال له: محمد بن الحسين.. جماعة للكتب.. له خزانة لم أر لاحد مثلها كثرة تحتوى على قطعة كبيرة من الكتب العربية فى النحو، واللغة والادب والكتب القديمة: قال محمد بن إسحاق: فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بى، وكان نفورا ضنينا بما عنده، خائفا من بنى حمدان؛ فأخرج لى قمطرا كبيرا.. ورأيت فيه ما يدل على أن النحو عن أبى الأسود ما هذه حكايته، وهى أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها: هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق. هذا خط علان النحوى، وتحت هذا خط النضر بن شميل. ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه، فما سمعنا له خبرا»^(٢).

رأى بعض المستشرقين وبعض العلماء المحدثين،

هذا التضارب فى الروايات دفع بعض المستشرقين وبعض العلماء المحدثين إلى التشكك فى نشأة النحو، وتناقضها من أكبر الأسباب فى عدم الاخذ بها، والاعتماد عليها.

ومن هؤلاء المستشرقين الذين انكروا نسبة النحو إلى أبى الأسود المستشرق (فون كريم) إذ يقول: «إن تسرب الفساد إلى اللغة العربية كان هو السبب فى ضرورة وضع قواعد النحو

(١) نزهة الالباء ص ٨، ٩.

(٢) الفهرست - ٦١، المطبعة الرحمانية، بتصرف.

لإنقاذ اللغة العربية «رواية لا يعول عليها إطلاقاً ولا أساس لها فالنحو العربي من وضع الاجانب من الآراميين والفرس، وقد أوجدته الحاجة التي أحس بها هؤلاء الاجانب لتعلم الكتابة العربية وقراءة اللغة العربية على وجه صحيح، وعلى الاخص غير العرب الذين أرادوا أن يقفوا حياتهم للدراسات العلمية»^(١).

ومن هؤلاء العلماء المحدثين الدكتور مصطفى نظيف إذ يقرر بأن «يعقوب الرهاوى كان من معاصري أبى الأسود وهو من يعاقبة السريان تتلمذ على (سويرس سيوخت) وبرع فى الفلسفة واللاهوت والنحو، والتاريخ، ألف فى النحو السريانى كتابا اقتبس فيه الحركات والنقط.

ومحاولة أبى الأسود اقتباس الحركات والنقط فى العربية كلاهما بدأ فى البصرة، وكانت البصرة فى ذلك الحين موضع التقاء العرب بالفرس، والسريان، وأهل الهند، وكانت لغة العلم والمعرفة فى ذلك العصر اللغة السريانية»^(٢).

على أن هناك فريقاً من العلماء المحدثين المعتدلين لم يذهب إلى ما ذهب إليه «فون كريمير» أو «الدكتور مصطفى نظيف» من إنكار نسبة النحو إلى العرب، وعلى رأس هذا الفريق الاستاذان المرحومان أحمد أمين، وإبراهيم مصطفى.

أما أحمد أمين فإنه لا ينكر هذه النسبة فقد يكون لها أصل صحيح «لان الرواة اتفقوا على ان أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط، وهو ابتكار شكل المصحف، وهذه خطوة أولية فى سبيل النحو تمشى مع قانون النشوء ويمكن أن تأتى من أبى الأسود»^(٣).

وأما إبراهيم مصطفى فإنه يرى أن عمل أبى الأسود فى مجال النحو هو وضع نقط الإعراب، وضبط المصحف على نهج العربية^(٤).

وهذان الرأيان متقاربان وإن اتفقا على أن المصطلحات النحوية التى نسبها الرواة إلى أبى الأسود لا تتفق مع طبيعة العصر الذى عاش فيه أبو الاسود.

رأى

وفى رأى الخاص أن قضية نشأة النحو مرتبطة بمعارف العرب السابقة فى الجاهلية وفى

(١) الحضارة الإسلامية، ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية لفون كريمير - تعريب مصطفى بدر ٩٠ - دار الفكر العربى.

(٢) مجلة الجمع اللغوى بمصر ٧ - ٢٤٨.

(٣) ضحى الإسلام ٢: ٢٨٦ ط ثانية بتصرف.

(٤) مجلة كلية الآداب - المجلد العاشر ٢: ١ بتصرف.

العصر الإسلامي وبخاصة في مجالى القراءة والكتابة. فإذا كان العرب فى جاهليتهم وفى العصر الإسلامى يجيدون القراءة، ويحسنون الكتابة فإن من البدهى ارتباط هذه القراءة أو هذه الكتابة بالضوابط الإعرابية من رفع ونصب وجر، لأنه لا يمكن أن نسلم أن تعليم القراءة أو الكتابة يجرى بعيدا عن منطق اللغة، وسلامة تراكيبها.

ولعل إنكار نسبة النحو إلى العرب منشؤه هذه الفكرة الضالة التى تسربت إلى عقول المنكرين، والتى تقرر أن العرب أمة أمية لا علم لها بالقراءة والكتابة وإذا كانوا كذلك فكيف يتأتى لهم فى هذا العصر المبكر أن ينشئوا علم النحو وأن يضعوا له مثل هذه المصطلحات أو هذه التقاسيم التى سجلها الرواة.

والحق أن ادعاء الأمية فى العرب، وجهلهم بالقراءة والكتابة اعتماداً على بعض الآيات التى اتخذوا جانباً منها وتركوا جانباً آخر افتراء على الحق، وجهل بالتاريخ.

أما الآيات التى اتخذوها دليلاً فهى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾ (٣) فليس المقصود «الأمية الكتابية ولا العلمية»، وإنما يعنى الأمية الدينية أى أنهم لم يكن لهم قبل القران كتاب دينى. والدليل على ذلك ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ (٤)، (٥).

وأما الآيات التى تركوها جانباً مع أنها تنادى فى وضوح بأن العرب كانوا على دراية كاملة بالقراءة والكتابة فهى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبَهَا﴾ (٦) وهذه إشارة إلى معرفة الكتابة، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ (٧) وهذه إشارة إلى معرفة القراءة.

(١) آل عمران: ٢٠.

(٢) آل عمران: ٧٥.

(٣) الجمعة: ٢.

(٤) البقرة: ٧٨.

(٥) انظر مصادر الشعر الجاهلى من ص ٤٤ إلى ص ٤٦.

(٦) الفرقان: ٥.

(٧) الإسراء: ٩١، ٩٢، ٩٣.

وإلى جانب هذه الأدلة القرآنية فهناك أدلة تاريخية ليس فيها مجال للشك تثبت الكتابة للعرب في جاهليتهم، وبخاصة في مدينة مكة، ومن ينكر هذا الفداء الفكرى المتمثل فى القراءة والكتابة، حينما أطلق عليه السلام أسرى بدر من قيود الأسر إذا علم كل فرد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة؟ بل من ينكر كتاب الوحي وأخبارهم مستفيضة مسجلة فى كتب التاريخ والرواية؟.

فمن أبى سعيد الخدرى أن النبى عليه السلام قال: «لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن، فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحاه»^(١).

وفى مجال كتابة الحديث فإن أبا هريرة يحدثنا عن عبدالله بن عمرو فى هذا المجال فيقول: «ما أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثا منى إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب»^(٢). ولعل هذه ميزة انفرد بها عبدالله بن عمرو دون الصحابة.

وما لى أذهب بعيدا وقد تواترت الاخبار التى تؤكد أن زيد بن ثابت كان من كتاب الوحي على عهد رسول الله ﷺ، وقد أرسل اليه أبو بكر بعد أن قتل معظم قراء القرآن يوم اليمامة ليكتب القرآن ويجمعه فى مصحف. قال زيد محدثنا عن نفسه: «قال أبو بكر.. إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن، اجمعه فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن»^(٣).

وفى عهد عثمان رضى الله عنه بعد فتنة الاختلاف فى القراءة، وجمع الناس على مصحف واحد كان من رواد كتابة هذا المصحف الموحد: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام»^(٤).

يضاف إلى هذه الأدلة المعلقة الشعرية التى كتبها العرب وعلقوها على الكعبة، لأنها ذات قيمة، ولأنها صورة صادقة لتقاليد العرب وقيمهم وأخلاقهم والمعلقات عمل فكرى شعورى لا يمكن ان ترنجل ارتجالا، لأنها تحتاج إلى معاناة فكرية وشعورية وإلى مزيد من الوقت والأناة. وإذا كانت كذلك فمن غير المعقول ألا يكون لدى الشاعر صحيفة يكتب فيها

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٢٩.

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤: ١١٢.

(٣) الإنقان ١: ٥٧.

(٤) مقدمتان فى علوم القرآن ١٨، ١٩.

شعره ليعاوده مرة بعد مرة، ولهذا قال جويد: «إن قصائد القرن السادس الميلادي لجديرة بالإعجاب تنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة، فإن فيها من كثرة القواعد والاصول فى لغتها ونحوها، وتراكيبها وأوزانها يجعل الباحث يؤمن بأنه لم تستو لها تلك الصورة الجاهلية إلا بعد جهود عنيفة بذلها الشعراء فى صناعتها»^(١).

وقديما آمن الجاحظ بهذه الفكرة فقال فى كتابه البيان والتبيين: «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كرىنا، وزمنا طويلا يردد فيها نظره، ويحيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله، وتتبعها على نفسه، فيجعل عقله زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره، اشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله الله من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات، والمقلدات، والمحكمات ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مقلقا»^(٢).

من هذه الأدلة التى قدمتها أستطيع أن أقول: إن من العرب من يجيد القراءة والكتابة، ومن خلال هذه الإجادة نضع أيدينا على جذور القواعد النحوية واللغوية التى تعين على حسن القراءة، وضبط الكتابة، والتزام النهج السليم الذى تدعو إليه ضوابط اللغة وتراكيبها.

ولا أدل على ذلك من هذا النفور الشديد من اللحن، لأنه انحراف عن الصواب وهروب من ضوابط اللغة، ويكفى أن يوصف اللحن بالضلال، لأنه غاب عنه دليل الهدى، ونور الإرشاد، فعن أبى الدرداء قال: «سمع النبى ﷺ رجلا قرأ فلحن، قال «أرشدوا أخاكم»^(٣) وفى رواية سجلها ابن جنى فى الخصائص «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل»^(٤).

على أن العلم باللغة كانت جذوره ممتدة قبل أبى الأسود، ففى الرواية التى تنسب النحو إلى عمر بن الخطاب، وانه أمر أبى الأسود أن يضع النحو، وردت هذه الجملة «الا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة».

ولماذا اتجهت الروايات إلى أبى الأسود لتنسب النحو إليه إن لم يكن ذا دراية واسعة بعلم العربية؟ ولماذا لم تتجه هذه الروايات إلى رجل آخر فى طبقته - على كثرة الرجال - لتنسب إليه ما نسبته إلى أبى الأسود؟

(١) الفن وهذا هبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف ١٤.

(٢) البيان والتبيين ٢: ٩.

(٣) كنز العمال فى سنن الأقوال والافعال ١: ١٥١.

(٤) الخصائص: ٢: ٨.

الحق الذي يقال: إن أبا الأسود حلقة في سلسلة المعرفة اللغوية، ولا يمكن لأبي الأسود ان يحصل على هذه المعرفة اللغوية التي سنذكر طرقاً منها فيما بعد بدون ان يتعلمها من غيره، ولكنه برز في مجالها، وزاد نشاطه في حقلها، فنسبت إليه نشأة أضخم علم شغل الناس قروناً طويلة وما يزال يشغلهم إلى وقتنا الحاضر.

أما الأسباب التي جعلت مولد النحو على يده فترجع إلى ما يأتي:

(١) - اتصاله بعلي كرم الله وجهه، وقد تميز علي بأنه تربي في بيت النبوة، وشرب من معينها، وارتوى من موردها مما جعله مضرب المثل في العلم والمعرفة، وأخبره في هذا الباب عديدة، وحينما يذكر الرواة أن أبا الأسود دخل على علي وفي يده رقعة فيسأله عنها فيجيبه كرم الله وجهه بقوله: «إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء - يعني الاعاجم - فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه، ثم يلقي الرقعة إلى أبي الأسود وفيها مكتوب: الكلام كله: اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ به، والحرف ما أفاد معنى.

يقول أبو الأسود: وقال لي: انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك»^(١).

أقول: حينما يذكر الرواة ذلك فإنما يشيرون إلى حقيقة مؤداها أنه ليس من الغرابة أن يكون عليّ على هذا المستوى من التفكير لأن مكانته الفكرية لا ينكرها التاريخ. فقد روى عن النبي عليه السلام قوله: «أنا مدينة العلم وعلى بابها، فمن أراد العلم فليأتها من بابها»^(٢) وقال عنه النبي: «اللهم اهد قلبه وسدد لسانه»^(٣) وإيمان عليّ بعقلية أبي الأسود هي التي أوحى إليه بهذه العبارة: «وأضف إليه ما وقع إليك».

أما صلة أبي الاسود بعلي كرم الله وجهه فهي صلة ولاء وحب، وقد دفعته هذه الصلة إلى أن يطلب من علي كرم الله وجهه أن يعيد أبا موسى عن التحكيم قائلاً له: «يا أمير المؤمنين لا ترض بأبي موسى، فإنني قد عجمت الرجل وبلوته، فحلبت أشطره فوجدته قريب القعر.. وما أدري ما يبلغ نصحه فابعثني فإنه لا يحل عقدة إلا عقدت له أشد منها»^(٤).

(١) نزهة الالباء ٤، ٥.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢، ١١.

(٣) المرجع نفسه: ١١٠٠.

(٤) أمالي المرتضى ١: ٢٩٢.

ولا أدل على هذا الحب من هجائه لبني قشير إذ كانوا يكرهونه لجه علياً. قال لهم يوماً: يا بني قشير ما فى العرب أحد أحب إلى طول بقاء منكم، قالوا: ولم ذاك؟ قال: لانكم إذا ركبتُم أمرا علمت أنه غى فاجتنبته وإذا اجتنبتم أمرا علمت أنه رشد فاتبعته، فنازعوه الكلام فأنشأ يقول:

يقول الأردلون بنو قشير

طوال الدهر لا تنس عليا

أحب محمداً حباً شديداً

وعباساً وحمزة والوصيا

أحبهم لحب الله حتى

أجىء إذا بُعِثْتُ على هَوَا

فإن يك حبهم رشداً أصبه

ولست بمخطيء إن كان غيًّا^(١)

(٢) علمه باللغة وبغريبها: ومعرفة الغريب لا يستوى فى مجالها كل من يعرف اللغة، لأن معرفة الغريب انفرد بها قلة من العلماء الذين أحاطوا باللغة وقد عبد أبو الاسود طريق هذه المعرفة أمام العلماء الذين أتوا من بعده، ولم نعلم أن أحداً من أقرانه وصل إلى ما وصل إليه فى هذا المجال.

يدل على ذلك ما رواه صاحب العقد الفريد حيث يقول: «قال أبو الاسود الدؤلى لابن علقمة: ما حال ابنك؟ قال: أخذته الحمى فطبخته طبخاً، ورضخته رضخاً (الرضخ: الكسر) فتركته فرخاً (الفرخ الضعيف المنهوك) قال: فما فعلت زوجته التى كانت تشاره (تشاره: تخاصمه) وتهاره (تهر فى وجهه) وتماره (تجادله).. قال: طلقها. فتزوجت بعده فحظيت وبظيت، فقال له: قد عرفنا حظيت فما بظيت؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك. فقال يا ابن أخى، كل حرف لا يعرفه عمك فاستره كما يستر السنور خراهُ»^(٢).

(١) انظر ديوان أبى الاسود/ ١١٩ - ١٢١. (٢) العقد الفريد ٢: ٤٩٠، ٤٩١.

ويسوق الزمخشري بعض الكلمات الغريبة على لسان أبي الأسود، فيقول: «عليكم فلانا فانه أهيس أليس، ألد ملحس، إن سئل أرز، وان دعى انتهز»^(١).

(٣) - نضوج عقله وقوة تفكيره، وسرعة بديهته صفات أهلته لحمل لواء العربية في هذا العصر المبكر، وكان أبو الأسود يحس بهذه المميزات التي وهبت له، فقد روى المبرد أن زيادا قال لأبي الأسود: لولا أنك قد كبرت لاستعنا بك في بعض أمورنا، فقال: إن كنت تريدني للصراع فليس عندي، وإن كنت تريد عقلي ورأىي فهما أوفر ما كانا^(٢).

وفي القصة التي دارت بينه وبين بنى قشير حينما هجاهم وأعلن حبه لعلى وآل البيت أرادوا أن يفحموه ويسكتوه حينما قال:

فإن يك حبههم رشدا أصبه

ولست بمخطيء إن كان غيا

قالوا له: أشككت يا أبا الأسود؟ فقال: ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣) اقترون الله شك؟^(٤).

وبهذا القياس استطاع أبو الأسود أن يفحمهم ويسكتهم. ألا يدل ذلك على راحة عقله، وقوة تفكيره، وحضور بديهته.

وقد عرف لأبي الأسود تميزه في هذا المجال الجاحظ حينما قال عنه: «أبو الأسود الديلي معدود في طبقة من الناس، وهو فيها كلها مقدم، ومأثور عنه الفضل في جميعها، كان معدودا في التابعين والفقهاء، والمحدثين والشعراء، والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين، والحاضرين الجواب، والشيعية والبخلاء والصلع والأشراف، والبخلاء الأشراف»^(٥).

(٤) كثرة رحلاته وتنقلاته: لقد عرك أبو الأسود الناس والحياة، وأفاد من خبراته بهم وبها

(١) الفائق في غريب الحديث ٣: ٢٢٥ والاهيس: الذي يدور. الاليس: الذي لا يبرح، الملحس: الحريص. أرز: انقبض، انتهز: افترص.

(٢) أمالي المرتضى ١: ٢٩٢.

(٣) سيا: ٢٤. (٤) الأمالي للمرتضى (١/٢٩٣).

(٥) خزنة الادب ١: ٢٨١، ٢٨٢ تحقيق (هارون).

وتجاربه معهم ومعها ما جعله ذا بصر بما يدور حوله، يحب الحياة، ويحب الناس، ويجالس الاخيار، ويسمع الاخبار ويعايش الناس بكل ما يملك من مشاعر وعواطف وهذه أمور تجعله أقدر من غيره في أن يزن الأمور بموازينها، وتجعله أيضا خبيراً بالمعرفة الإنسانية يتلقاها من مصادرها، ورجل هذا شأنه من السهل عيه أن يقدم رأيه لمن يحتاج إليه ويسهم في مشكلات عصره بما تسلح به من خبرة، وتجربة، وعلم، ودراية، حتى وهو كبير السن لم يحاول ان ينطوى على نفسه في ركن من أركان بيته بعيداً عن الناس وعن الحياة بل سار في دربه، والتزم منهجه شاباً وشيخاً، ولم يتخل عن فلسفته في صلته بالناس.

يحدثنا الاغانى فيقول: «كان أبو الأسود الدؤلى قد اشتد وكبر وكان مع ذلك يركب إلى المسجد والسوق، ويزور أصدقاءه، فقال له رجل يا أبا الأسود: أراك تكثر الركوب، وقد ضعفت عن الحركة وكبرت، ولو لزمت منزلك كان أودع لك، فقال له أبو الأسود: صدقت، ولكن الركوب يشد أعضائي، وأسمع من أخبار الناس ما لا أسمعه في بيتي، واستنشى الريح وألقى إخواني، ولو جلست في بيتي لاغتم بى أهلى وأنس بى الصبى، واجترأ على الخادم، وكلمنى من أهلى من بهاب كلامى لإلفهم إياي، وجلوسهم عندى حتى لعل العنز أن تبول علي، فلا يقول لها أحد هس»^(١).

وروى أبو الفرج فى الأغاني أيضاً^(٢) «أنه لما أراد الخروج إلى فارس قالت له ابنته: يا أبت إنك قد كبرت، وهذا صميم الشتاء فانتظر حتى ينصرم، وتسلك الطريق آمنة فإني أخشى عليك. فقال أبو الأسود أبياتا بدأها بقوله:

إذا كنت معنيًا بأمر تريده

فما للمضاء والتوكل من مثل»

(٥) - شبهات المتكرين لقيام أبى الاسود بميلاد الحركة التحوية ترجع إلى أنه وجد فى عصر مبكر لا يقبل هذه التعريفات أو هذه التقاسيم لأن العقل العربى إذ ذاك لم يكن متفتحا للمعرفة التى تسلك فى دروب المنطق، وتتعمق هذا التعمق فى خواص التعريفات..

وقد فات هؤلاء القوم أن للعب معارف عامة، وأن لهم نظرات فى الحياة وأن لهم

(١) الأغاني ١٢: ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) ١٢: ٣١٣.

نظرات فى الحياة وأن لهم علوما سجلها التاريخ تقوم على التجربة والاستقراء، والفهم والاستنباط وقد لمس هذا المعنى ابن فارس فقال: «فإن قال قائل: فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية، وأن الخليل أول من تكلم فى العروض» قيل له: نحن لا ننكر ذلك بل نقول: إن هذين العلمين قد كانا قديما، وأتت عليهما الأيام، وقلأ فى أيدى الناس، ثم جددهما هذان الإمامان.. وأما العروض فمن الدليل على انه كان متعارفا معلوما اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا - ومن قال منهم -: إنه شعر. فقال الوليد بن المغيرة منكرا عليهم: لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقرء الشعر: هزجه ورجزه، وكذا فلم أره يشبه شيئا من ذلك، أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر؟» (١).

ويقول أيضا: «ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذى يعلله النحويون فى ذوات الواو والياء، والهمزة والمد، والقصر، فكتبوا ذوات الياء بالياء، وذوات الواو بالواو، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكنا فى مثل: الخبء، والدفع، والملء، فصار ذلك كله حجة، وحتى كره من العلماء ترك اتباع المصحف من كره» (٢).

ويؤيد ما ذكره الصحابى ان النابغة الذبياني كانت تضرب له فى سوق عكاظ قبة من آدم ليحكم بين الشعراء، ويفضل بعضهم على بعض بمقاييس تقوم على إجادة الشعر فى إطار سلامة التراكيب، وحسن الصياغة، ومراعاة الفروق اللغوية، فقد نقد حسان بن ثابت فى بيته المشهور:

لنا الجفنات الفرى لمعن فى الضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

قائلا له: أقللت جفانك وأسيافك» يعنى أن أسياف جمع لأقل العدد وكذلك جفنات، وكان الأقوى فى مجال الفخر أن يقول: سيوف، وجفان (٣).

(١) نقلا عن مصادر الشعر الجاهلى ٤٧ - ٤٨ .

(٢) نقلا عن مصادر الشعر الجاهلى ٤٧ - ٤٨ .

(٣) انظر هذه القصة فى الموشح للمرزبانى ص ٦٠ .

(٦) - وما لى أذهب بعيدا وقد اتفق معظم الرواة على أن أبا الأسود نقط المصحف تنقيط إعراب، وتنقيط المصحف على هذا الوضع الذى ذكره الرواة بدل على وضوح ظواهر الإعراب فى ذهن أبى الأسود حينما قال للكاتب: «خذ المصحف وصبغا يخالف المداد، فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف وإذا كسرتهما فاجعل النقطة فى أسفله، فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدا بالمصحف حتى أتى على آخره»^(١).

إن نظرة واحدة إلى هذا النص تشير فى وضوح إلى أن أول من تكلم عن حركات الإعراب والتنوين هو أبو الأسود، وما النحو فى مظاهره المتعددة، وقضاياه المتشعبة إلا هذه الحركات التى تتناول معظم أبواب النحو: المرفوعات، والمنصوبات، والمجرورات. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن نهج أبى الأسود فى تنقيط المصحف، وبيان الحركة كان مصدراً لتعليل النحاة المتأخرين وعلى رأسهم أبو القاسم الزجاجى المتوفى ٣٣٧ هـ. فقد عقد باباً فى كتابه «الإيضاح» يعلل فيها معنى الرفع والنصب والجر تعليلاً لا يعتمد كثيراً عن تعليل أبى الأسود. قال: «قد قلنا إن الإعراب حركة، ودلنا على معناه، والحركة لا تقوم بنفسها ولا توجد إلا فى حرف فلما كان الرفع والنصب والجر قد يكون فى الكلام بأشياء سوى الحركة كما بينا ذلك فيما تقدم، وكان الأصل الحركة، وهو الأعم الأكثر نسبوا ذلك كله إلى الحركة، فنسبوا الرفع كله إلى حركة الرفع، لأن المتكلم بالكلمة المضمومة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى، ويجمع بين شفتيه.. والمتكلم بالكلمة المنصوبة يفتح فاه، فيبين حنكه الأسفل من الأعلى، فيبين للناظر إليه كأنه قد نصبه لإبانة أحدهما عن صاحبه.

وأما الجر فإنما سمي بذلك لأن معنى الجر الإضافة، وذلك أن الحروف الجارة تجر ما قبلها فتوصله إلى ما بعدها كقولك: مررت بزيد، فالباء أوصلت مرورك إلى زيد، وكذلك المال لعبد الله، وهذا غلام زيد»^(٢).

(٧) - إن كثيراً من النصوص العربية نواجهنا قبل قصة نشأة النحو بكلمة: إعراب، وإن كانت لدى بعض الباحثين المحدثين معنى كلمة الإبانة والتوضيح، فهى فى نظرنا أيضاً معنى مراعاة الحركات الإعرابية والأصول اللغوية، وإذا لم تكن هذه المراعاة إبانة فما الإبانة؟

ومن هذه النصوص ما نسب إلى عبد الله بن مسعود إذ يقول: «جردوا القرآن وزينوه

(١) نزهة الالباء ١٢.

(٢) الإيضاح: ٩٣.

(٣) الوقف والابتداء لابن الانبارى ١: ١٥.

بأحسن الأصوات وأعربوه فإنه عربى والله يحب أن يعرب»^(١). وقد نسب لأمي بكر وعمر
رضى الله عنهما هذا القول «لبعض إعراب القرآن أعجب إلينا من حفظ بعض حروفه»^(٢).

كما نسب إلى أمي بن كعب قوله: «تعلموا اللحن فى القرآن كما تتعلمونه»^(٣).

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه «أن تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تعلمون
القرآن»^(٤).

ونقف أمام كلمة «اللحن» متأملين، فما هو اللحن الذى أمر أمي بن كعب بتعليمه. كما
أمر به عمر بن الخطاب الذى جعله علما مستقلا كعلمي الفرائض والسنة.

الحقيقة أن حيرتنا أمام هذا اللحن الذى أمر به الصحابييان عمر، وأمي لم تقل عن حيرة
اسلافنا القدماء، ولكنهم سرعان ما كشفوا اللثام عن هذه الكلمة الغامضة فقد «حدث يزيد
بن هارون بهذا الحديث فقليل له: ما اللحن؟ فقال: النحو»^(٥).

إذن كان مدلول النحو واضحا فى أذهان الصحابة بما قدمت من نصوص لا تقبل الجدل
أو النقاش.

على أن ابن الانبارى يفسر اللحن بأنه: الصواب وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ
فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾^(٦) أى فى مذهبه ووجهه، وأنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى فى هذا:
ولقد لحننت لكم لكيما تفقهوا

ووحيت وحياليس بالمرتاب^(٧)

وإذا كان اللحن هو مذهب القول ووجهه فما أصدق تفسير يزيد بن هارون له بأن
المقصود به النحو، لأن النحو هو ميزان الصواب فى القول، ومقياس السلامة فى الكلام.
وبعد، فإن نسبة النحو إلى أبى الأسود بخاصة وإلى العرب بعامة بعد هذه الأدلة التى
بسطتها حقيقة من وجهة نظرى واضحة كالشمس فى رائعة النهار.

(٢) المصدر نفسه ٢٠.

(٤) نفس المصدر ص ١٥.

(٦) محمد ٣٠.

(١) نفس المصدر ص ١٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧.

(٥) الوقف والابتداء ١٦.

(٧) الوقف والابتداء ١٨.

أثر أبي الأسود فى النحو العربى

١. الجنور الأولى للنحو العربى؛

قلت فيما سبق: إن النحو العربى وضع أصوله الأولى على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ودفع بالصحيفة التى جمعت هذه الأصول إلى أبى الأسود، وقد سجلت طرفاً مما جاء فى هذه الصحيفة يدور حول تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف.

ويبدو أن هذا التقسيم للكلمة خطوة أولى فى طريق النحو الطويل لم يقتصر عليها على. ويقف عندها، بل تجاوزها إلى ظواهر أخرى نحوية حددها لأبى الأسود لتكون نقطة انطلاق فى ميدان هذا العلم.

قال الزجاجى فى أماليه: «واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر.

قال أبو الأسود: فجمعت منها أشياء، وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها إنَّ وأنَّ، وليت، ولعل، وكان، ولم أذكر (لكن) فقال لى: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: «بل هى منها فزدها فيها»^(١).

من هذا النص نتبين أن المعلم أعطى للتلميذ مفتاح البحث، وتركه يبحث واستقرأ التلميذ ما استقرأ، وعرض على معلمه ما جمعه، ورده إلى الصواب فى حرف (لكن).

والسؤال الذى يقال هنا، هل جاءت هذه المعرفة لعلى فجأة ومصادفة؟

الواقع: أن تحديد صفات الأشياء، وبيان كنهها لا يمكن أن يقوم على الرأى الفطير، لان معرفة الأشياء تحتاج إلى معاناة فكر، وقوة إدراك، ومقارنة واستنباط.

الواقع: أن عليا كرم الله وجهه شغلته قضية اللحن ففكر فيها، وأطال التفكير، وحاول أن يضع لهذه المشكلة الوافدة حلا، يدل على ذلك ما رواه أبو الأسود إذ يقول: «دخلت على علي بن أبى طالب رضى الله عنه فرأيت مطرفاً متفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إنى سمعت ببلدكم هذا لحنًا، فأردت ان أضع كتابا فى أصول العربية، فقلت: إن فعلت هذا

(١) الامالى للزجاجى ٣٨، ٣٩.

أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة، ثم أتيت بعد ثلاث فألقى إلى بصحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم: الكلام كله اسم وفعل وحرف إلخ»^(١).

فهذا النص ينطق في وضوح بأن عليا ذكر ما ذكر في صحيفته بعد دراسة وبحث ولا أدل على ذلك من أن أبا الأسود جاء إليه بعد ثلاث فقدم له هذه الصحيفة بعد أن وضع فيها أصول العربية.

وقد قدمت سابقاً أن هذا العمل ليس بغريب أن يحدث من علي كرم الله وجهه فعلى كما قلت: عالم هذه الأمة. ويكفى أن النبي عليه السلام قال عنه:
«أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأتها من بابها»^(٢).

ورحم الله عمر إذ يقول: «لولا علي لهلك عمر»^(٣). وقال عنه عبد الله بن عباس: «والله لقد أعطى علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شارككم في العشر العاشر»^(٤).

وطلب معاوية من ضرار أن يصف له علياً فقال: «... يقول فضلاً، ويحكم عدلاً، ينفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه»^(٥).

علي أن أبا الأسود على الرغم من جهوده في حقل نشأة هذا النحو لم ينسب الفضل لنفسه، بل كان إذا سئل عن هذا العلم: «من أين لك هذا العلم؟» يقول: «أخذت حدوده عن علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٦).

وقد أضاف أبو الأسود إلى هذه الموضوعات التي تطرق إليها باب التعجب، فقد حدث ابنه أبو حرب عنه وقال: «أول باب وضعه أبي من النحو: باب التعجب»^(٧).

(١) أمالي الزجاجي ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) الاستيعاب ٢ - ١١.

(٣) نفس المصدر ص ١١٠٣.

(٤) نفس المصدر ص ١١٠٤.

(٥) نفس المصدر ٧ - ١١، ١١٠٨.

(٦) الاغانى ١٢: ٣٠٣.

(٧) الاغانى ١٢: ٣٠٤ (الثقافة).

ولو تتبعنا آراء أبى الأسود فى النحو غير هذه الأصول التى تحدثت عنها لا نجد لها أثراً، فعند هذه الأصول توقفت الروايات ولم تذكر لأبى الأسود شيئاً غيرها، وكان هذا سبباً فى تشكك بعض المحدثين فى نسبة النحو إلى أبى الأسود، ومن هؤلاء استاذنا المرحوم إبراهيم مصطفى إذ يقول: تتبعنا كتب النحو الباقية بأيدينا لتعلم أقدم عالم نسب إليه رأى نحوى فى هذه الكتب، وكان أول هذه الكتب كتاب سيويه.

ويلاحظ أول ما يلاحظ أننا لم نجد فى كتاب سيويه ولا فيما بعده من الكتب رأياً نحوياً نسب إلى أبى الأسود^(١).

وقد فات استاذنا رحمه الله أن سيويه تناول فى كتابه قضية الضمير المتصل بعد لولا، وأفاض القول فى هذا الضمير، وتناوله النحاة بعلمه بالمناقشة والحوار مع أن هذه القضية نسبت إلى أبى الأسود فقد ذكر صاحب العقد الفريد أن أبا الأسود قال: «إن من العرب من يقول: لولاي لكان كذا وكذا» وقال الشاعر:

وكم موطنٍ لولاي طحت كما هوى

بأجرامه من قُنة النبيق منهوى^(٢)

إن نسبة هذه الرواية إلى أبى الأسود تؤكد إحساسه النحوى ومعرفته بمواقع الكلام، ولهذا لما وجد أن هذا الأسلوب انحرف عن التعبير المعهود على ألسنة العرب من إيراد الضمائر المتصلة بعد لولا ذكر أن هذا الأسلوب لا غبار عليه لأنه منسوب إلى بعض العرب.

أما تناول سيويه لهذه القضية فى كتابه، فيتضح من النص الآتى:

«هذا باب ما يكون مضمراً فيه الاسم متحولاً عن حاله إذا أظهر بعلمه الاسم وذلك لولاك، ولولاي إذا أضمرت الاسم فيه جر، وإذا أظهرت رفع ولو جاءت علامة الإضمار على القياس لقلت: لولا أنت كما قال سبحانه: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، ولكنهم جعلوه

(١) مجلة كلية الآداب، المجلد العاشر ٢: ٧١ بتصرف.

(٢) العقد الفريد ٢: ٤٨٥.

(٣) سبأ: ٣١.

مضمراً مجروراً، والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا تكون علامة مضمّر مرفوع قال الشاعر (يزيد بن الحكم):

وكم موط لولاي طحت كما هوى

بأجرامه من قنّة النيق منهوى

وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس (١).

وقد فتحت رواية أبي الأسود هذا الأسلوب عن العرب باب الحوار على مصراعيه بين النحاة.

ولخص ابن الشجري في أماليه هذا الحوار بقوله: «وللنحويين في ذلك ثلاثة مذاهب: فمذهب سيبويه: أنه يرى إيقاع المنفصل المرفوع بعدها وهو الوجه كقولك: لولا أنت فعلت كذا، ولولا أنا لم يكن كذا.

ولا يمتنع من إجازة استعمال المتصل بعدها كقولك: لولاي ولولاك، ولولاه، ويحكم بأن المتصل بعدها مجرور بها فيجعل لها مع المضمّر حكماً يخالف حكمها مع المظهر.

ومذهب الأحفش أن الضمير المتصل بعدها مستعار للرفع فيحكم بأن موضعه رفع بالابتداء، وإن كان بلفظ الضمير المنصوب أو المجرور فيجعل حكمها مع المضمّر موافقاً حكمها مع المظهر.

ومذهب أبي العباس محمد بن يزيد: أنه لا يجوز أن يليها من المضمّرات إلا المنفصل المرفوع، واحتج بأنه لم يأت في القرآن غير ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

ويسترسل ابن الشجري في ذكرى ما يتعلق بالشاهد السابق الذي رواه سيبويه وينقض اتهام المبرد لهذا الشاهد إلى أن يصل إلى أدلة الاحتجاج فيقول: «وللمحتج لسبويه أن يقول: إنه لما رأى الضمير في لولاي ولولاك، ولولاه خارجاً عن حيز ضمائر الرفع، وليست لولا من الحروف المضارعة للفعل فتعمل النصب كحروف النداء ألحقها بحروف الجر.

وحجة الأحفش: أن العرب قد استعارت ضمير الرفع المنفصل للنصب في قولهم:

(١) سيبويه ١: ٣٨٨. وطاح: هلك، الاجرام: جمع جرم وهو الجسد، والقنة: ما استند من رأس الجبل، النيق: ارفع الجبل، منهوى: ساقط.

لقيتك أنت. وكذلك استعاروه للجبر في قولهم: مررت بك أنت أكدوا المنصوب والمجرور بالمرفوع كما ترى»^(١).

وقد احتفظ لنا الرواة أيضا بجانب هذه الرواية السابقة التي أثارنا الجدل حول النحاة برواية أخرى تدور حول قراءة قرآنية نسبت إليه وإلى نصر بن عاصم فتحت باب الاحتجاج لهذه القراءة في مجال الصيغ اللغوية والموازن الصرفية.

قال ابن جنى في المحتسب: «وقرأ نصر بن عاصم وأبو الأسود ﴿تَتَوْنِي صُدُورَهُمْ﴾»^(٢).

قال أبو الفتح: أما تتونى فتفعول كما قال، وهذا من أبنية المبالغة لتكرير العين كقولك: أعشب البلد، فإذا كثر فيه ذلك، قيل: أعشوشب، وأخلولقت السماء للمطر: إذا قويت أماراة ذلك واغدودن الشعر: إذا طال واسترخى. أنشدنا أبو علي:

وقامت ترائيك مفدودنا

إذا ماتننوء به أدها

وقرأت على أبي بكر محمد بن الحسن بن أبي العباس أحمد بن يحيى قول الشاعر:

لو كنت تعطى حين تسأل سامحت

لك النفس واحلولاك كل خليل

وقال حميد بن ثور:

فلما مضى عامين بعد انفصاله

عن الضرع واحلولى دمانا يرودها^(٣).

وبعد، فقد فتحت لنا رواية أبي الأسود في (لولا)، وروايته في قراءة: (تتونى) مجالا امتعنا بهذا الحوار النحوى في لولا، ومجالا آخر وضع لنا في مجال القراءة أنها غير خارجة عن صيغ العربية، لأنها مدعمة بالشواهد الشعرية.

(١) أمالي ابن الشجرى ١: ١٨١ ١٨١، وانظر الخلاف المستفيض وتعليق البغدادي في الخزانة ٢: ٤٣٠.

(٢) هود: ٥.

(٣) المحتسب و«الدماث»: جمع دمث، وهو السهل اللين الكثير النبات من الأرض ١: ٣١٨، ٣١٩.

٢. أبو الأسود والشواهد الشعرية:

لقد أثر أبو الأسود في مجال الشواهد الشعرية، لأنه ترك لنا أبياتاً من شعره كانت مثار جدل، وموضع نقاش بين النحويين المتأخرين. وبذلك أسهم أبو الأسود في الدراسة النحوية التي ظهرت فيما بعد، لأنه قدم لها مادة حية من شعره شحنت جو الخلافات النحوية بما اشتملت عليه من صيغ وتراكيب.

وهذه الشواهد تتمثل في أمرين: شواهد لم يختلف أحد في نسبتها إلى أبي الأسود، وشواهد اختلف فيها، أما الشواهد التي لم يختلف أحد في نسبتها إليه فهي:

(١) يزعم النحاة ان الفعلين: (يذر)، و(يدع) لا ماضى لهما.

ومن هؤلاء النحاة ابن جنى حيث يقول في الخصائص ما نصه: «فإن كان الشيء شاذاً في السماع، مطرداً في القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك، وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله، من ذلك امتناعك من:

وذر، وودع لانهم لم يقولوهما ولا غرو عليك أن تستعمل نظيرهما نحو: وزر، ووعد لو لم تسمعهما. فأما قول أبي الأسود:

ليت شعري عن خليلي ما الذي

غاله في الحب حتى ودعه

فشاذ، وكذلك قراءة بعضهم «ما ودَعك ربك وما قلى»^(١).

ويقول ابن جنى في موضع آخر: «واعلم أن الشاعر إذا اضطر جاز له أن ينطق بما يبيحه القياس، وإن لم يرد به سماع الأثرى إلى قول أبي الأسود:

ليست شعري عن خليلي ما الذي

غاله في الحب حتى ودعه^(٢)

من هذين النصين نرى أن ابن جنى ينكر ورود هاتين الصيغتين، لأنه يصفهما مرة بالشذوذ، ومرة أخرى بأنهما لم يسمعا.

(١) الخصائص ١: ٦٩.

(٢) الخصائص ١: ٣٩٦.

والواقع ان ابن جنى خانه التوفيق فى هذا الرأى وجرى على ما جرى عليه النحاة السابقون دون أن يكلف نفسه مشقة البحث فى نصوص العرب وشواهدهم، ولا أدل على ذلك من اضطرابه فى الرأى، فالوصف بالشذوذ يعنى القلة فى الاستعمال، ونفى السماع يعنى ان العرب لم تنطق بهما، وفى هذا تناقض بين.

وفى رأى أن انكار ماضى هذين الفعلين مع أنهما وردا فى النصوص العربية التى لا يتطرق اليها الشك بعد عن الحقيقة، وظلم لهذه النصوص.

وقد أعجبني، وأثلج صدرى السيد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى حينما رد كيد النحاة فى نحورهم بقوله:

«قال أبو حيو: وقرىء شاذاً «ما ودعك ربك وما قلى» بالتخفيف أى ما تركك، وهى قراءة عروة ومقاتل، وقرأ أبو إبراهيم وابن أبى عبله، ويزيد النحوى والباقون بالتشديد، والمعنى فيهما واحد» ثم يستدل على قراءة التخفيف بالحديث الشريف:

«البتة قوم عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين».

ويسوق الزبيدى كلام ابن جنى الذى ذكرته سابقا ويعلق بقوله: «قال شيخنا عند قوله: وقد أميت ماضيه، قلت: هى عبارة أئمة أهل الصرف قاطبة، وأكثر أهل اللغة، وينافيه وقوعه فى الشعر ووقوع القراءة به فإذا ثبت وروده ولو قليلا فكيف يدعى فيها الإمامة؟».

ثم ساق الزبيدى نصا لليث فقال: «وهذا بعينه نص الليث فانه قال: وزعمت النحوية أن العرب أماتوا مصدر يدع ويذر واستغنوا عنه بترك، والنبي ﷺ أفصح العرب قد رويت عنه هذه الكلمة»^(١).

ويستدل أبو حيان الاندلسى بشعر أبى الأسود حينما يقول: «وقد سمع ودع، ووذر قال أبو الأسود:

ليت شعرى عن خليلى ما الذى

غاله فى الحب حنى ودعه

ويؤيد شاهد أبى الأسود بشاهد آخر فيقول: وقال آخر:

(١) تاج العروس ٥: ٥٢٤ المطبعة الوهبة - بتصرف.

و ثم ودعنا آل عمرو وعامر

فرائس أطراف المثقفة السمر (١)

وأنكر الشيخ ياسين قول هؤلاء النحاة الذين يزعمون أن ماضى الفعلين لم يسمع بقوله: «والحق أنهم استعملوا ودع ومنه قول أبي الأسود، ثم ساق البيت وأيده. بقول النبي عليه السلام: «دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم» (٢).

٢ - وأبو الأسود لتمكنه من اللغة والنحو أورد لنا شاهدا جاء فى شعره وهو يدل على فقهه بالعربية، ومعرفته بالنحو ومصادره ومشتقاته، فالقدر يقال عنها: غَلَّتِ القدر غليا وغلليانا، ومن الخطأ اللغوى ان يقال عنها: غليت بالياء، وباب الدار يقال عنه: مغلق لا مغلوق.

ويفخر أبو الأسود بفصاحته، والتزامه العربية، وتجنبه اللحن فيقول:

ولا أقول لقدر القوم: قد غليت

ولا أقول لباب الدار: مغلوق

وتناول اللغويون والنحويون هذا البيت، وجعلوه شاهدا على ان غليت خطأ ومغلوق خطأ كذلك، لان أبا الأسود ذكر ان ذلك لحن.

قال ابن السكيت: «ويقال: قد غلت القدر تغلى غليا وغلليانا، ولا يقال: غليت». قال أبو الأسود:

ولا أقول لقدر القوم: قد غليت

ولا أقول لباب الدار: مغلوق (٣)

وهذا النص نفسه يسوقه ابن جنى فى المنصف (٤) كذلك يسوقه صاحب اللسان، ويعلق عليه بقوله: أى أنى فصيح لا ألحن (٥).

(١) البحر المحيط ٨ : ٤٨٥ .

(٢) حاشية ياسين ٢ : ٧٨ .

(٣) اصلاح المنطق ١٩٠ .

(٤) المنصف: ٣ : ٦٠ .

(٥) اللسان: غلا.

٣- فى باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره فى غير الأمر والنهى يستدل سيويه فى كتابه بشاهد نحوى منسوب إلى أبى الأسود:

قال سيويه: ومن ذلك قولهم: مرحبا، وأهلا، وإن تأتى فأهل الليل والنهار.

وزعم الخليل رحمه الله حين مثله أنه بمنزلة رجل رأته قد سدده سهمه فقلت: القرطاس، أى أصبت القرطاس، أى أنت عندى ممن سيصيبه. وإن أثبت سهمه قلت: القرطاس، أى قد استحق وقوعه بالقرطاس. فإنما رأيت رجلا قاصداً إلى مكان أو طالباً أمراً فقلت: مرحباً وأهلاً، أى أدركت ذلك وأصبت، فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه، وكأنه صار بدلاً من رحبت بلادك وأهلت كما كان الحذر بدلاً من احذر..

ثم يستشهد سيويه على ما يقول ليؤيد رأيه فيقول:

وقال أبو الأسود:

إذا جئت بواباً له قال: مرحباً

ألا مرحب واديبك غير مضيق^(١)

٤- ويستشهد سيويه ببيت لآبى الأسود حذف تنوينه للضرورة. فقال: «وزعم عيسى ان بعض العرب ينشد هذا البيت لآبى الأسود الدولى:

فألفيته غير مستمتب

ولا ذاكر الله إلا قـلـيـلا

لم يحذف التنوين استخفافاً ليعاقب المجرور، ولكنه حذفه لالتقاء الساكنين، كما قال: رمى القوم، وهذا اضطرار وهو مشبه بذلك الذى ذكرت لك^(٢).

ويعلل ابن السجرى لحذف التنوين فى بيت أبى الأسود بقوله: والذى حسن لقائل هذا البيت حذف التنوين لالتقاء الساكنين، ونصب اسم الله تعالى، واختير ذلك على حذف التنوين للإضافة، وجر اسم الله أنه لو أضاف لتعرف بإضافته إلى المعرفة، ولو فعل ذلك لم يوافق المعطوف المعطوف عليه فى التكبير، فحذف التنوين لالتقاء الساكنين، واعمل اسم الفاعل فعطف نكرة على نكرة مجرورة بإضافة: (غير) إليها، وانتصاب (غير) على الحال

(٢) سيويه ١: ١٦٩.

(١) سيويه ١: ١٤٩.

كانتصاب ضالين في قوله تعالى: ﴿أَلْفُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِينَ﴾^(١) فصار في التقدير غير مستعجب ولا ذاكرة^(٢).

ثم يسوق ابن الشجري قصة طريفة عن أبي سعيد السيرافي ليقوي بها تعليله في حذف التنوين من بيت أبي الأسود فيقول: «وحكى عن القاضي أبي سعيد السيرافي أنه قال: حضرت في مجلس أبي بكر بن دريد، ولم أكن قبل ذلك رأيت، فجلست في ذيل المجلس فأنشد أحد الحاضرين بيتين يعزيان إلى آدم عليه السلام، قالهما لما قتل ابنه قابيل أخاه هابيل، وهما:

تغيرت البلاد ومن عليها

فوجه الأرض مغبراً قبيح

تغير كل ذي حسن وطيب

وقل بشاشة الوجه المليح

فقال أبو بكر: هذا شعر قد قيل في صدر الدنيا، وجاء فيه الإقواء، فقلت: إن له وجهاً يخرج من الإقواء، فقال: ما هو؟ قلت: نصب (بشاشة) وحذف التنوين منها لالتقاء الساكنين لا للإضافة، فتكون بهذا التقدير نكرة منتصبة على التمييز، ثم رفع الوجه وصفته بإسناد: (قل) إليه، فيصير اللفظ: قل بشاشة الوجه المليح. والأصل بشاشة الوجه المليح فقال: ارتفع فرفعني حتى أقعدني إلى جنبه. هذا حكم التنوين^(٣).

وقد سجل البغدادي في الخزانة أراء عديدة في بيت أبي الأسود فللأعلم رأي، ولاين خلف رأي، ولاين هشام في المعنى رأي، ولبعض فضلاء المعجم رأي، ولا يتسع المقام لذكر هذه الآراء^(٤)، وأكتفي بالإشارة إلى مرجعها.

٥ - وفي الباب الذي عقده ابن جنى في الخصائص بعنوان: «باب في تسمية الفعل» يقول: «ومنها هيهات، وهي عندنا من مضاعف الفاء في ذوات الأربعة، ووزنها: فعللة، وأصلها هيهية، كما أن أصل الزوزاة، والقوقاة، والدوداة والشوشاة: الزوزوة، والدودوة،

(٢) الامالي لابن الشجري ١: ٣٨٣، ٣٨٤.

(٤) الخزانة ٤: ٥٥٤ - ٥٥٨.

(١) الصافات: ٦٩.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

والشوشوة، فانقلبت اللام ألقاً، فصارت هيهاء، والتاء فيها للتأنيث، مثلها في القوقاة والشوشاة، والوقوف عليها بالهاء. وهي مفتوحة فتحه المبنيات.

ومن كسر التاء فقال: هيهات فإن التاء تاء جماعة التأنيث والكسرة فيها كالفتحة في الواحد، واللام عندنا محذوفة لالتقاء الساكنين، ولوجاءت غير محذوفة لكانت هيهات، لكنها حذفت لأنها في آخر اسم غير متمكن، فجاء جمعه مخالفاً لجمع المتمكن نحو: الدوديات، والشوشيات، كما حذفت في قولك: ذان وتان، واللذان واللتان. وأما قول أبي الأسود.

على ذات لوث أو بأهوج شوشو

صنيع نبيل يملأ الرحل كاهله

فسألت عنه أبا علي، فأخذ ينظر فيه، فقلت له: ينبغى أن يكون بنى من لفظ الشوشاة مثل: جحمرش، فعاد إلى شوشو، فأبدل اللام الثلاثة ياء لانكسار ما قبلها فعاد إلى شوشو فتقول على هذا في نصبه: رأيت شوشويا، فقبل ذلك ورضيه.

ويجوز فيه عندي وجه آخر، وهو أن يكون أراد: شوشويا، منسوباً إلى شوشاة، ثم خفف إحدى ياءى الإضافة^(١).

٦ - حذف فاء (أبى) إذا نادوه:

قال ابن الشجرى: «ومن الأسماء المحذوف منها الهمزة فاء أبى فلان إذا نادوه كقول أبى الأسود الديلى:

يا با المفيرة رب أمر ممضل

فرجته بالنكر منى والدم^(٢)

وأما الشواهد الشعرية التي نسبت إلى أبى الأسود وغيره. وأثرت في الدراسات النحوية، واعتمد عليها النحويون المتأخرون في بناء القواعد فهي:

(١) الخصائص ٣: ٤٢.

(٢) أمالى ابن الشجرى ٢: ١٦.

١ - «كل» لفظه الأفراد والتذكير، ومعناه بحسب ما تضاف إليه فإن كانت مضافة إلى منكر وجب مراعاة معناها، فلذلك جاء الضمير مفردا مذكرا في نحو: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (١).

ومفردا مؤنثا في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٢).
ومثنى كقول الفرزدق:

وكل رفيقى كل رحل - وإن هما

تعاطى القنا قوماهما اخوان

ومجموعا مذكرا في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣).

قال ابن هشام: وهذا الذى ذكرناه من وجوب مراعاة المعنى مع النكرة نص عليه ابن مالك، ورده ابو حيان بقول عنترة:

جادت عليه كل عين ثرة

فتركن كل حديقة كالدرهم

فقال: تركن، ولم يقل: تركت فدل على جواز: كل رجل قائم، وقائمون.

قال ابن هشام:

والذى يظهر لى خلاف قولهما وأن المضافة إلى المفرد إن أريد نسبة الحكم إلى كل واحد وجب الأفراد نحو: كل رجل يشبعه رغيف، أو إلى المجموع وجب الجمع كبيت عنترة، وعلى هذا فتقول: جاد على كل محسن فأغنانى أو فاغنتونى بحسب المعنى الذى تريده.

ثم قال: وربما جمع الضمير مع إرادة الحكم على كل واحد.. وعليه أجاز ابن عصفور فى

قوله:

(١) القمر: ٥٢.

(٢) المدثر: ٣٨.

(٣) المؤمنون: ٥٣.

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه

وما كل مؤت نصحه بلبيب

أن يكون: مؤتيك: جمعا حذف نونه للإضافة^(١).

وهذا الشاهد الذى عرضه ابن عصفور نسب إلى أبى الأسود أو مودود العنبرى^(٢).

واستدل السيوطى فى الهمع بهذا البيت على ان اعتماد اسم الفاعل على الوصف المقدر
كما يسوغ عمله - أى ما كل رجل مؤت نصحه^(٣).

٢ - اعادة الضمير على متأخر فى اللفظ وفى الرتبة.

إذا اتصل الضمير المتصل بالفاعل المقدم على المفعول المؤخر يعتبر ضرورة على الأصح.

واستدل ابن هشام على هذه الضرورة بقول الشاعر:

جزى ربه عنى عدى بن حاتم

جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

فأعيد الضمير من «ربه» إلى «عدى» متأخر لفظاً ورتبة^(٤).

وقد تناول هذا الشاهد ابن الشجرى على إعادة الهاء إلى المصدر الذى دل عليه جزى،
فقدّره: جزاء رب الجزاء^(٥).

وقال عنه ابن جنى فى الخصائص: إن الهاء عائدة على مذكور متقدم كما يؤول النحاة
حتى لا يترتب على ذلك ضمير المفعول عليه مضافاً إلى الفاعل، فيكون مقدماً على لفظاً
ومعنى.

ولابن جنى رأى طريف فى هذا الشاهد جرى فيه على غير ما جرى النحاة، فيقول: «وأما
أنا فأجيز أن الهاء فى قوله: «جزى ربه عنى عدى بن حاتم» عائدة على (عدى) خلافاً على
الجماعة.

(١) المبنى لابن هشام ١: ٢١٦، ٢١٧ ط دار الفكر - بيروت - بتصرف.

(٢) انظر معجم الشواهد للأستاذ المرحوم هارون ١: ٥٩.

(٣) الهمع ٢: ٩٥، والدرر اللوامع ٢: ١٢٨.

(٤) شرح شذور الذهب: ١٢٥، ١٢٦.

(٥) أمالى ابن الشجرى ١: ١٠٢.

ويمضى ابن جنى ليرهن على رأيه فيقول: «فإن هنا طريقاً آخر يسوغك غيره، وذلك أن المفعول قد شاع عنهم، واطرد من مذاهبهم كثرة تقدمه على الفاعل حتى دعا ذاك أبا على إلى أن قال: إن تقدم المفعول قسم قائم برأسه كما إن تقدم الفاعل قسم قائم برأسه، وإن كان تقديم الفاعل أكثر، وقد جاء به الاستعمال مجيئاً واسعاً، نحو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١).

ويستمر ابن جنى في عرض أبيات من شعر العرب ليؤيد بها قوله في كثرة تقديم المفعول على الفاعل إلى أن يقول: والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن، وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر، فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له حتى إنه إذا اُخِرَ فموضعه التقديم، فعلى ذلك كأنه قال: «جزى عدى بن حاتم ربه» ثم قدم الفاعل على أنه قد قدره مقدماً عليه مفعوله فجاز ذلك ولا تستنكر هذا الذي صورته لك، ولا يخف عليك، فإنه مما تقبله هذه اللغة، ولا تعافه، ولا تتبشعه» (٢).

وهذا البيت الذي شغل النحاة بما دار حوله من آراء، وبما قدمه لنا ابن جنى من رأى مبتكر نسب إلى أبى الأسود الدؤلى، ونسب إلى السباغة الذبياني. ويميل البغدادي في الخزانة إلى نسبه إلى أبى الأسود فيقول: «وهذا البيت لأبى الأسود، الذي يهجو به عدى بن حاتم الطائي».

وزعم ابن جنى وغيره أنه للسباغة الذبياني، وهو وإن عاصر عديا لكن الذي روى له إنما هو:

جزى الله عبساً عبس آل بغيض

جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وليس فيه مما نحن فيه» (٣).

٣ - في المفعول معه:

ذكر ابن هشام في شرح شذور الذهب أنه ليس من المفعول معه قول أبى الأسود الدؤلى:

لأنه عن خلق وتأتى مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) الخصائص ١: ٢٩٤ - ٢٩٧ بتصرف.

(٣) الخزانة ١: ١٣٦.

الشاهد فى قوله: «وتأتى مثله» فإنه ليس مفعولاً معه، وان كان بعد واو بمعنى مع، أى لا تنه عن خلق مع إتيانك مثله لانه ليس باسم»^(١).

واستشهد به الأشمونى فى باب «إعراب الفعل»، وذكر العينى أن قائله: أبو الأسود، ومن نسبه إلى الاخطل فقد أخطأ، وحكى أبو عبيد أنه للمتوكل الكنانى^(٢).

من هذه الشواهد التى قدمت لنا مادة حية فى مجال النحو العربى نستطيع أن نقول: إن أبا الأسود أثر فى الدراسات النحوية بما قدمه من أبيات كانت موضع مناقشة، ومجال حوار لتأييد فكرة، أو دعم رأى، أو بناء قاعدة فى حقل النحو العربى.

وإذا كان لأبى الأسود هذا الأثر الكبير فى نشأة النحو، وفى تقديم الشواهد الشعرية التى لجأ اليها النحويون بعده لتأييد فكرة، أو دعم رأى أو تقوية دليل - أقول إذا كان لأبى الأسود هذا الشأن فإن المناسبة تقضى باجلاء بعض الصور فى مجال حياته، وصفاته وأخلاقه، وخبرته بالناس بعد أن عرفنا صوراً من جهوده فى النشاط النحوى حيث نقط المصحف تنقيط اعراب، وحيث وضع اللبانات الأولى فى بناء النحو العربى.



(١) شرح شذور الذهب ٢١٣، ٢١٤.

(٢) الأشمونى والعينى هامش الأشمونى ٣: ٣٠٧.

ترجمة موجزة لأبي الأسود الدؤلي:

اسمه:

ذكر السيوطي في البغية أن اسمه: «ظالم بن عمرو بن ظالم، وقيل: ابن سفيان بن عمر بن حليس بن نفائة بن عدى بن الدئل بن بكر بن كنانة أبو الأسود الدؤلي البصري»^(١).

ويحقيق ابن السكيت نسبه فيقول: وهو أبو الأسود الدؤلي مفتوحة مهموزة وهو منسوب إلى الدول من (كنانة). والدول في حنيفة ينسب إليهم الدؤلي. والدئل في عبد القيس ينسب إليهم الديلي.

والدئل: دوية صغيرة شبيهة بآبن عرس، وأنشد الاصمعي:

جاءوا بجيش لوقيسٍ معرّسه

ما كان إلا كمعرّس الدئل^(٢)

مصدر ثقافته:

يقول صاحب الاغانى: «وكان أبو الأسود من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم، وقد روى عن عمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما فأكثر وروى عن ابن عباس وغيره»^(٣).

تشيعه لعلى كرم الله وجهه:

كانت العلاقة بين على كرم الله وجهه وأبى الأسود علاقة وطيدة الأركان قوامها الحب والإخلاص، والتقدير لآل بيت النبي عليه السلام. وبسبب تشيعه كان أبو الأسود يلقي كثيراً من المصاعب في حياته.

ولا أدل على ذلك من أن معاوية حينما ادعى زيادا وألحقه بأبيه ولاء العراق. «وكان أبو الأسود يأتيه فيسأله حوائجه، فربما قضاها، وربما منعها لما يعلمه من رأيه وهواه في على بن أبى طالب عليه السلام.. فكان أبو الأسود يترضاه، ويداريه ما استطاع ويقول في ذلك:

(٢) اصلاح المنطق ١٦٥، ١٦٦.

(١) بغية الوعاة ٢: ٢٢.

(٣) الاغانى ١٢: ٣٠١ (الثقافة).

رأيت زيادا صدّ عني وجهه
ولم يك مردودا عن الخير سائله
ينفُذُ حاجات الرجال وحاجتي
كداء الجوى فى جوفه لا يُزائله
فلا أنا ناسٍ ما نسيت فأيس
ولا أنا راءٍ ما رأيت ففاعله
وفى اليأس حَزْمٌ لِلْبَيْبِ وراحة
من الأمر لا يُنسى ولا المرء نائله (١)
وقصة أخرى تؤكد ما قلناه، وثبت أن أبا الأسود لاقى من رجالات قومه فى سبيل تشيعه
ما لاقى.

يقول صاحب الأغاني: «كان عبدالله بن عامر مكرماً لابی الأسود، ثم جفاه لما كان عليه من
التشيع فقال فيه أبو الأسود:

ألم تر ما بينى وبين ابن عامر
من الود قد بالت عليه الشمالب
وأصبح باقى الود بينى وبينه
كأن لم يكن والدهر فيه عجائب
إذا المرء لم يجيبك إلا تكررهما

بدالك من أخلاقه ما يغالب (٢)

وحب أبى الأسود لعلي تجلى فى أوضح صورته، وأروع أمثلته حينما وقف أبو الأسود
خطيباً ليرثى علياً، إن كلماته كانت تشع بالحب وتوحى بالإخلاص، وتدل على أن هذا الحب
كان مجرداً ليس فيه شائبة من نفع دنيوى، أو غرض مادى. قال فى خطبته ما نصه:

(١) الاغانى ١٢ : ٣١٧ (الثقافة).

(٢) الاغانى ١٢ : ٣٣١ وانظر ديوان أبى الأسود / ٤٧ - ٤٨.

«إن رجلاً من أعداء الله المارقة عن دينه اغتال أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه، ومثواه في مسجده، وهو خارج لتهجده في ليلة يرجى فيها مصادفة ليلة القدر، فبأمر الله هو من قتل وأكرم به، وبمقتله وروحه من روح عرجت إلى الله تعالى بالبر والتقوى، والإيمان والإحسان لقد أطفأ منه نور الله في أرضه، لا يبين بعده أبداً وهدم ركناً من أركان الله تعالى لا يشاد مثله، فإنما الله وإنما إليه راجعون، وعند الله نحسب مصيبتنا بأمر المؤمنين، وعليه السلام ورحمة الله يوم ولد، ويوم قتل، ويوم يعث حياً». ثم بكى حتى اختلفت أضلعه^(١).

شجاعته في الحق، واعتداده بنفسه؛

كان أبو الأسود شجاعاً يقول الحق لا يبالي بما يلقي في سبيله، ومن هنا كان موقفه من حكام عصره موقف المعزز بنفسه ولا ادل على ذلك من قوله: «الملوك حكام على الدنيا، والعلماء حكام على الملوك»^(٢).

ومن جراته على الحكام موقفه من معاوية، فقد روى لنا أبو بكر الهذلي: «أن أبا الأسود كان يحدث معاوية يوماً فتحرك فصرط، فقال لمعاوية: استرها علي، فقال: نعم، فلما خرج حدث بها معاوية عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم فلما غدا عليه أبو الأسود قال عمرو: ما فعلت ضرطتك يا أبا الأسود بالأمس؟ قال: ذهبت كما تذهب الريح مقبلة ومدبرة من شيخ ألان الدهر أعصابه ولحمه عن إمساكها، وكل أجوف ظروف. ثم أقبل على معاوية فقال: إن امرأ ضعفت أمانته ومرءته عن كتمان ضرورة لحقيق بالآ يؤمن على أمور المسلمين»^(٣).

حقاً إن أبا الأسود قدم اعتذاراً مقنعاً للدفاع عن نفسه، وفي الوقت نفسه وجه لمعاوية طعنة دامية حيث اتهمه في مروءته، وأن ولايته لأمر المسلمين غير جديرة به، فإذا كان في أمر تافه لم يستطع أن يكتمه فكيف إذا يحمل أمانة المسلمين، ويتولى أمورهم؟

حبه للرحلة من أجل طلب الرزق والحياة الكريمة؛

لم يكن أبو الأسود كسولاً خاملاً، فعلى الرغم من كبر سنه لم يستسلم لأحداث الحياة، ويقنع في داره بالرزق اليسير، ويوثر الدعة والهدوء على المكافحة من أجل الحياة، ومن أجل

(٢) المقد الفريد ٢: ٢١٤.

(١) الاغانى: ١٢: ٣٣٤.

(٣) الاغانى: ١٢: ٣١٤.

العيش الكريم، إنه لم يكن كذلك، والمحاورة الآتية بينه وبين ابنته تدل على روحه المكافحة، ونفسه الكريمة، وإيمانه بالقدر، وتوكله على الله حيث لا يخشى فى سبيل هدفه ما يخشاه أولو العزائم الضعيفة، والنفوس المريضة، والقلوب الواجفة:

يحدثنا صاحب الأغاني فيقول: «أراد أبو الأسود الدؤلى الخروج إلى فارس فقالت له ابنته: يا أبت إنك قد كبرت، وهذا صميم الشتاء فانتظر حتى ينصرم وتسلك الطريق أمانا فإني أخشى عليك، فقال أبو الاسود:

إذا كنت معنيا بأمر تريده

فما للمضاء والتوكل من مثل

توكل وحمّل امرك الله إن ما

يراد له آتيك فاقنع بذي الفضل

ولا تحسبن السير أقرب للردى

من الخفض فى دار المقامة والشمّل

ولا تحبسنّى يا بنيتى عن مذهبى

بظنك إن الظن يكذب ذا العقل

وإنى ملاق ما قضى الله فاصبرى

ولا تجعلى العلم المحقق كالجهل

وإنك لا تدريين: هل ما أخافه

أبعدى يأتى فى رحيلى أو قبلى

وكم قد رأيت حاذرا متحفظا

أصيب به وألفنه النية فى الأهل^(١)

ذكاء أبى الاسود وحضور بديهته:

لم تغفل كتب الطبقات الروايات العديدة التى سجلت لتدل على قوة ذكائه وحضور بديهته، وسرعة جوابه، ولا نستطيع فى هذه المجالة أن نسجل تلك الروايات التى دارت حول ذكائه، وحضور جوابه، ونكتفى بذكر طرف منها لتكون دليلا واضحا على ذكاء أبى الأسود. وقد اعترف له بهذا الذكاء الشعبى حينما قال عنه: قاتل الله أبا الاسود.

(١) الاغانى ١٢: ٣١٣ والديوان / ٣٥ مع اختلاف الرواية فى بعض الأبيات.

ما كان أحضر جوابه، ويسوق خيرا يدل على قوله فيه فيقول: «دخل على معاوية بالنخيلة فقال له معاوية: أكنت ذكرت للحكومة؟ قال نعم، قال: فماذا كنت صانعا؟ قال: كنت أجمع ألفاً من المهاجرين وأبنائهم، وألفاً من الانصار وأبنائهم، ثم أقول: يا معشر من حضر، أرجل من المهاجرين أحق أم رجل من الطلقاء؟ فلعمري معاوية، وقال: الحمد لله الذي كفاناك^(١).

وقال رجل لابي الاسود: أنت والله ظريف لفظ، وظرف علم، ووعاء حلم غير أنك بخيل، فقال: وما خير ظرف لا يمك ما فيه^(٢).

وسلم عليه أعرابي يوماً. فقال أبو الاسود: كلمة مقولة. فقال: أتأذن في الدخول؟ قال: وراءك أوسع لك. قال: فهل عندك شيء؟ قال: نعم، قال: أطمعني، قال: عيالي أحق منك، قال: ما رأيت الأم منك. قال: نسيت نفسك^(٣).

وأبو الاسود يجيب معاوية إجابة رجل دقت ظهره السنون، وعركته الايام وقد عرف خيرها وشرها، وذاق محنها والآمها، فلم يعبأ بسخرية معاوية به وهو في هذه السن لأنه أجابه بحقيقة تهز كيانه، وكأنه يقول له: إن الأيام لن يفلت منها إنسان ولو كان معاوية وتتجلى هذه الواقعة في هذا الخبر.

روى أن أبا الاسود دخل على معاوية، فقال له: أصبحت جميلاً يا أبا الاسود فلو علقت نيمة تدفع العين عنك! فقال أبو الاسود:

أفنى الشباب الذي ولى بهجته

كر الحديد من من آت ومنطلق

لم يتركالى فى طول اختلافهما

شيئاً أخاف عليه لذة الحدق^(٤)

وبعد، فهذه خطوط عريضة لشخصية هذا الرجل الذى رفع لواء العربية وسجل اسمه فى التاريخ من أوسع أبوابه.

أما وفاته فكانت سنة تسع وستين للهجرة بطاعون الجارف^(٥).



(٣) المرجع نفسه ١: ٢٩٤.

(٢) أمالى المرتضى ١: ٢٩٤.

(١) أمالى المرتضى ١: ٢٩٢.

(٥) بغية الوعاة ٢: ٢٣.

(٤) أمالى المرتضى ١: ٢٩٣.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- الإنقائان في علوم القرآن- جلال الدين السيوطى ط. نالئة - الءلى
- ٢- الالءاب في معرفة الأصءاب: ابن عبد البرّ - طبع نهضة مصر.
- ٣- الإصابة في ءمىز الصءابة: ابن ءجر - المءبعة الشرففة.
- ٤- إصلاء المنطق: ابن السكفء - دار المعارف - طبعة نائفة.
- ٥- الأمالى للزءاى - ءءقق المرءوم الأستاذ عبد السلام هارون - طبع المؤسة العربفة الءدفة.
- ٦- أمالى ابن الشءرى - طبع الهند - طبعة أولى.
- ٧- أمالى المرئضى - مءبعة الءلى.
- ٨- البءر المءط: أبو ءبان الأندلسف - دار الفكر - بفرون.
- ٩- بففة الوعاة - السبوطى، ءءقق الأستاذ محمد أبف الفضل - طبع عبسى الءلى.
- ١٠- الببان والءبفن - الءاوء، ءءقق المرءوم الأستاذ عبد السلام هارون - طبع الءانءى.
- ١١- ناء العروس: الزفءى - المءبعة الوهفة.
- ١٢- ءقفء العلم - الءطفب البءءاءى - ءءقق الأستاذ فوسف العئ - طبع ءمشق ١٩٤٩.
- ١٣- ءاشفة بس على ءءصرفء - مءبعة الءلى.
- ١٤- الءضارة الإسلامفة ومدى ءأءرها بالمؤءراء الأءنبفة: فون كرفمر - نشر دار الفكر العربف.
- ١٥- ءزانة الأءب للبءءاءى، ءءقق المرءوم الأستاذ عبد السلام هارون - طبع الءانءى - القاهرة.
- ١٦- شرح الأشمونى - مءبعة الءلى.
- ١٧- شرح شءور الذهب، ءءقق الشفء محمد مءى الءفن - المءبءة ءءارفة - القاهرة.

- ١٨- الفائق في غريب الحديث - الزمخشري - طبع عيسى الحلبي.
- ١٩- الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د/ شوقي ضيف - دار المعارف.
- ٢٠- الفهرست لابن النديم المطبعة الرحمانية.
- ٢١- الكتاب لسيويه، تحقيق المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون - طبع دار القلم.
- ٢٢- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لابن حسام الهندي - طبع دائرة المعارف بالهند.
- ٢٣- لسان العرب لابن منظور- عدة طبعات.
- ٢٤- مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- ٢٥- مجلة المجمع اللغوي بمصر.
- ٢٦- مصادر الشعر الجاهلي - د/ ناصر الأسد - دار المعارف بمصر.
- ٢٧- معجم الشواهد - الأستاذ عبد السلام هارون نشر الخانخي.
- ٢٨- المغنى لابن هشام - تحقيق مازن المبارك- طبع بيروت.
- ٢٩-مقدمتان في علوم في علوم القرن - تحقيق آرثر جفري - مطبعة السنة المحمدية.
- ٣٠- المنصف لابن جنى - تحقيق الأستاذ إبراهيم مصطفى، والأستاذ عبد الله أمين - مطبعة مصطفى الحلبي .
- ٣١- الموشح للمرزباني: تحقيق محمد على البجاوي - طبع دار نهضة مصر.
- ٣٢- همع الهوامع للسيوطي، تحقيق الجزء الأول - الأستاذ عبد السلام هارون، ود. عبدالعال سالم مكرم، والأجزاء الستة بتحقيق الثاني - مؤسسة الرسالة- بيروت.



١٢. عبدالله بن أبي إسحاق

وأثره في النحو العربي (*)

هو عبدالله بن أبي إسحاق مولى آل الحضرمي. وآل الحضرمي هم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف. والحليف عند العرب مولى، من ذلك قول الراعي:

جزى الله مولانا غنياً ملامة شرار موالى عامر في العزائم (١)
ويكنيه ابن الأنباري فيقول عنه: هو أبو بحر (٢).

وابن أبي إسحاق جد يعقوب بن إسحاق الحضرمي القاريء المشهور (٣).

نقائمه:

قال عنه ابن الأنباري: «كان قيماً بالعربية والقراءة، إماماً فيهما» (٤).

وقال عنه أبو الطيب: «وكان يقال: عبدالله أعلم أهل البصرة وأعقلهم» (٥).

ووصفه القفطي فقال: «المقرئ النحوي العلامة في علم العربية» (٦).

شيوخه:

أخذ قراءته عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم (٧). ويذكر أبو الطيب اللغوي أنه صحب (ميمون الأقرن)، ورأس الناس بعده، وزاد في الشرح. وتوفى ميمون وليس في أصحابه أحد مثل عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي (٨).

وفي الأغاني = أنه روى عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه: (٩).

(*) نشر في كتاب: «دراسات في الأدب واللغة، بمناسبة مرور عشر سنوات على إنشاء قسم اللغة العربية سنة ١٩٧٧ م.

(١) أخبار النحويين البصريين ٢١.

(٢) نزهة الألباء ١١. (٣) مراتب النحويين ١٢.

(٤) نزهة الألباء ١٢. (٥) مراتب النحويين ١٢.

(٦) الإنباه: ١٠٤. (٧) المرجع نفسه ١٠٥.

(٨) مراتب النحويين ١٢. (٩) الأغاني ١٢: ٢٩٩.

هذا وقد توفي عبدالله بن أبي إسحاق وقتادة بن دعامة فى يوم واحد، فشيوع الأدباء والأشراف جنازة ابن أبي إسحاق، وشيوع النساك والفقهاء جنازة قتادة بن دعامة. وكانت وفاته سنة ١١٧هـ. وهو ابن ٨٨ سنة (١).

أثره فى النحو العربى ١. فى القياس:

يذكر المؤرخون والرواة أن ابن أبي إسحاق كان شديد التجريد للقياس ويقال: إنه كان أشد تجريداً للقياس من أبي عمرو (٢).

ويقول عنه أبو الطيب: فرع النحو وقاسه (٣). ويقول عنه الزبيدى: «وهو أول من بعج النحو ومدّ القياس، وشرح العلل، وكان مائلاً إلى القياس فى النحو» (٤).

هذه النصوص تشير إلى حقيقة فحواها أن ابن أبى إسحاق هو أول من مدّ القياس، وشرح العلل، وهو أشدّ تجريداً للقياس، فمن أين تسرّب هذا القياس إلى النحو العربى فى هذا الوقت المبكر؟

الواقع أن بعض الباحثين عرض لهذه النصوص فعرّز عليه أن ينسب القياس إلى العقل العربى، لأن العقل العربى ما زال وليداً يحبو فى مجال العلم فى هذه الفترة، وأن نسبة القياس إليه مبالغة فى القول، وتجاوز للحقّ، ثم يجدون أنفسهم مضطرين ليخرجوا من هذا الإشكال، فلم يجدوا أمامهم مخرجاً غير نسبة هذا القياس الذى ظهر فى حقل النحو العربى على يد عبدالله بن أبى إسحاق إلى المنطق الأرسطى حيث أقبل عليه النحاة، مقتبسين أصوله محاكاة للمتكلمين وأصحاب الجدل.

ومن هؤلاء الباحثين الزميل الدكتور إبراهيم السامرائى إذ يقول:

«إن التماس العلة والتمسك بالقياس لا يتلاءم والطبيعة النحوية. وكان عليهم أن يقتصروا على وضع شىء يعصم اللسان من اللحن إلى أن يقول: «ولكن النحاة ابتداء من

(١) الإنباه ٢ - ١٠٧، ١٠٨.

(٢) نزهة الألباء ١١.

(٣) مراتب النحويين ١٢.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٣٢.

عبدالله بن أبى إسحاق الحضرمي ساروا فى هذا السبيل محاكاة للمناطقة والمتكلمين وأصحاب الجدل. وكان من تمام الأدوات لدى المثقف أن يلم بمنطق أرسطو، وآراء أفلاطون، وحكمة سقراط، ولذلك أقبلوا على ذلك إقبالا كلفهم عناء، ولا سيما فى علوم العربية^(١).

الحق أن قياس عبدالله بن أبى إسحاق، والأقيسة النحوية التى ظهرت على يد النحاة بعده إلى عصر سيبويه لم يكن قياس منطق وجدل، بل قياس فطرة وطبيعة. ومن البدهى أن الإنسان يقارن بين الأشياء فيعرف صفاتها المتشابهة والمختلفة، ثم يستنبط من هذه الصفات المتشابهة مقاييسه وأصوله. ولا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن هذه الأقيسة الفطرية أشارت إليها نصوص قديمة قبل أن يظهر ابن أبى إسحاق فى حقل النحو العربى.

من هذه النصوص ما جاء فى الحديث «أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن. قال له: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟. قال: أفضى بما فى كتاب الله. قال: فإن لم يكن. قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله قال: اجتهد رأبى ولا آلو: قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدرى، ثم قال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله».

وفى هذا دليل على أن من أصول التشريع الاجتهاد بالرأى وهو القياس^(٢). ومن هذه النصوص أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى قاضيه بالبصرة أبى موسى الأشعري: «الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة اعرف الأشباه وقس الأمور عند ذلك»^(٣).

ومالى أذهب بعيداً، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يستعمل القياس فى كثير من أحاديثه الشريفة ليؤكد بهذا القياس الأحكام الشرعية، والأصول الدينية فى أحاديثه الكريمة.

ومنذ ثلاثة أعوام صدر كتاب فى هذا الموضوع كتاب عنوانه: «أقيسة النبى المصطفى محمد ﷺ تصنيف الإمام ناصح الدين عبدالرحمن الأنصارى المعروف بابن الحنبلى المتوفى سنة ٦٣٤هـ.

(١) النحو العربى ١٩.

(٢) أصول الأحكام الشرعية ١٢ للأستاذ على حسب الله - مطبعة العلوم طبعة أولى.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

وكان هذا الكتاب مخطوطاً فحقق، وتم نشره وصدوره ١٩٧٣. والكتاب يلقى ضوءاً كبيراً على أن القياس أصيل في كلام العرب. وليس وافداً عن طريق الترجمة والنقل، كما يقول بعض هؤلاء الباحثين.

والناظر إلى مقدمة الكتاب يجد أن كثيراً من الأقيسة المتعددة بألوانها المختلفة قد احتواها كلام رسول الله ﷺ.

يقول في المقدمة: وبعد، فإن الأحكام شرعت لمصالح الناس، ولما كانت المصالح مختلفة الأنواع والأجناس تنوعت الأدلة من النص والإجماع والقياس، وأقيسة رسول الله ﷺ - نصوص ليس لها معارض ولا مناقض لأنها خبر معصوم، وقياس كل ذي قياس سواه فهو بسهام الطعن مرشوق ومرجوم.

والفقهاء يقولون: قياس علة، وقياس شبه، وقياس إحالة، وقياس دلالة: وما ذكرناه من أقيسة رسول الله ﷺ - مشتمل على هذه الأقيسة متنوعة كانت أو مجتسمة.

وقد أحصيت من هذه الأقيسة مائة قياس، وإن كان في الأجل فسحة شرحت منها ما يرفع الالتباس، ويرد إليها شارداً فهم ذوى الإدراك من خواص ذوى الأبواب، وعوام الناس. إن شاء الله رب الفلق، ورب الناس^(١).

أمثلة من أقيسة النبي عليه السلام

١ - عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمى ماتت، وعليها صوم شهر رمضان. فقال: أرايت لو كان عليها دين أكنت تقضينه؟ قالت: نعم. قال: فدين الله أحق بالقضاء^(٢).

٢ - عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتى ولدت غلاماً أسود، فقال النبي ﷺ: هل لك من إبل؟ قال نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورك؟ قال: إن فيها لورقاً، قال: فأتى لها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعة عرق، قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عرق^(٣).

(١) أقيسة النبي ٧٥، ٧٦، ٧٧.

(٢) أقيسة النبي ٧٩.

(٣) المرجع نفسه ص ٨٠.

٣- عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: لا تحلبن ماشية أحدكم إلا بأذنه، أوجب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانه فينتقل طعامه؟ فإنما تخزن لهم ضرور ماشيتهم أطعمتهم. فلا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بأذنه»^(١).

أستطيع أن أؤكد بعد هذا الذي قدّمت أن القياس فطرى وطبعى، والنسب عليه السلام وأصحابه حينما استعملوا القياس لم يجروا على سنن المنطق الأرسطى لأن من طبيعة الإنسان أن يبحث عن العلة أو السبب فى كل حكم يصدره، وفى كل رأى يميل إليه.

على أننا لو استنطقنا تاريخ ترجمة المنطق اليونانى إلى العربية لرأينا أن هذا المنطق لم يترجم إلى العربية فى هذه الفترة من التاريخ حتى يمكن للنحاة الأوائل أن يتأثروا به كما يقول بعض الباحثين.

وقد اعترف بذلك كثير من المستشرقين نذكر منهم (ت. ج. دى بور) إذ يقول فى كتابه (تاريخ الفلسفة الإسلامية) ما نصه: «جمعت الأمثال والحكم والخطابات والوصايا. وجمع كل ماله علاقة بتاريخ الفلسفة بوجه عام، وترجم منذ العهد الأول». ثم يقول: «ولكن لم يشرع فى نقل كتب اليونان فى الطبيعة والطب والمنطق إلى اللسان العربى إلا فى عهد المنصور»^(٢).

والمعروف أن خلافة أبى جعفر المنصور تمت فى سنة ١٣٦ هـ. مع أن ابن أبى إسحاق توفى سنة ١١٧ هـ.

فكيف إذا يتسنى لابن أبى إسحاق ومن عاصره أن يتأثر بهذا المنطق اليونانى الذى لم يترجم إلى العربية فى هذا الوقت على أن الترجمة لم تنتشر وتزدهر إلا فى عصر المأمون ذلك الذى أنشأ لها مدرسة فى بغداد سميت باسم بيت الحكمة. وكانت الترجمة فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى إلى السريانية، وفى النصف الثانى ازدهرت حركة الترجمة إلى العربية شيئاً فشيئاً»^(٣).

(١) المرجع نفسه ٨١.

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية ٣٥ ترجمة الدكتور عبدالهادى أبو ريده.

(٣) التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ٢٨ ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى.

أمثلة من أقيسة عبد الله بن أبي إسحاق

١ - قال ابن أبي إسحاق للفرزدق في مديحه لأمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك (١)

مستقبلين شمال الشام - نضربنا بحاصب كنديف القطن مشور
على عماننا يلقى، وأرحلنا على زواحف تُزجي مُخْهًا رير
أسأت، إنما هو «مخْهَارِيرُ» - وكذلك قياس النحو في هذا الموضع (٢).

٢ - «حدثنا أبو عمرو بن العلاء قال: أنشد الفرزدق قصيدته:

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف»

فمر فيها:

وعض زمان بابن مروان لم يدع من المال إلا مسحنا أو مجلّف
فقال ابن أبي إسحاق: على أى شيء رفعت مجلّفًا؟ قال: على ما يسوءك (٣).

٣ - «قال ابن سالم: فقلت أنا ليونس: هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئًا؟
قال: نعم: قلت له: هل يقول أحد «الصويق»؟»

يعنى الصويق. قال: نعم عمرو بن تميم يقولها. وما تريد إلى هذا عليك بباب من النحو
يطرد وينقاس (٤).

من هذا النص نرى أن ابن أبي إسحاق ملم بلغات العرب بدليل أسئلة تلاميذه له، ولو
كان غير ذلك لما أحاطوه بهذه الأسئلة، فلما سأله يونس هل يقول أحد الصويق؟ فإن يونس
كان يعلم مقدار الرجل في معرفة لغة العرب. وسرعان ما أجابه ابن أبي إسحاق بأن عمرو
بن تميم يقولها.

(١) انظر الخزانة ١ ص ١١٥، قال البغدادي: الشمال: الريح المعروفة. الحاصب: الريح التي تثير الحصباء. الزواحف.

الإبل التي أعينته فرسانها: أخفافها. اليرير: قال الفراء: مخ رير بفتح الراء وكسرها: فاسد ذاتب من الهزال.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٣٢.

(٣) الموشح ١٦١.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٣٢.

وموطن العجب في هذه الإجابة استنكار ابن أبي إسحاق لهذا السؤال واستنكاره يدل على منهجه في الدراسة النحوية، فإن لغات العرب واسعة، وعديدة، والاعتماد عليها يقع في اضطراب لغوي، ولذلك فإن المنهج السليم في رأيه هو استقراء مستوى معين من كلام العرب والقياس عليه، وغض النظر عن اللهجات المختلفة. ومن هنا قال قولته المشهورة: «عليك يباب من النحو يطرد وينقاس».

وقد ملح هذا المعنى الدكتور على أبو المكارم فقال ما نصه:

«فالمقيس عند ابن أبي إسحاق هو ما نشئته من نصوص لغوية، والمقيس عليه ليس كلام العرب، بل ما اطرد من هذا الكلام وانقاس حتى أصبح قاعدة».

وفي هذا الموقف من ابن أبي إسحاق ذكاء في تصور فرق بين كلام العرب وبين قواعد النحو إذ في كلام العرب ألوان من الاختلاف والتباين. بل والتضارب تؤكد انتسابه إلى أكثر من مستوى لغوي واحد، فهناك مستوى اللغة، وهناك مستوى اللهجات - وهي بدورها - ذات طرق مختلفات تحتم تعدد مستواها وتنوعه، ومن ثم فإن القياس على هذا الكلام وجعله أساساً لعمل خاطيء لأنه ليس قياساً على ما يطرد وينقاس وهو القاعدة النحوية التي استخلصت من المستوى الموحد الذي يضرب عن اللهجات صفحاً^(١).

٢. في المناظرات النحوية:

بدأت هذه المناظرات على يد عبدالله بن أبي إسحاق وتلاميذه فهم الذين فتحوا بابها، وعددوا حلقاتها، فكانت مصدراً يمدّ النحو العربي بالعطاء والنماء.

فمن المناظرات النحوية التي عقدها ابن أبي إسحاق مع علماء عصره ما يأتي:

أ. مناظرته لبلال بن أبي بردة:

عن الأصمعي قال: لاقى بلال بن أبي بردة عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي في حرف من القرآن قال بلال: ﴿بِمَلِكِنَا﴾^(٢) وقال ابن أبي إسحاق بـ ﴿بِمَلِكِنَا﴾^(٣)، فتراضينا بأبي عمرو، فوجه بلال إليه، فدخل وقد عرف قول بلال، فسأله بلال فأجازهما، وفضل قول بلال

(١) تاريخ النحو العربي ٩٣. للدكتور على أبو المكارم (القاهرة الحديثة للطباعة).

(٢) طه ٨٧ وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو ويعقوب.

(٣) وهي قراءة حمزة - الكسائي - خلف - الحسن - الأعمش، وآخرين انظر القراءتين في معجم القراءات قراءة رقم

فقال له ابن أبي إسحاق: أما قرأنا على مجاهد ﴿بِمَلِكُنَا﴾؟ فقال له أبو عمرو: أخبرت بما عندي، فوصله بلال. فلما خرج قال لعبد الله ابن أبي إسحاق: والله لو أخطأ الملوك لصوبنا خطأهم فكيف إذا أصابوا، إن منازعة الملوك تضغنهم»^(١).

ب. مناظرته لأبي عمرو:

قال «أبو عمرو: ما ناظرني أحد قط إلا غلبته وقطعته إلا ابن أبي إسحاق، فإنه ناظرني في مجلس بلال بن أبي بردة في الهمز فقطعني، فجعلت إقبالي على الهمز حتى ما كنت دونه»^(٢).

ج. مناظرته للفرزدق:

عن الأصمعي أن الفرزدق حضر مجلس ابن أبي إسحاق فقال: كيف تنشُد هذا البيت:
وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألِّباب ما تفعل الخمر
فقال الفرزدق: كذا أنشده. فقال ابن أبي إسحاق الحضرمي: ما كان عليك لو قلت:
فعولين.

فقال الفرزدق: لو شئت أن أسبح لسبّحت. ونهض، فلم يعرف أحد في المجلس قوله: لو شئت أن أسبح لسبّحت «فقال ابن أبي إسحاق: لو قال فعولين لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما، ولكنه أراد: هما يفعلان بالألِّباب ما تفعل الخمر»^(٣).

د. مناظرته ليونس:

عن يونس قال: مضيت إلى عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي فقلت له: كيف تقرأ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ﴾^(٤)؟ فقال: «فإذا برق البصر» وفتح الراء، فقامت من عنده إلى أبي عمرو، فقال: من أين بك؟ قلت: من عند عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي، سألته كيف تقرأ: فإذا برق البصر» فقال: «فإذا برق البصر بفتح الراء فقال أبو عمرو: وأين يراد به؟ يقال: برقت السماء، وبرق النبت وبرقت الأرض، فأما البصر فبرق، كما سمعنا»^(٥).

(١) مجالس العلماء لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي المتوفى سنة ٣٤٠، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون ٢٤١، ٢٤٢ - طبع وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت.

(٢) مجالس العلماء ٢٤٣.

(٣) مجالس العلماء ٨٥، ٨٦.

(٤) القيامة ٧.

(٥) مجالس العلماء ٢٤٧.

٣. في النقد النحوي

لم يكن جهد عبدالله بن أبي إسحاق في النحو العربي مقصوراً على هذه المناظرات، بل كان يتتبع سقطات الشعراء وينقدها، ويضعها في مكانها الصحيح، ومن هؤلاء الشعراء الذين وجه إليهم سيف نقده لأنهم خرجوا عن صواب النحو الفرزدق الشاعر المشهور، فكما قدمت نقده في رفع (أو مجلّف) من قوله:

وعض زمان يا بن مروان لم يدع
من المال الا مسحتا أو مجلّف

والفرزدق شاعر عربيّ تربى في أحضان العربية، وهو حامل لوائها في هذه الفترة من التاريخ فكيف إذا يتردّى في هذه الهوة السحيقة فيخطيء في القول، ويردّه ذلك الحضرمي، ولذلك كان ردّ الفعل عنيفاً عند الفرزدق إذ هجا ابن أبي إسحاق بقوله:

فلو كان عبدالله مولى هجوته
ولكن عبدالله مولى مواليا

ولم يسكت ذلك الناقد النحوي عن هذا الهجاء فبين أنه عوار في مجال النحو العربي، وأنه لحن لا يستقيم مع العربية، قال ابن أبي إسحاق بعد أن سمع هجاءه المتمثل في هذا البيت:

«وقد لحت أيضاً والوجه أن تقول: مولى موال».

ويبدو أن هذا التبع لشعر الفرزدق لم يبدأ على يد ابن أبي إسحاق فقد سبقه إلى ذلك النقد عنبسة الفيل، فقد روى أبو عمرو بن العلاء قال: «كنا عند بلال بن أبي بردة، فأنشد الفرزدق:

تريك نجوم الليل والشمس حية
زحام بنات الحارث بن عباد

فقال عنبسة بن معدان: الزحام مذكر. فقال الفرزدق: اغرب. قال عبدالله: والزحام له وجهان: أن يكون مصدرأ مثل: الطعان والقتال من قولهم: زاحمت زحاماً فهذا مذكر كما قال عنبسة أو يكون جمعاً للزحمة يراد بها الجماعة المزحمة، فهذا مؤنث لأن الزحام هو المزاحمة. كما أن الطعان هو المطاعنة، وقول عنبسة أقوى، وأعرف في الكلام»^(١).

ومما لا شك فيه أن هذا النقد النحوي كان له أثر كبير في أن تدور على مدى العصور

(١) الموشح ١٦٥، ١٦٦.

التالية المعارك الأدبية والنحوية بين الشعراء ونقاد النحو واللغة، والفضل في ذلك يرجع إلى هذا الرعيل الأول الذي جعل من نفسه حارساً على اللغة ساهراً على سلامتها مدافعاً عن تراكيبها. ناقدا لكل من يحاول أن يخرج على أساليبها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فعبده الله ابن أبي إسحاق لم يسلم من نقده علماء عصره في الدين والتفسير، وتعبير الرؤى أمثال ابن سيرين. والموقف التالي يبين كيف كان عبدالله بن أبي إسحاق حاملاً لواء العربية للدفاع عنها في عصره:

قال القفطي: «وكان ابن سيرين يبغض النحويين، وكان يقول: لقد بغض إلينا هؤلاء المسجد، وكانت حلقتة إلى جانب حلقة ابن أبي إسحاق. وبلغ ابن أبي إسحاق أنه يعيب عليه تفسير الشعر ويقول: ما علمه بإرادة الشاعر، فقال ابن أبي إسحاق: إن الفتوى في الشعر لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً وإنما نُقِيتي فيما استتر من معاني الشعر وأشكل من غريبه وإعرا به فتوى سمعناها من غيرنا، واجتهدنا فيها آراءنا، فإن زللتنا أو عثرنا فليس الزلل في ذلك كالزلل في عبارة الرؤيا ولا العثرة في الخروج عما أجمعت عليه الأئمة من سنة الوضوء وكرهته الجماعة من الاعتداء في الطهور، فبلغ ابن سيرين فأقصر عما كان عليه من الإفراط في الوضوء. وكان إذا جاءه الرجل يسأله عن الرؤيا قال: هات حتى أظن لك...

ثم اجتمع هو وابن سيرين في جنازة فقال ابن سيرين: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١). (برفع الله ونصب العلماء) فقال ابن أبي إسحاق: كفرت يا أبا بكر بعبيك على هؤلاء الذين يقيمون كتاب الله، فقال ابن سيرين. ان كنت أخطأت فأنا استغفر الله ورجع إلى حلقتة»^(٢).

ومن أجل هذا الحرص البالغ على الالتزام اللغوي والنحوي في التعبير ومحاسبته الدقيقة لكل من ينحرف عن الصواب شاعرا أو عالماً كان ابن أبي إسحاق الأساس الأول في اتساع الحركة النحوية التي قام بها تلاميذه أبو عمرو، وعيسى بن عمر - ويونس بن حبيب ولا نعتقد أن يونس تلميذه كان مبالغاً في وصفه لأستاذه حينما قال عنه: هو والبحر سواء، أي هو الغاية، ولما سئل يونس عن علمه قال: لو لم يكن في الناس اليوم أحد لا يعلم إلا علمه لضحك منه، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه، ونظر نظره لكان أعلم الناس»^(٣).

(٢) إنباه الرواة ٢: ١٠٦، ١٠٧.

(١) فاطر ٢٨.

(٣) انظر طبقات النحويين والفقهاء ٢١، ٢٢.

ومعنى هذا الوصف أن عبد الله بن أبي إسحاق وصل فى عصره إلى درجة من الرقى العلمى والفكرى ليس بعدها درجة فهو البحر الخضم، ولكن يونس كان دقيقاً حينما قال عنه: لو لم يكن فى الناس اليوم أحد لا يعلم إلا علمه لضحك منه لأن العلم يتطور، والفكر ينمو، وعجلة الحياة تسير إلى الأمام دائماً، وفى سيرها اتساع وتطور، ونمو وحركة، فليس من المنطق أن يكون ابن أبي إسحاق نجماً فى عصره وفى غير عصره، لأن العلم يتطور باستمرار، ولا عيب أن يكون علم ابن أبي إسحاق فى عصر تلاميذه محدوداً بالنسبة إلى علم العصر ويكفيه فخراً أنه مهد الطريق للحركة العلمية التى جاءت بعده.

على أن يونس لم يفته أن يبين مكانة الرجل فى حقل الذكاء والفتنة فهو صاحب ذهن متقد، ونظر نافذ، وإدراك مستوعب، ولو كان فى عصر يونس من يملك هذا الرصيد لكان أعلم الناس.

٤. فى التأليف النحوى واللغوى؛

ذكرت سابقاً أن الدراسات النحوية واللغوية فى هذا العصر كانت مختلطة، ذلك لأن الصلة بين النحو واللغة عميقة وبخاصة فى هذه الفترة التى جمعت فيها اللغة، وخير دليل على ذلك ما قاله عبداللطيف البغدادي فى هذا الأمر.

«اعلم أن اللغوى شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، وأما النحوى فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوى، ويقيس عليه، ومثالهما المحدث والفقيه فشأن المحدث نقل الحديث برمته، ثم إن الفقيه يتلقاه، ويتصرف فيه ويسلط فيه علله، ويقيس عليه الأمثال والأشياء»^(١).

وفى هذا العهد كان المتصدرون لوضع الأصول النحوية ومقاييسها هم اللغويون الذين كان لهم فضل جمعها، ومن هنا اختلقت المسائل اللغوية والنحوية على يدهم مما جعل هذا الاختلاط من أوضح مظاهر هذه الحركة^(٢).

وأول مصنف فى الدراسات النحوية واللغوية فى هذه الفترة هو كتاب الهمز لابن أبي إسحاق. قال السيوطى: «وتكلم فى الهمز حتى عمل فيه كتاباً مما أملاه»^(٣).

(١) ضحى الإسلام ٢: ٢٧٧.

(٢) القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية - د. عبدالعال سالم مكرم ص ٦٨.

(٣) المزهر: ٢: ٣٩٨.

ويظهر أن ابن أبي إسحاق كان على علم عظيم بهذه الهمزة مما جعل أبا عمرو بن العلاء يقول عنه: «ما ناظرني أحد قط إلا غلبته وقطعته إلا ابن أبي إسحاق، فانه ناظرني في مجلس بلال بن أبي بردة في الهمز فقطعني فجعلت إقبالي على الهمز حتى ما كنت دونه»^(١).

وأقول أول مؤلف يصادفنا في مجال التأليف النحوي واللغوي في عصر ابن أبي إسحاق لأننا لم نعثر في الروايات التي تناولت النحاة السابقين على رواية تثبت أن لهم جهوداً في التأليف النحوي واللغوي اللهم إلا بعض الروايات التي تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي أنه «أول من عمل كتاباً في النحو»^(٢).

٥. أثره في سيبويه

إن أستاذنا المرحوم إبراهيم مصطفى كان لا يميل إلى نسبة نشأة النحو إلى أبي الأسود، لأنه كما يقول: لا نستطيع أن هذا الزمن المبكر قد تمكن فيه العرب من الاشتغال بالعلوم، ووضع القواعد على هذا الوجه الذي نراه في كتب العربية. وقد أنكروا ذلك المستشرقون وعدوه حديث خرافة^(٣)، ولكنه مع ذلك لا ينكر أن أبا الأسود هو الذي «وضع نقط الإعراب، وضبط المصحف على نهج العربية»^(٤).

وإشكال هذه النشأة ساق أستاذنا المرحوم إبراهيم مصطفى إلى أن ينهج سبيلاً آخر في البحث فقال: «تبعنا كتب النحو التي بين أيدينا لنعلم أقدم عالم نسب إليه رأى نحوي في هذه الكتب. وكان أول هذه الكتب كتاب سيبويه» وهذه أسماء الأعلام الذين نسب إليهم رأى نحوي وعدد المواضع التي وردت فيها أسماؤهم.

ويذكر من هؤلاء الأعلام عبدالله بن أبي إسحاق الذي ذكر في الكتاب (٦ مرات)^(٥).

وفي موضع آخر من بحثه يقول: أما عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي وهو من الطبقة الثالثة فهو أقدم في رأينا من ينسب إليه رأى نحوي^(٦).

(١) مجالس العلماء للزجاجي ٢٤٣.

(٢) الشعر والشعراء ٨٢ - وانظر تاريخ النحو العربي للدكتور على أبي المكارم ٣٣.

(٣) مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة م ١٠ - ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ص ٧١.

(٤) المرجع نفسه ص ٧٢

(٥) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٦) المرجع نفسه ص ٧٣.

فمن الآراد التي نسبها سيويه إلى عبدالله بن أمي إسحاق ما يأتي:

أ. في التعنير يابياً:

قال سيويه: اعلم أنه لا يجوز أن تقول: إياك زيدا كما أنه لا يجوز أن تقول: رأسك الجدار حتى تقول: من الجدار أو والجدار. وكذلك أن تفعل إذا أردت إياك والفعل. فإذا قلت: إياك أن تفعل، تريد إياك أعظ مخافة أن تفعل. أو من أجل أن تفعل جاز لأنك لا تريد أن تضمه إلى الاسم الأول، كأنك قلت: إياك نح لمكان كذا وكذا.

ولو قلت: إياك الأسد تريد من الأسد لم يجز كما جاز في «أن» إلا أنهم زعموا أن ابن أمي إسحاق أجاز هذا البيت:

إياك إياك المرء فإنه إلى الشرّ دعاء وللشر جالب

كأنه قال: إياك ثم اضمر بعد إياك فعلا آخر فقال اتق المرء^(١).

ب. في باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه:

قال سيويه: «ومن هذا الترحّم، والترحم يكون بالمسكين والبائس ونحوه، ولا يكون بكل صفة، ولكن ترحم بما ترحم به العرب «إلى أن يقول: «وزعم الخليل: أنه يقول: مررت به المسكين على البدل وفيه معنى الترحم.

وكان الخليل يقول: إن شئت رفعته من وجهين فقلت: مررت به البائس وكأنه لما قال: مررت به قال المسكين هو، كما يقول مبتدئا: المسكين هو، والبائس أنت، وإن شاء قال مررت به المسكين هو، والبائس أنت».

إلى أن يقول: وأما يونس فزعم أنه ليس يرفع شيئا من الترحم على إضمار شيء يرفع ولكنه إن قال: ضربته لم يقل أبداً إلا المسكين بحمله على الفعل، وإن قال ضرباني قال المسكينان، حمله أيضا على الفعل، وكذلك مررت به المسكين يحمله الرفع على الرفع، والجر على الجر، والنصب على النصب. ويزعم أن الرفع الذي فسّرنا خطأ. وهو قول الخليل رحمه الله وابن أمي إسحاق^(٢).

(١) سيويه ١: ٢٧٩ (هارون).

(٢) سيويه ٢: ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧ (هارون).

ج. في نصب الفعل المضارع:

قال سيويه: وقال تعالى ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذِبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

فالرفع على وجهين، فأحدهما أن يشرك الأخير الأول، والآخر على قولك:

دعنى ولا أعود، أى فإنى ممن لا يعود.، فانما يسأل الترك، وقد أوجب على نفسه أن لا عودة له البتة ترك أو لم يترك، ولم يرد أن يسأل أن يجتمع له الترك وأن لا يعود.

أما عبدالله بن أبى إسحاق فكان ينصب هذه الآية (٢).

د. في صرف الاسم ومنعه:

قال سيويه: «فإن سميت المؤنث بعمر أو زيد لم يجز الصرف هذا قول ابن أبى إسحاق وأبى عمرو فيما حدثنا يونس وهو القياس، لأن المؤنث أشد ملاءمة للمؤنث. والأصل عندهم أن يسمى المؤنث بالمؤنث، كما أن أصل تسمية المذكر بالمذكر» (٣).

٧. أثره في المبرد

ومن الآراء التى ساقها المبرد فى كتابه المقتضب لعبد الله بن أبى إسحاق:

الجمع بين همزتين:

قال المبرد: «واعلم أنه ليس فى كلامهم أن تلتقى همزتان فتحققا جميعاً إذا كانوا يحققون الواحدة. فهذا قول جميع النحويين إلا عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى فإنه كان يرى الجمع بين الهمزتين» إلى أن يقول:

«فأما ابن أبى إسحاق، فكان يرى أن يحقق الهمزتين كيما يراه فى الواحدة، ويرى تخفيفهما على ذلك. ويقول: هما بمنزلة غيرهما من الحروف، فأنا أجريهما على الأصل، وأخفف إن شئت - استخفافا. والأفإن حكمهما حكم الدالين وما أشبههما وكان يقول فى جمع خطيئة: «إذا جاء به على الأصل: هذا خطائىء، ويختار فى الجمع التخفيف وأن يقول: خطايا، ولكنه لا يرى التحقيق فاسدا» (٤).

(١) الأنعام: ٢٧.

(٢) سيويه ٣: ٤٤ (هارون).

(٣) سيويه ٣: ٢٤٢ (هارون).

(٤) المقتضب ١: ١٥٨، ١٥٩.

٨. أثره في القراءات

كان ابن أبي إسحاق من قراء القرآن الكريم، وقد رويت له قراءات عديدة تناولها النحاة بعده بألوان من الدراسات النحوية نذكر منها ما يلي:

أ. في القراءات المشكّلة:

١ - ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾^(١).

قال مكى بن أبي طالب: «وقد قرأ الحسن وابن أبي إسحاق بالرفع في «رطب» و«يابس» على الابتداء والخبر»^(٢).

٢ - ﴿يَا بُشْرَى﴾^(٣).

قال مكى «قرأه ابن أبي إسحاق وغيره بياء مشددة من غير ألف. وعلة ذلك أن ياء الإضافة حقها أن ينكسر ما قبلها، فلما لم يمكن ذلك في الألف قلبت ياء، وأدغمت في ياء الإضافة، ومثله: ﴿هُدَايَ﴾^(٤).

٣ - ﴿صَ﴾^(٥).

قال مكى: وقرأ ابن أبي إسحاق «صاد» بالكسر والتنوين على القسم، كما تقول: الله لأفعلن، تعمل حرف الجر، وهو محذوف لكثرة الحذف في باب القسم، وقيل: إنما نون على التشبيه بالأصوات التي تنون للفرق بين المعرفة والنكرة نحو قولك: إيه، تريد: زدلى كلاماً، وإيه تريد: سكوتاً^(٦).

ب. في القراءات السبع:

١ - ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾^(٧).

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) مشكل عراب القرآن ١: ٢٧٠.

(٣) يوسف: ١٩.

(٤) طه: (١٢٣).

(٥) ص: ١.

(٦) مشكل إعراب القرآن ١ - ٤٢٤.

(٧) البقرة: ٩.

قال مكى بن أبى طالب: «قرأ الكوفيون وابن عامر بفتح الياء وإسكان الخاء من غير ألف. وقرأ الباقون بضم الياء، وبألف بعد الخاء وكسر الدال..» ثم قال: وبغير ألف قرأه ابن أبى إسحاق» ثم دافع عن القراءتين فقال: «وحمل القراءتين على معنى واحد أحسن وهو أن «خادع وخدع» بمعنى واحد فى اللغة، فيكون: «وما يخادعون وما يخدعون بمعنى واحد من فاعل واحد»^(١).

٢ - ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾^(٢).

قرأ نافع بفتح التاء والجزم على النهى.. وقرأ الباقون بضم التاء والرفع على النهى، والعطف على «بشيراً ونذيراً» فهو فى موضع الحال تقديره: إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً» فهو فى موضع الحال تقديره: إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وغير سائل عن أصحاب الجحيم..

والرفع هو الاختيار. وبالرفع قرأ ابن أبى إسحاق^(٣).

٣ - ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾^(٤).

قرأ حمزة وحفص بالتصب، وقرأ الباقون بالرفع.

وبالرفع قرأ ابن أبى إسحاق.

قال مكى: وجه القراءة بالرفع أن اسم ليس كالفعل، ورتبة الفاعل أن يلى الفعل، فلما ولى البر «ليس» رفع. ولو نصب «البر» لوجب أن يكون الكلام فى غير رتبته، وأن ينوى بـ «البر» التأخير، فيكون الكلام على رتبته التى أتت به التلاوة أولى من أن يحدث فيه ما يحتاج معه إلى التقديم والتأخير»^(٥).

٤ - ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ﴾^(٦).

(١) مشكل إعراب القرآن ٢: ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) البقرة: ١١٩.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١: ٢٢٦.

(٤) البقرة: ١٧٧.

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١: ٢٦٢.

(٦) البقرة: ١٩٧.

قرأهما ابن كثير وأبو عمرو بالتونين والرفع، وقرأ الباقون بالفتح من غير تونين.
وبالفتح قرأ ابن أبي إسحاق. ووجهه أنه أتى بـ (لا) للنفى لتدل على النفي العام فنفى
جميع الرفث، وجميع الفسوق كما تقول:

لا رجل في الدار، فتنفى جميع الرجال، ولا يكون ذلك إذا رفع ما بعد (لا) لأنها تصير
(لا) بمعنى (ليس)، ولا تنفى إلا الواحد، والمقصود في الآية نفى جميع الرفث والفسوق،
فكان الفتح أولى به لتضمنه لعموم الرفث كله، والفسوق كله لأنه لم يرخص في ضرب من
الرفث، ولا في ضرب من الفسوق، كما لم يرخص في ضرب من الجدال ولا يدل على هذا
المعنى إلا الفتح، لأنه للنفى العام.

وإجماع القراء على فتح: «ولا جدال» يقوى فتح ما قبله، ليكون الكلام على نظام واحد
في عموم المنفى كله»^(١).

٥ - ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾^(٢).

قرأه نافع بالرفع، وقرأه الباقون بالنصب، وبالنصب قرأ ابن أبي إسحاق ووجه القراءة
بالنصب أن (حتى) جعلت غاية للزلزلة، فنصبت بمعنى (إلى أن) والتقدير: وزلزلوا إلى أن
قال الرسول، فجعل قول الرسول غاية لخوف أصحابه، أي لم يزالوا خائفين إلى أن قال
الرسول، فالفعلان قد مضيا جميعاً»^(٣).

جفي القراءات الشاذة:

وقد تناول ابن جنى القراءات الشاذة التي قرأ بها ابن أبي إسحاق، ونعنى بالقراءات
الشاذة القراءات الزائدة عن القراءات المنسوبة إلى القراء السبع. حقاً إن عبدالله بن أبي
إسحاق كان سابقاً في الزمن لابن مجاهد مسبق السبع لأن عبدالله بن أبي إسحاق توفي سنة
١١٧. وابن مجاهد ولد سنة ٢٤٥ هـ. ومات سنة ٣٢٤ هـ^(٤).

وكانت القراءات في عهد ابن أبي إسحاق لا توصف بشذوذ أو غيره، لأن سندها

(١) الكشف عن وجوه القراءات ١: ٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) البقرة: ٢١٤.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ١: ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١.

(٤) معجم الأدباء ٥: ٦٦، ٦٧.

الرواية، وما دامت الروايات قوية، فإن القراءات التي رويت لنا عن طريقها قراءات مقبولة، ليس من حقنا أن نصفها بالشذوذ أو بالضعف.

وفي عهد ابن مجاهد «استصفي سبعة من أئمة القراء في أمصار خمسة هي أهم الأمصار التي حملت عنها القراءات في العالم الإسلامي، وهي المدينة ومكة، والكوفة والبصرة والشام. واختار من المدينة نافعاً، ومن مكة ابن كثير، ومن الكوفة عاصماً وحمزة والكسائي، ومن البصرة أبا عمرو ابن العلاء، ومن الشام عبدالله بن عامر»^(١).

ومعنى ذلك أن قراءات أئمة القراء قبل ابن مجاهد شاذة ما لم تنسب إلى واحد من هؤلاء الأئمة السبعة.

وقد ألف ابن جنى كتابه المحتسب ليحتج لهذه القراءات الشاذة، وفي مقدمته لهذا الكتاب يقول: «القراءات على ضربين: ضرب اجتمع عليه أكثر قراء الأمصار وهو ما أودعه أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد رحمه الله كتابه الموسوم بقراءات السبع، وهو بشهرته غان عن تحديده.

وضرب تعدى ذلك فسماه أهل زماننا شاذاً، أى خارجاً عن قراءة القراء السبع إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالروايات من إمامه ورواته ولعله أو كثيراً منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه»^(٢).

ويقول في موضع آخر:

«غرضنا منه أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً أو أنه ضارب في صحة الرواية بجرانه» ثم قال: «والرواية تنميه إلى رسول الله ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾»^(٣).

وهذا حكم عام في المعاني والألفاظ وآخذه هو الآخذه فكيف يسوغ مع ذلك أن نرفضه، ونجتنبه»^(٤).

(١) مقدمة الدكتور شوقي ضيف لكتاب السبعة لابن مجاهد ص ١٨.

(٢) المحتسب ١: المقدمة.

(٣) الحشر: ٧.

(٤) المحتسب ١: المقدمة.

وابن جنى قدم دراسات رائعة حول هذه القراءات الشاذة لأنه دافع عنها، واحتج لها، وبين أنها غير خارجة عن سنن العربية. ومن هذه القراءات التى احتج لها القراءات التى نسبت إلى ابن أبى إسحاق، ولم يقرأ بها أحد من قراء الأئمة السبعة:

١ - ﴿هُدَايَ﴾^(١) قراءة عبد الله بن أبى إسحاق.

قال أبو الفتح: هذه لغة فاشية فى هذيل وغيرهم أن يقلبوا الألف بين آخر المقصور إذا أضيف إلى ياء المتكلم ياء. قال الهذلى:

سبقوا هوى وأعتقوا لهوهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
ورويانا عن قطرب قول الشاعر:

يطوف بى عكَبٌ فى معدّٰى ويطعن بالصمْلَةُ فى قَمِيَا
فان لم تثارا لِي من عِكَبٌ فلا أرويتما أبدا صَدِيَا

قال أبو على: وجه قلب هذه الألف لوقوع ياء ضمير المتكلم بعدها أنه موضع يتكسر فيه الصحيح نحو: هذا غلامى، ورأيت صاحبى، فلما لم يتمكنوا من كسر الألف قلبوها ياء فقالوا: هذه عَصَى وهذا قَتَى أى عصاى وفتاى، وشبهوا ذلك بقولك: "مررت بالزيدى لما لم يتحكموا من كسر الألف للجرح قلبوها ياء. ولا يجوز على هذا أن تقلب ألف التثنية لهذه الياء فنقول: هذان غلامى لما فيها من زوال علم الرفع. ولو كانت ألف عصا ونحوها علما للرفع لم يجز فيها عَصَى^(٢).

٢ - ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾^(٣).

كان ابن أبى إسحاق يقرأ: «هن أطهر لكم» بالنصب، وقد ضعف سيويه هذه القراءة على حين دافع عنها ابن جنى فى كتابه المحتسب قال ابن جنى: «ذكر سيويه هذه القراءة وضعفها.. وإنما قبح ذلك عنده، لأنه ذهب إلى أنه جعل (هن)، فصلا، وليست بين أحد الجزأين اللذين هما مبتدأ وخبر، ونحو ذلك كقولك: ظننت زيدا هو خير منك، وكان زيد هو القائم.

(١) البقرة: ٣٨.

(٢) المحتسب ١: ٧٦.

(٣) هود: ٧٨.

وأنا من بعد أرى أن لهذه القراءة وجهاً صحيحاً وهو أن نجعل «هن» أحد جزأى الجملة، ونجعلها خبراً لـ (بناتى)، كقولك: زيد أخوك هو، ونجعل (أطهر) حالاً من (هن) أو من (بناتى) والعامل فيه معنى الإشارة كقولك: هذا زيد هو قائماً أو جالساً أو نحو ذلك فعلى هذا مجازته»^(١).

٣- ومن ذلك قراءة ابن أبى إسحاق «من قبل ومن دبر»^(٢).

بثلاث ضمات من غير تنوين.

قال أبو الفتح: ينبغي أن يكونا غائبتين كقول الله سبحانه ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِهِ﴾^(٣) كأنه يريد: وقدمت قميصه من دبره، وإن كان قميصه قد من قبله.

فلما حذف المضاف إليه أعنى الهاء وهى مرادة صار المضاف غاية نفسه بعدما كان المضاف إليه غاية له.

وهذا حديث مفهوم فى قول الله سبحانه «من قبل ومن بعد» فبنى هنا كما بنى هناك على الضم، ووكد البناء أن «قبل» و«دبر» يكونان ظرفين ألا ترى إلى قول الفرزدق:

يطاعن قبل الخيل وهو أمامها ويطعن عن أدبارها إن تولت

وقال الله سبحانه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾^(٤) فنصبه على الظرف وهو جمع دبر^(٥).

٤- وقرأ ابن أبى إسحاق: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾^(٦) مثل: يَرَعُونَ . والهمزة بين الراء والواو من غير ألف.

قال أبو الفتح: معناه يبصرون الناس، ويحملونهم على أن يروهم يفعلون ما يتعاطونه. وهى أقوى معنى من (يراءون) بالمدّ على يفاعلون، لأن معنى يراءونهم يتعرضون لأن يروهم. و (يرءونهم) يحملونهم على أن يروهم.

(١) المحتسب. (١/٤٠٥-٤٠٦) مخطوط رقم ٣٧٩- تفسير، وانظر القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية/٧٣ للباحث.

(٢) يوسف: ٢٦، ٢٧. (٣) الروم/٤. (٤) ق/٤٠.

(٥) انظر المحتسب ١/٢٠٢ وانظر القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية ٧٣.

(٦) النساء: ١٤٢.

قال أبو زيد: رأت المرأة الرجل المرأة إذا أمسكتها له ليرى وجهه ويدلك على أن يرأى أضعف معنى من يرئى قوله:

تَرَى أَوْ تُرَأَى عِنْدَ مَعْقَدِ غَرْزِهَا تَهَاوِيلٌ مِنْ أَجْلَادِهِرٍ مُوَمِّمٌ (١)
٥ - ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ (٢).

قرأ عبدالله بن أبي إسحاق بنصب الفعل.

قال أبو الفتح: إذا نصب فالتوبة داخله في جواب الشرط معنى، وإذا رفع كقراءة الجماعة فقال: «ويتوب الله على من يشاء» فهو استئناف، وذلك أن قوله: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم، وينصرم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء» (٢) فهو كقولك: أن تزرنى أحسن إليك، وأعطى زيدا درهماً فتنصبه على إضمار (أن) أى إن تزرنى أجمع بين الإحسان إليك والإعطاء لزيد (٣).

من هذا الذى قدمت أستطيع أن أقول: إن ابن أبى إسحاق كان نجم عصره فى الشقاقة العربية والإسلامية، والدراسات النحوية واللغوية.

وإحساسه بمكانته فى العلم، وتمكنه من ناصية اللغة جعله يقول لبكر بن حبيب السهمي: ما ألحنُ فى شىء فقال: لا تفعل، فقال: فخذ على كلمة. فقال: هذه واحدة قل: كَلِمَةً.

ومرّت به سنّورة، فقال لها: احْسَى، فقال له: أخطأت، إنما هو: احْسَى.

على آية حال هذه هنات لا تغضّ من قدر الرجل فى مجال اللغة والنحو.



(١) المحتسب ١: ٢٠٢. الفرز للناقة مثل الحزام للفرس. التهاويل: جمع تهويل وهو ما هول به. أجلاذ الشىء:

شخصه بكماله - الموم: القبيح الحلقة العظيم الهامة (هامش المحتسب ١: ٢٠٢).

(٢) التوبة ١٤ - ١٥.

(٣) المحتسب ١/١ - ٢٨٤ - ٢٨٥.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- أخبار النحويين البصريين - السيرافي - طبع مصطفى الحلبي.
- ٢- أصول الأحكام الشرعية- الشيخ على حسب الله - مطبعة العلوم.
- ٣- الأغانى- أبو الفرج الأصفهاني - نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب بالقاهرة.
- ٤- أقيسة النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم - لابن الحنبلي - طبع دار الكتب الحديثة - القاهرة.
- ٥- إنباه الرواة - القفطى - مطبعة دار الكتب المصرية.
- ٦- تاريخ الفلسفة في الإسلام - الأستاذ ت. ج. دي بور ترجمة الدكتور أبي ريدة- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٧- تاريخ النحو العربي - الدكتور على أبي المكارم - القاهرة الحديثة للطباعة.
- ٨- التراث اليونانى في الحضارة الإسلامية ترجمة د. عبد الرحمن بدوي - دار النهضة العربية.
- ٩- خزانة الأدب - البغدادي - تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون - طبع الخانجي - القاهرة.
- ١٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة - مطبعة المعاهد - طبعة ثانية.
- ١١- ضحى الإسلام - الأستاذ أحمد أمين - طبع النهضة المصرية.
- ١٢- طبقات النحويين واللغويين- الزبيدي- تحقيق محمد أبي الفضل - دار المعارف - مصر.
- ١٣- القرآن الكريم دائرة في الدراسات النحوية - د. عبد المال سالم مكرم. طبعة أولى - دار المعارف بالقاهرة - طبعة ثانية مؤسسة الصباح - الكويت - طبعة ثالثة - مكتبة التراث بالأزهر .
- ١٤ - الكتاب لسبويه، تحقيق المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون - طبع دار القلم.
- ١٥ - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، تحقيق د. شوقي ضيف - طبع دار المعارف بالقاهرة.

- ١٦١- الكشف عن وجوه القراءآت السبع لمكيّ بن أبي طالب - طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ١٧- مجالس العلماء للزجاجي: تحقيق المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون - طبع الكويت.
- ١٨- مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- ١٩- المحنّسب لابن جني - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- ٢٠- مراتب النحويين لأبي الطيب، تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل - طبعة أولى.
- ٢١- مشكل إعراب القرآن - مكي بن أبي طالب - طبع المجمع اللغوي - دمشق.
- ٢٢- معجم الأدباء - لياقوت - مطبعة الحلبي.
- ٢٣- المقتضب - المبرد - تحقيق الأستاذ محمد عبد الخالق عزيمة - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- ٢٤- النحو العربي - الدكتور إبراهيم السامرائي - طبع بغداد.
- ٢٥- نزهة الألباء في طبقات الأدباء - طبع جمعية إحياء مآثر علماء العرب.



١٣. أبو حيان الأندلسي ومنهجه

في الدراسات النحوية (*)

من هو؟

هو أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي. والنفزي نسبة إلى نفزه بكسر النون، وسكون الفاء قبيلة من البربر^(١).

أين ولده؟

ذكر ابن العماد الحنبلي في شذراته أنه ولد بمدينة «مطخشارش» من أحياء «غرناطة» في أواخر شوال سنة ٦٥٤ هـ^(٢).

مواطن دراسته:

لما نما عوده، وتفتح عقله تطلع إلى التزود بالمعرفة والثقافة فدرس في بلده على شيوخها، وأخذ عن أساتذتها، ولم يكتف بما أخذ، ويقنع بما درس، بل طوّف في بلاد الأندلس يبحث عن العلم والمعرفة حتى إذا بلغ حظه منهما اتجه إلى بلاد المشرق باحثاً عن الشيوخ الذين طار صيتهم ليجالسهم، ويتلقى عنهم.

وإني أترك المجال لأبي حيان نفسه ليسجل لنا البلاد التي زارها، ومواطن الثقافة التي أفاد منها.

قال الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الأندلسي.. في مقاله عند ذكر شيخه أبي حيان ما ملخصه: «إن أبا حيان قال: سمعت بفرناطة، ومالقة، وبجاية، وتونس، والإسكندرية، ومصر، ودمياط، والمحلة، والجيزة، ومنية ابن خصيب، ودشنا، وقنا، وقوص وبلبيس، وبعيذاب من بلاد السودان، ومكة شرفها الله تعالى وجدة»^(٣).

(*) نشر في مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت - ديسمبر سنة ١٩٧٢.

(١) نفع الطيب ٣: ٢٩٢، تحقيق محمد محي الدين، وشذرات الذهب ٦: ١٤٥ ط سنة ١٣٥١ هـ.

(٢) الشذرات ٦: ١٤٥. (٣) نفع الطيب ٣: ٣١٦.

هجرته إلى المشرق وسببها:

لم يغفل التاريخ الأسباب التي جعلت أبا حيان يترك الأندلس، ويتجه إلى المشرق ولم يغفل بجانب ذلك تاريخ هذه الهجرة.

أما الأسباب التي فرضت على أبي حيان أن يترك بلاده، ويتجه إلى المشرق فقد اختلف فيها بعض المؤرخين، فالسيوطي يقول: رأيت في كتابه «النصار» الذي ألفه في ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه، ورحلته أن مما قوى عزمه على الرحلة عن غرناطة أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة، والرياضة والطبيعة قال للسلطان: إنني كبرت وأخاف أن أموت فأرى أن ترتب لي طلبة أعلمهم هذه العلوم لينتفعوا من بعدي، قال أبو حيان: فأشير إليّ أن أكون من أولئك، وترتب لي راتب جيد وكسوة، وإحسان فتمنعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك»^(١).

والمقري يبين أن الكثير من المؤرخين ذكر أن سبب رحلة أبي حيان أنه نشأ شراً بينه وبين ابن الطباع «فرغ أمره للأمير محمد بن نصر المدعو بالفقي، وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه فتأثر عن ذلك»^(٢) وقد عزم السلطان على أن ينكل بأبي حيان حيث أمر بإحضاره، ولكن أبا حيان كان قد أحس بما اعتزم عليه فاخفى ثم ركب البحر، ولحق بالمشرق^(٣).

أما تاريخ هروبه أو خروجه من الأندلس فقد حلده المقري حيث قال: ... وخرج أبو حيان من الأندلس سنة تسع وسبعين وستمائة»^(٤).

ونحن إذا نظرنا إلى رواية السيوطي التي ثبتت أنه رحل خوفاً من أن يتظلم في سلك طلاب الفلسفة والطبيعات نجد أنها لا تتناقض مع رواية المقري التي تبين أنه رحل بسبب حدوث الجفوة بينه وبين شيخه ابن الطباع، وذلك لأنه من المحتمل جداً أن هذه الجفوة حدثت بعد امتناع أبي حيان من الانضمام إلى طلاب الفلسفة، فخشى أن يتهم الأمير هذه الجفوة، وبخاصة بعد أن شكاه أستاذه إليه، خشى أن ينتقم منه لأنه خرج على تعاليمه، وبخاصة بعد أن لمح فيه روح الثورة على أستاذه ابن الطباع.. لهذا لم يترك أبو حيان الفرصة لهذا الأمير أن ينتقم منه، أو ينكل به، ففر هارباً إلى بلاد المشرق.

(١) شذرات الذهب ٦: ١٤٦.

(٢) نفع الطيب ٣: ٢٤١.

(٣) شذرات الذهب ٦: ١٤٦.

(٤) نفع الطيب ٣: ٣٤١.

(٥) الدرر الكامنة في أعانة المائة الثامنة لابن حجر ٤: ٣٠٦٣٠٦ ط الهند.

ثقافته:

قال الكمال جعفر في ترجمة أبي حيان: «شيخ الدهر وعالمه، ومحبي الفن الأدبي بعد ما درست معالمه، ومجرى اللسان العربي فلا يقاربه أحد فيه ولا يقاومه»^(١).

نعم، لقد كان أبو حيان أستاذاً في كل فن، نابغاً في كل علم، فقى بلده وموطنه درس القراءات وأخذها عن أبي جعفر الطباع، وتلقى العربية عن أبي الحسن الأبيدي، وأبي جعفر بن الزبير، وابن أبي الأحوص.

وكان له إلمام كامل بأصول الفقه، ومعرفة تامة بالحديث. وأما التفسير فكان له اليد الطولى فيه، وكتابه «البحر» لا يزال بين أيدينا يؤيد ما أقول: وحتى التاريخ كان أبو حيان من البارعين فيه، فقد كان له بصر تام بتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم»^(٢).

وقد قال الصفدي مشيراً إلى ثقافته، ومدى تحصيله للعلم والمعرفة: «ولم أر في أشياخي أكثر اشتغالاً منه، لأنني لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب، ولم أره غير ذلك»^(٣). وأما النحو والصرف فقد كان لأبي حيان فيهما المجال الأول، والميدان الفسيح، وقد قال عنه الصفدي: «كان إمام النحاة في عصره شرقاً وغرباً، وفريد هذا الفن العذب بعداً وقرباً. خدم هذا العلم مدة الثمانين، وسلك من غرائبه وغوامضه طرقاً متشعبةً الأفانين، ولم يزل على حاله إلى أن دخل في خبر كان، وتبدلت حركته بالإسكان»^(٤).

وأما الأدب واللغة، فقد كان فيهما بحراً لا يجاري، وعلماً لا يباري، يحدثنا الصفدي فيقول: «قرأت عليه الأشعار، وكان يحفظها، والمقامات الحريرية، وقرأت عليه سقط الزند لأبي العلاء، وبعض الحماسة لأبي تمام الطائي، ومقصورة ابن دريد وسمعت من لفظه كتاب الفصيح لشعلب، وكان يحفظه، وسمعت من لفظه خطبة كتاب ارتشاف الضرب من لسان العرب، وانتقيت ديوانه وكتبه وسمعت منه»^(٥).

ولم يكن أبو حيان مبرزاً في اللغة العربية وآدابها فحسب بل كان ملماً أيضاً بلغات أخرى أو بمعنى أوضح بلغات عصره مما ساعده على الاتساع في المعرفة وقوة الإدراك، والتبحر في ثقافات الأمم المختلفة: إنه كان يجيد اللغة الفارسية والتركية، والحبشية بجانب

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ط - ولي بالهند ٣٠٦/٤.

(٢) نفع الطيب ٣: ٢٩٤.

(٣) شذرات الذهب ٦: ١٤٥.

(٤) نكت الهميان لصالح الصفدي ص ٢٨١ ط مصر سنة ١٩١٠.

(٥) نفع الطيب ٣: ٢٩٤.

اللغة العربية، ورجل يجيد هذه اللغات كلها جدير بالإعجاب، وجدير بالتقدير، وإذا نظرنا إلى علماء عصره لا نجد من يشاركه في هذه الناحية، ويجاربه في هذا المضمار، فكل ثقافتهم لا تتعدى اللغة العربية. والإمام ببعض فروعها، أما أبو حيان فقد ألمّ باللغة العربية، وفروعها المتعددة، وكتب في كل فن، ونبغ في كل علم وبرز في كل مجال، ولم يكن إمامه باللغة العربية أكثر من إمامه باللغات الأخرى التي ذكرناها، ولا أدل على ذلك من أنه ألف في هذه اللغات. فقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أنه: «صنف كتاباً في نحو اللغة الفارسية، وآخر في نحو اللغة التركية وقد طبع بالقسطنطينية عام ١٣٠٩ هـ بعنوان «الإدراك في لسان الأتراك. أما رسالته في اللغة الحبشية فلم ينمها»^(١).

حياته الاجتماعية:

خرج أبو حيان من بلاد الأندلس، لأن الهلاك كان يترصده، خرج مطارداً لا يملك درهماً ولا ديناراً. وما إن وصل إلى المشرق حتى أخذ يطوف في البلاد. ويتنقل بين الأقطار يعيش عيشة الكفاف، ويحيا حياة الزهاد، لأنه انقطع به السبيل عن بلده، وعن ماله.

وانتهى به المطاف إلى دخول مصر سنة ٦٧٩ هـ^(٢) حسب ما ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة. والواقع أن أبا حيان ترك الأندلس في هذا التاريخ كما قرر المقرئ في نفع الطيب^(٣)، ورواية المقرئ أصح في نظري، لأن أبا حيان خرج من الأندلس وهو شاب بعد أن أخذ من شيوخ بلده، وصار له في العلم مجال، وكل الكتب التاريخية تثبت أنه لم يرد إلى مصر إلا بعد أن طوف في البلاد الشرقية، وبخاصة في أقطار شمال أفريقيا، وبعد أن أدى فريضة الحج دخل مصر.

أما تاريخ دخول مصر فلم تحدده كتب التاريخ غير أن دائرة المعارف الإسلامية تقرر أنه حضر دروس ابن النحاس في النحو إلى عام^(٤) ٦٩٨ هـ وفي رأبي أن أبا حيان خرج من الأندلس سنة ٦٧٩ هـ وطوف في البلاد حتى دخل مصر فيما بعد سنة ٦٩٥ على وجه التقريب، لأن أبا حيان وهو الذكيّ الأملئ النابغة مهما طالت مدة تلمذته على شيخه ابن النحاس فلن تزيد عن ثلاث سنوات.

على أية حال فمن المسلم به أن أبا حيان قدم إلى مصر، وكشأن المصريين دائماً في كل

(١) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٣٣٣.

(٢) الدر الكامنة ٤ : ٣٠٤ . (٣) نفع الطيب ٣ : ٣٤١ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية - المجلد الأول ص ٣٣٣ .

الأزمة والمصير في إكرامهم للضيف، وحدهم على الغريب استطاع أبو حيان أن يجد له في مصر صدوراً رحبة ترحب به، وتحنو عليه، على أن أبا حيان لم يكن النكرة التي يجهلها الناس، لأنه كان له من علمه وذكائه ونبوغه ما يجعله علماً يشار إليه بالبنان، لهذا فإنه بعد أن دخل مصر أسندت إليه دراسة الحديث في المدرسة المنصورية، وفي الوقت نفسه كان يحضر دروس ابن النحاس في النحو^(١) وكما أسندت إليه أيضاً دراسة الإقراء بالجامع الأقر^(٢).

ولما توفي ابن النحاس خلفه أبو حيان^(٣) وجلس مكانه، وملاً فراغه، فأبو حيان إذن هياً له نبوغه أن يتصدر في هذه المدارس، وأن يخلف ابن النحاس شيخ علماء القاهرة. ولم نسمع أن أبا حيان وصل إلى هذه المكانة في البلاد التي طوّف بها، وفي الأقطار التي زارها وكل ما فعله في هذه الأقطار أنه كان يأخذ عن أساتذتها، ويجالس شيوخها، أما في القاهرة فقد هياً له جوها، وكرم أهلها أن يجلس مجلس الأستاذ، ويقبل عليه الطلبة ليرتشفوا من منهله العذب الصافي وكان يقدر في طلبته الذكاء والنبوغ، وكل من اتسم بهاتين الصفتين كان له من شيخه الإجلال والتقدير. قال الصفدي: «وكان له إقبال على الطلبة الأذكاء، وعنده تعظيم لهم»^(٤).

ومما يدل على أن أبا حيان كان مقدرًا في القاهرة «أنه كانت له خصوصية بالأمير سيف الدين أرغون، النائب الناصري، يتوسط معه ويبيت عنده، ولما توفيت ابنته «نضار» طلع إلى السلطان الملك الناصري وطلب منه أن يدفنها في بيتها داخل القاهرة فأذن له^(٥).

وكشأن الغريب دائماً في كل بلد يحل به، يحاول أن يتودد إلى أهله ويتقرب منهم، ويذل جهده على كسب صداقتهم حتى يأمن شرهم ويستريح من خطرهم ليهياً له جو الاستقرار والهدوء الذي يساعد على التحصيل والإنتاج - رسم أبو حيان لنفسه وأهله خطة واضحة المعالم، بينة السمات، تتجلى فيها الحكمة، وتبرز من ثناياها تجاربه في الناس وخبراته بالحياة، كل ذلك من أجل أن يطيب له المقام في القاهرة، ويشعر بالاستقرار والأمن بين أهلها.

وكانت هذه الخطة التي رسمها تتجلى في وصية جامعة مانعة قدمها إلى أهله حينما قدم إلى مصر.

(١) شذرات الذهب ٦: ١٤٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٣٣٣.

(٤) شذرات الذهب ٦: ١٤٦.

«قال المقرئ: «لما قدم إلى مصر أوصى أهله بقوله: ينبغي للعاقل أن يعامل كل أحد في الظاهر معاملة الصديق وفي الباطن معاملة العدو في التحفظ منه والتحرز، وليكن في التحرز من صديقه أشد في التحرز من عدوه، وليعتقد أن إحسان شخص إلى آخر، وتودده إليه إنما هو لغرض قام له فيه يتعلق به، يبعثه على ذلك، لا لذات ذلك الشخص، وينبغي أن يترك الإنسان الكلام في ستة أشياء:

١- في ذات الله تعالى وما يتعلق بصفاته، ٢- وما يتعلق بأحوال أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ٣- وفي التعرض لما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، ٤- وفي التعرض أيضاً لأئمة المذاهب رحمهم الله تعالى، ٥- وفي الطعن على صالحى الأئمة نفع الله بهم، وعلى أرباب المناصب والرتب من أهل زمانه، ٦- وألا يقصد أذى أحد من خلق الله سبحانه وتعالى إلا على حساب الدفع عن نفسه»^(١).

ويمضى أبو حيان يقدم الوصايا النافعة، والعظات البليغة، كثمرة لتجاربه ونتيجة لخبراته، ليأمن أهله شرَّ المحن، ويلاء الخطوب.

وكان أبو حيان، وهو الغريب الطريد يعرف للمال قدره، وللدراهم منزلتها، فكان لا يجود بها، وإذا حصل عليها لا يند منها درهم، ولا يغيب منها فلس إلا إذا كانت هناك ضرورة تقتضيه، أو حاجة يبذل فيها، قال كمال الدين الإدقوي: قال لى أبو حيان: «إذا قرأت أشعار العشق أميل إليها، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلنى وغيرهما إلا أشعار الكرم ما تؤثر في»^(٢).

وقال المقرئ: «كان يفتخر بالبخل كما يفتخر غيره بالكرم، وكان يقول لى: أوصيك: أحفظ دراهمك، ويقال عنك بخيل ولا تحتج إلى السفلة، وأنشدنى من لفظه لنفسه:

رجاؤك فلَسًا قد غدا فى حباتلى

فنبصًا رجاء للنتاج من المعقم

أنتعب فى تحصيله وأضيعه

إذن كنت معراضًا من البرء بالسقم»^(٣).

(١) نفع الطب ٣: ٣٢١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٧.

(٣) المرجع السابق والصفحة.

ونحن إذا نظرنا إلى السر في تقديس أبي حيان للمال نجد أن ظروف حياته اقتضت هذا التقديس، وذلك لأنه خرج من بلاده- كما قلت سابقاً صفر اليدين، لا يملك شيئاً، وطوّف في البلاد يعيش على حساب غيره، ولقى من الناس ما لقى في هذا المجال، فتركت هذه الرحلات في نفسه رواسب تجعل المال الميزان الأول لحفظ كرامة الإنسان، وصون ماء وجهه عن الابتذال، وإذا كان الشأن كذلك فمن الجدير بأبي حيان وقد لمس بنفسه مصائب الدهر، وخطوب الأيام، وذل الفقر، وضعة الفقير، من الجدير به أن يتصف بالبخل لا بالكرم، وبالشح لا بالجود، وفي نظره أن هذا أهون من الحاجة إلى السفلة من الناس والأوغاد. وقد التمس العذر لأبي حيان المقرى حينما ذكر علة البخل فيه فقال: «والذي أراه فيه أنه طال عمره، وتغرب، وورد البلاد، ولا شيء معه وتعب حتى حصل المناصب تبعاً كثيراً، وكأنه قد جرب الناس، وحلب أشطر الدهر، ومرت به حوادث فاستعمل الحزم»^(١).

ومن صور بخل أبي حيان أنه كان يقول: «يكفى الفقير في مصر أربعة أفلس يشتري له بائنة بفلسين، وبفلس زيبياً، وبفلس كوز ماء، ويشتري ثانياً يوم ليموناً يأكل به الخبز»^(٢).

ولأبي حيان قصيدة يصف فيها أهل عصره، ويبين مدى ما كان يقاسيه من الناس الذين أغرقوا في الضلال، ونبغوا في الجهل، وجروا وراء الشيطان، وليس هذا متناقضاً مع قولى السابق أنه لقي من أهل عصره من مصر كل ترحيب وتقدير، لأنى أقصد من أهل عصره - العلماء، والمفكرين الذين ينزلون الناس منازلهم، وأما في هذه القصيدة فإنه يصف عامة الناس لا خاصتهم، وجمهرتهم لا قلتهم، وهو في هذا رجل اجتماعى يسجل ما بدا له من الظواهر الاجتماعية السائدة في عصره: قال:

حلبت الدهر أشطره زماناً

وأغناني العيان عن السؤال

فما أبصرت من خل وفيّ

ولا ألفيت مشكور الخلال

(١) نفع الطيب ٣: ٢٩٧.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

لرائيها بأشكال الرجال
فزندق تغلفل في الضلال
مشاركة بأهل أو بمال
نساءهم بمقبوح الفعمال
عمامته، ويهرب في الرمال
تقرمط في العقيدة والمقال^(١)

ذئاب في ثياب قد تبدت
ومن يك يدعى منهم صلاحاً
تري الجهال تتبعه وترضى
فينهب مالهم ويصيب منهم
ويأخذ حاله زوراً فيرمي
ويجرون السبوس وراء رجس

وللكتاب في نفس أبي حيان منزلة، لأنه جليس من لا جليس له، وصديق من لا صديق له، وقد قال فيه:

لما غنيت عن الأكياس بالياس
بنات فكري، وكتبي هن جلاسي^(٢)

أرحت روعي من الإيناس بالناس
وصرت في البيت وحدي لا أرى أحداً

ومع هذه المنزلة التي بلغها الكتاب في نفسه فقد كان يضمن بشرائه، ويبخل ببذل المال وكان المظنون بأبي حيان، وهو الذي لمع نجمه في كل فن، وأشرق ذهنه في كل علم كان المظنون به أن يكون صاحب مكتبة تضم أضخم الكتب، وتحوى أنفس المجلدات، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، فقد كان أبو حيان كما حدث عنه المقرئ... يعيب على مشترى الكتب ويقول: الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرت من خزائن الأوقاف، وإذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم، ما أجد ذلك^(٣).

وبعد، فهذا الذي قدمت صورة صادقة لحياة أبي حيان الاجتماعية التي كان يحيها في عصره، تلمح فيها أنه كان جد خبير بالناس وبالحياة أما الناس فقد أعد لهم عدته من الحذر والحيلة، وسوء الظن، وعدم الثقة فيهم والتعرض لهم؛ وأما الحياة فقد عرف تغيرها، ولس تنكرها، وأحس بغدرها، وكان شعاره فيها:

لغاية مطلوب لمن هو طالب
وإكثار أعمال عليها أو اظب^(٤)

أريد من الدنيا ثلثاً وإنها
تلاوة قرآن، ونفس عفيفة

(١) اعتقدوا رأي القرامطة، ومذهبهم مشهور: نفع الطيب ٣: ٢٢٣.

(٢) نفع الطيب ٣: ٢٩٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٢٠.

(٤) نفع الطيب ٣: ٣٢٠.

شيوخه:

لم يشتهر أحد من النحاة بكثرة الشيوخ كما اشتهر أبو حيان، فقد تنقل في بلاد الأندلس كمالقة والمرية، وغيرهما باحثًا عن العلم والعلماء ولولا الحادث الذي وقع بينه وبين شيخه ابن الطباع لكان من المحتمل أن يظل أبو حيان شيخًا عاديًا لا يشار إليه بالبنان، ولا يحتل من مائدة العلم أسمى مكان، ولكن كما يقولون: رب ضارة نافعة فقد هيا له هذا الحادث أن يهرب من الأندلس إلى بلاد المشرق، وبخاصة في شمال أفريقيا التي نزع إليها الكثير من علماء بغداد بعد فتنة التتار وفي هذه البلاد تجوّل أبو حيان لا ليحصل على المال، أو يشتغل بالتجارة ولو اتجه هذا الاتجاه لكان من السهل عليه أن يصل إلى بغيته، وبخاصة فإنه كان يتمتع بمقدار كبير من الذكاء يسهل له كل ما يريد، ولكن لأبي حيان وجهة أخرى غير هذه الوجهة، ومطلب آخر غير هذا المطلب، فقد كان يبحث عن العلم، وكان همه أن يجالس العلماء، ويلقى المشهورين منهم ولا يهمه في ذلك تحمل المكاره، وتحشم المصاعب، والفقير والحرمان.

وبعد أن أخذ ما أخذ، ولقى من لقى في هذه البلاد اتجه إلى عروس الشرق إلى القاهرة التي ورثت حضارة بغداد، وحملت رسالة العلم والمعرفة، وقامت بها خير قيام. وفي القاهرة والإسكندرية. وغيرهما من مدن مصر تنقل أبو حيان فقابل الشيوخ، وأخذ عنهم، وجلس في حلقاتهم، وناقشهم وناقشوه، وأفاد منهم الكثير في شتى العلوم، وضروب الفنون، وقد كانت كثرة شيوخه موضع فخر واعتزاز عنده حتى أنه بلغ به الأمر أن عاب إمام العصر في النحو واللغة ابن مالك، عابه بقله الشيوخ، وأخذ علمه من الكتب، ولعله كان يعنيه بهذه الأبيات التي إن دلت على شيء فإنما تدل على اتهام صارخ، بأسلوب ساخر ولفظ قارص. قال:

يظن الغمر أن الكتب تجدى	أخا ذهن لإدراك المعلوم
وما يدري الجهول بأن فيها	غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت المعلوم بغير شيخ	ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى	تصير أضلّ من توما الحكيم ^(١)

(١) نفع الطيب ٣: ٣٢٠ وتوما الحكيم هو الذي ضرب مثلاً للجهل المركب وقيل فيه:

قال حمار الحكيم توما لو أنصف الدهر كنت أركب

لأنني جاهل بسيط وصاحبي جهله مركب

على أية حال، كانت فإن كان أبو حيان يريد بذلك ابن مالك، فقد غفر الله له لأن ابن مالك كان إماماً جليلاً، وعلماً عظيماً، ولم يكن أبو حيان منه إلا كما يكون الجدول من النهر، والخليج من المحيط.

قال ابن العماد الحنبلي في صدد ذكر شيوخ أبي حيان: أنه أخذ القراءات عن أبي جعفر ابن الطباع، والعربية عن أبي الحسن الأبندي، وأبي جعفر بن الزبير، وابن أبي الأحوص، وابن الضائع بالضاد المعجمة والعين المهملة، وبمصر عن البهاء بن النحاس، وجماعة، وقرأ في حياة شيوخه بالمغرب، وسمع الحديث بالأندلس، وإفريقية، والإسكندرية، ومصر، والحجاز من نحو أربعمائة وخمسين شيخاً، منهم أبو الحسن بن ربيع، والقطب القسطلاني، وأجاز له خلق من المغرب والمشرق، منهم: الشرف الدمياطي، وابن دقيق العيد، والتقى ابن رزين، وأبو اليمن بن عساكر.

والمقرى في نفع الطيب يذكر بالتفصيل شيوخه، ولم يكتب بهذا، بل يذكر الكتب التي كان يدرسها على هؤلاء الشيوخ.

ويحصي أبو حيان شيوخه، وفي نهاية هذا الإحصاء يقول ما نصه: «وجملة الذين سمعت منهم نحو من أربعمائة شخص وخمسين، وأما الذين أجازوني فعالم كثير جداً من أهل غرناطة، ومالقه، وسبته وديار إفريقية، وديار مصر والحجاز، والعراق، والشام»^(١).

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: كيف يتأتى لأبي حيان أن يسمع من هذا العدد الضخم من الشيوخ؟

الحقيقة في نظري أن أبا حيان لم يسمع من هؤلاء الشيوخ كما يسمع التلميذ من الأستاذ... لو كان الأمر كذلك لطلال الزمن، وامتدت الأيام مع أن أبا حيان خرج من الأندلس، وهو في قرابة الخامسة والعشرين من عمره^(٢) فظاف بالبلاد أكثر من خمسة عشر عاماً، واستقر أخيراً في مصر، وجلس متصدراً في مساجدها ومدارسها حتى وافاه الأجل المحتوم، فلا يصدق العقل أن أبا حيان جلس من هؤلاء الشيوخ مجلس التلميذ، وإنما الأمر الذي لا شك فيه أن أبا حيان كان يلاقي كثيراً من الشيوخ والعلماء في تجواله بالبلاد التي تنقل فيها، وكل من لقيه حتى ولو مرة واحدة سجل أبو حيان، أنه سمع منه ولو كان المسموع مسألة واحدة، وبهذا التفسير يمكن أن يصدق هذا العدد الضخم الذي ذكره أبو حيان وسجله، ولعل أبا حيان نفسه، كان يذهب إلى هذا الاتجاه، ويريد هذا الغرض حين قال: «وأما شيوخى الذين

(٢) ولد ٦٥٤ هـ وخرج من الأندلس ٦٧٩ هـ

(١) نفع الطيب ٣٠٦:٣.

رويت عنهم بالسمع أو القراءة فهم كثير»^(١) والرواية بالسمع لا تعنى التلمذة على هؤلاء الشيوخ.

ولنا أن نتساءل مرة أخرى: إذا كان من المسلم به أن أبا حيان كثر شيوخه في المشرق والمغرب، واعترف أنه سمع منهم، وأخذ عنهم فلم لم ينظم الإمام ابن مالك في سلك هؤلاء الشيوخ؟ أكان ابن مالك نكرة لا يستحق الاهتمام به، أو التلقى عنه في نظر أبي حيان؟ هذا سؤال حيرني، وكانت الإجابة عنه أشد حيرة.

أما أن ابن مالك كان نكرة فذلك أمر ينكره العام والخاص، لأن ابن مالك درة عصره، وتاج زمانه، وهو الإمام المجتهد الذي يعد كسيوبه في عصره، والذي دعانى إلى هذه الحيرة هو أن أبا حيان عاصر ابن مالك بنحو ثلاثين سنة كما يذكر المقرئ في نفخ الطيب^(٢)، فلماذا لم يجلس في حلقته مع أنه جلس في حلقة تلميذه بهاء الدين بن النحاس؟ واقع الأمر أن أبا حيان كانت فيه شبيهة أندلسية تستند على غرور النفس، وتقوم على هوى الشباب مما جعله يثور على شيخه «أبي جعفر بن الطباع وكانت هذه الثورة سبباً في خروجه من الأندلس، ولما وصل إلى مصر وبلاد الشام وجد في هذين الإقليمين منافساً أندلسياً آخر، له خطره وله كيانه، منافساً طبقت شهرته الآفاق، وشدت إليه الرحال، وأشير إليه بالبنان، إنه ابن مالك من أجل هذا فقد ملأ الحقد قلبه على هذا الرجل الأمر الذي جعله لا يتلقى عن هذا الشيخ، ولا يشير إليه ضمن شيوخه الذين افتخر بهم، هذه ناحية، وناحية أخرى لعلها كانت سبباً آخر يضمن إلى هذا السبب في نفور هذا الشيخ من الجلوس في حلقة ابن مالك، ذلك لأنه كان يؤمن أن العلم لا يؤخذ من الكتب، وإنما يؤخذ من أفواه الرجال، ويتلقى من ألسنة الشيوخ، وابن مالك لم يكن له حظ كبير في نظر أبي حيان في هذا المجال، فقد ذكر في باب «الجواز» من كتابه: «التذليل والتكميل» أنه لم يصحب من له البراعة في علم اللسان، ولذا تضعف استنباطاته وتعقيباته على أهل هذا الشأن. وينفر من المنازعة والمباحثة والمراجعة قال: وهذا شأن من يقرأ بنفسه، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه»^(٣) ورحم الله الإمام العجيسي، فقد بين سبب هذا التحامل على ابن مالك بقوله «ليس ذلك منه بإنصاف، ولا يحمل على مثله إلا هوى النفس، وسرعة الانحراف»^(٤).

ويبدو لي أن أبي حيان، وإن أنكر هذه الأستاذية لابن مالك في ظاهر الأمر فإنه أثبتتها من

(٢) نفخ الطيب ٢: ٤٢٧.

(٤) نفخ الطيب ٢: ٤٢٩.

(١) نفخ الطيب ٣: ٣٠٤.

(٣) نفخ الطيب ٢: ٤٢٨.

طريق غير مباشر حيث أسهم أبو حيان فى نشر كتب ابن مالك، وشرحها، والإشادة بها، وكما قال السيوطى: «هو الذى جسر الناس على مصنفات ابن مالك، ورغبتهم فى قراءتها. وشرح لهم غامضها، وخاض بهم لججها»^(١).

إنتاجه العلمى:

أسهم أبو حيان فى الحركة العلمية التى كانت تسود عصره بكتب عديدة، تنوعت موضوعاتها، وتعددت أغراضها، ولم يترك فناً من الفنون المنتشرة فى عصره من غير أن يسهم فيه بالتأليف والتصنيف. صنف فى التفسير، وفى الفقه وفى النحو، وفى الصرف، وفى الأدب، وفى التاريخ، وكان إنتاجه فى كل هذه العلوم ضخماً يدل على مقدرة فائقة، وعبقرية فذة، وإلهام مشرق، وإنى أترك المجال لتلميذه الصفدى لسجل لنا صورة واضحة من مؤلفاته، فهو أعلم الناس بما ألف هذا الشيخ، لأنه كان من المعاصرين له، والمتلقين عنه.

قال الصفدى: وأما تصانيفه فهى:

- ١- البحر المحيط فى تفسير القرآن العظيم.
- ٢- إنحاف الأريب بما فى القرآن من الغريب
- ٣- كتاب الأسفار الملخص من كتاب الصغار شرحاً لكتاب سيويه.
- ٤- كتاب التجريد لأحكام سيويه.
- ٥- كتاب التذيل والتكميل فى شرح التسهيل.
- ٦- كتاب التذكرة.
- ٧- كتاب المبدع فى التصريف.
- ٨- كتاب الموفور.
- ٩- كتاب التقريب.
- ١٠- كتاب التدريب.
- ١١- كتاب غاية الإحسان.

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ١٢٢.

- ١٢- كتاب النكت الحسان.
- ١٣- كتاب الشذا فى مسألة كذا.
- ١٤- كتاب الفصل فى أحكام الفصل.
- ١٥- كتاب اللمحة.
- ١٦- كتاب الشذرة.
- ١٧- كتاب عقد اللاكئ.
- ١٨- كتاب النافع فى قراءة نافع.
- ١٩- كتاب الأثير قراءة ابن كثير.
- ٢٠- كتاب المورد الغمر فى قراءة أبى عمرو.
- ٢١- كتاب الروض الباسم فى قراءة عاصم.
- ٢٢- كتاب المزن الهامر فى قراءة ابن عامر.
- ٢٣- كتاب الرمزة فى قراءة حمزة.
- ٢٤- كتاب تقريب النائى فى قراءة الكسائى.
- ٢٥- غاية المطلوب فى قراءة يعقوب.
- ٢٦- قصيدة النبر الجلى فى قراءة زيد بن على.
- ٢٧- الوهاج فى اختصار المنهاج.
- ٢٨- كتاب الأنوار الأجلى فى اختصار المحلى.
- ٢٩- الحلل الحالية فى أسانيد القراءات العالية.
- ٣٠- كتاب تحفة الندس فى نحاة الأندلس.
- ٣١- كتاب الأبيات الوافية فى علم القافية.
- ٣٢- كتاب الإدراك للسان الأتراك.
- ٣٣- زهو الملك فى نحو الترك.

٣٤- منطق الخرس فى لسان الفرس.

٣٥- كتاب ارتشاف الضرب فى لسان العرب^(١).

وبعد، فهذه صورة مجملة من كتب أبى حيان، ولعل العامل الأول الذى ساعد فى تأليف هذه الكتب وتعدادها هو مَنْ الله سبحانه عليه بطول العمر، وامتداد الأجل، فكما يقول المؤرخون: أنه ولد سنة ٦٥٤هـ وتوفى ٧٤٥هـ ومعنى ذلك أنه عاش إحدى وتسعين سنة وهذا العمر الطويل كفيل بنهية الجو للإنتاج والتأليف، وبخاصة إذا علمنا أن أبى حيان كان متفرغاً للعلم، يتعيش منه، ويأكل من نتاج عقله وفكره.

ثناء العلماء عليه؛

كان أبو حيان فى عصره مرموق المكانة، ذائع الصيت، حسن الذكر، وقد أشاد به علماء عصره، وسجلوا له كل فخر، وقلروا فيه نبوغه العظيم، وعقليته الناضجة، وأفق الواسع، وفكره المشرق، وعلمه الغزير. قال الصفدى تلميذه:

«لم أر فى أشياخى أكثر اشتغالا منه، لأنى لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل، ويكتب، ولم أره غير ذلك، وهو ثبت فيما نقله، محرر لما يقوله، عارف باللغة، ضابط لألفاظها»^(٢).

قال المقرئ: وقد مدحه كثير من الشعراء، والكبار، والفضلاء منهم القاضى محبى الدين ابن عبد الظاهر، وشرف الدين بن الوحيد، ونجم الدين إسحاق، وسأله تكملة شرح التسهيل بقصيدة، وأرسلها إليه من دمشق، وأولها:

تبدى فقلنا وجهه فلق الصبح وكملة باليمن فيه وبالنجح
وسهلت تسهيل الفوائد محسناً فكن شارحاً صدرى بتكملة الشرح

وفاته؛

اتفق جل المؤرخين على أن أبى حيان توفى ٧٤٥هـ، وحدد المقرئ تاريخ هذه الوفاة حيث قال: توفى رحمه الله تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة فى يوم السبت بعد العصر فى الثامن والعشرين من صفر سنة ٧٤٥هـ ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر،

(١) نكت الهميان ص ٢٨٤: لصلاح الصفدى طبع ١٩١٠ بمصر.

(٢) نفع الطيب ٣: ٢٩٤.

وصلى عليه بالجامع الأموى بدمشق صلاة الغائب فى شهر ربيع الآخر. وقد رثاه الصفدى بقصيدة طويلة منها:

مات أنير الدين شيخ الورى فاستمر البارق واستعبرا
ورق من حزن نسيمُ الصِّبا واعتلّ فى الأسحار لما سرى^(١)

منهجه فى الدراسات النحوية

(١) السماع:

كان أبو حيان كالصيرين إزاء السماع، فليست كل القبائل على درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة، ومن هنا يجب التحرى فى كل مسموع فإن كان من القبائل العربية الخالصة التى اعتصمت بالبادية، وتحصنت بالصحراء من عاديات المدينة والحضارة، واللكنة والعجمى أخذ بهذا المسموع. ورفضه إذا كان من مصدر آخر غير هذا المصدر المذكور، وقد بين السيوطى فى كتابه «الاقتراح» نقلاً عن أبى نصر الفارابى فى كتابه المسمى «بالألفاظ والحروف» ما نصه: «والذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم: قيس، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ معظمه، وعليهم أتكل فى الغريب، وفى الإعراب، وفى التصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ من حضرى قط. ولا من سكانى البرارى ممن كان يسكن أطراف البلاد التى تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ من لحم، ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاة ولا من غسان، ولا من إباد، فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون فى صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا مجاورين بالجزيرة اليونانية، ولا من بكر، لأنهم كانوا مجاورين للقبط والفرس، ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحيش، ولا من بنى حنيفة، وسكان اليمامة، ولا من ثقيف، ولا من سكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.

حاضرة الحجاز، لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم»^(١).

وكان الكوفيون على العكس من هذا الاتجاه فهم كما قال البصريون عنهم: «إنما يأخذون اللغة عن أكلة الشواريز، وباعة الكواميخ»^(٢).

وكان ابن مالك يسير على نهجهم في التوسع في قبول المسموع فما دام الناطق به عربياً. وفي العصور التي لم يتفش فيها اللحن قبل هذا المسموع. ومن هنا كان يعيب أبو حيان المؤمن بالاتجاه البصرى في مجال السماع - على ابن مالك حيث لم يتحر في النقل، ويدقق في قبول المسموع. قال في شرح التسهيل معترضاً على ابن مالك: «عنى في كتبه بنقل لغة لحم وخزاعة، وقضاعة وغيرهم، وقال: ليس من عادة أئمة هذا الشأن»^(٣).

ومن هنا أيضاً عاب بعض الأدلة التي بنى عليها ابن مالك قواعده النحوية، لأن هذه الأدلة يتسرب إليها الاحتمال، والدليل في نظر أبي حيان إذا دخله الاحتمال سقط به الاستدلال.

قال السيوطى فى الاقتراح: «إذا دخل الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال ورد على ابن مالك كثيراً فى مسائل استدلال عليها بأدلة بعيدة التأويل وذلك كاستدلال ابن مالك على قصر الأخ بقوله:

أخاك الذى إن تدعه للمة يجبك بما تبغى ويكفيك من يبغى»^(٤)

فإنه يحتمل أن يكون الأخ منصوباً بإضمار فعل أى الزم، وإذا دخله الاحتمال سقط به الاستدلال»^(٥).

(١) الاقتراح للسيوطى ص ١٠٠، والشيراز: اللبن الرائب المستخرج ماؤه، جمعه شواريز، والكواميخ، المخلاتات تشهى بها الطعام.

(٢) الاقتراح للسيوطى ص ٢٤.

(٣) المصدر نفسه / ٢٤.

(٤) الاقتراح: ص ٢٤.

(٥) المصدر نفسه ص ٣٤.

وأبو حيان يمنع التأويل فيما كثر وروده، لأنه ما دام السماع واردًا بكثرة فلا حاجة إلى هذا التأويل.

ففى (من) الجارة يرى أبو حيان أنها لا ابتداء الغاية مطلقاً أى مكاناً وزماناً وغيرهما. أما البصرية والأخفش، والمبرد، وابن درستويه فقد خصوها بالمكان، وأنكروا ورودها للزمان.

قال ابن مالك: وغير مذهبهم هو الصحيح لصحة السماع بذلك كقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾^(١).

قال أبو حيان مؤيداً لابن مالك: لكثرة ذلك فى كلام العرب نظماً ونشراً، وتأويل ما كثر وجوده ليس بجيد^(٢).

والسماع الذى يعتد به أبو حيان لا بد أن تكون له شواهد كثيرة، صادرة ممن يعتد بهم وينقل عنهم. أما البيت أو البيتان فلا يمكن أن يُعتدّ بهما فى رأيه. بل لا يمكن أن تبني عليهما القواعد^(٣).

يتضح ذلك فى إعمال (لا).

قال ابن مالك عمل لا النافية أكثر من عمل (إن) النافية قال أبو حيان: والصواب عكسه، لأن (إن) عملت نشراً ونظماً، و(لا) أعمالها قليل جداً بل لم يرد منه صريحاً إلا قوله:

تعزّ فلا شيء على الأرض باقياً ولا وزر مما قضى الله واقياً
والبيت والبيتان لا تبني عليهما القواعد^(٣).

ويرد أبو حيان على ابن عصفور وابن جنى قياسهما، لأنه لا يوجد له ما يسنده من كلام العرب المسموع.

قال السيوطى فى الهمع: أجاز ابن عصفور، وابن جنى النصب بعد اسم فعل الأمر إذا كان مشتقاً كنزال من النزول، ودراك من الإدراك.

(١) التوبة: آية ١٠٨.

(٢) همع الهوامع للسيوطى ٢: ص ٣٤.

(٣) الهمع ١: ١٢٥.

قال أبو حيان: والصواب أن ذلك لا يجوز لأنه غير مسموع من كلام العرب^(١).

من هذه الأمثلة نتبين أن نزعة أبي حيان في السماع هي نزعة بصرية فلا يعتد بالسماع إلا إذا كان صادراً من قبائل معينة، ولا يعتد به أيضاً إلا إذا كان كثيراً يشتمل على شواهد متعددة، تشد أزره وتقوى عضده، ولا يؤمن كما يؤمن ابن مالك بأن البيت أو البيتين يصح أن تقعد على أساسهما القواعد.

(٢) القياس:

وكما كان أبو حيان يميل إلى البصريين في الأسس التي بنى عليها السماع كذلك كان يميل إليهم في نظيره، وهو القياس.

فالقياص إذن عند أبي حيان لا يستعمل إلا إذا كان هناك أدلة كثيرة، وشواهد عديدة يمكن أن تكون أساساً للقياس الذي تبنى عليه القواعد، وتصحح به المسائل.

وهذه أمثلة توضح اتجاه أبي حيان في القياس:

أ- وضع كل من المفرد، والمثنى، والجمع موضع الآخر:

سمع: ديناركم مختلفة، أى دنائركم. وعيناه حسنة أى حستان ومنه: ليك وإخوته فإنه لفظ مثنى وضع موضع الجمع. وقالوا: شابت مفارقة، وليس له إلا مفرق واحد.

فعند البصريين هذه الأمثلة مسموعة لا يقاس عليها.

أما الكوفيون وابن مالك فيقيسون عليها إذا أمن اللبس.

قال السيوطي: وابن مالك ماشٍ على قاعدة الكوفيين من القياس على الشاذ والناذر.

ولم يرتض أبو حيان هذا القياس؛ لأنه كالبصريين لا يقيس على الشاذ والناذر قال أبو

حيان: ولو قيس شيء من هذا لالتبست الدلالات، واختلطت الموضوعات^(٢).

(١) الهمع ج ٢ ص ١١.

(٢) الهمع ج ١ ص ٥٠.

ب- جمع حم:

قال ابن مالك: لو قيل في جمع حم: حَمُون لم يمتنع، لكن لا أعلم أنه سمع، قال أبو حيان: يمتنع لأن القياس بأباه^(١).

ج- وأبو حيان لا يشغل نفسه بالعلل العقلية التي يتلاعب بها النحاة لتدل على مقدرتهم الذهنية، وقوتهم الفكرية، والعلة أصل القياس، وهي الموجبة له. وإنما بالقياس من حيث هو، فإن حادت قاعدة عن أصوله وجب أن يسأل عنها، ومعنى ذلك أنه لا يهتم بعلة القياس أولاً، وإنما يهتم بالقياس نفسه، لأن القياس عنده ليس أمراً عقلياً، يرجع إلى التفكير أو المنطق، وإنما مرجعه الأول والأخير كثرة الشواهد واتساع السماع، فإذا وجب القياس بناء على هذا، ولم يعمل به سئل عن السبب.

قال السيوطي في الهمع في باب ألقاب الإعراب:

«الرفع والنصب يكونان إعراباً للاسم والفعل لقوة عواملهما باستقلالهما بالعمل، وعدم تعليقهما بعامل آخر. وأما الجر فعامله غير مستقل لافتقاره إلى ما يتعلق به، ولذلك إذا حذف الجار نصب معموله، وخص الجزم بالفعل ليكون فيه كالعوض عما فاته من المشاركة في الجر».

وهذه في رأيي علل ذهنية يجب أن تبعد عن المجال اللغوي والنحوي الذي يعتمد أول ما يعتمد على النصوص والسماع.

ومن هنا صح لأبي حيان أن يهاجم هذه العلل فيقول: «والصواب في ذلك ما قرره بعض أصحابنا. أن التعرض لامتناع الجر من الفعل أو الجزم من الاسم، ولحوق التاء الساكنة للماضي دون أخويه وأشبه ذلك من تعليل الوضعيات، والسؤال عن مبادئ اللغات وذلك ممنوع لأنه يؤدي إلى تسلسل السؤال إذا ما من شيء إلا ويقال فيه. لم كان كذلك؟ وإنما يسأل عما كان يجب قياساً فامتنع، والذي كان يجب قياساً هنا خفض المضارع إذا أضيف إليه الزمان نحو: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ﴾^(٢) وجزم الأسماء التي لا تنصرف لشبهها بالفعل.

(١) الهمع ١: ٤٧.

(٢) المائدة: ١١٩.

وعلة امتناع الأول أن الإضافة فى المعنى للمصدر المفهوم من الفعل لا للفعل. وعلة امتناع الثانى ما يلزم من الإجحاف لو حذفت الحركة أيضاً بعد حذف التنوين، إذ ليس فى كلامهم حذف شيتين من جهة واحدة^(١).

دفعى المركب المزجي؛

إذا كان الجزء الثانى كلمة (ويهِ) فيبنى على الكسر فى الأشهر عند سيويه، وعلة ذلك «أما البناء فلأنه اسم صوت، وأما الكسر فعلى أصل التقاء الساكنين، وذلك مثل عمرويه، وسيويه.

واختار الجرّمى أن يعرب إعراب ما لا ينصرف فلا يدخله خفض ولا تنوين. قال أبو حيان: وهو مشكل إلا أن يستند إلى سماع وإلا لم يقبل، لأن القياس البناء لاختلاط الاسم بالصوت وصيرورتهما اسماً واحداً^(٢).

هو وعلى الرغم من أن أبا حيان تبع المذهب البصرى فى السماع وفى القياس فقد خالفهم فى بعض المسائل التى جانبهم فيها التوفيق، وذلك فى مسألة العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار فالبصريون يمنعون ذلك، والكوفيون، والأخفش، ويونس، وابن مالك يجيزون ذلك، لأنه أتى من النظم والنثر الصحيح مثبتاً فمن النظم قوله:

فاليوم قد بت تهجوناً وتشتمنا

فأذهب فما بك والأيام من عجب

وهو كثير فى الشعر.

ومن النثر قراءة ابن عباس: «تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ»^(٣) وحكاية قطرب: ما فيها غيره وفرسه^(٤) بكسر السين فى حكاية قطرب وكسر الميم فى قراءة ابن عباس.

قال أبو حيان: الذى يختار جوازه لوقوعه من كلام العرب كثيراً نظماً ونثراً ثم قال: ولسنا متعديين باتباع مذهب البصريين بل نتبع الدليل^(٥).

(١) الهمع ١: ٢١. (٢) التصريح على التوضيح ١: ١١٨-١١٩.

(٣) النساء: آية ١. (٤) الأشموني ٣: ١٥.

(٥) الاقتراح ص ١٠٠.

٣. القراءات:

لئن صح أن أبا حيان اتجه وجهة البصريين فى السماع والقياس وسار على دربهما فى هذين المضمارين، فإنه وقف منهم موقف الخصم العنيد، والمعارض القوى فى مضمار القراءات.

فالبصريون أخذوا مقياسهم اللغوية من القراءات الأخرى موقف الحريص الحذر حتى القراءات السبع على رأى من يقول: إنها متواترة، ومنقولة من العرب الأقحاح فقد رفضوا الكثير منها، رفضوا قراءة ابن عامر مقرئ أهل الشام، ونافع مقرئ أهل المدينة، وحمزة بن حبيب مقرئ أهل الكوفة، لأن هذه القراءات لا تتوافق مع مقياسهم التى استنبطوها من القرآن الكريم بلهجة قريش، ومن نصوص العرب الشعرية والثرية إلى منتصف القرن الثانى من الهجرة.

ومما لا شك فيه أن منهج البصريين فى عدم قبولهم الأخذ بالقراءات فى مجال بناء القاعدة كان منهجاً ناقصاً، ظهر نقصه، ووضح عواره فى تعارض مقياسهم، واضطراب أصولهم، واهتزاز قواعدهم، وظهور التأويلات البعيدة فيما سمع عن طريق غير طريقهم. أما الكوفيون وابن مالك فإنهم أخذوا بالقراءات جميعها سواء أكانت متواترة أم شاذة. قال السيوطي:

«ابن مالك أخذ بالقراءات الشاذة، وردّ على النحويين المتقدمين الذين يعيرون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة فى العربية وينسبونهم إلى اللحن، وهم مخطئون فى ذلك، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التى لا مطعن فيها، وثبت ذلك دليل على جوازه فى العربية»^(١).

ولأجل هذا التشدد المخل من البصريين إزاء القراءات رفض أبو حيان أن يجرى فى حلبتهم، وأن ينهج نهجهم فى مجال القراءات، فقد عاب عليهم هذا التشدد، وأزرى عليهم هذا التزمّت فما دامت القراءات منقولة عن العرب الخالص فلا داعى للوقوف منها هذا الموقف.

(١) الاقتراح ص ١٠٠.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: هل كان أبو حيان كابن مالك أو الكوفيين في قبول القراءات جميعها بغض النظر عن نواترها أو شاذها؟

أكبر الظن أن أبا حيان وقف موقفاً وسطاً بين البصريين وبين الكوفيين، وابن مالك، ذلك لأنه قبل القراءات المتواترة، وأخذ بها، ووقف من القراءات الشاذة موقف الحذر والاحتراس وإليك الدليل.

أ- عاب أبو حيان على الزمخشري في رفضه قراءة ابن عامر ورماء في تفسيره «البحر المحيط» بالفاظ جارحة، وكلمات قاسية، إن دلت على شيء، وإنما تدل على إيمان أبي حيان بقراءة ابن عامر لأنه أعرابي قح. قال في تفسيره آية ١٣٧ من سورة الأنعام ﴿قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ برفع القتل، ونصب الأولاد، وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير ظرف قال: وهي مسألة مختلف في جوازها. فجمهور البصريين ينعونها، متقدموهم ومتأخروهم، ولا يجيزون ذلك إلا في ضرورة الشعر.

وبعض النحويين أجازها وهو الصحيح لوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربي الصريح ابن عامر الآخذ بالقرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب. ولا التفات إلى قول الزمخشري: أن الفصل بينهما يعنى بين المضاف والمضاف إليه بشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً، فكيف في القرآن المعجز لحسن نظمه، وجزالته.

ثم بين الزمخشري السبب الذي جعل ابن عامر يقرأ هذا فقال: «والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف شركائهم» مكتوباً بالياء، ولو قرأ بجسر الأولاد والشركاء، لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب.

وهنا نجد أبا حيان يوجه النقد الصريح للزمخشري مدافعاً عن قراءة ابن عامر فيقول: «وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة، موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت. وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم، وفهمهم، وديانتهم، ولا التفات أيضاً إلى قول أبي علي الفارسي: «هذا قبيح قليل في الاستعمال، ولو عدل عنها يعنى - ابن عامر - كان أولى لأنهم لم يجيزوا الفصل بين

المضاف والمضاف إليه بالظرف في الكلام مع اتساعهم في الظروف، وإنما أجازوه في الشعر.

وكما رد أبو حيان على الزمخشري، ووجه إليه نقده لم يسكت إزاء هذا القول من أبي علي فرد عليه بقوله:

«وإذا كانوا قد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالجملة في قول بعض العرب: هو غلامٌ - إن شاء الله - أخيك. فالفصل بالمفرد أسهل، وقد جاء الفصل في اسم الفاعل في الاختيار قرأ بعض السلف: ﴿مُخْلِفٌ وَعَدَهُ رُسُلُهُ﴾^(١).

وقد استدل أبو حيان أيضاً للرد على أبي علي والزمخشري بقول أبي الفتح «إذا اتفق شيء من ذلك نظر في حال العربي، وما جاء به، فإن كان فصيحاً، وكان ما أورده يقبله القياس، فالأولى أن تحسن الظن به، لأنه يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدا، وعفا رسمها، ثم استدل أخيراً بقول أبي عمرو ابن العلاء المشهور: «ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم لجاهكم علم وافر، وشعر كثير»^(٢).

ب: ونراه يدافع عن القراءة السبعة بعامة، لا يميز قارئاً على قارئ ولا يفضل قراءة على قراءة فيقول في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾^(٣).

قال: قرأ الجمهور: يؤده «بكسر الهاء ووصلها بياء، وقرأ قالون باختلاس الحركة، وقرأ أبو عمرو، وقالون باختلاس الحركة والسكون.

قال أبو إسحاق الزجاج: «وهذا الإسكان الذي روى عن هؤلاء غلط لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم، وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن في الأصل.

قال أبو حيان: وما ذهب إليه أبو إسحاق من أن الإسكان غلط ليس بشيء إذ هي قراءة في السبعة، وهي متواترة، وكفى أنها منقولة عن إمام البصريين أبي عمرو بن العلاء، فإنه عربي صريح، وسامع لغة وإمام في النحو، ولم يكن ليذهب عن جواز مثل هذا، وقد أجاز

(١) إبراهيم: آية ٤٧.

(٢) انظر قضية هذا الموضوع في البحر المحيط ٤/ ٢٢٩-٢٣٠ بتصرف

(٣) آل عمران: آية ٧٥.

ذلك الفراء، وهو إمام فى النحو واللغة، وحكى ذلك لغة لبعض العرب تجزم فى الوصل والقطع.

وقد روى الكسائى أن لغة عقيل، وكلاب أنهم يختلسون الحركة فى هذه الهاء إذا كانت بعد متحرك، وأنهم يسكنون أيضاً ثم قال أبو حيان عن الزجاج: إنه لم يكن إماماً فى اللغة^(١).

جـ- وعند أبى حيان أن القراءة إذا صح نقلها، وجب الأخذ بها، ولا التفات إلى كلام البصريين. لأنه كما يقول: لم تقتصر لغة العرب على ما نقله أكثر البصريين، ولا على ما اختاروه، بل إذا صح النقل وجب المصير إليه^(٢).

د- وعند أبى حيان لا ترجيح بين القراءتين المتواترتين، لأنه ما دامت كلتاهما متواترة، فلا ميزان يرجح بينهما، أو يفضل إحدهما على الأخرى.

وكان فى هذا يقتضى خطوات الإمام ثعلب، فقد حدث السيوطى فى «الإتقان»: أن أبى عمر الزاهد ذكر فى كتاب «اليواقيت» عن ثعلب أنه قال: «إذا اختلف الأعرابان فى القراءات لم أفضل إعراباً على إعراب، فإذا خرجت إلى كلام الناس فضلت الأقوى» قال أبو حيان: نعم السلف لنا أحمد بن يحيى ثعلب كان عالماً بالنحو واللغة ومتديناً ثقة^(٣).

هـ- جواز حذف الحركة الظاهرة:

اختلف فى جواز حذف الحركة الظاهرة من الأسماء، والأفعال الصحيحة على أقوال:

أحدها: الجواز مطلقاً، وعليه ابن مالك، وقال: إن أبى عمرو حكاه عن لغة تميم، وعليه خرج قراءة ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ﴾^(٤) بسكون التاء. ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾^(٥) بسكون الراء.

والثانى: المنع مطلقاً فى الشعر وغيره وعليه المبرد.

والثالث: الجواز فى الشعر والمنع فى الاختيار، وعليه الجمهور.

قال أبو حيان: وإذا ثبت نقل أبى عمرو أن ذلك لغة تميم كان حجة على المذهبين^(٦).

(١) البحر المحيط ٢: ٤٩٩ بتصرف.

(٢) القراءات واللهجات: ١٧٩ بتصرف: عبد الوهاب حمودة.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن ١: ١٤٢، ١٤٣.

(٤) الهمع: ١: ٥٤.

(٥) الأنعام: آية ١٠٩.

(٦) البقرة: آية ٢٢٨.

وبعد، فمن هذا العرض السابق نرى أبا حيان جرى فى حلبة البصريين فى غير القراءات. أما فى القراءات فقد وقف منهم موقف المعارض المناقش، وبيّن أنه لا مجال لنحوى أمام القراءات السبع المتواترة، فعليه أن ينسج على منوالها فى تقعيد قواعده وتثبيت أصوله، ورد أشد رد على الزمخشري والفارسي ومن هنا يصح أن نقول: إن أبا حيان جرى على نهج ابن مالك والكوفيين فى الأخذ بالقراءات، ولكنه خالفهم فى القراءات التى لا تنتمى إلى السبع، فيجب أن ينظر إليها باحتراس فى حين أن ابن مالك والكوفيين قبلوا كل قراءة، وقاسوا عليها، ولو كانت شاذة، أو نادرة، أو قليلة.

٤. الاستشهاد بالحديث الشريف:

فى الاستشهاد بالقراءات وضع لنا أن أبا حيان تحرر من مذهب البصريين فى عدم الاستشهاد بها وكان أبو حيان غير مقلد لهم فى هذا المضمار أى أن القراءات يجب أن تكون أصلاً كبيراً من أصول الاستشهاد، لأن إسقاطها يعوق تقدم اللغة، ويحصرها فى نطاق ضيق وكانت هذه الحرية فى التفكير من جانب أبى حيان حرية محمودة مع أنه كان لا يسمح لنفسه أن يخرج عن مبادئهم أو عن مبادئ زعيمهم سيبويه إلا فى القليل النادر.

وكنا نحب من أبى حيان أن يقف تجاه الاحتجاج بالحديث الشريف كما وقف تجاه الاحتجاج بالقراءات، ولكن أبا حيان على الرغم من أنه خرج عن أصول البصريين فى الاستشهاد بالقراءات لم يسمح لنفسه أن يخرج عن أصولهم فى الاحتجاج بالحديث الشريف.

وقد أكبرت منهج ابن مالك فى احتجاجه بالحديث الشريف، وأخذ به فى بناء قواعد النحو، ووضع أصولها، أكبرته لأنه إمام مجتهد لم يسمح لنفسه أن يدور فى فلك غيره، وأن يتعبد بأقوال سابقيه، لأن العلم ليس وفقاً على أحد، فكل من نهيات له أسبابه، وقويت إزاءه مواهبه فله أن يقبل ويرفض، ويبنى ويهدم، ويجادل ويناقش، ولا يتبع قولاً إلا إذا وضع دليلاً مهما كان مصدر هذا القول.

ولأجل هذه الحرية فى التفكير استطاع ابن مالك أن يقيم الحجة على صحة الاحتجاج بالحديث، وذم هؤلاء الذين لا يحتجون به مع أنهم احتجوا بالأشعار المجهولة القائل،

فالأحرى فى باب الحق والعدل أن يحتجوا بأحاديث رسول الله عليه السلام أفضل من نطق بالضاد.

وقد فصلت القول فى هذا الموضوع فى بحث نشر لى بمجلة الفكر الإسلامى العدد الثامن من السنة الثانية أغسطس ١٩٧١ بعنوان: «الاستشهاد بالحديث الشريف فى مجال الدراسات النحوية».

والذى أريد أن أقرره هنا أن أبا حيان جرى فى ركاب غيره حينما رفض الاحتجاج بالحديث الشريف، جرى فى ركاب أساتذته البصريين الذين أسقطوا من أصول استشاداتهم هذا الأصل الكبير، فضيقوا واسعاً، وحاولوا بين اللغة وبين التطور، ومن حق أبى حيان عليّ أن أترك له المجال ليبن وجهة نظره فى عدم الاستشهاد بالحديث.

قال أبو حيان فى شرح التسهيل: «قد أكثر المصنف - يعنى ابن مالك - من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب، وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره».

على أن الواضعين الأولين لعلم النحو، المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبى عمرو ابن العلاء، وعيسى بن عمر، والخليل وسيبويه من أئمة البصريين والكسائى والفراء، وعلي بن مبارك الأحمر، وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك.

وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد، وأهل الأندلس، وقد جرى الكلام فى ذلك مع بعض المتأخرين الأذكياء، فقال: إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن فى إثبات القواعد الكلية»^(١).

وللرد على أبى حيان أقول: إنه قد غاب عن ذهنه أنه كان للنبي عليه السلام كتاب وحي، وهؤلاء كانوا يكتبون القرآن حينما ينزل، ومن هنا حفظ القرآن الكريم من عبث العابثين، وإلى جانب ذلك كانت هناك فئة من الصحابة يقيدون الأحاديث النبوية لوقتها، محافظة عليها حتى لا تضيع من الذاكرة، وقد حدث هذا التدوين فى عهد النبي عليه السلام.

(١) الاقتراح ص ١٩

تحدث أبو هريرة عن عبد الله بن عمرو فقال: «ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا يكتب»^(١) فتميز عبد الله بن عمرو في مجال الحفظ عن أبي هريرة إنما يرجع إلى الكتابة والتدوين، وقد تحدث مجاهد رضى الله عنه فقال: «رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألته عنها فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد»^(٢).

وإذا كانت هناك أحاديث مدونة في عهد الرسول عليه السلام فما رأى أبي حيان فيها؟
يمكن أن يقال: إنها رويت بالمعنى، وسجلت بالمعنى، فلا يصح الاستشهاد بها، وكيف يصح هذا والرسول عليه السلام بين ظهرانيهم يقول فيسمع قوله: لا يسقط منه حرف، ولا تغيب عن ذهن سامعه كلمة، ثم يسجل ما سمع في وعى وحذر حتى لا يدخل في كلام رسول الله ﷺ ما ليس منه.

ويدلو أن أبا حيان كانت تعوزه الدقة في رفض الاستشهاد بالحديث الشريف، ذلك لأنه لم يكن ثابتاً على موقف معين منه فمرة نراه يرفض بعض الأحاديث، ومرة أخرى نراه يحاول أن يستدل بها وهذا هو الدليل.

لـ قال السيوطي في الهمع: «ضمير المثني والجمع المؤنث بعد أفعل التفضيل كغيره نحو، أحسن الرجلين وأجملهما، وأحسن النساء وأجملهن. وقيل: يجوز فيه حيثئذ الأفراد والتذكير كحديث الرسول عليه السلام: «خير النساء صوالح قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده» وقول الشاعر:

ومية أحسن الثقلين جيداً

وسالفة وأحسنه قذالاً

وهذا رأى ابن مالك.

أما أبو حيان فإنه رد ذلك قائلاً بأن سيويه نص على أن ذلك شاذ اقتصر فيه على السماع^(١).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧: ١٨٩.

(٢) الهمع: ١: ٥٩.

فعلى الرغم من أن هذا الحديث يوجد ما يؤيده من كلام العرب نجد أن أبا حيان يرفضه لأنه شاذ اقتصر فيه على السماع، وكان الأولى بأبي حيان أن يتقبل الاستدلال به ما دام له سند يؤيده من كلام العرب. أما محاولته الأخذ بالحديث مما يدل على اضطرابه، وعدم ثباته على موقف معين فيتضح فيما يأتي:

قال السيوطى فى الهمع: «ويتبع معمول الصفة المشبهة بجميع التوابع إلا الصفة قال أبو حيان: هكذا قال الزجاج: وزعم أنه لم يسمع من كلامهم، فلا يجوز: جاءنى زيد الحسن الوجه الجميل.

وهنا نرى أبا حيان يرد على الزجاج بالحديث الشريف فيقول: «وقد جاء فى الحديث فى صفة الدجال: «أعور عينه اليمنى» فاليمنى صفة لعينه، وعينه معمول الصفة، فينبغى أن ينظر فى ذلك^(١).

وبعد، فلعلى بعد هذه الخطوط العريضة أكون قد وفقت فى رسم صورة واضحة المعالم لهذه الشخصية التى لها فى التراث العربى والإسلامى مكان وأى مكان؟.



(١) الهمع: ج ٢ ص ١٠٠.

المصادر الواردة في البحث:

- ١- الإبتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، مطبعة الحلبي - ط الثالثة ١٩٥١.
- ٢- الأشموني: نور الدين أبو الحسن علي بن محمد الأشموني - مطبعة الحلبي.
- ٣- الاقتراح: السيوطي ط حيدر آباد.
- ٤- البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي - مطبعة السعادة ط أولى ١٣٣٨هـ.
- ٥- بغية الوعاة: السيوطي - مطبعة السعادة ط أولى.
- ٦- التصريح على التوضيح: الشيخ خالد عبد الله الأزهرى - مطبعة الحلبي.
- ٧- دائرة المعارف الإسلامية.
- ٨- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني - ط حيدر آباد.
- ٩- شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي.
- ١٠- الطبقات الكبرى: ابن سعد - مطبعة ليدن ١٣٣٢هـ.
- ١١- القراءات واللهجات: عبد الوهاب حمودة - مطبعة السعادة - ط أولى.
- ١٢- نفع الطيب: المقرئ: تحقيق محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة.
- ١٣- نكت الهميان: صلاح الصفدى ط ١٩١٠ بمصر.
- ١٤- همع الهوامع: السيوطي - مطبعة السعادة ١٣٢٧هـ - ونسخة أخرى بتحقيقى نشر مؤسسة الرسالة - بيروت.



١٤ - أبو جعفر الرؤاسي المؤسس الأول للنحو الكوناني

أبو جعفر الرؤاسي ترجم له ابن النديم في الفهرست بقوله:

«قرأت بخط أبي الطيب أخي الشافعي قال: اسم الرؤاسي: محمد بن أبي سارة ويكنى أبا جعفر»^(١).

والفيروز ابادي في «البلغة»^(٢) ورد ذكره باسم حازم أبي جعفر الرؤاسي، وبهذا الاسم سماه السيوطي في البغية^(٣) وفي حرف الميم من البغية ذكره السيوطي باسم: محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي النبلي^(٤).

وفي طبقات النحويين للزبيدي ذكره بكنيته فقط فقال: «هو أبو جعفر»^(٥)، وأغفل اسمه. وفي نزهة الألباء ذكر باسم أبي جعفر محمد بن أبي سارة^(٦).

وفي معجم الأدباء: ذكر باسم محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي يكنى أبا جعفر^(٧).

والناظر إلى هذه المصادر التي سجلت اسمه نجد أن معظمها تتفق على أن اسمه محمد بن الحسن بن أبي سارة، وانفرد بتسميته حازماً السيوطي في رواية من روايته، ولعل السيوطي نقل هذه التسمية عن الفيروز ابادي في البلغة:

لقبه:

ولقب أبو جعفر بالرؤاسي، لأنه كان كبير الرأس أو عظيم الرأس، لهذا السبب سمي: الرؤاسي، وتكاد تجمع كل كتب الطبقات على سبب هذه التسمية ما عدا أبا حيان الأندلسي

(*) نشر في مجلة الضاد - تصدرها الهيئة العليا للعناية باللغة العربية في الجمهورية العراقية تموز ١٩٨٩.

(١) الفهرست / ٦٤ . (٢) البلغة / ٩٤ .

(٣) ٤٩٢ / ١ . (٤) ٨٢ / ١ .

(٥) طبقات النحويين / ١٢٥ .

(٦) نزهة الألباء / ٥٤ . (٧) معجم الأدباء / ١٨ : ١٢١ .

فإنه في كتابه «تذكرة النحاة» يبين لنا سبباً آخر غير كبر الرأس، وهو منقول عن الإمام ثعلب الذي يمتد إلى مدرسة الكوفيين بل يعد رأساً من رؤوسها، فماذا قال ثعلب؟

قال: الرؤاسي منسوب إلى قبيلة من العرب يقال لها: رواس، سميت بهذا الاسم لكثرة أكلها، والروس الأكل الكثير (١).

ولقب أيضاً بالنيلي، وهذا اللقب ذكره ياقوت في معجم الأدياء لأنه - كما يقول - كان ينزل النيل، فقليل له: النيلي (٢).

* * *

طبقة:

جعله الزبيدي من الطبقة الأولى النحوية الكوفية (٣).

شيوخه:

١. عيسى بن عمر:

تشير معظم كتب الطبقات إلى أن عيسى بن عمر كان شيخاً لأبي جعفر الرؤاسي، ففي طبقات الزبيدي، والبغية للسيوطي، والبلغة للفيروزبادي: أنه أخذ النحو عن عيسى بن عمر (٤).

٢. أبو عمرو بن العلاء:

ومن شيوخ أبي جعفر أبو عمرو بن العلاء شيخ النحاة البصريين، ففي معجم الأدياء: «ومن أخذ عن أبي عمرو بن العلاء من أهل الكوفة أبو جعفر الرؤاسي عالم أهل الكوفة» (٥).

وينص السيوطي في البغية على أن أبا عمرو الداني ذكر أبا جعفر في طبقات القراء، قال: وروى الحروف عن أبي عمرو، وهو معدود في المقلين عنه، وسمع الأعمش، وهو من جملة الكوفيين، وله اختيارات في القراءات القرآنية.

* * *

(٣) طبقات النحويين / ١٢٥.

(٢) معجم الأدياء ١٨ / ١٢٢.

(١) تذكرة النحاة / ٥٩٠.

(٤) طبقات النحويين / ١٢٥، والبلغة / ٥٠، والبغية / ٨٣.

(٥) معجم الأدياء ١٨ / ١٢٤، ومراتب النحويين / ٢٤.

تلاميذه:

تجمع كتب الطبقات على أن الكسائي والفراء أخذاه، وتلقيا، ففي البغية: «وروى عنه الكسائي والفراء» والمراد روي القراءه وفي البغية أيضاً، «وهو أستاذ الكسائي والفراء» والمراد بالأستاذية: أستاذية النحو (١).

وفي معجم الأدباء: «كان الرؤاسي أستاذ علي بن حمزة الكسائي والفراء» (٢).
ومثل ذلك في الفهرست، ونزهة الألباء، وغير ذلك من كتب التراجم.



أخلاقه:

يصفه السيوطي في البغية بأنه «كان رجلاً صالحاً» (٣) وكذلك وصفه قبل السيوطي بهذه الصفة ياقوت في معجم الأدباء (٤).

وفي معجم الأدباء أيضاً أن سلمة قال: «سئل الفراء عن الرؤاسي فأثنى عليه» (٥).

ومما يدل على صلاحه أنه كان يستشير ذوى الرأي من الصالحين والحكماء يدل على ذلك هذا الخبر الذى ساقه ياقوت فى معجمه فقال: «حدث محمد بن جعفر الأشعبي عن الرؤاسي قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي: إن لى تجارة بالنيل أفاشترى بالنيل داراً؟ فقال: اشتر ما ينفعك فرب عزلة كانت داعية خير، وإياك (٥) وجميع ما يعينك، فأما ما لا يعينك فإياك وإياه» (٦).

ومما يصور أخلاق أبي جعفر الرؤاسي أحسن تصوير قصيدته التى أورد منها ياقوت فى معجمه بعض الأبيات، وهى تدل دلالة واضحة على أنه رجل زاهد، وأن الدنيا ليست أكبر همّه، ولا مبلغ علمه فما هذه الأبيات؟

(١) بغية الوعاء ١/ ٨٤، ٨٣.

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ١٢٢، وأنظر أيضاً الفهرست / ٦٤، ونزهة الألباء / ٥٤.

(٣) البغية ١/ ٨٢.

(٤) معجم الأدباء ١٨/ ١٢٢.

(٥) معجم الأدباء ١٨/ ١٢٣.

(٦) فى هامش معجم الأدباء أن إياك وجميع ما يعينك اغراء أى الزمه.

قال ياقوت: ولأبي جعفر الرؤاسي قصيدة منها:

ألا يا نفس هل لك في صيام
عن الدنيا لعلك تهتدينا
يكون الفطر وقت الموت منها
لملك عنده تستبشرينا
أجيبني هديت وأسعفيني
لملك في الجنان تخلدينا (١)

حياته الاجتماعية:

يبدو أن أبا جعفر كان لا يحب الاستقرار في مكان ، لأنه على ما يظهر كان يميل إلى الترحال، والانتقال من بلد إلى بلد، وبين أيدينا نصوص تؤيد ذلك.

فمن هذه النصوص: «قول الفراء إنه : دخل البصرة دخلتين» (٢) أي مرتين، وقول آخر معزو للفراء أيضاً: «أنه قل مقامه بالكوفة فلذلك قل أخذ الناس عنه (٣) وحينما دخل البصرة مرتين لم يمكث فيها طويلاً، لأن المبرد قال عنه: «ما عرف الرؤاسي بالبصرة» (٤).

وفي معجم الأدباء ما يشير إلى أنه تزوج امرأة من أهل النيل، وانتقلت إليه بشروط اشترطتها، ولترك تلميذه الكسائي يحدثنا عن قصة زواجه.

«عن الكسائي قال: «كان للرؤاسي امرأة من أهل النيل (٥) تزوجها بالكوفة وانتقلت إليه من النيل، وشرطت عليه أنها تلم بأهلها في كل مدة، فكانت لاتقيم عنده إلا القليل، ثم يحتاج إلى إخراجها وردها، فمل ذلك منها وفارقها ، وقال فيها:

بانث لمن تهوى حُمولُ
أبمَنهم عينًا علي
ثم ارعويت كما ارعوى
لاحت مخائل خُلفها
فأسفت في أثر الحُمول
هم ما نفيق من الهُمول
عنها المُسائل للطلول
وخلافها دون القبول
ملت وأبدت جفوة
لاتركن إلى ملول (٦)

(٣) نفسه ١٨/١٢٣.

(٢) معجم الأدباء ١٨/١٢٣.

(١) معجم الأدباء ١٨/١٢٤.

(٤) نفسه ١٨/١٢٣.

(٥) لا يفهم أنه تزوج مصرية لأن نص معجم الأدباء يشير إلى النيل، وهي بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بنى مزيد يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات حفره الحجاج بن يوسف وسماه نبيل مصر. (ينظر معجم البلدان - نيل).. وقد نبه الخبير المرحوم الدكتور أحمد عبدالستار الجوارى على ذلك. (رئيس التحرير)..

(٦) معجم الأدباء ١٨/١٢٤.

مؤلفاته:

١. الفیصل،

ذكر ياقوت في معجمه أن ثعلب: «زعم أن أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو أبو جعفر الرؤاسي» (١).

ويبدو أن هذا الكتاب كان موضع تقدير عند الكوفيين وهو الذي أشار إليه ثعلب بقوله وكان له كتاب: «معروف عندهم يقدمونه» (٢).

على أن المبرد لم يكن على علم تام بهذا الكتاب، فلم يره، وإنما سمع عنه، يدل على ذلك قوله: «وقد زعم بعض الناس أنه صنف كتاباً في النحو، فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا فلم يلتفت إليه، أو لم يجسر على إظهاره لما سمع كلامهم» (٣).

وإنكار المبرد لكتاب الفيصل ليس دليلاً واضحاً على أن الرؤاسي لم يؤلف هذا الكتاب، لأن ابن السديم في «الفهرست» أكد أن الكتاب «رواه جماعة» (٤) ويروي محمد ابن إسحاق في الكتاب الذي ألفه في ٣٧٧هـ رواية تقول: «كتاب الفيصل رواه جماعة وهو يروي إلى اليوم» (٥).

هل أفاد الخليل من كتاب الفيصل؟

هذه قضية أثارها الزميلة الفاضلة الدكتورة خديجة الحديثي في كتابها: «المدارس النحوية» حيث نقلت نص ابن السديم في الفهرست الذي يبين أن أبا جعفر الرؤاسي قال: «بعث الخليل يطلب كتابي، فبعث به إليه، فقرأه ووضع كتابه» (٦).

وجوهر هذه القضية أن الدكتورة خديجة تنفي أن يكون الخليل أفاد من كتاب الفيصل من ناحية، ومن ناحية أخرى فهناك رواية تسوقها للمرزباني عن الرؤاسي في طلب الخليل هذا الكتاب، وهي: «فبعث به إليه فوضع كتاب العين، وإذا قال في كتابه: قال الكوفي كذا فإنما يعني به الرؤاسي».

وتعلق الدكتورة الباحثة على هذه الرواية بقولها:

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) المصدر نفسه/ ١٢٣.

(١) معجم الأدباء ١٨/ ١٢٢.

(٦) الفهرست / ٦٤.

(٥) معجم الأدباء ١٨/ ١٢٥.

(٤) الفهرست/ ٦٤.

«وهذا أول نص يورده المنزجمون للرؤاسى يشار فيه إلى أن الكتاب الذى وضعه الخليل على كتاب الرؤاسى، وأشار إليه بقوله، قال الكوفى : هو كتاب العين، يعنى أن الكتاب الذى استفاد منه الخليل كتاب لغة...»

وتؤيد الباحثة وجهة نظرها بأن الرواية لم تقل «إنه كتاب الفيصل كما لم تنص على أنه قال: «كتاب فى النحو مثلاً».

«ومعنى هذا أنه قد يكون للرؤاسى كتاب فى النحو هو الفيصل الأ أن له كتاب لغوية أخرى، وأن الخليل أخذ عنه أحد كتبه، ووضع عليه كتابه «العين» ولم يذكر أحد أن لل خليل كتاباً معروفاً فى النحو، فالنص على كتابه يعنى «العين» فيما أذهب إليه، ويعنى أن الخليل هو المستفيد» (١).

وفى رأى أن هذا الاستنتاج الذى توصلت إليه الباحثة استنتاج تنقصه الأدلة، وتعوزه النصوص، وذلك للأمر الآتية:

أولاً: قضية تأليف الخليل «العين» مازلت قضية غامضة فى التاريخ فكثير من الرواة ينكرون نسبة كتاب العين لل خليل بأدلة متعددة لا يستوعبها هذا البحث.

ثانياً: لو فرض أن الخليل أفاد من المؤلفات اللغوية للرؤاسى من حقنا أن نتساءل ما المؤلفات اللغوية التى ألفها الرؤاسى؟ مؤلفاته التى سنسردها فيما بعد ليس فيها كتاب ينسب إلى اللغة إلا كتاب التصغير الذى نصت عليه المصادر المتعددة، فكيف إذا تفترض الدكتورة خديجة أن له كتاباً فى اللغة أفاد منها الخليل فى كتاب العين.

ثالثاً: الظنون أو الفروض فى مجال الدراسة والبحث لا يطلق لها العنان، لأن كل الذين ترجموا لأبى جعفر لم ينصوا على أن له كتاباً لغوياً واحداً فى معجم اللغة، وال خليل بن أحمد ليس فى حاجة إلى معونة لغوية يقدمها لها أبو جعفر، لأن الخليل إن صح أن كتاب العين له - استوعب شعر العرب فاستخرج موازينه، وابتكر بحوره، فليس فى حاجة إلى أن يمد يده إلى أن يأخذ مما سمعه أبو جعفر «من الأعراب والشعراء واللغويين» كما تقول الدكتورة خديجة» (٢).

(١) المدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديثى / ١٥٩.

(٢) المدارس النحوية / ١٥٩.

وابعاً؛ تنفى الدكتورة خديجة أن يكون للخليل كتاب معروف فى النحو حينما نصت على ذلك بقولها: «ولم يذكر أحد أن للخليل كتاباً معروفاً فى النحو»^(١).

وفات الدكتورة خديجة حينما نصت على ذلك لتجهز على قضية أخذ الخليل النحو من أبى جعفر الرؤاسى، ولتثبت بعد إبطال هذه القضية أن الذى أخذه الخليل هو اللغة التى أفاد منها فى كتابه العين لا النحو.

أقول فإت الدكتورة خديجة أن تستوعب المصادر اللغوية فى مناقشة هذه القضية، وإلا لتوقفت طويلاً عن إصار الحكم فى أن الخليل لم ينسب له أحد من اللغويين أو المؤرخين كتاباً نحويًا.

فالمصادر التى ترجمت للخليل نصت على أن للخليل كتاباً يسمى الجمل، وهو من أول وهلة تتبادر إلى الذهن أن موضوعه النحو لا اللغة، لأن النحو تراكيب أساسها الجمل كذلك نص النحويون على أن له كتاباً يسمى: «العوامل».

وعلى الرغم من أن بعض اللغويين والمؤرخين القدماء شكوا فى نسبة كتاب الجمل إلى الخليل أمثال ياقوت فى معجم الأدباء^(٢) كما شكوا فى نسبة كتاب العوامل الذى ينص القفطى على أنه ليس للخليل بل هو منحول عليه^(٣) أمثال القفطى فى «الإنباه».

أقول على الرغم من ذلك فإن نفى التأليف النحوى عن الخليل لا يميل إليه العقل، لأن معظم كتاب سيبويه قائم على آراء الخليل، وليس من المقبول منطقياً أن الخليل كان يملئ من ذاكرته فى مجال النحو، لأن الذاكرة مهما قويت فلن تستطيع أن تستوعب هذه الآراء التى فاضت بها صفحات كتاب سيبويه، كما يؤيد وجهة نظرى فى أن الخليل كان يملئ من صحائف، وما فى الصحائف آراء مسجلة وصل إليها الخليل بعد طول النظر ودوام البحث وتقليب الآراء، وما الصفحات إلا تأليف يعتمد عليه الخليل فى إصدار الآراء، وإعلان الأحكام.

وهناك كتاب ثالث للخليل نص ياقوت فى معجم الأدباء عليه، وبين أنه يسمى كتاب: «الشواهد»^(٤).

(٢) معجم الأدباء / ١١ / ٣.

(٤) معجم الأدباء ١١ / ٧٤.

(١) المرجع نفسه والصفحة.

(٣) الإنباه ١ / ٣٤٦.

ولاندرى هل كتاب الشواهد هذا أهو فى شواهد اللغة أو فى شواهد النحو أوفى كليهما؟

ويبدو لى أن الخليل كان على صلة بالبادية بالأعراب أو العرب ينقل ما أخذ عنه، وهذا النقل يصعب أن تسجله الذاكرة على صفحاته، لأن كلام العرب وأشعارها فى هذه الفترة من التاريخ سجلت على صفحات القراطيس خوفاً من ضياعها لو سجلت على صفحات الذاكرة.

بدل على ذلك أن أستاذ المدرسة البصرية عيسى بن عمر كان يسجل الشعر ويؤلف الكتب مع أنه قد سبق الخليل بمرحلة زمنية، قال أبو عبيدة:

قال عيسى: كنت وأنا شاب أقعد بالليل فأكتب حتى ينقطع سوائى أى وسطى» (١).

وفى رأى أن كتاب الشواهد هذا من تأليف الخليل، وليس عدم العثور عليه ينفى وجوده، فإن كثيراً من كتب التراث بددها الزمن، وضيعتها الأحداث، وما بقى من تراثنا قليل بالنسبة لما ضاع.

وفى غالب ظنى أن كتاب الشواهد هذا فى اللغة والنحو معاً، لأن التفرقة بين اللغة والنحو فى هذه الفترة من التاريخ لم يكن لها وجود فالظواهر اللغوية والنحوية متشابكة فى مؤفات رجال هذا العصر.

خامساً: مما لاشك فيه أن شهرة أبى جعفر الرؤاسى هى فى كتاب: «الفيصل»، فكل الذين ترجموا لأبى جعفر أجمعوا على أن له هذا الكتاب الذى نص ثعلب على أن الكوفيين كانوا معجبين بهذا الكتاب، ويقدمونه، كما أشرت إلى ذلك سابقاً.

وإن ثقة أبى جعفر بكتابه دعتة إلى أن يدخل به البصرة ليعرضه على رجالها اللغويين والنحويين، ولما عرف أن زاد أهل البصرة من اللغة والنحو أكثر مما كان يعتقد طوى كتابه، ولم يجسر على إظهاره كما ذكر ذلك المبرد فى حديث سابق أشرت إليه.

وقد امتدت الحياة بهذا الكتاب فقد رواه جماعة، وظل يؤدى رسالته قرابة قرنين من الزمان أى إلى سنة ٣٧٧ هـ حيث ألف محمد بن إسحاق كتاباً فى هذا التاريخ ذكر فيه أن كتاب الفيصل رواه جماعة وهو يروى إلى اليوم كما سجلت ذلك فيما سبق.

(١) طبقات النحويين واللغويين / ٤٢.

معنى هذا أن الخليل كان على معرفة تامة بهذا الكتاب، لأنه ربما عرفه بالبصرة حينما دخلها أبو جعفر مرتين، أو عرفه عن طريق رواية اللغويين والنحويين له مما جعله يبعث إلى أبي جعفر يطلب منه الكتاب، فقرأه.

واللبس الذى وقعت فيه الدكتور خديجة هو أن الخليل لم يفصح باسم الكتاب حين طلبه، ولم تبين الرواية أى كتاب وضعه الخليل حينما قرأ كتاب أبي جعفر، فأنكرت أن يكون الكتاب «الفيصل»، ورجحت أن يكون كتاباً آخر لغوياً، لأن الخليل وضع كتابه، وفسرت كتاب الخليل الذى وضعه هو «العين» وهذا فى نظرى احتمال بعيد، لأن أبا جعفر حينما أضاف الكتاب إلى نفسه بقوله: كتابى تشعرونا هذه الإضافة باعزاز أبي جعفر بكتابه من ناحية، وتشعرونا أن الكتاب معروف مشهور وأن التصريح باسمه إطناب غير مفيد من ناحية أخرى، وليس لأبي جعفر كتاب اشتهر به، ونسب إليه، وأجمع الرواة على هذه النسبة غير كتاب «الفيصل».

ولو كان لأبي جعفر كتاب لغوى كما ترى الدكتورة خديجة لما أغفله الرواة وكيف يغفله الرواة وقد كان هذا الكتاب نواة لأعظم معجم لغوى ظهر على يد الخليل، وهو كتاب «العين».

وليس من المنهجية العلمية أن تثبت أن كتاب العين المشهور استقى الخليل أصوله من كتاب مجهول لم ينص عليه أحد من الرواة كما تدعى الدكتورة خديجة، بأنه ربما يكون هذا الكتاب «الذى استفاد منه الخليل كتاب لغة» (١).

على أية حال كانت فإن ما عرضته الدكتورة خديجة من آراء فى هذه القضية لا نسلم بها لأنها آراء قامت على فروض لم تؤيدها رواية، ولم يدعمها دليل، والأقرب إلى الحقيقة أن نقول: إن الكتاب الذى طلبه الخليل هو الفصل، وأنه وضع كتابه عليه ليس المقصود به «العين» فلا علاقة بين العين والفصل، وإنما المقصود به من وجهة نظرى أى كتاب من الكتب النحوية التى ألفها الخليل فى النحو، قد يكون الجملى، وقد يكون الشواهد، وقد أشرنا إلى هذه الكتب من قبل.

وانكار بعض الرواة هذه الكتب ليس معناه أن هذا الانكار قاطع فى عدم نسبتها إلى

(١) المدارس النحوية / ١٥٩.

الخليل ، لأن كثيراً من الرواة لم ينف هذه الكتب عن الخليل، فالخليل الذي ألف في اللغة العين، وجمع أوزان الشعر العربي في كتاب العروض ووضع كتاب النغم، وكتاب النقط والشكل^(١) لا يصعب عليه أن يؤلف في النحو وأن يفيد مما كتب فيه، وأن يأخذ من أبي جعفر كتاب الفيصل ليقراه ويفيد منه في مؤلفاته النحوية.

٢. كتاب الجمع والإفراد

نص على نسبة هذا الكتاب إلى أبي جعفر الزبيدي في «طبقات اللغويين والنحويين»^(٢). ولم يرد ذكر كتاب «الجمع والإفراد» في معجم الأدباء لياقوت مع أنه أورد له كتاباً أخرى وهي:

أ - كتاب معاني القرآن.

ب - كتاب التصغير.

ج - كتاب الوقف والابتداء الكبير.

د - كتاب الوقف والابتداء الصغير^(٣).

هذا وأثبت له ابن النديم في الفهرست وابن الأنباري في: «نزهة الألباء» كتاب التصغير، وكتاب معاني القرآن، وذكر أنه يروي إلى اليوم، كما أثبت له أيضاً كتابي: الوقف والابتداء الكبير، وكتاب الوقف والابتداء الصغير^(٤).

وهناك كتاب لم يرد في المصادر التاريخية وهو:

٣. كتاب النودار:

فقد اختص بذكره، والنقل منه أبو هلال العسكري في كتابه «شرح الفصيح»، فقد نقل منه: «قدرت على الشيء أقدر»^(٥).

منزلة أبي جعفر بين النحاة:

بيننا سابقاً أن أبا جعفر الرؤاسي أخذ النحو عن أبي عمرو، وأنه دخل البصرة مرتين وأخذ

(١) معجم الأدباء ٧٤/١١. (٢) طبقات النحويين واللغويين / ١٢٥.

(٣) معجم الأدباء ١٨/١٢٥. (٤) الفهرست / ٦٤. ونزهة الألباء / ٥٥.

(٥) انظر: ابن درستويه / ١٨١ للاستاذ عبدالله الجبوري، مطبعة العاني ببغداد / ١٨١.

من أهلها، وله من الكتب النحوية إلى جانب الكتب الأخرى ما يدل على أنه أفاد كثيراً من علماء عصره، واستقى منهم ما جعله شخصية لها وزنها الكبير في المجال العلمي.

وهذه المنزلة التي وصل إليها جعلته بحق المؤسس الأول للمذهب الكوفي ولا أدل على ذلك من كتابه «الفيصل» الذي أشرنا إليه فيما سبق، وبيننا أن الخليل بن أحمد أفادته بعد أن بعث به إليه أبو جعفر.

وعلى الرغم من إنكار الدكتورة خديجة هذه القضية . قضية أخذ الخليل عن أبي جعفر في مجال النحو، وترجيحها أن الأخذ هو في مجال اللغة.

أقول على الرغم من ذلك فإن معظم الرواة أشاروا بوضوح إلى : «أن كل ما في كتاب سيويه:» وقال الكوفي كذا إنما عنى به الرؤاسي هذا»^(١).

ولنا أن نسأل من أين أتى سيويه بهذه الآراء الكوفية، ومن أي مصدر أخذها؟ الحق أن سيويه أخذها من الخليل ، لأن الخليل يطل بوجهه العلمي في كل صفحة من صفحات كتاب سيويه، فما الذي يمنع أن تكون هذه الآراء التي وضعت تحت عبارة : «وقال الكوفي» هي آراء أبي جعفر الرؤاسي تلقاها عن الخليل الذي تلقاها بدوره عن أبي جعفر.

وقد أنكرتُ فيما سبق أن تكون الآراء التي أخذها الخليل عن أبي جعفر هي الآراء اللغوية التي حاولت أن تثبتها الدكتورة خديجة لأن هناك رواية مؤداها أنه بعد أن أخذ الخليل عن أبي جعفر وضع كتابه «العين» لأن أبا جعفر الرؤاسي - كما قلت ليس له مؤلفاته لغوية غير كتابي التصغير ، والجمع والأفراد وعنوانهما بعيد عن عنوان كتاب العين الذي يسجل المفردات اللغوية ويرتبها ترتيباً خاصاً، وينسقها تنسيقاً دقيقاً على منهج علمي لم يعهد من قبل مما يدل على أنه ابتكره ابتكاراً، وابتدعه الخليل ابتداءً.

وإن رجلاً يأخذ عنه الخليل - وهو من هو - كتاب الفيصل الذي اتفقت معم الروايات التاريخية على أخذ الخليل منه ليدل دلالة واضحة على أن أبا جعفر الرؤاسي رأس في النحو كبير، وعلم من أعلامه البارزين، على أن العظماء دائماً لا يسلمون من السنة الحاقدين، وذم الحاسدين، ومن هؤلاء الحاسدين أبو حاتم فقد قال: «كان بالكوفة نحوي» يقال له أبو جعفر

(١) المزهر ٢/ ٤٠٠.

الرؤاسى، وهو مطروح العلم ليس بشيء وأهل الكوفة يعظمون من شأنه، ويزعمون أن كثيراً من علومهم وقراءاتهم مأخوذ عنه» (١).

ورواية أبى حاتم إذا وضعناها فى ميزان النقد نجد أنها تدل على التعصب المذهبى فليس أبو جعفر مطروح العلم كما قال ، لأنه لو كان مطروح العلم مأخوذ عنه التحليل ، وما طلب منه إرسال كتاب «الفصل» إليه.

ولو كان مطروح العلم لما ذكره سيويبه فى كتابه بقوله: «وقال الكوفى» ونسبته إلى الكوفية دليل على عظمته، وعلى طول باعه فى الدراسات النحوية، لأن هذه النسبة تعنى أنه لأكوفى غيره.

وهناك رواية أخرى ثبت أن الأخفش - وهو من هو فى النحو العربى - قد ذكره فى كتابه «المسائل» وسجل أراءه، ورد عليه.

«قال ابن درستويه: وزعم جماعة من البصريين أن الكوفى الذى يذكره الأخفش فى آخر كتاب «المسائل» ويرد عليه هو الرؤاسى» (٢).

ومعنى هذا النص أن البصريين أنفسهم هم الذين خصوا الرؤاسى بهذا الفضل لأن شيخاً من شيوخهم يذكر أراءه، ويسلط عليها أضواء النقد، والنقد لا يسلط إلا على آراء لها وزنها العلمى، وقيمتها الفكرية.

وعلى الرغم من أن الكسانى تتلمذ على أبى جعفر الرؤاسى فقد كان له موقف علمى من أستاذه، وكان أبو جعفر يشعر بأن هذا التلميذ برع فى النحو، ونبغ فى حقله، واستقل بآرائه مما جعله ينقد أستاذه ويقف منه موقف الند للند.

وقد جرت واقعة تؤكد هذه الاستقلالية فى الرأى، ومخالفة أستاذه فى المسائل النحوية.

ويصور هذه الواقعة الإمام ثعلب فىقول:

«كان الرؤاسى استاذ علي بن حمزة الكسانى والقراء، قال القراء: فلما خرج الكسانى إلى بغداد، قال لي الرؤاسى: قد خرج الكسانى وأنت أسن منه، فجئت إلى بغداد، فرأيت الكسانى فسألته عن مسائل الرؤاسى ، فأجابنى بخلاف ما عندى، فغمزت عليه قوماً كوفيين

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٢.

(١) المزمهر ٢ / ٤٠٠.

كانوا معي فرآني، فقال لي : مالك قد أنكرت؟ لعلك من أهل الكوفة، قلت : نعم. قال
الرؤاسي يقول : كذا وكذا وليس صواباً.. وسمعت العرب تقول : كذا وكذا حتى أتى على
مسائل فلزمته» (١).

من هذا النص يتضح لنا أن أبا جعفر طلب من تلميذه الفراء أن يذهب إلى بغداد وينشر
علم أستاذه الرؤاسي في حلقاتها ومجالسها ليقطع الطريق على الكسائي ، ويحول بينه وبين
رقاسة النحو في بغداد.

وكانت المواجهة الصعبة بيمن الفراء والكسائي حيث سأل الفراء الكسائي في مسائل
نحوية اشتهر بها أبو جعفر، وإجابة هذه المسائل كان الفراء على علم بها، لذلك أنكروا إجابة
الكسائي حينما سئل عنها، وأحس الكسائي أنه كوفي من أهل الكوفة جاء إلى بغداد ليحرج
الكسائي، ويظهره في صورة الضيف العاجز في النحو العربي، وسرعان ما أوقعه على
الحقيقة ليبين له أن إجابات هذه المسائل الرؤاسية التي في ذهن الفراء إجابات خاطئة، وأنها
ليست صواباً لمخالفتها كلام العرب، واستوعب مسائل الرؤاسي وإجاباتها ناقداً لها، خيراً
بأجوبة أبي جعفر عنها يصور ذلك قوله: «قال الرؤاسي يقول : كذا وكذا ، وليس صواباً
وسمعت العرب تقول كذا، وكذا «قال الفراء : «حتى أتى على مسائل فلزمته» وكانت هذه
الملازمة البداية الأولى لتلمذة الفراء على الكسائي حتى أصبح الفراء فيما بعد حامل علمه،
ودارس فكره، وناشر مذهبه.

ومع هذه المنافسة الشديدة بين أبي جعفر والكسائي، فإن الكسائي يعرف لأستاذه قله
ومنزله ، فقد روى أن الكسائي قال : «ما وجدت بالكوفة أحداً، أعلم بالنحو من أبي جعفر
الرؤاسي» وقال مرة أخرى عنه: «كنت آخذ المسائل فأقدمها وأؤخرها، فلا يحسنها أحد إلا
الرؤاسي» (٢).

وقبل أن تنتهي من هذه النقطة أحب أن أشير إلى أن الدكتورة خديجة نسبت إلى ابن
الأنباري قولاً لم أجده في كتابه «نزهة الألباء» الذي اعتمدت عليه في هذا القول، وهذا
القول هو : أن ابن الأنباري حكى أن الفراء ذهب إلى بغداد بتحريض من الرؤاسي الذي لم
يكن يريد بقاء الفراء في الكوفة منافساً له (٣).

(١) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٢ .

(٢) انظر المدارس النحوية / ١٥٨ للدكتورة خديجة الحديشي .

(٣) المدارس النحوية / ١٦٠ .

لا أدري هل هو استنتاج أو حكاية عن ابن الأنباري؟ أما كونه حكاية عن ابن الأنباري فلم يرد في نزهة الألباء ما يفيد أنه ذهب بتحريض من أبي جعفر، لأنه لا يريد البقاء منافساً له في البصرة.

وأما كونه استنتاجاً، فإني لا أميل إليه، لأن ذهاب الفراء من وجهة نظري إلى بغداد هو مطاردة فكرية للكسائي الذي بدأ نجمه يسطع، وعلمه يبرز، وأراؤه تتردد وتنشر، وذلك لتعقبه وهزيمته حتى يأفل نجمه، وكانت المحاوراة المشهورة التي بينه وبين الكسائي، تلك المحاوراة التي اعترف فيها الفراء بفضل الكسائي ومنزلته مما جعله ينتسب إلى مدرسته، ويحمل لواءها من بعدها.

أبو جعفر الرؤاسي في مجال تأسيس المذهب الكوفي؛

في ضوء ما كتبه عن أبي جعفر الرؤاسي استطع أن أقرر أن أبا جعفر هو المؤسس الأول للمذهب، وأن المذهب الكوفي عرف بفضل، ونشر بجهده، ونما بمؤلفاته وبحوثه، وذلك للأمر الآتية:

١ - لقد اعترف القدماء، وانفقت كتب الطبقات على أنه أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو هو «الفيصل» وهو الكتاب المعروف عند الكوفيين والذي كانوا يقدرونه. كما أشرت إلى ذلك من قبل.

وهذا الكتاب قال عنه ابن النديم: رواه جماعة، وذكره محمد بن أبي إسحاق في كتابه الذي ألفه في ٣٧٧ هـ حيث نص على أنه يروى إلى اليوم، أي أن كتاب الفيصل استمر يؤدي رسالتها النحوية إلى سنة ٣٧٧ هـ ومن يدرى فقد يكون استمر إلى ما بعد ذلك على حين نجد أن الكسائي الذي كان ينافسه في تأسيس المذهب الكوفي ليس له إلا كتاب مختصر في النحو كما نص على ذلك ابن النديم في الفهرست^(١) حقا فقد نسب إليه كتاب «العدد»، وكتاب «الحروف» وكتاب في «المصادر» وهي مؤلفات في موضوعات خاصة من النحو وليست النحو كله.

لهذا لا أبالغ إذا قلت: إن كتاب الفيصل: «في النحو الكوفي هو الأساس الأول في بناء النحو الكوفي.

(١) الفهرست / ١٦٥.

٢ - لقد نسب الرواة إلى الكسائي الفساد، لأنه «صار إلى بغداد فلقى أعراب الحطمية، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله» (١).

٣ - ضعف الكسائي في النحو فقد «قال أبو العباس : حدثني سلمة قال : قال الفراء : مات الكسائي ، وهو لا يحسن حد نعم وبئس ، ولا حد أن المفتوحة ، ولا حد الحكاية» (٢).

٤ - وعلى الرغم من منزلة الخليل اللغوية والنحوية، فقد استعان بنحو أبي جعفر حينما طلب منه إرسال كتابه «الفيصل» إليه على حين لم يطلب ذلك من الكسائي مع أن له كتاباً في النحو، وهو مختصر مما يدل على أنه كتاب صغير ليس فيه ما يدعو إلى الأخذ منه.

٥- مسائل أبي جعفر التي أشرت إليها سابقاً تدل على أن له باعاً طويلاً في النحو يؤهله لأن يكون المؤسس الأول للمدرسة الكوفية.

آراء بعض المحللين من النحويين في قضية تأسيس المذهب الكوفي:

١. رأي المرحوم الأستاذ أحمد أمين:

يرى الأستاذ أحمد أمين أن مؤسس المدرسة الكوفية ليس الرؤاسي وحده ولا الكسائي وحده، ولا الفراء، وحده وإنما قام التأسيس بجهود هؤلاء الرجال الثلاثة معاً بدون تفرقة بين جهد وجهد، فالكل كانوا كوفيين ويتعاونهم وجهودهم في الدراسات النحوية تأسست المدرسة الكوفية يقول: «ونشأت بالكوفة مدرسة على رأسها أبو جعفر الرؤاسي وتلميذاه الكسائي والفراء» (٣) إلى أن يقول: «وبدأت من ذلك الحين مدرسة الكوفة تناظر مدرسة البصرة ثم بدأ الخلاف هادئاً بين الرؤاسي في الكوفة، والخليل في البصرة» (٤).

٢. رأي الدكتور شوقي ضيف:

يرى أستاذنا الدكتور شوقي ضيف أن أبا جعفر الرؤاسي «مطروح العلم، وليس بشيء» (٥) مردداً هذه العبارة التي قالها أبو حاتم عن أبي جعفر الرؤاسي ومن العجب أنني لم أجد رواية أخرى تضاف إلى رواية أبي حاتم في التقليل من شأن الرؤاسي مما يدل على أن المنفرد بهذا الاتهام الموجه إلى الرؤاسي هو شخص واحد ذلك المسمى أبا حاتم، وهي رواية

(١) معجم الأدباء ١٣/ ١٨٣.

(٢) المصدر نفسه / ١٨٥.

(٣) ضحى الإسلام ٢/ ٢٩٤.

(٤) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف / ١٥٤.

(٥) المرجع نفسه والصفحة.

منشؤها التعصب للبصريين، ونقد من لمع من الكوفيين أمثال أبي جعفر، وراوية كهذه الرواية لاتقبل فى مجال العلم، لأنها رواية شخص واحد لا يشاركه أحد فيها من رجالات عصره.

وقد دافعت عن الرؤاسى فيما سبق مفنداً هذا الاتهام.

وما ذكره أستاذنا الفاضل عن أبى جعفر حينما قال عنه ما نصه: «ومن المؤكد أنه لم يدل فى النحو بآراء ذات قيمة بدليل أن اسمه لم يرد فى كتب النحاة التالية لعصره^(١) أقول : ما ذكره أستاذنا الفاضل لا أسلم به، لأن لأبى جعفر هذه الكتب التى احتوت آراءه حينما نتعرض لآرائه النحوية واللغوية فيما بعد إن شاء الله.

على أن أستاذنا الفاضل يؤكد أن النحو الكوفى بدأ بالكسائى وتلميذه الفراء منكرًا أن يكون هذا البدء على يد أبى جعفر، لأنه مطروح العلم من ناحية، ولأنه لم يدل فى النحو بآراء ذات قيمة تداولها النحاة فيما بعده من ناحية أخرى يقول ما نصه.

«وإنما يبدأ النحو الكوفى بدءاً حقيقياً بالكسائى وتلميذه الفراء، وفهما اللذان رسماً صورة هذا النحو، ووضعاً أسسه وأصوله، وأعدّاه بحذقهما وفطنتهما، لتكون له خواصه التى يستقل بها عن النحو البصرى مرتبين لمقدماته، ومدققين فى قواعدده، ومتخذين له الأسباب التى ترفع بنيانه»^(٢).

هذه وجهة نظر أستاذنا، ونحن نخالفه فيها، لأن تلميذى أبى جعفر وهما الكسائى والفراء تعلموا على يد شيخهما وشربا من معينه، وانتفعا بمؤلفاته، فهو الأساس الأول أو البادىء الحقيقى للنحو الكوفى، وإنى اتفق مع الدكتورة خديجة الحديثى فى أن النحو الكوفى رسمت معالمه بخطوط عريضة على يد أبى جعفر ومن سبقه، وعلى أسس هذه الخطوط قام البناء النحوى الكوفى وارتفع حتى تكامل شكله، وتم بنيانه على يد تلميذيه الكسائى والفراء، تقول مانصه:

«فقول الدكتور شوفى ضيف والدكتور مهدى المخزومى بأن الكسائى شيخ المدرسة الكوفية لايعنى أنه لم يكن هناك نحاة قبله، فقد رأينا عدداً من المدارس سُمى كل منهم نحويًا كوفياً، ولم تصل إلينا آراؤهم إلا أن بعضهم أخذ عن بعض حتى اتصلت حلقتهم

(١) المدارس النحوية للدكتور شوفى ضيف / ١٥٤.

(٢) المدارس النحوية/ ١٥٤.

بمعاذ الهراء وأبي جعفر الرؤاسي اللذين كانا أول من نقل عن القلماء، واتضح للرؤاسي آراء وقراءات وأقوال نحوية وصرفية، إلا أننا نعد الكسائي والفراء قمة للنضج والتكامل في النحو الكوفي كما كان الخليل قمة نضج النحو البصري، وشيخ المدرسة البصرية، فقد طور هذان الكوفيان النحو البصري، وجددا في منهج درسه، وفي كثير من مصطلحاته^(١).

أبو جعفر الرؤاسي في حقل القراءات القرآنية:

كان أبو جعفر تلميذا لأبي عمرو بن العلاء، وعلم أبي عمرو بالقراءات أشهر من نار على علم، لأنه أحد القراء السبعة الذين نشروا القراءات، وأقاموا عليها الدراسات التي فاضت بها المكتبة العربية، ولا أبالغ إذا قلت: إن أبا عمرو وهبه الله في هذا الميدان ما لم يهب غيره، لأن الأصمعي يخبرنا أن أبا عمرو قال له: «لويهباً لي أن أفرغ ما في صدري في صدرك لفعلت، لقد حفظت في علم القرآن أشياء لو كتبت لما قدر الأعمش على حملها ولولا أن ليس لي أن أقرأ إلا بما قرىء لقرأت كذا وكذا وذكر حروفاً»^(٢).

ومن الطبيعي جداً أن يتأثر الرؤاسي في مجال القراءات بشيخه أبي عمرو ونذكر من هذه القراءات ما يأتي:

«آم»

قال الفراء «آم الله»^(٣) في «آل عمران» ففتحوا الميم، لأن الميم كانت مجزومة لنية الوقف عليها، وإذا كان الحرف ينوي به الوقف نوى بما بعده الاستئناف، فكانت القراءة: «ال م الله» فتركت العرب همزة الألف من: «الله» فصارت فتحتها في الميم لسكونها، ولو كانت الميم جزماً مستحقاً للجزم لكسرت كما في «قيل ادخل الجنة»^(٤).

وقد قرأها رجل من النحويين - وهو أبو جعفر الرؤاسي، وكان رجلاً صالحاً^(٥) «آم

الله» بقطع الألف، والقراءة بطرح الهمزة.

«وَعَبَدَ الطَّاغُوتُ»^(٦)

قراءة الجماعة، وحفص عن عاصم: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتُ» ولأبي جعفر قراءة نسبت إليه،

(١) المدارس النحوية / ١٦٣ للدكتورة خديجة الحديشي.

(٢) آل عمران / ٢٠١.

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء / ١ / ٢٩٠.

(٤) المائة / ٦٠.

(٥) معاني القرآن للفراء / ١ / ٩.

(٦) يتر / ٢٦.

ونص عليها القرطبي وغيره من المفسرين والقراء .. وهى : «وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» بضم العين للبناء على المفعول، وجعل «الطَّاغُوتَ» نائب فاعل.

قال القرطبي : «وقرأ أبو جعفر الرؤاسى: وعبد الطاغوت على المفعول والتقدير : «وعبد الطاغوت فيهم» (١).

وقال الطبرسى : «وقرأ أبو جعفر الرؤاسى النحوى: و«عَبَدِ الطَّاغُوتُ» كقولك: ضرب زيد لما لم يسم فاعله» (٢).

« أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَفْتَةٌ » (٣).

قراءة الجماعة « أَنْ تَأْتِيَهُمْ »

وقرأ أبو جعفر : «إِنْ تَأْتِيَهُمْ» ، وهذه القراءة لم تنسب لأحد من القراء غير أبى عمرو بن العلاء، وأبى جعفر الرؤاسى، فقد نسبت إليهما دون غيرهما هذه القراءة.

ومما يدل على علاقة أبى جعفر الرؤاسى بأبى عمرو، واتصاله به، وأخذه عنه فى مجال القراءات ما ذكره الطبرى فى تفسيره حيث قال عند تعرضه لقراءة أبى عمرو والرؤاسى «إِنْ تَأْتِيَهُمْ» مع أنها مخالفة لقراءة الجماعة وأهل الكوفة: «أَنْ تَأْتِيَهُمْ» : «على فتح الألف من «أَنْ تَأْتِيَهُمْ» ونصب : «تَأْتِيَهُمْ» قراءة أهل الكوفة وقد حدثت عن الفراء قال: حدثنى أبو جعفر الرؤاسى قال : قلت لأبى عمرو بن العلاء: ما هذه الفاء التى فى قوله: فقد جاء أشرطها»؟ (٤).

قال : جواب الجزاء قال: قلت : إنها : «أَنْ تَأْتِيَهُمْ» قال : فقال : معاذ الله ، إنمأهى «إِنْ

تأتهم» قال الفراء: فظننت أنه أخذها عن أهل مكة، لأنه عليهم قرأ.

قال الفراء: وهى أيضاً فى بعض مصاحف الكوفيين بسنة واحدة: «تأتهم» ولم يقرأ بها أحد منهم.

(١) الجامع لاحكام القرآن ٦/٢٣٦.

(٢) مجمع البيان للطبرسى ٣/٢١٥.

(٣) محمد / ١٨ .

(٤) تكملة الآية: «أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَفْتَةٌ» فقد جاء أشرطها.

قال الفراء : وتأويل الكلام على قراءة من قرأ ذلك بكسر ألف إن وجزم تأتهم : « فهل ينظرون إلا الساعة ، فيجعل الخبر عن انتظار هؤلاء الكفار الساعة متناهاً عند قوله : «إلا الساعة» ، ثم يبدأ الكلام فيقال : إن تأتهم الساعة بغتة فقد جاء أشراطها، فتكون الفاء من قوله : فقد جاء بجواب الجزاء» (١).

ومن نص الطبري نستخلص أن أبا جعفر كان يحاور أستاذه في مجال النحو وبخاصة فيما يتعلق بالقراءات، ومع أن الكوفيين لا يقرؤون بها، وإن كانت في بعض مصاحفهم بسنة واحدة فإن أبا جعفر الرؤاسي وهورأس الكوفيين خالف قومه اتباعاً لقراءة أبي عمرو، وقوة موافقتها لمقاييس النحو.

أثرأبي جعفرالرؤاسي في الدراسات النحوية؛

لأبي جعفر آراء في مجال الدراسات النحوية انفرد بها، وكانت نقطة الانطلاق في تكوين المدرسة الكوفية.

حقاً، إنها آراء قليلة، ولكن لها دلالتها في هذه الفترة من التاريخ النحوي لأنها تشير إلى المنهج ، وترسم الطريق إلى المذهب، والبداية دائماً طريق إلى النهاية.

ولانستطيع أن نقول : إن النحو نضج على يده، وتم بنيانه على أساس منحه، لأن هذا مخالف لطباع الأشياء ، فكل مولود صغير إلى أن يكبر، وكل بداية قليلة إلى أن تكثر، فما هي إذا الآراء النحوية لأبي جعفر التي كانت سبباً في وضع أسس المذهب الكوفي.

من الممكن أن نحصر هذه الآراء في النقاط الآتية؛

أ.آراء مصدرها الحكايات؛

١. أن المفتوحة الهمزة تجزم الفعل المضارع؛

قال السيوطي في الهمع : «لا يجوز الجزم بـ «أن» عند الجمهور. وجوزه بعض الكوفيين، قال الرؤاسي من الكوفيين : «فصحاء العرب ينصبون بـ «أن» وأخواتها الفعل... ودونهم قوم يرفعون بها. ودونهم قوم يجزمون بها. وأشد على الجزم:

* أحاذر أن تعلم بها فتردها * (٢).

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٢٦/٣٣. (٢) لجميل بن معمر العنزي ديوانه / ٢٩٩ وعجزه.

٢. «نعم» اسم وليست فعلاً:

قال السيوطى فى الهمع متحدثاً عن نعم وبش:

«وعن الفراء أنهما اسمان لدخول حرف الجر عليهما فى قوله : والله ما هى بنعم الولد، وقولهم: نعم السير على بش العير.

والإضافة فى قوله:

* بنعم طير وشباب فاخر *

والنداء فى قولهم، يانعم المولى، ويانعم النصير.

والإخبار عنهما فيما حكى الرؤاسى: «فك نعم الخصلة»^(١).

ب: فى التذكير والتأنيث:

فى باب ما لا ينصرف:

قال ابن الأنبارى: «اعلم أن أسماء المؤنث كلها لاتجرى^(٢) إلا يسيراً من اسمائهم نحو هند ووعد، وجمل، ونعم، وما لا يجرى لا يدخله تنوين ولا خفض، لأن إعرابه مشبّه بإعراب المستقبل، فمنعوه التنوين كما منعوا المستقبل. من ذلك قولهم: قامت زينب ونوار، واكرمت زينب ونوار، ومررت بزينب ونوار، وهما فى موضع خفض، لأن ما لا يجرى لا يدخله الخفض.

قال البصريون: «منع الخفض كما منع المستقبل الخفض».

وقال الفراء: كان الحكم عليه أن يخفض، لأنه لا يمنع بشبهه الفعل كل ما يجب له من حق الأسماء، فكهوا أن يخفضوه فيقولوا، مررت بزينب ونوار فيشبهه المضاف إلى المتكلم كقولك مررت بغلام يا رجل ونظرت إلى دار يا فتى.

وهذا الذى ذهب إليه الفراء هو مذهب أبى جعفر الرؤاسى^(٣).

* فأتركها ثقلاً على كما هيا *

وانظر مع الهوامع ٩/٤.

(٢) أى لاتنصرف..

(١) مع الهوامع ٢٧/٥.

(٣) المذكر والمؤنث / ١٢٣ / ١٢٤.

ج: السماع؛

ليست اللغة قياساً مطرداً، لأن اللغة متطورة وحية يعتربها ما يعترى الأحياء من التغيير والتبديل، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن اللغة كائن حي، لا يخضع للقوالب الجامدة، والأشكال الثابتة، فالقياس بالنسبة لها لا يتفق مع طبيعتها، ولا يتلاءم مع تكوينها، ولذلك يقول النحويون: «إن الاستعمال إذا ورد بشيء أخذ به، وترك القياس، لأن السماع يبطل القياس».

قال أبو علي: لأن الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين، ونقنته من هذه القوانين إنما هو ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها، ويستوى من ليس بفصيح ومن هو فصيح، فإذا ورد السماع بشيء لم يبق غرض مطلوب، وعدل عن القياس إلى السماع^(١).

١ - وأبو جعفر الرؤاسي يثبت بالسماع ثنية: «جُنُبٌ في قولهم: قوم جُنُبٌ وهي قضية عرضها ابن الأنباري في كتابه «المذكر والمؤنث».

قال ما نصه: «وقال الفراء: رأيت العرب لا تجمع وإن كانوا يشنون، قال الله جل ثناؤه في الثنية: «أنؤمن لبشرين مثلنا»^(٢).

وقال في الجمع: «ما أنتم إلا بشر مثلنا»^(٣).

قال: وقد زعم الرؤاسي أنه سمع: مررت بجُنُبَيْنِ، يعني بقوم جُنُبٍ، فحسن الجمع هاهنا، لأن القوم قد حذفوا هاهنا، فلم يؤد الجنب إذا أفرد عن المعنى. قال: وإنما ثنت العرب في الاثنين، وتركوا الجمع غير مجموع، لأن الاثنين يؤديان عن أنفسهما عددهما، وليس شيء من الجماع يؤدي اسمه عن نفسه، ألا ترى أنك إذا قلت: عندي درهما لم تحتج إلى أن تقول: إثنان، فإذا قلت: عندي دراهم لم يعلم عددهما حتى تقول: ثلاثة أو أربعة^(٤).

٢. الأهل جمع لأهلين؛

قال ابن الأنباري: قال الفراء: «آل» واحد لا جمع له، قال: ونرى أن أصله: أهل، ثم استثقلت الهاء، وكثرت في الكلام، فبدلت ألفاً: وإن شئت جعلته مسمى بالآل، الذي هو

(٣) جيس/ ١٥.

(٢) المؤمنون/ ٤٧.

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٣/ ٥٥١.

(٤) المذکور والمؤنث/ ٢٥٥.

الشخص.. قال : والعرب تصغره: أويل، وأهيل، وقد قال الله عزوجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ (١) فجمع الأهل، ثم يجمع الجمع.

وزعم الرؤاسي أنه سمع :«الأهالي» ، جميعاً فكانه بنى على :«أهلين» ثم جمع الجمع كما قالت العرب: لا عُشارى لك ، وهو جمع العشرين، وهو ما شذ من كلام العرب» (٢).

د. الاستشهاد بالشعر:

والرؤاسي يستشهد بالشعر العربي فى بناء القواعد النحوية وذلك فى الاكتفاء بإضافة الثانى من إضافة الأول:

قال ابن الأنبارى، قال الفراء: أنشدنى الرؤاسى:

يا من يرى عارضاً أكفكفه بين ذراعى وجبهة الأسد (٣).

أراد بين ذراعى الأسد، وجبهة الأسد، فاكتمى بإضافة الثانى من إضافة الأول. ومن أجاز هذا الم يحجز بين ذراعى وجبهته، لأنه إذا كان المعنى بين ذراعه وجبهته لم يحسن حذف الهاء» (٤).

هـ - آراء خاصة لأبى جعفر:

ولأبى جعفر آراء خاصة انفرد بها ونسبها التحويون إليه لا لغيره من هذه الآراء:

١. إبول، مفرد أبابيل،

قال السيوطى فى المزهري: قال ابن مجاهد عن السمرى عن الفراء قال : كان أبو جعفر الرؤاسى يقول: واحد الأبابيل؛ إبول مثل عَجُول وعجاجيل» (٥).

٢. رمضان لا يجمع:

قال أبو حيان فى التذكرة: رمضان: يجمع رمضانات وأرمضة ورماض: قال الكسائى: كان الرؤاسى يابى أن يجمع رمضان، ويقول ، هو اسم من أسماء الله تعالى» (٦).

(١) التحريم/ ٦. (٢) المذكر والمؤنث / ٤٣٥.

(٣) من شواهد سيويه ٩٢/١.

(٤) المذكو والمؤنث / ٥٩٧. (٥) المزهري ١٩٨/٢.

(٦) تذكرة النحاة لأبى حيان الأندلسى / ٥٩٠.

وبعد، فهذه شخصية أباى جعفر فى مجال الدراسات النحوية، وفى مجال تأسيسه المدرسة الكوفية.

وقد تبين لنا من خلال هذه الدراسة أنه كان شخصية لها وزنها العلمى، وقد نقل عنه تلميذاه الفراء والكسائى كثيراً من الآراء النحوية واللغوية، وقد حفظت هذه الآراء فى كثير من المصادر التراثية التى جاءت من بعده، وهذا يوضح بدون شك أن الذين وصفوه بأنه مطروح العلم ظلموه فى هذا الوصف، كما تشير هذه المصادر التى ذكرنا بعضها إلى أن آراءه ظلت حية من بعده، تداولها النحاة فى كتبهم، والمفسرون فى مصادرهم مما لا يتفق مع رأى استاذنا الدكتور شوقى ضيف بأنه ليس له آراء فى النحو تحتفظ بها الكتب التراثية التى جاءت من بعده، وقد وضعنا أيدينا على كثير من هذه الآراء فى كثير من كتب التراث.

وفاته:

لم تذكر المصادر تاريخ وفاته، وإن ذكر بعضها أنه توفى فى خلافة الرشيد^(١).



(١) معجم الأدباء ١٨/١٢٢.

مصادر البحث ومراجعته

- ١ - إنباه الرواة : للقفطى مطبعة دار الكتب المصرية.
- ٢- بغية الوعاة: لجلال الدين السيوطى / تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل طبع عيسى الحلبي.
- ٣ - البلغة فى تاريخ ائمة اللغة للفيروزابادى / تحقيق الاستاذ محمد المصرى - وزارة الثقافة - دمشق سنة ١٩٧٢ .
- ٤ - تذكرة النحاة : لأبى حيان الأندلسى ، تحقيق د/ عفيف عبدالرحمن مؤسسة الرسالة.
- ٥ - الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي. دار أحياء التراث العربى - بيروت طبعة ثانية.
- ٦ - جامع البيان فى تفسير القرآن: للطبرى - دار المعرفة - بيروت..
- ٧ - خزانة الأدب : للبغدادى، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون طبع الخانجي - القاهرة.
- ٨ - ابن درستويه : لعبدالله الجبورى - مطبعة العانى - بغداد.
- ٩ - ديوان جميل بن معمر ، تحقيق د/ حسين نصار - دار مصر للطباعة.
- ١٠ - ضحى الإسلام: للأستاذ أحمد أمين - مطبعة النهضة المصرية.
- ١١ - طبقات النحويين واللغويين: للزبيدي، تحقيق الاستاذ محمد أبى الفضل طبع دار المعارف بمصر.
- ١٢ - غاية النهاية فى طبقات القراء : لابن الجزرى - نشر الخانجي.
- ١٣ - الفهرست: لابن النديم - المطبعة الرحمانية.
- ١٤ - مجمع البيان فى تفسير القرآن : للطبرسى - دار صعب - بيروت.
- ١٥ - المدارس النحوية : للدكتورة خديجة الحديثى - طبع جامعة بغداد.
- ١٦ - المدارس النحوية : للدكتور شوقى ضيف - دارالمعارف - القاهرة.

- ١٧- المذكور والمؤنث : لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى / تحقيق د/ طارق عبد عون الجنابى، طبع الدار الوطنية - للتوزيع - بغداد.
- ١٨- مراتب النحويين : لأبى الطيب، تحقيق الاستاذ محمد أبى الفضل - طبعة أولى.
- ١٩ - المزهرة للسيوطى : تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل وآخرين.
- ٢٠ - معانى القرآن : للفراء - طبعة ثانية - عالم الكتب - بيروت.
- ٢١- معجم الأدباء : لياقوت - مطبعة الحلبي.
- ٢٢ - نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى - طبع جمعية أحياء مآثر علماء العرب.
- ٢٣ - همع الهوامع : لجلال الدين السيوطى . الجزء الأول بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون د. عبدالعال سالم مكرم، وبقية الأجزاء بتحقيق الثانى طبع دار البحوث العلمية بالكويت، ومؤسسة الرسالة - بيروت.



١٥. أوائل المؤلفات في النحو العربي

وأثرها في كتاب سيبويه (*)

قضية نشأة النحو العربي اهتمت حولها النقاش منذ عهد مبكر، فالناظر لكتب الطبقات تروعه كثرة الاختلافات حول هذه النشأة.

فقائل يقول: إن النحو العربي نشأ على يد عليّ - كرم الله وجهه - فقد سمع أعرابياً يقرأ: ﴿لا يأكله إلا الخاطئين﴾^(١) مكان: ﴿إلا الخاطئون﴾ فوضع النحو^(٢).

وآخر يقول: إن هذه النشأة تمت على يد أبي الاسود الدؤلي، فهو الذي ألحّ على زياد أمير البصرة بأن يأذن له «أن يضع للعرب ما يعرفون به كلامهم»^(٣).

وهناك روايات تبين أن أول من وضع النحو هو عبدالرحمن بن هرمز^(٤). كما أن هناك رواية تثبت أن أول من وضع النحو هو نصر بن عاصم^(٥).

وتتضارب الروايات مرة أخرى إذا نرى أن بعضها ينصّ على أن عمر بن الخطاب هو الذي تم وضع النحو على يده وفي خلافته. قالوا: «قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال: من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ، فأقرأه رجل سورة براءة. فقال: «أن الله برىء من المشركين ورسوله» بجرّ «رسوله» فقال الأعرابي: أو قد برىء الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برىء من رسوله، فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي: أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إننى قدمت المدينة، ولا علم لى بالقرآن، فسألت: من يقرئني، فأقرأنى هذا سورة (براءة) فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، فقلت: أو قد برىء الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برىء من رسوله، فأنا أبرأ منه، فقال عمر - رضى الله عنه -: ليس هكذا

(*) نشر في الكتاب التذكارى لتخليد ذكرى المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون سنة ١٩٨٩ - ١٩٩٠م.

(١) الحاقّة/ ٣٧. (٢) نزّهة الألباء/ ٧.

(٣) المصدر السابق/ ١٢.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

يا أعرابي فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: «أن الله بريء من المشركين ورسوله (بالرفع) فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم، فأمر عمر بن الخطاب ألا يقرء القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو»^(١).

ويرجع ابن النديم في (الفهرست) أن أبا الأسود هو الذي وضع النحو، ووضع بعض مصطلحاته الأولى، ويستدل ابن النديم على ذلك بما رواه محمد بن إسحاق أنه كان بمدينة (الحديثة) رجل يقال له: محمد بن الحسين جماعة للكتب.. له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة، تحتوى على قطعة كبيرة من الكتب العربية في النحو، واللغة والأدب، والكتب القديمة.

قال محمد بن إسحاق، فلقيت هذا الرجل دفعات، فأنس بي، وكان نفوراً ضنياً بما عنده خائفاً من بني حمدان، فأخرج لي قمطراً كبيراً، ورأيت فيه ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها: «هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول عن أبي الأسود - رحمة الله عليه - بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق: هذا خط إعلان النحوي، وتحت: هذا خط النضر بن شميل، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر، وما كان فيه، فما سمعنا له خبراً»^(٢).

وإذا تمجنا إلى المستشرقين لنقف على رأيهم في هذه القضية فماذا نجد؟ نجدهم ينكرون نسبة النحو إلى أبي الأسود، وعلى رأس هؤلاء المنكرين المستشرق (فون كريم) إذ يقول: «إن تسرب الفساد إلى اللغة العربية كان هو السبب في ضرورة وضع قواعد النحو لإنقاذ اللغة العربية رواية لا يعول عليها إطلاقاً، ولا أساس لها، فالنحو العربي من وضع الأجانب من الآراميين والفرس، وقد أوجدته الحاجة التي أحس بها هؤلاء الأجانب، لتعلم الكتابة العربية وقراءة اللغة العربية على وجه صحيح، وعلى الأخص غير العرب الذين أرادوا أن يقفوا حياتهم للدراسات العلمية»^(٣).

ولا أريد أن أستطرد في هذه القضية لأنني أفردتها ببحث مستقل نشر في مجلة كلية الآداب، العدد العاشر ١٩٧٦م. ولكن الذي أريد أن أصل إليه هنا هو أن القرآن الكريم هو السبب الأول في نشأة النحو العربي وتدوينه، لأن اختلاط العجم بالعرب لو استمر فترة

(١) المصدر نفسه / ٨، ٩.

(٢) الفهرست / ٦١ - المطبعة الرحمانية.

(٣) الحضارة الإسلامية لفون كريمة، تعريب مصطفى بدر / ٩٠ - دار الفكر العربي.

طويلة من دون القاعدة التي تحمى اللغة، والأسلوب الذي يصون التركيب لضاعت اللغة وبضياعها يضيع كتاب الله. ولكن الله تكفل بحفظ قرآنه، فهياً لأبى الأسود ورجاله أسباب وضع النحو العربى وتدوينه ليكون المنار الذى يهدى، والنور الذى يرشد، ولا أدل على ذلك من هذا الانحراف الذى بدأ يعلن عن نفسه، وإن كان قليلاً جداً فى عهد الرسول ﷺ، فعن أبى الدرداء قال: «سمع النبى ﷺ رجلاً قرأ فلهجن قال: أرشدوا أخاكم^(١)، وفى رواية سجلها ابن جنى فى الخصائص: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل»^(٢).

على أن العلم باللغة كانت جذوره ممتدة قبل الأسود، وفى الرواية التى قدمتها قبل ذلك، والتى تنسب نشأة النحو إلى عمر بن الخطاب، وأنه أمر أبى الأسود أن يضع النحو، وردت هذه الجملة: «ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة».

ولماذا اتجهت الروايات إلى أبى الأسود لتنسب النحو إليه، إن لم يكن ذا دراية واسعة بعلم العربية؟ ولماذا لم تتجه هذه الروايات إلى رجل آخر فى طبقتة - رغم كثرة الرجال - لتنسب إليه ما نسبته إلى أبى الأسود؟

الحق الذى يقال: أن أبى الأسود حلقة فى سلسلة المعرفة اللغوية، ولا يمكن لأبى الأسود أن يحصل على هذه المعرفة اللغوية، من دون أن يتعلمها من غيره، ولأنه برز فى مجالها، وزاد نشاطه فى حقلها نسب إليه نشأة أضخم علم شغل الناس قروناً طويلة، وما زال يشغلهم إلى وقتنا الحاضر.

على أن معظم الروايات تجمع على أن أبى الأسود قام بعمل خطير وكبير معاً حيث نقط المصحف تنقيط إعراب وتنقيط المصحف على هذا الوضع الذى ذكره الرواة يدل على وضوح ظواهر الإعراب فى ذهن أبى الأسود حينما قال للكاتب: «خذ المصحف، وصبغاً يخالف المداد، فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، فإذا كسرتهما فاجعل النقطة فى أسفله، فإذا أتبت شيئاً من هذه الحركة غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره»^(٣).

(١) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ١/ ١٥١.

(٢) الخصائص ٢/ ٨.

(٣) نزهة الألباء / ١٢.

إن نظرة واحدة إلى هذا النص تشير لى وضوح إلى أن أول من تكلم عن حركات الإعراب وللتون هو أبو الأسود، وما النحو فى مظاهره العديدة، وقضاياه المتشعبة إلا هذه الحركات التى تتناول معظم أبواب النحو: المرفوعات، والمنصوبات، والمجرورات، وبجمل بنا قبل أن نهى الحديث عن نشأة النحو العربى أن تشير إلى أن الحركة النحوية فى هذا العهد بفضل أبى الأسود كانت نقطة الانطلاق، وبداية الطريق لمن جاء بعده. فعلى يد تلاميذه تشابكت فروعه، ونمت أصوله، ومن أشهر هؤلاء التلاميذ عبدالرحمن بن هرمز، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وعنسة الفيلء، وقد استطلع هؤلاء التلاميذ أن يحملوا الراية بعد أبى الأسود فى مجال النحو العربى مما كان له أثر كبير فى نمو النحو العربى على يد تلاميذهم الذين جاءوا من بعدهم. حتى سلمت الراية لعميد النحو العربى فى عصره، وهو سيبويه الذى انتفع بجهود سابقه وارثشف من منهل ما تركه هؤلاء العلماء الذين ظهروا قبله، فألف كتابه العظيم الذى أعجز من قبله، وعز على من بعده.

وكان كتاب سيبويه مصدر حيرة بالنسبة للمستشرقين والباحثين، إذ كيف يلد كتاب سيبويه عملاقاً من دون أن يسق بمراحل نمو وتطور تؤدى إلى ولادته ولاية طبيعية:

وقد أشار إلى هذه الحيرة ما ذكره الأستاذ (ت - دى بور - فى كتابه (تاريخ الفلسفة فى الإسلام) حيث يقول: «ويحيط الغموض بأول نشوء دراسته (يعنى النحو) فلو نظرنا إلى كتاب سيبويه لوجدنا عملاً ناضجاً، ومجهوداً عظيماً حتى أن المتأخرين قالوا: إنه لا بد أن يكون ثمرة جهود متضافرة لكثير من العلماء مثل قانون ابن سينا فى الطب»^(١).

وقد لفتت هذه الظاهرة نظرى إلى أن أدرس تاريخ النحو قبل سيبويه فى كتابى:

(الحلقة المفقودة فى تاريخ النحو للعربى)^(٢) فرأيت أن سيبويه اعترف من بحر من سبقه وأن عمله فى هذا الكاب عمل جهاز الاستقبال الذى استقبل كل التيارات للنحوية التى بدأت من عهد أبى الأسود وانتهت إلى عهد سيبويه، حقاً إنه نظم ما استقبل، ونسق ما وصل إليه فى أبواب قامت على فهم دقيق، وتناسق عجيب، واستيعاب لأساليب العربية وتراكيبها.

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة د. محمد عبدالهادى أولى ريدة/ ٥٤، ٥٥.

(٢) طبع طبعة أولى بالكويت فى مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع. وطبعة ثانية بمؤسسة الرسالة - بيروت.

وظل كتاب سيبويه يؤدي رسالة النحو واللغة والصرف إلى يومنا هذا على الرغم من الامتداد الزمني الطويل، وهو امتداد كان من الممكن أن يعبت بهذا الكتاب ويضيع كما ضاع غيره، ولكنه مع ذلك ظل جديداً نابضاً بالحياة، وهو بحق يعتبر أول كتاب تراثي منظم في أبوابه وفصوله، في مسائله وقضاياها، وما زالت الدراسة النحوية واللغوية تدور حول محوره، وتسبح في فلكه، لأنه كتاب خالد.

على أنه من الحق أن نؤكد أن الفضل الأول في تأليف كتاب سيبويه يرجع إلى الرعيل الأول الذي سبقه، لأن هذا الرعيل مهد الأسباب لظهور هذا الكتاب على هذا النحو بينائه المتكامل، ومهد الطريق أمام سيبويه ليصل إلى الغاية من هذا العلم.

ولله در الزبيدي في طبقاته حيث أشار إلى هذه الحقيقة بقوله: «فكان أول من أصّل ذلك، وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، ونصر بن عاصم، وعبدالرحمن بن هرمز، فوضعوا للنحو أبواباً، وأصلوا له أصولاً، فذكروا عوامل الرفع والخفض والجزم ووضعوا باب الفاعل والمفعول، والتعجب، والمضاف.

وكان لأبي الأسود في ذلك فضل السبق، وشرف التقدم، ثم أصّل ما أصّلوه من ذلك التالون لهم، والآخذون عنهم، فكان لكل واحد منهم من الفضل بحسب ما بسط من القول، ومدّ من القياس، وفتق من المعاني وأوضح من الدلائل، وبين من العلل»^(١).

وقد أثمرت هذه الجهود وأبنت، وحنان قطافها، وتم ذلك القطاف على يد سيبويه في كتابه العظيم.

ولا يفوتنا أن نسجل هنا أن كتاب سيبويه ليس هو أول كتاب في النحو، فقد سبق سيبويه علماء كانت لهم جهود تأليفية، دونوا من خلالها ما وصلوا إليه من قواعد نحوية. وأول عمل تدويني للنحو العربي قبل كتاب سيبويه كان على يد أبي الأسود وتلميذه نصر بن عاصم المتوفى سنة تسع وثمانين، وقيل: سنة تسعين^(٢).

ومعنى ذلك أنه من رجالات القرن الأول حيث توفى قبيل نهاية هذا القرن، ومن دون

(١) طبقات النحويين واللغويين / ٢١، ٢٢.

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ٢٢٤.

شك فهو تلميذ أبى الأسود الدؤلى، وقد وصفه السيوطى فى (البغية) بأنه من قدماء التابعين^(١). ولهذا فإن بعض الرواة نسب إليه أنه أول من وضع العربية^(٢).

وتلميذته لأبى الأسود ليست استنتاجاً منى، لأن الرواة نصّوا على أن نصر بن عاصم عرض القرآن على أبى الأسود^(٣).

ويزيد (ياقوت): أن نصر بن عاصم كان «يسند إلى أبى الأسود الدؤلى فى القرآن والنحو»^(٤).

١. كتاب نصر بن عاصم فى النحو أو العربية:

لنصر بن عاصم كتاب فى العربية، والمراد بها النحو، فمصطلح: (العربية) كان يطلق فى كثير من الأحيان على المسائل النحوية، وظل مصطلح عربية على امتداد التاريخ حتى عصرنا الحاضر يعنى اللغة العربية بفروعها المختلفة.

وكتاب نصر بن عاصم فى العربية أشار إليه ياقوت فى معجمه إذ يقول «وله كتاب فى العربية»^(٥). والسيوطى فى (البغية) ينقل نص (ياقوت) فى أن له كتاباً فى العربية^(٦).

ويبدو أن فكرة وضع كتاب فى النحو العربى فى وقت مبكر كانت تراود أبى الأسود الدؤلى أستاذ نصر بن عاصم. ولكنه لم يستطع ذلك فى بادىء الأمر إلى أن استفحل اللحن، وكثر التحريف، وتعدّد الخطأ فوضع مبادئ عامة فى كتيب فيه جمل من العربية تشكل خطوطاً أولية عريضة فى هذا العلم.

يتحدث أبو القاسم الزجاجى عن هذه الخطوط العريضة فى أصول النحو التى ابتكرها أبو الأسود، فيقول: إنه لما سمع كلام المولدين بالبصرة من أبناء العرب أنكروا ما يأتون به من اللحن لمشافهتهم الحاضرة وأبناء العجم.. إلى أن يقول: «وهم أن يضع كتاباً يجمع فيه أصول العربية، فمنعه من ذلك (زيد) وقال: لا تؤمن أن يتكل الناس عليه، وتركوا اللغة

(١) بغية الوعاة ٢/ ٣١٣.

(٢) طبقات النحويين واللغويين / ٢٧.

(٣) مفتاح السعادة ٢/ ٢٤.

(٤) معجم الأدباء ١٩/ ٢٢٤.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

(٦) البغية ٢/ ٣١٣.

وأخذ الفصاحة من أفواه العرب، إلى أن نشأ اللحن، وكثر وقبح، فأمره أن يفعل ما كان نهاه عنه، فوضع كتاباً فيه جمل العربية، ثم قال لهم: انحوا هذا النحو أى اقصده، والنحو: القصد، فسمى لذلك نحواً^(١).

ويبدو أن كتاب نصر بن عمام امتداد لكتاب أبي الأسود، ومرحلة متطورة عنه لأنه ليس من المنطق أن يتوقف نصر عند الجمل العربية، والأصول النحوية التي وضعها أبو الأسود، فمن شأن العلم أن يتطور، ومن شأن الأصول أن تتفرع، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن كتاب نصر بن عاصم في العربية أغزر مادة، وأكثر تفريعاً وأعظم استيعاباً للأصول النحوية من كتاب أبي الأسود الدؤلي.

والذي نهدف إليه من الحديث عن تأليف هذين الكتابين هو أن تقرر أن الحركة التأليفية لتدوين النحو العربي بدأت في القرن الأول الهجري وهي حركة مبكرة بالنسبة إلى الحركات الأخرى في المجالات العلمية المختلفة.

٢. كتاب الهمز لابن أبي إسحاق.

ابن أبي إسحاق: هو عبدالله بن أبي إسحاق مولى آل الحضرمي المتوفى سنة ١١٧ هـ وهو ابن ٨٨ سنة^(٢).

قال عنه ابن الأنباري: «كان قيماً بالعربية، والقراءة إماماً فيهما»^(٣) وقال عنه أبو الطيب: «وكان يقال له «عبدالله أعلم أهل البصرة وأعقلهم»^(٤).

ووصفه القفطي فقال: «المقرئ النحوي العلامة في علم العربية»^(٥).

وكتاب الهمزة في صميم اللفظة، وعالم العربية في هذا العصر هو من يملك اللفظة في يمينه، والنحو في يساره، ذلك، لأن الدراسات النحوية واللفوية في هذه الفترة من التاريخ كانت مختلطة، فلا لغة إلا بالنحو، ولا نحو إلا باللفظة ومن هنا صحّ لعبد اللطيف البغدادي أن يقرر هذه العلاقة القوية بين اللفظة والنحو في قوله:

(١) الإيضاح في علل النحو / ٨٩.

(٢) الإنباه ٢: ١٠٧، ١٠٨.

(٣) نزاهة الألبا / ١٢.

(٤) مراتب النحويين / ١٢.

(٥) الإنباه ٤ / ١٠٤.

«اعلم أن اللغوى شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب، ولا يتعداه، وأما النحوى فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوى، ويقيس عليه، ومثالهما المحدث والفقيه فشأن المحدث نقل الحديث برمته، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علله، ويقيس عليه الأمثال والأشياء»^(١).

وفى هذا العهد كان المتصدرون لوضع الأصول النحوية ومقاييسها هم اللغويون الذين كان لهم فضل جمعها، ومن هنا اختلقت المسائل اللغوية والنحوية على يدهم مما جعل هذا الاختلاط من أوضح مظاهر هذه الحركة.

ومن المصادر التراثية التى نصت على أن لابن أبى إسحاق كتاباً فى الهمز كتاب: (المزهر)، قال السيوطى فى المزهر: وتكلم فى الهمز حتى عمل كتاباً مما أملاه»^(٢).

ويظهر أن ابن أبى إسحاق كان على علم عظيم بهذا الهمز مما جعل أبا عمرو بن العلاء يقول عنه: «ما ناظرنى أحد قط إلا غلبته وقطعته إلا ابن أبى إسحاق فإنه ناظرنى فى مجلس بلال بن أبى بردة فى الهمز، فقطعنى، فجعلت إقبالى على الهمز حتى ما كنت دونه»^(٣).

٣. كتابا «الإكمال» و«الجامع»، لعيسى بن عمر.

عيسى بن عمر الثقفى من أهل البصرة وهو غير عيسى بن عمر الهمذانى من أهل الكوفة»^(٤).

وصفه ياقوت فقال عنه: «علامة بالنحو والعربية والقراءة مشهور بذلك»^(٥). وذكر السيوطى فى (البغية) أنه مات سنة ١٤٩ هـ^(٦).

ومما تميز به عيسى بن عمر عن علماء عصره حبه للتأليف، وولمه بالتدوين وقد سيطر هذا الحب على قلبه منذ شبابه، ولا أدل على ذلك من قوله فى تعبيره عن هذا الحب: «كنت وأنا شاب أقعد بالليل فأكتب حتى ينقطع سوائى» أى وسطى»^(٧).

(١) ضحى الإسلام ٢/ ٢٧٧.

(٢) المزهر ٢/ ٣٩٨.

(٣) مجالس العلماء للزجاجى / ٢٤٣.

(٤) أخبار النحويين البصريين / ٢٥.

(٥) معجم الأدباء ٦/ ١٤٦. (٦) البغية ٢/ ٢٣٨.

(٧) طبقات النحويين واللغويين / ٤٢.

ومعنى هذا النص يشير فى وضوح إلى أن قعوده بالليل ليكتب يدل على أنه فى هذه الحالة كان يعانى التأليف، ويعانيه بجهد لا يعرف الكلل حتى يشعر أن وسطه قد انقطع من كثرة الكتابة.

ولهذا أميل إلى تصديق الروايات التى تقول عنه: «إن له نيفاً وسبعين مصنفاً ذهبت كلها»^(١).

ومن هذه الكتب كتابان ورد ذكرهما فى كثير من المراجع العربية وهما: كتابا «الإكمال» و«الجامع» وكلاهما فى النحو:

ولنا أن نتساءل: لماذا لم يتحدث الرواة عن موضوعات هذه الكتب وأسمائها ولم دار الحديث حول هذين الكتابين فقط؟

سؤال خطر فى نفسى، ولم أجد الإجابة عنه إلا فى (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلى، فقد قال ما نصّه: «وصنف سبعاً وسبعين كتاباً فى النحو، ولم يبق منها سوى (الجامع) و (الإكمال)، لأنها كانت احترقت إلا هذين»^(٢).

وهكذا وضحت مشكلة ذهاب هذه الكتب بهذه الرواية التى تشير إلى أن الحريق قد التهمها، ولم يبق منها إلا هذان الكتابان.

ويبدو أن شهرة عيسى بن عمر فى تأليف النحو وتدوينه كانت شهرة واسعة دعت سيويه إلى أن يرحل إليه ويلقاه للانتفاع بمصنفاته، والإفادة منها فى تأليف كتابه عمدة النحو، ولكنه فوجيء بذهاب مصنفاته، فعاد من رحلته، ومعه كتاب (الجامع) الذى رآه الخليل مع سيويه فأعجب به.

يتحدث ابن العماد الحنبلى عن رحلة سيويه إلى عيسى بن عمر، فيقول: «وكان سيويه يرحل إليه، وعاد ومعه (الجامع)، فسأله الخليل عن عيسى فأخبره وأراه (الجامع) فقال الخليل:

بطل النحو جميعاً كله	غير ما أحدثه عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع	فهما للناس شمس وقمر

(١) بنية الوعاة ٢/ ٢٣٨.

(٢) شذرات الذهب ١/ ٢٢٤، ٢٢٥.

ويظهر من رواية القفطى فى (الإنباء) أن هذين الكتابين كبيران حيث يقول: ومنها تصنيفان كبيران: أحدهما (الإكمال) والآخر (الجامع).

وينفى القفطى نسبة كتاب سيويه إلى سيويه فى إشارة خفية ذكية إذ يقول: «إن الجامع هو كتاب سيويه، زاد فيه، وحشاه، وسأل مشايخه عن مسائل أشكلت عليه، فذكرت له فأضافها، وأنه لما أحضره إلى الخليل بن أحمد ليقراه عليه عرفه الخليل، فأشار إلى (الجامع) بما يشار به إلى الحاضر، وهى لفظة (هذا)^(١).

ومعنى هذا النص عند التحليل أن كتاب سيويه ما هو إلا كتاب (الجامع) الذى ألفه عيسى بن عمر، وليس لسيويه فضل فى كتابه اللهم إلا الحواشى التى زادها، وأجوبة المسائل التى أشكلت عليه فأضافها إلى الجامع.

لا أدرى مدى صدق هذه الرواية التى قدمها لنا القفطى فى (الإنباء)، وإن الناظر لكتاب سيويه يجد أنه كتاب سابق لعصره فى حسن تبويه، وجمال تقسيمه، وتلاحم موضوعاته، وتسلسل قضاياها فى أسلوب دقيق، وإتقان عجيب، وفكر مبدع، فهل كان كتاب الجامع على هذا المستوى من الدقة، وهو المستوى الذى لم يختلف أحد من العلماء والمؤرخين أدنى اختلاف فى أنه من صنع سيويه وحده، ومن نتاج عقله المبدع؟

تلك قضية تحتاج إلى دراسة أوسع لا يتسع لها مجال هذا البحث، بيد أننا نقول: إن تسميه كتاب عيسى بن عمر بـ (الجامع) تسمية لها دلالتها، ومن دلالتها أن الكتاب ليس سرداً أو حشداً لمسائل النحو من غير نظام، ولكنه عرض للنحو من خلال الترتيب والتنظيم، وفى ضوء التبويب والتقسيم.

ومن هنا صحت رواية محمد بن سلام الجمحى حينما قال: «إن عيسى بن عمرو وضع كتابه على الأكثر، وبوبه وهذبه، وسمى ما شذ عن الأكثر لغات»^(٢).

ولهذا النص دلالة عظيمة على أن عيسى بن عمر لم يكن جامعاً فقط، وإنما صاحب منهج فى هذا الجمع وفى هذا التأليف، ومن أبرز منهجه التبويب والتهديب، وبناء القواعد على ما

(١) إنباء الرواة ٢ / ٣٧٥.

(٢) الإنباء ٢ / ٢٧٥.

كثر من كلام العرب، وهى خطة علمية أستطيع أن أؤكد أن سيويه أفاد منها فى كتابه، وسار على نهجها فى تبويه وتقسيماته.

وعلى هذا الأساس فرواية القفطى فى أن كتاب سيويه هو كتاب (الجامع) وأن لسيويه فى هذا الكتاب فضل الحواشى التى أضافها، وسرد المشكلات وأجوبتها التى توقّف فيها رواية تحتل أن تكون مقبولة.

أقول: إن معنى هذا النص يدلّ على منطقية عيسى بن عمر فى كتابه حيثما استطاع أن يحصل على مجموعة من القواعد المطردة على أساس الأكثر والأعم فى كلام العرب وأنه بهذا الوضع أقام بناء القواعد التى انتفع بها من عاصره ومن جاء بعده، أما مجموعة الأساليب القليلة التى لا تندرج تحت هذه القواعد فقد سمّاها لغات ورمّاها بالشذوذ، لأنها خرجت عن اطراد القاعدة التى استخرجها واستنبطها من الكثير الغالب. فى كلام العرب.

والدليل على ذلك ما قاله أحد العلماء لعيسى: «أخبرنى عن هذا الذى وضعت فى كتابك، أيدخل فيه كلام العرب كله، قال: لا، قلت: فمن تكلم خلافاً واحتدى ما كانت العرب تتكلم به تراه مخطئاً؟ قال: لا، قلت: فما ينفع كتابك؟»^(١).

وهكذا كان عيسى بن عمر بمؤلفاته التى نخصّ منها كتابى: «الجامع» و«الإكمال» مرحلة متطورة فى الدراسات النحوية، وأن سيويه سواء أخذ كتاب الجامع وزاد عليه، أو لم يأخذه فمما لا شك فيه أن سيويه انتفع انتفاعاً عظيماً فى كتابه بالجامع لعيسى بن عمر من حيث التنسيق والتبويب، ومن حيث التنظيم والترتيب، ومن حيث المنهج والأسلوب، وبخاصة فى البناء على الأكثر، ووصف ما قلّ على أنه لغات شاذة تحفظ ولا يقاس عليها.

٤. كتب أبى عمرو بن العلاء

أبو عمر بن العلاء شيخ الرواة بدون منازع، وقد اختلف العلماء فى اسمه، فمنهم من يقول: اسمه زيان، ومنهم من يقول: اسمه أبو عمرو. وهذا الخلاف فى رأى يرجع إلى أن كثيراً من رجال العلم والسياسة والحكم كانوا يحتفظون بالاسم بجانب الكنية ولا أدلّ على ذلك من أن أباً عمرو نفسه ذكر أن اسمه: (زيان) حينما عاتب الفرزدق على هجائه، ثم ذكر أبو عمرو اسمه فى مجال الكنية حينما سأله الأصمعى: ما اسمك؟ فقال: أبو عمرو: وفى كلتا الإجابتين إشارة إلى أنه يسمى بهاتين التسميتين^(٢).

(١) طبقات النحويين واللغويين / ٤٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

ويتهى نسب أبي عمرو إلى إلياس بن مضر بن معد بن عدنان^(١)، وهو بهذه النسبة عربى قح يلتقى نسبه بنسب الرسول ﷺ عند إلياس بن مضر.

وقد ذكر ياقوت فى معجمه أنه ولد بمكة سنة ثمان أو خمس وستين^(٢).

هذا، وكانت وفاة أبى عمرو فى طريق الشام سنة أربع وخمسين ومائة^(٣).

وقد أسهم أبو عمرو فى التأليف النحوى واللغوى، لأن أباً عمرو كان جهاز استقبال كبير لمعارف عصره فى مجال اللغة والشعر، والأدب، والقراءات، والنحو، ومن الصعوبة بمكان أن تحتفظ الذاكرة بهذا كله، لذلك نستطيع أن نقول: إن أباً عمرو كان يكتب ليعاود ما يكتبه فيعيّنه على حفظ ما يريد من مسائل العلم نحواً ولغةً وأدباً، وشعراً، وقرآناً، وتفسيراً.

ولا أدل على ذلك مما رواه شعبة، فقد روى: «كنت أجمع أنا وأبو عمرو بن العلاء عند أبى نوفل بن أبى عقرب، فأسأله من الحديث خاصة، ويسأله أبو عمرو، عن الشعر واللغة خاصة، فلا أكتب شيئاً مما يسأله عنه أبو عمرو، ولا يكتب أبو عمرو شيئاً مما أسأله أنا عنه^(٤)».

ولا شك أن الكتابة طريق التأليف، لأن المؤلف يرجع أثناء تأليفه إلى ما يكتب فى المادة التى يريد التأليف فيها، ليستدل، ويبحث، ويناقش ويوازن، ويدقق إلى أن يبلغ ما يريد من تأليفه. ولكثرة مؤلفاته قال عنه الرواة: «كانت دفاتره ملء بيته إلى السقف ثم تنسك فأحرقها»^(٥).

على أن هذا التراث الذى التهمته النيران لم يذهب كله، فقد بقيت منه بقية انتفع بها العلماء الذين جاءوا من بعده: «فأبو العباس ثعلب كان يروى عن أبى بجدة كتب أبى زيد، وعن الأثرم كتب أبى عبيدة، وعن أبى نصر كتب الأصمعى، وعن عمرو بن أبى عمرو كتب أبىه»^(٦).

(١) انظر كتابى: الحلقة المفقودة فى مناقشة نسب أبى عمرو واسمه وكنيته / ١٨٧، ١٨٨.

(٢) معجم الأدباء ١١/ ١٥٦.

(٣) المصدر السابق / ١٥٩.

(٤) طبقات النحويين / ٣٧، والمزهر ٢ / ٣٠٤.

(٥) معجم الأدباء ١١ / ١٦٠.

(٦) المزهر ٢ / ٤١٢، ٤١٣.

ومن انتفع بكتب أبي عمرو يحيى بن المبارك اليزيدى اللغوى النحوى، فابن خلكان فى كتابه: «الوفيات» يذكر أن أبا حمدون الطيب قال: شهدت ابن أبى العتاهية وقد كتب عن أبى محمد اليزيدى قريباً من ألف مجلد عن أبى عمرو بن العلاء خاصة^(١) وقد حدد أستاذنا المرحوم عبدالسلام هارون المجلد بعشر ورقات، فيكون ما كتبه اليزيدى عن أبى عمرو عشرة آلاف ورقة^(٢).

ومن هذه النصوص نستطيع أن نقول: إن أبا عمرو أسهم فى التأليف النحوى واللغوى قبل أن يلد كتاب سيبويه، وإن رجلاً دفاتره كانت ملء بيته إلى السقف لهو رجل عاش للعلم، وقدم للأجيال اللاحقة ما يُبهر لها الطريق، ويدفعها إلى التطور العقلى، والنمو الفكرى.

والناظر إلى كتاب سيبويه يرى أنه انتفع بعلم أبى عمرو انتفاعاً عظيماً، وأفاد منه فوائد متعددة.

وطرق الأخذ عن أبى عمرو فى كتاب سيبويه متنوعة، فتارة ينقل مسائله النحوية المنسوبة إلى أبى عمرو عن طريق يونس، وما أكثر عباراته فى الكتاب حول هذا الأخذ، وهى عبارات تتكرر كثيراً حيث يعقب على كل ما ينسبه إلى أبى عمرو بقوله: «وهو قول أبى عمرو - حدثنا يونس عن أبى عمرو»^(٣).

وهناك آراء نسبها سيبويه إلى أبى عمرو مباشرة، وليست عن طريق يونس.

وفى رأى أن المسائل النحوية التى نسبت إلى أبى عمرو مباشرة هى آراء لأبى عمرو أخذت من كتبه، ومما يقوى هذا الرأى ما ذكره السيوطى فى (المزهر) عند حديثه عن أبى عبيد القاسم بن سلام إذ قال) «وسمع من الفراء، والأموي، والأحمر، وأبى عمرو - وذكر أهل البصرة أن أكثر ما يحكيه من علمائهم من غير سماع، إنما هو من الكتب»^(٤).

ولا نستطيع فى هذه المساحة الضيقة من البحث أن نجتمع، أو نشير إلى تلك المسائل

(١) نقلاً عن تحقيق النصوص للأستاذ عبدالسلام هارون/ ٢٢.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

(٣) انظر مثلاً: سيبويه ١/ ٤٠٢، ٤٠٥، ٢/ ٩٦، ١١٣، ٣٨٧ الخ.

(٤) المزهر ٢/ ٤١٢.

النحوية أو اللغوية التي أخذت عن أبي عمرو بطريق مباشر، وإنما نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

١ - «وكان أبو عمرو يقرأ: خاشعاً أبصارهم»^(١).

٢ - قال أبو عمرو: يا ويل لك، ويا ويح لك»^(٢).

وهكذا أثر أبو عمرو بمؤلفاته وعلمه في كتاب سيبويه الذي يعتبر الأساس النحوي العظيم لكل النحويين.

٥. كتاب القياس ليونس بن حبيب

يونس بن حبيب علم من أعلام النحو واللغة قبل سيبويه، وهو من تلامذة أبي عمرو بن العلاء الذين شربوا من منهلهم، وارتشفوا من معينه. وقد ذكر الرواة أن يونس توفي في سنة ثلاث وثمانين ومائة، وعاش ثمانين وثمانين سنة، ولم يكن له هم في حياته إلا أن يعيش في رحاب العلم ليقتطف من ثماره، وقد أشار إلى ذلك ابن النديم في الفهرست حيث قال: «ولم تكن له همة إلا طلب العلم، ومحاذة الرجال»^(٣).

وكان ليونس حلقة انضم إليها كبار اللغويين والنحويين فيما بعد أمثال الكسائي والفراء، ومروان بن سعيد.

ومن الطرائف التي رواها الفراء وهو في حلقة يونس ما رواه الحريري في (درة الفواص) حيث قال: «حكى الفراء قال: قال أعرابي، ونحن في حلقة يونس بن حبيب بالبصرة: أين مسكنك؟ فقلت الكوفة، فقال لي: يا سبحان الله! هذه بنو أسد بين ظهرائكم، وأنت تطلب اللغة بالبصرة. قال: [أى الفراء] فاستفدت من كلامه فائدتين: إحداهما: أنه قال: «هذه»، ولم يقل: «هؤلاء»، لأنه أشار إلى القبيلة فأنث، والثانية أنه قال: «ظهرائكم» بفتح النون، ولم يقله بكسرها»^(٤).

(١) القلم ٤٣، المعارج ٤٤، وانظر سيبويه ٤٣/٢.

(٢) سيبويه ٢/٢١٨، ٢١٩.

(٣) الفهرست ٣٣/١.

(٤) درة الفواص/ ١٤٦ - ١٤٧.

على أية حال كانت نحن لا ننكر أن هذه الحلقة كانت مدرسة يدون تلاميذها كل ما تلقوه عن يونس، وكل ما صدر في هذه الحلقة من محاورات ومناقشات، وإذا كان تلاميذ يونس يسجلون عن شيخهم في دفاترهم مدار من مسائل لغوية أو نحوية في هذه الحلقة مما أسهم فيما بعد بدراسات نحوية ولغوية استقبلها سيبويه في كتابه، وبني عليها أصولاً وفروعاً، ومسائل وقضايا، فهل أسهم يونس نفسه في مؤلف نحوي نسب إليه، كما نسب إلى أبي عمرو وشيخه مؤلفات ملأت بيته حتى السقف، وكما نسب إلى عيسى بن عمر الذي احترقت كتبه، ولم يبق منها إلا كتابا: «الجامع» و«الإكمال» كما أشرنا من قبل؟

يُجيب عن هذا التساؤل (بروكلمان) في كتابه (تاريخ الأدب العربي) حيث ذكر أن ليونس كتاب: (القياس في النحو)^(١).

وقد أنكر نسبة هذا الكتاب ليونس الدكتور حسين نصار حيث علق على الخبر الذي ساقه (بروكلمان) بقوله: «ولكنه لم يذكر المصدر التي اعتمد عليه في هذا القول، ولم أعر على من أشار إلى ذلك، واعتقد أن التأليف في القياس في عصر يونس غريب وغير متوقع، فقد تنبه الناس إلى القياس، وأكثروا من التحدث عنه في الجيل الثاني ليونس، أي جيل تلاميذه بعدما وقع الخلاف بين العلماء في البصرة والكوفة، وأخذ الناس يحسون أن كلاً من الفريقين يختلف عن الآخر في منحاها ونهجه»^(٢).

وفي هذا التعليق نظر، لأن شيوخ يونس أمثال: عبدالله بن أبي إسحاق، وأبى عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر قد تكلموا في القياس، ونظروا إليه حينما أسسوا القواعد وبنوا الأصول، فعبده الله بن أبي إسحاق يذكر الرواة والمؤرخون عنه: أنه كان أشد تجريداً للقياس من أبي عمرو^(٣).

وقد قال الزبيدي عن عبدالله بن أبي إسحاق: إنه «أول من بعج النحو، ومدّ القياس وشرح العلل، وكان مائلاً إلى القياس في النحو»^(٤).

وأوضح دليل على أن يونس كان ينحو نحو من سبقه في القياس ما ذكره ابن سلام إذ يقول: «قلت أنا ليونس: هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئاً قال: نعم قلت له: هل يقول

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢ / ١٣٠.

(٢) يونس بن حبيب للدكتور حسين نصار / ٦٣.

(٣) نزهة الألباء / ١٢.

(٤) طبقات النحويين واللغويين / ٣٢.

أحد الصويق - يعني - السويق؟ قال: نعم، عمرو بن تميم تقولها، وما تريد إلى هذا، عليك بباب من النحو يطرد وينقاس^(١).

وقد ملح هذا الاتجاه القياسي ليونس الأستاذ الدكتور شوقي ضيف إذ يقول: «وبذلك غدا يونس في نحوه وما وضعه من أقيسة أمة وحده، وتنبه إلى ذلك القدماء، فقالوا: كانت ليونس مذاهب وأقيسة تفرد بها»^(٢).

وبعد، لسنا في حاجة بعد هذه النصوص التي قدمناها إلى القول بإنكار تأليف يونس لكتاب القياس، لأن حركة القياس مبكرة كما قلت، ولأن النصوص النحوية التي نسبها سيويه إلى يونس تثبت في وضوح أن ممارسة القياس كانت من منهج يونس وشيوخه.

٦. كتاب الجمل للخليل بن أحمد

الخليل بن أحمد صاحب العربية والعروض، وهو أول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها، وكان آية في الذكاء، وكان الناس يقولون: «لم يكن في العربية بعد الصحابة أذكى منه». وقال عنه النضر بن شميل: «أقام الخليل في خص بالبصرة، لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال». هذا وقد توفي الخليل سنة ١٧٥ هـ^(٣).

وقد وفق الله الأخ الفاضل الدكتور فخر الدين قباوة لتحقيق كتاب (الجمل للخليل بن أحمد)^(٤).

وقد وصف المحقق هذا الكتاب بقوله: «إنه كتاب صغير الحجم،،،، يحمل بين دفتيه ألواناً من العلم متميزة، ولمحات من الفكر قديمة مستجدة، ونماذج من النظرات النحوية واللغوية والبيانية تقتضى الاهتمام والتدقيق والتحرير...

وهو يقدم عدداً وفيراً من المصطلحات في الإعراب والصرف والأدوات، بعضه غريب كل الغرابة، لا نجد له صدى في الكتب القديمة والمتأخرة والمعاصرة، وبعضه الآخر حمل في التاريخ دلالات انقرضت أو خالفت ما عرفه النحو في مذاهبه، واتجاهاته، ورجالاته.

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف / ٢٨.

(٣) البغية ١ / ٥٥٧ - ٥٥٨.

(٤) نشرته مؤسسة الرسالة بيروت.

وهو يروى عشرات من الشواهد الشعرية في مسائل الإعراب، ومعانى الحروف، لا نجد لها موطئاً، أو لروايتها مصداقاً في مصادر النحو والشعر، ومراجعها المعروفة أو لا نستطيع تحقيق نسبها، أو تحديد أصحابها من الشعراء والرجّاز^(١).

ويبدو أن المحقق من خلال هذا الوصف غير مطمئن إلى نسبة هذا الكتاب للخليل، أو بعبارة أخرى هناك سحب من الشك تخيم على نسبة هذا الكتاب للخليل.

ولهذا، فإننا ما نكاد نمضى في قراءة مقدمة المحقق حتى نفاجأ بالمحقق يعلن رأيه في صراحة بقوله: «الحق إن حياة هذا الكتاب يشوبها الغموض والإهمال والتوهين، فأنت ترى من المؤرخين القدماء والمعاصرين إزوراراً عنه، واستخفافاً به حتى لتلقاهم غالباً ما يغفلون ذكره أو الإشارة إليه، فإذا اضطرتهم طبيعة مصنفاتهم إلى التعرض له أحاطوه بالظن في النسب»^(٢).

ومن المؤرخين الذين نسبوا هذا الكتاب للخليل السيوطى فى (البغية)^(٣) وياقوت فى (معجم الأدباء)^(٤).

وفى ترجمة أحمد بن الحسين المعروف بـ (ابن شقير) المتوفى فى صفر ٣١٧ هـ ينكر ياقوت فى صراحة ووضوح نسبة هذا الكتاب للخليل، وينسبه لابن شقير. يقول ياقوت: «قرأت فى كتاب ابن مسعدة: أن الكتاب الذى ينسب إلى الخليل، ويسمى: (الجمل) من تصانيف ابن شقير هذا. قال: يقول فيه: النصب على أربعين وجهاً»^(٥).

وفى رأى أن هذا الكتاب نسبته إلى الخليل لا تستريح إليها النفس للأسباب التالية:

١ - اختلاف الرواة والعلماء فى اسم الكتاب، وهذا الاختلاف ذكره المحقق ف مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب حيث ذكر أنه توجد من هذا الكتاب نسخة فى مكتبة بشير أغا باستانبول تحت اسم: (جمل الإعراب).

(١) الجمل فى النحو: مقدمة المحقق ٥ - ٦ بتصرف.

(٢) المرجع نفسه / ٨.

(٣) البغية / ١ / ٥٦٠.

(٤) معجم الأدباء / ١١ / ١١٧٤ / ٧٤.

(٥) معجم الأدباء / ٣ / ١١.

وبروكلمان يذكر في كتابه: (تاريخ الأدب العربي) باسم: (كتاب فيه جملة آيات العرب) ومحمد محسن الطهراني (المتوفى ١٣٨٩) يزعم أن اسمه (النقط والشكل).

٢- الاختلاف في المؤلف من حيث الاسم والكنية. فالكتاب الذي تحتفظ مكتبة بشير آغا باستانبول تنسبه إلى الإمام أبي عبدالله الخليل بن أحمد مع أن كنية الخليل هي: أبو عبدالرحمن.

والحرّ العامليّ مؤلف كتاب: تذكرة المتبحرين في ترجمة سائر العلماء والمتأخرين ينسبه إلى الخليل بن الغازي القزويني المتوفى ١٠٨٩ هـ.

والدكتور رمضان ششن حينما تعرض لنوادير المخطوطات العربية في تركيا «وقف كما يقول المحقق - أمام نسخة بشير آغا من كتاب (الجمال) حائراً في تحقيق اسم مؤلفها، ورأى أخيراً أنه الخليل بن أحمد أبو عبدالله المتوفى سنة ٣٧٩ هـ وزعم أن المسائل المتفرقة التي ألحقها بها الناسخ من كتب مختلفة. هي جزء متمم للكتاب وهي للخليل هذا أيضاً».

٣- ويشير المحقق إلى أن سعد أحمد سعد أعد رسالة للماجستير في كلية اللغة العربية بالأزهر سنة ١٤٠٠ هـ قام فيها بتحقيق الجمل جزم أن مصنف الكتاب هو ابن شقير، لأن بعض المصطلحات والتوجيهات فيه هي للكوفيين، ولا يعقل أن ينقل الخليل عنهم^(١).

وفي رأبي بعد هذه الأدلة التي ذكرتها ملخصة من عرض المحقق لهذا الكتاب في مقدمته من ناحية توثيق الكتاب، وتوثيق المؤلف معاً، في رأبي أن كتاباً يحمل في نفسه، وفي اسمه وفي اسم مؤلفه الشك لا يمكن أن ينسب إلى الخليل بن أحمد مع أن الخليل كان أستاذاً سيويه، ومعظم ما في الكتاب من آراء الخليل، وإذا كان سيويه يعلم أن للخليل كتاباً، فلماذا يتلقى عن الخليل النحو بسؤاله المشهور المتكرر في كل صفحات الكتاب: «وسألت الخليل» و«سألته» لماذا هذا الجهد الجبار الذي بذله سيويه في مجال التلقى عن الخليل ما دامت آراء الخليل مسجلة في كتاب، ومقيدة في مؤلف، ومحصورة في مصنف.

ولهذا كان أبو بكر الزبيديّ اللغوي على صواب كبير حينما نفى عن الخليل التأليف في النحو اكتفاء بما قدمه لسيويه من هذا العلم الغزير الذي بلغ فيه الخليل الغاية، وتجاوز الحدّ.

(١) ملخص من مقدمة المحقق.

قال الزبيدي: «وهو الذي بسط النحو، ومدّ أظنابه، وسبّب علله، وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعاد غاياته، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً، أو يرسم منه رسماً، نزاهة بنفسه، وترفعاً بقدره، إذ كان قد تقدّم إلى القول عليه، والتأليف فيه، فكره أن يكون لمن تقدّمه تالياً، وعلى نظر من سبقه محتذباً، واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه، ولقته من دقائق نظره، ونتائج فكره، ولطائف حكمته، فحمل سيبويه ذلك عنه، وتقلّده، وألّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله كما امتنع على من تأخّر بعده»^(١).

وقبل أن نترك هذه النقطة من البحث أشير إلى أن هناك كتباً نحوية أخرى نسبت إلى الخليل، شك في نسبتها إليه العلماء اللغويون والرواة، فقد ذكروا أن له كتاب (العوامل) الذي ينص القفطي على أنه ليس للخليل بل هو متحول عليه^(٢).

وهناك كتاب آخر نص ياقوت في معجمه عليه، وبين أنه يسمّى كتاب (الشواهد)^(٣) ولاندرى هل كتاب الشواهد هذا: أهو في شواهد اللغة أو في شواهد النحو أو في كليهما؟ وفي رأي أن كتاب (الشواهد) من المحتمل أن يكون للخليل، لأنه كان على صلة في البادية بالأعراب بنقل مما أخذ عنهم، وهذا النقل لهذه الشواهد يصعب أن تسجله الذاكرة على صفحاتها، لأن كلام العرب وأشعارها في هذه الفترة سجلها أساتذة الخليل على قراطيس خوفاً من تفلّتها من الذاكرة، يدل على ذلك أن عيسى بن عمر كان يسجل الشعر، ويؤلف الكتب مع أنه سبق الخليل تاريخياً.

قال أبو عبيدة: قال عيسى: كنت وأنا شاب أقعد بالليل فأكتب حتى ينقطع سوائي، أي وسطى^(٤).

(١) المزهر / ١ / ٨٠.

(٢) الإنباه / ١ / ٣٤٦.

(٣) معجم الأدباء / ١١ / ٧٤.

(٤) طبقات النحويين واللغويين / ٤٢.

أوائل المصنفات فى النحو الكوفى:

٧. الفیصل لأبى جعفر الرؤاسى:

بعد هذه الجولة التى قمت بها فى محيط أوائل المصنفات فى النحو البصرى المتمثل فى رجاله العظام الذين أسسوا النحو العربى ابتداء من أبى الأسود وانهاء بيونس بين حبيب - وجهت قلمى نحو جولة أخرى فى البحث عن أوائل المصنفات فى النحو الكوفى قبل أن يطالعنا سيبون بكتابه الى استقرت على صفحاته قواعد النحو بكل فروعها، وبهذا الكتاب اكتمل البناء ووضعت الأصول.

ومعظم المؤرخين يقررون أن الجذور الأولى للنحو الكوفى ظهرت على يد أبى جعفر الرؤاسى شيخ الكوفيين.

وأبو جعفر الرؤاسى ترجم له بن النديم فى (الفهرست) بقوله: «قرأت بخط أبى الطيب أخى الشافعى قال: اسم الرؤاسى: محمد بن أبى سارة، ويكنى أبا جعفر»^(١).

وفى حرف الميم من البغية ذكره السيوطى باسم: محمد بن الحسن بن أبى سارة الرؤاسى النبلى وفى (طبقات النحويين) ذكره الزبيدى بكنيته فقط، فقال: هو أبو جعفر وأغفل اسمه^(٢).

والناظر إلى هذه المصادر يجد أن معظمها متفق على أن اسمه: محمد بن الحسن بن أبى سارة، وانفرد بتسميته حازماً السيوطى فى رواية من رواياته ولعل السيوطى نقل هذه التسمية عن الفيروزابادى فى (البلغة). هذا وقد أغفلت معظم كتب الطبقات سنة وفاته غير أن ياقوت فى معجمه ذكر أنه توفى فى خلافه الرشيد^(٣).

ومن أهم الشيوخ الذين تلقى عنهم عيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء وكلاهما من رؤوس علماء البصرة المعدودين.

ومن أشهر تلاميذه الكسانى والفراء كما نصت على ذلك كتب الطبقات التى ترجمت له، ولا أريد أن أكرر القول فى أن أبا جعفر الرؤاسى هو المؤسس الأول للمذهب الكوفى، لأن هذه القضية تناولتها فى كتابى (الحلقة المفقودة فى تاريخ النحو العربى) الذى طبع

(١) الفهرست/ ٦٤.

(٢) طبقات النحويين/ ١٢٥.

(٣) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٤ - ١٢٥.

طبعة ثانية بمؤسسة الرسالة بيروت حيث قررت إضافة النحو الكوفى إليه بعد أن كان مقصورياً فى طبعة الأولى على النحو البصرى فقط، أقول: لا أريد أن أكرر القول فى هذه القضية، لأن رجلاً كأبى جعفر يأخذ النحو عن أبى عمرو، وعيسى بن عمر، ويدخل البصرة مرتين، ويأخذ عن أهلها، فإنّ هذا يدل على أنه استقى منهم - وأفاد من نحوهم، وكون له منهجاً خاصاً فى دراسته النحوية - جدير بأن يكون بحق المؤسس الأول لهذا المذهب الكوفى.

ومما يدل على منزلة الرؤاسى فى الدراسة النحوية أن له كتاباً مشهوراً هو كتاب الفیصل:

كتاب الفیصل

قال ياقوت فى معجمه عنه: «إن ثعلب زعم أن أول من وضع من الكوفيين كتاباً فى النحو أبو جعفر الرؤاسى»^(١).

ويبدو أن هذا الكتاب كان موضع تقدير عند الكوفيين، وهو الذى أشار إليه ثعلب بقوله: «وكان له كتاب معروف عندهم يقدرونه»^(٢).

على أن المبرد لم يكن على علم تام بهذا الكتاب، فلم يره، وإنما سمع عنه يدل على ذلك قوله: «وقد زعم بعض الناس أنه صنف كتاباً فى النحو، فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا، فلم يلتفت إليه، ولم يجرؤ على إظهاره لما سمع كلامهم»^(٣). وإنكار المبرد لكتاب (الفیصل) ليس دليلاً واضحاً على أن الرؤاسى لم يؤلف هذا الكتاب، لأن المبرد نفسه ذكر أنه سمع عنه، ولم يره، وعدم الرؤيا ليس دليلاً على عدم الوجود، ولأن ابن النديم فى (الفهرست) قرّر أن هذا الكتاب رواه جماعة»^(٤).

ويروى محمد بن إسحاق فى الكتاب الذى ألفه فى سنة ٣٧٧ هـ رواية تقول: «كتاب الفیصل رواه جماعة، وهو يروى إلى اليوم»^(٥).

(١) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٢.

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه / ١٢٣.

(٤) الفهرست / ٦٤.

(٥) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٥.

علاقة الخليل بكتاب (الفيصل)

وضّح هذه العلاقة ابن النديم في (الفهرست) فذكر فيما ذكر أن أبا جعفر الرّوآسى قال: «بعث إلى الخليل بطلب كتابي، فبعثت به إليه فقرأه ووضع كتابه»^(١).

وفي كتابي الحلقة المفقودة ناقشت الدكتورة الزميلة الفاضلة خديجة الحديثي التي أنكرت كل الانكار أن يكون الخليل قد أفاد من كتاب (الفيصل) مع تسليمها بوجوده وإنما الذي أفاده الخليل من أبي جعفر الرّوآسى هو كتاب آخر للرّوآسى لغوى لا نحوى، والرواية التي ذكرها ابن النديم لم تحدّد بالذات كتاب (الفيصل) ولم تقل: «إنه كتاب الفيصل كما لم تنص على أنه قال: «كتاب في النحو مثلاً» ومعنى هذا أنه قد يكون للرّوآسى كتاب في النحو هو (الفيصل) إلا أن له كتباً نحوية أخرى، وأن الخليل أخذ عنه أحد كتبه، ووضع عليه كتابه (العين) ولم يذكر أحد أن للخليل كتاباً معروفاً في النحو، فالنص على كتابه [أى فى رواية ابن النديم] يعنى (العين) فيما أذهب إليه، ومعنى أن الخليل هو المستفيد^(٢). وكانت مناقشتى للدكتورة الفاضلة فى كتابي الحلقة المفقودة تقوم على ما يأتى:

أولاً: قضية تأليف الخليل (العين) مازالت قضيته غامضة فى التاريخ، فكثير من الرواة ينكرون نسبة كتاب (العين) للخليل بأدلة متعددة لا يستوعبها هذا البحث.

ثانياً: لو فرض أن الخليل أفاد من المؤلفات اللغوية للرّوآسى من حقنا أن نتساءل: ما المؤلفات اللغوية التي ألفها الرّوآسى؟

مؤلفاته التي نسبها إليه الرواة والتي سنسردها بعد قليل - إن شاء الله - ليس فيها كتاب ينسب إلى اللغة إلا كتاب (التصغير) الذي نصت عليه المصادر المتعددة. فكيف تفترض إذاً الدكتورة خديجة أن له كتباً فى اللغة أفاد منها.

ثالثاً: تنفى الدكتورة خديجة أن يكون للخليل كتاب معروف فى النحو حينما نصت على ذلك بقوله: «ولم يذكر أن للخليل كتاباً معروفاً فى النحو»^(٣) وفات الزميلة الفاضلة أن كثيراً من المصادر التاريخية التي ترجمت للخليل نصت على أن له كتاباً فى النحو هو (الجميل).

(١) الفهرست / ٦٤.

(٢) المدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديثي / ١٥٩.

(٣) المدارس النحوية / ١٥٩.

ومناقشتي لنسبة هذا الكتاب للخليل وميلى إلى نفى هذه النسبة عنه فيما سبق عند تعرضي للحديث عن الجمل، ليس معناه أن الأدلة قاطعة في هذا النفي وإنما هو مجرد احتمال، واجتهاد خاص، تؤيده القرائن، وتعاضده الدلائل هذا وقد ذكرت كتب الطبقات التي ترجمت للرؤاسي أن له كتباً أخرى وهي:

٢ - كتاب الجمع والإفراد

نص على نسبة هذا الكتاب إلى أبي جعفر الرؤاسي «الزبيدي» في طبقاته^(١). ولم يرد ذكر هذا الكتاب في معجم الأدباء لياقوت مع أنه نص على أن له كتباً أخرى وهي:

٣ - كتاب (معاني القرآن).

٤ - كتاب (التصغير).

٥ - كتاب (الوقف والابتداء الكبير).

٦ - كتاب (الوقف والابتداء الصغير)^(٢).

هذا وقد أثبت له ابن السديم في (الفهرست)، وابن الأنباري في (نزهة الألباء) كتاب (التصغير) وكتاب (معاني القرآن) وذكر أنه يروى إلى اليوم كما أثبتنا له أيضاً كتابي (الوقف والابتداء الكبير)، وكتاب (الوقف والابتداء الصغير)^(٣). وهناك كتاب لم يرد ذكره في المصادر السابقة، ذكر في (شرح الفصيح) لأبي هلال العسكري، وهو:

٧ - كتاب النوادر: فقد نقل عنه: «قدرت على الشيء أقدر»^(٤).

٨. مؤلفات الكسائي النحوية

على بن حمزة بن عبدالله بن عثمان الإمام أبو الحسن الكسائي.

من أهل الكوفة، واستوطن بغداد، وسمى الكسائي، لأنه أحرم في كساء وقيل لغير ذلك.

ويروى السيوطي في (البغية) عن الخطيب قوله: إن الكسائي «تعلم النحو على كبر،

(١) طبقات النحويين واللغويين / ١٢٥.

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٥.

(٣) الفهرست / ٦٤، ونزهة الألباء / ٥٥.

(٤) انظر ابن درستويه / ١٨١ للأستاذ عبدالله الجيوري. مطبعة المعاني ببغداد.

وسببه أنه جاء إلى قوم وقد أعيأ، فقال: قد عيبت، فقالوا له: مجالسنا وأنت تلحن!، قال: وكيف لحت؟ «قالوا: إن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل: عيبت، وإن أردت من التعب فقل: أعيبت. فأنف من هذه الكلمة، وقام من فوره، وسأل عمّن يعلم النحو، فأرشد إلى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفذ ما عنده، ثم خرج إلى البصرة. فلقى الخليل وجلس في حلقة، فقال له رجل من الأعراب: تركت أسد الكوفة وتيمماً وعندهما الفصاحة، وجئت إلى البصرة! فقال للخليل من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج ورجع، وقد أنفذ خمس عشرة قتيبة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ فقدم البصرة، فوجد الخليل قد مات، وفي موضعه بونس، فجرت بينهما مسائل أقر له فيها بونس، وصلته في موضعه»^(١).

ومات الكسائي بالرّبي هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد، وكانا خرجا مع الرشيد فقال: دفنت الفقه والنحو في يوم واحد، وذلك سنة اثنتين أو ثلاث وقيل تسع وثمانين ومائة، وقيل سنة ثنتين وتسعين^(٢).

هذا وقد أسهم الكسائي بمؤلفات عدّة نذكر منها المؤلفات النحوية الآتية:

العدد. المصادر. مختصر في النحو^(٣):

وهذه المؤلفات المنسوبة للكسائي نجعلنا نشك في رئاسته للمدرسة الكوفية لأنها مؤلفات في موضوعات معينة من النحو لا تستوعب كل مسائله، ولا تتناول جميع قضاياها.

وكتابه (المختصر في النحو) اسمه يدل على معناه، ليس فيه من التفريع والتعليل والتحليل والشواهد ما يتفق مع هذا الاختصار.

ولا أدري كيف تكون هذه المؤلفات الكسائية مؤهلة الكسائي ليكون عميد المدرسة الكوفية كما يقرّر أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، لأن منافسه الآخر وهو أبو جعفر الرّوآسى لا يستحق هذه العمادة لأنه مطروح العلم وليس بشيء^(٤).

ويبدو أن أستاذنا اعتمد على رواية أبي حاتم في التقليل من شأن الرّوآسى فقد ذكر

(١) البغية ٢/١٦٢، ١٦٣.

(٢) البغية ٢/١٦٣، ١٦٤.

(٣) المصدر السابق والصفحة.

(٤) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف / ١٥٤.

ياقوت في معجمه أنه «كان بالكوفة نحويّ يقال له: أبو جعفر الرّوآسىّ وهو مطروح العلم ليس بشيء»^(١).

ومن العجب أن هذه الرواية التي اعتمد عليها أستاذنا انفراد بها ياقوت في معجمه ولم أجدّها في أي مصدر من المصادر التي ترجمت للرّوآسىّ، وهي في نظري رواية منشؤها التعصب للبصريين. ونقد من لمع من الكوفيين، وقد أشرت فيما قبل إلى رواية المبرّد بصدّد هذا الكتاب الذي سمع عنه ولم يره وهو كتاب (الفیصل).

ورواية كرواية أبي حاتم تقلل من شأن رجل له مكانته في النحو العربي لا تقبل في مجال العلم، لأنها رواية شخص واحد، لا يشاركه أحد فيها من رجالات عصره ويضيف أستاذنا دليلاً واقعيّاً في نظره وهو على حدّ قوله: «إنه لم يدل في النحو بآراء ذات قيمة بدليل أن اسمه لم يرد في كتب النحاة التالية لعصره»^(٢).

وفي رأيي أن ما ذكره أستاذنا الفاضل لا تسلّم به، لأن لأبي جعفر الرّوآسىّ آراء نحوية دارت في كتب النحاة الذين جاءوا بعده^(٣). وقد أشرت في الهامش إلى بعض المصادر النحوية التي سجلت على صفحاتها آراء نحوية لأبي جعفر الرّوآسىّ ومالي أذهب بعيداً وقد ذكر الرواة أن كل ما في كتاب سيبويه: وقال الكوفيّ كذا فإنما عنى بالرّوآسىّ هذا^(٤).

وقال ابن درستويه: «زعم جماعة من البصريين أن الكوفيّ الذي ذكره الأخفش في آخر المسائل ويردّ عليه هو الرّوآسى»^(٥).

لهذا فإنني أستريح إلى رأي الأستاذ أحمد أمين في تحرّجه أن يجعل الكسائيّ المؤسس الأول للنحو الكوفيّ، وقال كلمة منصفة بهذا الصدد خلاصتها: أن مؤسس مدرسة الكوفة، ليس الرّوآسىّ وحده، ولا الكسائيّ وحده ولا الفراء وحده، وإنما قام التأسيس بجهود هؤلاء الرجال الثلاثة معاً بدون تفرقة بين جهد وجهد، فالكل كانوا كوفيين، وبتعاونهم وجهودهم في الدراسات النحوية تأسست مدرسة الكوفة، يقول ما نصه:

(١) معجم الأدباء ١٨/١٢٥.

(٢) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف / ١٥٤.

(٣) انظر القرطبي ٢٣٦/٦، وجمع الهوامع ٩١/٤، ٢٧/٥، وكتاب المذكر والمؤنث ١٢٣ - ١٢٤، وخزانة الأدب البغدادي ٣/٥٥١.. إلخ..

(٤) البغية ١/٨٢ - ٨٣.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

«نشأت بالكوفة مدرسة على رأسها أبو جعفر الرّؤاسى، وتلميذاه الكسائى والفراء».. إلى أن يقول: «وبدأت فى ذلك الحين مدرسة الكوفة تناظر مدرسة البصرة، ثم بدأ الخلاف بين الرّؤاسى فى الكوفة والخليل فى البصرة، ثم اشتدّ بين الكسائى وسيبويه فى البصرة»^(١).
مؤلفات أخرى للكسائى؛

وللكسائى مؤلفات أخرى غير ما ذكرنا سابقاً، ولكنها ليست فى صميم النحو وإن كان النحو مادة حية فيها، من هذه المصنفات:

أ. كتاب معانى القرآن؛

ذكر هذا المصنف الخطيب (فى تاريخ بغداد) فقد نقل عن أبى عمرو والدورى أنه قال: «قرأت هذا الكتاب فى مسجد الوراقين ببغداد على أبى مسحل، وعلى الطوال، وعلى سلمة وجماعة.

قال الدورى: قال أبو مسحل: لو قرىء هذا الكتاب عدّة مرّات لاحتاج من يقرؤه أن يقرأه»^(٢).

هذا وقد نصّ ياقوت فى معجمه أن الطبرى أفاد من كتاب (معانى القرآن) للكسائى لأن ما فى كتاب تفسير الطبرى من «مجموع الكلام والمعانى من كتاب على بن حمزة الكسائى، ومن كتاب يحيى بن زياد الفراء، ومن كتاب أبى الحسن الأخفش ومن كتاب أبى على قطرب وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه، إذ كان هؤلاء هم المتكلمون فى المعانى، وعنهم يؤخذ معانيه وإعرابه، وربما لم يسمّهم إذا ذكر شيئاً من كلامهم»^(٣).

وهذا النصّ يشير فى وضوح أن الكسائى أول من ألف فى «معانى القرآن» بعد أستاذه أبى جعفر الرّؤاسى الذى له كتاب بهذا الاسم^(٤)، ولا شك أن كتب معانى القرآن لا تخلو منها الدراسات النحوية واللغوية بل لا أبالغ إذا قلت: إن السمة البارزة لهذه الكتب تتمثل فى هذه الدراسات.

(١) ضحى الإسلام ٢/ ٢٩٤.

(٢) تاريخ بغداد ١١ / ٤١١.

(٣) معجم الأدباء ١٨ / ٦٥.

(٤) البغية ١ / ٨٣.

ويبدو أن كتب الكسائي كانت محور دراسة وبحث بين المتعلمين والدارسين، فقد ذكروا أن سلمة بن عاصم وهو من تلاميذ مدرسة الكوفة طلب من خلف الأحمر أن يقرأ عليه كتاب (العدد)^(١)، وقد أشرنا من قبل أن كتاب (معاني القرآن) كان يدرّس في مسجد الوراقين ببغداد على يد أبي مسحل والطوال وسلمة وجماعة.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الكسائي كان له كتاب نحويّ شقّ طريقه إلى الأندلس على يد «جودي بن عثمان العبسيّ الذي كان يؤدّب أولاد الخلفاء بالعربية وقد رحل إلى المشرق، وأخذ عن الرياشيّ والفرّاء، والكسائي، وأدخل كتابه إلى الأندلس، وتوفى سنة ١٩٨ هـ»^(٢).

وعلى الرغم من أن الكسائي نسب إليه المحدثون أنه إمام مدرسة الكوفة، وأن هذه المدرسة يعتبر المؤسس الأول لها فإن بعض اللغويين يتهمونّه بأنه أفسد النحو العربيّ لأنه «صار إلى بغداد فلقى أعراب الحطّميّة فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله»^(٣). وأنه ضعيف في النحو فقد «قال أبو العباس: «حدثني سلمة قال: قال الفرّاء: مات الكسائي وهو لا يحسن حدّ نغم وبشس، ولا حد أن المفتوحة ولا حدّ الحكاية»^(٤).

وبعد، فهذه أوائل المصنفات التي ظهرت في حقل النحو العربيّ قبل كتاب سيبويه سواء أكانت بصرية أو كوفية.

كل ما أريد أن أصل إليه هو أن هذه المؤلفات كان لها أثر كبير في تطوّر الدراسات النحوية، وكان لها أثر آخر في صناعة كتاب سيبويه الذي استقبل صاحبه هذا الفيض من الدراسات، ونسّقه بعقله ونظمه بفكره، وبوّه بحكمته، وفصله بذكائه، وكان بحق أول كتاب نحويّ خلده التاريخ، تستقبله الأجيال جيلاً بعد جيل، وزمناً بعد زمن، وهو ثابت البنيان، قويّ الأركان، يطل بوجهه في كل قضايا اللغة والنحو بحيث من ابتعد عن معينه ضل، ومن شرب من غير مورده ظمىء، وسنخصه بالحديث في إيجاز إيماناً منا بأن هذا الكتاب أخذ حقه من الدراسة والبحث، وسنكتفي فقط بالخطوط العريضة في مجاله، لأن مسيرة النحو قبله ألفت رحالها في ميدانه، واستقر بها النوى.

(١) الإنباه ٢ / ٥٦.

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢ / ٣٣٢.

(٣) معجم الأدباء ١٣ / ١٨٣. (٤) المصدر نفسه / ١٨٣.

٩. كتاب سيويه:

لا نستطيع أن نترجم لسيويه في هذا البحث الذى يتناول النقاط الرئيسة فى حقل أوائل المصنفات أو المؤلفات، لأن سيويه كان موضع دراسة وبسحت فى ظلال كتابه الخالد عبر القرون.

وقد أشبع القول فيه أستاذنا المرحوم الأستاذ عبدالسلام هارون فى مقدّمة تحقيقه لكتاب سيويه كما أفرّد سيويه بمصنف خاص أستاذنا المرحوم الأستاذ على النجدي فى كتابه: (سيويه إمام النحاة)^(١)، فضلاً عن المصادر الأساسية التى تولت التعريف به، وهى مصادر الطبقات، لهذا، فإنى أكتفى فقط بذكر الخطوط العريضة عن سيويه وكتابه.

أما سيويه فهو: عمرو بن عثمان بن قنبر إمام البصريين، وحامل لواء النحو، وذكر السيوطى فى (البغية) أن «أصله من البيضاء من أرض فارس، نشأ بالبصرة، وأخذ عن الخليل ويونس، وأبى الخطاب الأحمش، وعيسى بن عمر»^(٢).

ولنزله سيويه عند أستاذه الخليل ذكر بعض النحويين أنه قال: كنت عند الخليل، فأقبل سيويه، فقال: مرحباً بزائر لا ميل، قال: وما سمعت الخليل يقولها لغيره»^(٣) ولا شك أن هذا يدل على منزلة سيويه فى نفس أستاذه، ويكفى أن يخصه أستاذه بهذه المقولة التى صدرت من نابغة زمانه، وفريد عصره الخليل بن أحمد.

وبعد المناظرة الظالمة بينه وبين الكسائى، وهى المناظرة التى دارت رحاها فى مجلس يحيى البرمكى حينما ذهب سيويه إلى بغداد فى مسألة مشهورة فى التاريخ وهى المسألة الزنبورية.

أقول: بعد هذه المناظرة مات سيويه متأثراً بجراحه النفسية، وهو فى سن الشباب فقد مات بالبيضاء، وقيل بشيراز سنة ثمانين ومائة، وعمره اثنتان وثلاثون سنة^(٤) على قول من الأقوال التى ذكرت فى تاريخ وفاته، ومكان الوفاة، وأما الكتاب فيها نحن نظرق باب الحديث عنه:

(١) نشر بالقاهرة نشر عالم الكتب، وطبع عدة طبعات.

(٢) البغية ٢/ ٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) البغية ٢/ ٢٣٠.

كتاب سيبويه:

قال عنه يونس فيما حكاه أبو عبيدة: أنه «قيل ليونس بعد موت سيبويه: إن سيبويه صنف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل، فقال: ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل! جيئوني بكتابه، فلما رآه، قال: يجب أن يكون صادقاً فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عني»^(١).

وقال الأزهرى عن الكتاب: «كان سيبويه علامة، حسن التصنيف؛.. وما علمت أحداً سمع منه كتابه هذا، لأنه احتضر، وقد نظرت في كتابه، فرأيت فيه علماً جمّاً»^(٢).
«وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: هل ركبت البحر؟! تعظيماً واستصعاباً لما فيه»^(٣).

وأشدد فيه الزمخشري شعراً فقال:

على عمرو بن عثمان بن قنبر

ألا صلّى الإله صلاة صدق

بنو قلم ولا أبناء منبر^(٤)

فإن كتابه لم يُغن عنه

ويروى الزبيدي في طبقاته، أن تلميذه أبا الحسن الأخفش سعيد بن مسعدة يقول: «وكنت أسأل سيبويه عما أشكل علىّ منه، فإن تصعب علىّ الشيء منه قرأته عليه»^(٥).

على أن سيبويه كان حريصاً كل الحرص على أن يراجع ما يكتب، ويعرض على علماء عصره ما يعن له من آراء، وما يستقبل من شواهد، وما يبني من قواعد حتى إنه لا يأنف من أن يسأل تلميذه الأخفش ليراجع ما كتب.

قال الأخفش: «كان سيبويه إذا وضع شيئاً من كتابه عرضه علىّ وهو يرى أنى أعلم منه - وكان أعلم منى - وأنا اليوم أعلم منه»^(٦).

(١) المصدر نفسه / ٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المصدر نفسه / ٢٣٠.

(٥) إنباه الرواة ٢ / ٣٦.

(٦) طبقات اللغويين للزبيدي / ٦٧.

ويشيد أستاذنا الأستاذ عبدالسلام هارون في مقدمة تحقيقه بخلق سيويه العلمي فيقول: «وهذا النص يثبتنا عن تواضع سيويه، وحرصه على المشاورة في العلم، ويدلنا كذلك أن الأخفش شهد مولد الكتاب، ونشأته»^(١).

وعن كتاب سيويه تحدث الجاحظ مبيّناً فضله، مقدراً علمه فقال: «أردت الخروج إلى محمد بن عبدالملك، ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيويه، وقلت له: أردت أن أهدي لك شيئاً، ففكرت، فإذا كل شيء عندك، فلم أر أشرف من هذا الكتاب، وهذا كتاب اشتريته من ميراث الفراء، قال: والله ما أهديت إلى شيئاً أحب إليّ منه»^(٢).

موقف الكوفيين من الكتاب:

على الرغم من بصرية سيويه، فإن الكتاب تلمذ عليه رؤساء الكوفة ونهلوا من مورده، وشربوا من معينه.

فالكسائي الذي تنسب إليه عمادة مدرسة الكوفة يروي ثعلب رواية تدل في وضوح على انتفاع مناظره بهذا الكتاب، يتحدث عن ذلك محمد بن عبدالملك التاريخي فيما رواه عن ثعلب عن محمد بن سلام قال: «حدثني الأخفش أنه قرأ كتاب سيويه على الكسائي في جمعة، فوهب له سبعين ديناراً. قال: وكان الكسائي يقول لي: هذا الحرف لم أسمع فآكته لي فأفعل، قال: وكان الأخفش يؤدّب ولد الكسائي»^(٣).

والفراء شرب من مورد كتاب سيويه كأستاذه الكسائي، فقد حدث ثعلب يوماً في مجلسه فقال: «ومات الفراء، وتحت رأسه كتاب سيويه»^(٤) ومن هنا صحح للجاحظ أن يعدد مفاخر أهل البصرة على أهل الكوفة فقال: «هؤلاء يأتونكم بفلان وفلان، وسيويه الذي اعتمدتم على كتبه، وجحدتم فضله»^(٥).



(١) كتاب سيويه / ١٥ من مقدمة التحقيق.

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ١٢٣.

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ١٢٢.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

اسم الكتاب:

لا أدري لم لم يسمّ سيويه كتابه، وترك التسمية لمن جاء بعده؟ ولو نظرنا إلى المؤلفات النحوية التي صنفها العلماء قبل سيويه لوجدنا هؤلاء العلماء وضعوا المؤلفاتهم أسماء، وسجلوا لها عنوانات فأبو جعفر الرّؤاسي سمّى كتابه النحوى الذى تحدّثنا عنه فيما سبق: «الفصل» وعيسى بن عمر سمّى كتابه: الجامع والإكمال، والخليل - إن صح الكتاب له - سمّى كتابه: (الجمل).

وللإجابة عن هذا التساؤل يرجح أستاذنا على النجدى «أن سيويه كان على نيّة العودة إلى الكتاب، لأن لديه منه بقية، ولا يزال فى نفسه منه شيء فأرجأ تسميته، ولم يشأ أن يضعها له حتى يفرغ منه ويبلغ ما يريد»^(١).

وأدلة الترجيح فى نظر أستاذنا نلخصها فيما يلى:

أن يونس مع أنه من شيوخه لم يعلم نبأ الكتاب إلا عرضاً وبعد وفاة سيويه وذكر الخبر الذى أورده أنفاً حينما قال يونس: «جيتونى بكتابه فلما رآه قال: يجب أن يكون صادقاً فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عنى».

- أن الكتاب ليس له مقدمة ولا خاتمة:

- أنه قد جاء فى الخبر الذى روى عنه يونس أنه قيل له: إن سيويه صنف كتاباً فى ألف ورقة من علم الخليل.

وقد حلل أستاذنا هذا الخبر ليستدل به على أن سيويه ترك كتابه جزازات منفصلة لأنه يبعد أن يجتمع مثل هذا السفر الضخم فى مجلد واحد، وينقل أستاذنا فى هامش كتابه^(٢) تعليقاً نقله عن وفيات الأعيان ٥ / ٢٣١ يحدّد فيه أن المجلد كان عند القدماء عشر ورقات.

لهذه الأسباب مجتمعة لم يضع سيويه لكتابه اسماً أو يقترح له عنواناً وترك ذلك لمن جاء من بعده.

والذين جاءوا من بعده لم يضعوا اسماً مناسباً أو عنواناً ملائماً غير تسميته بالكتاب، فإذا

(٢) ص: ١٢٩.

(١) سيويه إمام النحاة/ ١٢٨.

أطلق الكتاب كان المراد به كتاب سيويه، ومن هنا قال ابن الأبارى: «كان يقال بالبصرة: قرأ فلان الكتاب» فيعلم أنه كتاب سيويه، وقرأ نصف الكتاب، فلا يشك أنه كتاب سيويه»^(١).

مصادر الكتاب ومن أين استقاها؟

نستطيع أن نقرر في ضوء قراءة كتاب سيويه ودراسته أن المصادر التي استقى منها النحو وسجلها في كتابه هي ما يلي:

١ - قدامى النحويين، ونذكر من هؤلاء القدامى الذين تقرأ أسماءهم، ونقف على آرائهم في كتاب سيويه:

١ - عبدالله بن أبي إسحاق: وابن أبي إسحاق سبق الحديث عنه عند التعرض لكتبه، وقد أفاد سيويه من آراء ابن أبي إسحاق في كتابه في عدة مواضع.

ويعترف أستاذنا المرحوم إبراهيم مصطفى بأن ابن أبي إسحاق هو أول نحوي ورد ذكره في كتاب سيويه، ولذلك يقول: «تبعنا أقدم عالم نسب إليه رأى نحوي في هذه الكتب. وكان أول هذه الكتب كتاب سيويه» ويذكر أستاذنا أن عبدالله بن أبي إسحاق تكرر ذكره في كتاب سيويه ٦ مرات^(٢).

وفي موضع آخر من بحثه يقول: «أما عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي وهو من الطبقة الثالثة فهو أقدم في رأينا من ينسب إليه رأى نحو»^(٣).

٢ - عيسى بن عمر: ومن النحويين القدماء الذين أخذ عنهم عيسى بن عمر، فقد كانت آراء عيسى بن عمر في كتاب سيويه متنوعة، سبقت في عبارات مختلفة.

فمن هذه العبارات أو التعبيرات ما يأتي:

- التعبير بقوله: «وكان عيسى يقول أو يقرأ»^(٤).

- التعبير بقوله: «وزعم عيسى»^(٥).

(١) نزهة الألباء / ٦٣.

(٢) مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة مجلد ١٠ جزء ٢ - ديسمبر ١٩٤٨ ص ٧١ وانظر هذه المواضع الستة في كتابي: الحلقة المفقودة من ١٢٣ - ١٢٥.

(٣) المرجع نفسه / ٧٣.

(٤) سيويه ١ / ٣٩٨، ٢ / ٢٥٢، ٣ / ١٤٣.

(٥) سيويه ١ / ١٦٩، ١ / ٧، ٢ / ٦٥، ٦٦.

- التعبير بقوله: «حدثنا»^(١).

٣- أبو عمرو بن العلاء: تعدّد نقل سيبويه عن أبي عمرو في الكتاب مما يشير في وضوح إلى أن أبا عمرو أسهم بطريق غير مباشر في صنع هذا الكتاب.

وقد تعدّدت طرق الأخذ عن أبي عمرو إلا أن نقل معظم النصوص التي نسبها سيبويه إلى أبي عمرو أخذها من يونس بن حبيب أستاذه المباشر وجاءت صور الأخذ عن يونس بعبارات مختلفة بيانها على الوجه التالي:

- مسائل منسوبة إلى أبي عمرو وتحدّث بها يونس مع سيبويه^(٢).

- مسائل منسوبة إلى أبي عمرو بعبارة: «زعم يونس أن أبا عمرو قال»^(٣).

- مسائل منسوبة إلى أبي عمرو بعبارة: «أخبرناه يونس عن أبي عمرو»^(٤).

- مسائل منسوبة إلى أبي عمرو من غير أن تقيد بسماع أو تسند إلى يونس وأرجح أنها مأخوذة من كتبه لأنها منسوبة إلى أبي عمرو بطريق مباشر ويقوى هذا الترجيح ما ذكره السيوطي في الزهر عند حديثه عن أبي عبيد القاسم بن سلام إذ قال: «وسمع من الفراء، والأمدى، والأحمر، وأبي عمرو - وذكر أهل البصرة أن أكثر ما يحكيه من علمائهم من غير سماع إنما هو من الكتب»^(٥) وينطبق ذلك أيضاً على سيبويه فأكثر ما حكاه عن أبي عمرو من غير سماع إنما هو من الكتب»^(٦).

ب. أساتذته المباثرون:

وإلى جانب هؤلاء النحويين القدامى أخذ يونس عن أساتذته المباشرين ونذكر منهم:

١- يونس بن حبيب:

لا شك أن يونس بن حبيب كان شيخاً لسيبويه، أخذ عنه، وجلس إليه وقلت آنفاً: إن

(١) ٣٠٩/٢، ٥٤٥/٣.

(٢) سيبويه ٤٠٤/١، ٤٠٥، ٩٦/٢، ١١٣/٢.

(٣) ٤١٧/١، ٣٨٧/٢، ١٨٤/٢، ١٨٥.

(٤) سيبويه ١٦١/٢.

(٥) المزهر ٤١٢/٢.

(٦) أنظر سيبويه ٣٩٣/٢ - ٣٥٣/٣ - ٤٣/٢ - ٤٤ - ٤٥، ٢١٨/٢ - ٢١٩، ١٨٥ - ١٨٦.

يونس كان همزة الوصل بين أبي عمرو وسيبويه - وإلى جانب هذه الوساطة - بينه وبين أبي عمرو فإن سيبويه أخذ عن يونس مباشرة كما يأخذ التلميذ عن الأستاذ.

والحقيقة التي لا مرء فيها أن يونس كان ركناً من أركان كتاب سيبويه ولعل كثرة النقل عن يونس تشير إلى حقيقة مؤداها ثقة سيبويه بيونس تلك الثقة التي دعت إلى أن ينقل أبواباً برمتها، فيضعها في كتابه، قال الشيخ محمد الطنطاوي مشيراً إلى هذه الحقيقة ما نصه:

«وكثر نقله عن يونس حتى نقل عنه أبواباً برمتها، فقد نقل عنه فصلين من التصغير فقال: «وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب، وما أذكره لك في الباب الذي يليه قول يونس» لأنه كان يطمئن إليه، فكثيراً ما كان يسأله للتثبت عما سمعه من غيره»^(١).

وقد اختلفت العبارات التي تشير إلى هذا الأخذ، فمرة ينسب إلى يونس الحديث فيقول: حدثنا، ومرة ثانية ينسب إليه الأخبار، فيقول: أخبرنا، ومرة ثالثة ينسب إليه الزعم، فيقول: زعم، ومرة رابعة يوجه إليه أسئلة فيقول: «وسألت»^(٢).

ولا يفوتنا أن نذكر أن أستاذنا المرحوم على النجدي تتبع المرات التي أخذ فيها سيبويه عن يونس فوجدها ٢٠٠ مرة^(٣).

٢. الخليل بن أحمد:

من أبرز شيوخ سيبويه الخليل بن أحمد، وقد قدمت فيما سبق أن الخليل كان يجالسه ويطلب الجلوس، وقال عنه عبارته المشهورة: مرحباً بالزائر الذي لا يمل، ولم يقل هذه العبارة - كما يقول اللغويون - لأحد غيره مما يدل على علو كعبه في نظر أستاذه.

ولطول الصحبة التي لا تمّ تلقى سيبويه عن أستاذه الخليل معظم ما في الكتاب، قال السّيرافي: «دعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكل ما قاله سيبويه: «وسألت» أو «قال» من غير أن يذكر قائله فهو الخليل»^(٤).

(١) نشأة النحو/ ٦٨.

(٢) انظر كتابي الحلقة المفقودة/ ٣٨٤ فقد تناولت هذه الموضوعات بأمثله من كتاب سيبويه لا داعي لتكرارها مرة أخرى.

(٣) سيبويه إمام النحاة/ ١٠٢.

(٤) أخبار النحويين البصريين/ ٣١.

وقد تكرر ذكر الخليل في كتاب سيويه ٥٢٣ مرة^(١).

ومكانة الخليل في اللغة والنحو هي التي دعت سيويه إلى أن يطيل صحبته ويتفجع بعلمه، ويشرب من معينه، ويغوص في بحره، فالخليل أبو عبدالرحمن بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة خمس وسبعين ومائة^(٢)، كان آية في الذكاء، وكان الناس يقولون: لم يكن في العربية بعد الصحابة أذكى منه^(٣).

ومن أدب سيويه مع أستاذه الخليل أنه: «إذا روى عن الخليل، وبداله أن يبدى رأياً بعد رأيه قال: وقال غيره ولم يصرح باسمه إجلالاً لشيخه أن يذكر اسمه مع اسمه في مجال الرأي وحديث المعرفة^(٤)».

والمثال الواضح لهذه الحقيقة قول سيويه:

«وسألت الخليل عن قوله:

الأ رجلاً جزاه الله خيراً يدل على محصلة تبيتُ

فزعم أنه ليس على التمني، ولكنه بمنزلة قول الرجل: فهلاً خيراً من ذلك كأنه قال: ألا ترونني رجلاً جزاه الله خيراً.

وأما يونس فزعم أنه نون مضطراً، وزعم أن قوله: «لا نسب اليوم ولا خلة» على الاضطرار، وأما غيره فوجهه على ما ذكرت لك، والذي قال مذهب^(٥).

هؤلاء النحاة القدامى الذين أخذ عنهم سيويه بواسطة، والنحاة الأساتذة الذين أخذ عنهم سيويه مباشرة بدون واسطة كانوا من المصادر التي اعتمد عليها سيويه في تأليف كتابه.

وهناك رواية ساقها ابن النديم في الفهرست أرى من الضروري أن أعرضها للمناقشة في هذا الموقف، لأنها تتعلق بمصادر النحو في كتاب سيويه وقبل أن نعلق على هذه الرواية نذكرها كما وردت في كتاب الفهرست:

(١) أنظر سيويه إمام النحاة / ١٠٢.

(٢) بغية الوعاة / ١ / ٥٦١.

(٣) المصدر نفسه / ٥٥٨.

(٤) سيويه إمام النحاة / ٩٢.

(٥) سيويه ٢ / ٣٠٨.

قال ابن النديم: «قرأت بخط أبي العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيويه اثنان وأربعون إنساناً منهم سيويه والأصول والمسائل للخليل»^(١).

وقد لفتت هذه الرواية نظر أستاذنا على النجدي. فأنكرها من أساسها مبنياً أنها رواية كاذبة، وقصة خاطئة، ونسيج مزور، وبنى أستاذنا هذا الإنكار على الخصومة المذهبية بين البصريين والكوفيين، فالرواية من صنع ثعلب وهو إمام من أئمتهم، وركن من أركانهم.

قال أستاذنا ما نصه معلقاً على هذه الرواية: «ونلاحظ أن صاحب الخبر هو ثعلب، يرده الرواة إليه ولا نعرفه لغيره، وهو من نحاة الكوفة ونلاحظ كذلك أننا إذا أخرجنا سيويه من عدة أعضاء هذه الشركة بقي منهم واحد وأربعون، ورقم الأربعين من الأرقام التي تشيع قديماً وحديثاً في الحرفات ذات الأعداد، ثم من هؤلاء الأربعة أو الأحد والأربعون؟ أما يعرفهم ثعلب أو يعرف بعضهم؟ وماله لا يذكر أسماءهم أو أسماء من يعرف منهم، فتتضح الحقيقة، ويكون الناس على بينة من الأمر»..

إلى أن يقول: «فأنت من حيث نظرت إلى هذه القصة لا ترى إلا شكاً وغمطاً، وما أراك ملوماً ولا متحيراً إذا عددتها مثلاً من أمثلة المنافسة والعصية في الصناعة»^(٢).

وعلى حين يرى أستاذنا النجدي خرافة هذه الرواية، وأنها كاذبة يرى أستاذنا المرحوم عبدالسلام هارون غير ذلك، ويرى أن رواية الفهرست تعنى عظم قدر الكتاب وخطورته في ميدان الحقل اللغوي والنحوي، وأنه حصيلة جهود سبقت، وآراء تقدمت، وأفكار تابعت، وأن سيويه انتفع بكل هذه الجهود التي يمثلها العدد الكثير الذي أفاد منه سيويه، يقول أستاذنا هارون ما نصه:

«وليس يعني هذا النص إلا أن سيويه انتفع بجهود النحويين قبله الذين بلغ تعدادهم هذا القدر.

وهذا النص الذي قد يشعر بتنقص سيويه إنما يُعبّر عن حقيقة علمية حتمية. وهي أن كتاب سيويه إنما هو لقاح جهود النحاة الذين سبقوه، إذ لا يعقل أن يتبدى سيويه هذا العلم

(١) الفهرست / ٥١.

(٢) سيويه إمام النحاة / ١٣٣ - ١٣٥.

المتكامل من تلك الجهود الأصيلة التي رسمت كثيراً من أصول النحو ومسائله ومقاييسه وعلله»^(١).

وفي رأبي بعد مقارنة هذين التعليقين أن تعليق أستاذنا عبدالسلام هارون أقرب إلى الصواب من تعليق أستاذنا على النجدي.
إنه ليس من طبائع الأشياء أن يقوم سيويه وحده بهذا العبء النحوي الذي تنوء به الجبال، والممثل في الكتاب.

وقد لفت نظري أن هذا الكتاب العملاق لا يمكن أن يلد عملاقاً، لأن سنة الحياة في كل موجوداتها أن تبدأ هذه الموجودات صغيرة ثم تنمو شيئاً فشيئاً وتكبر حيناً بعد حين حتى تستغلظ وتستوى على سوقها، فكتاب سيويه سبقته جهود جبارة ابتداء من أبي الأسود وانتهاء بالخليل ومن أجل ذلك عشت في الحقل النحوي لهذه الفترة من التاريخ متبوعاً رجال اللغة والنحو، مستقصياً آثارهم، باحثاً عن آرائهم حتى وفقت بحمد الله تعالى في تأليف كتاب خاص بهذه الفترة، سميته «الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي»^(٢).

هذه ناحية وناحية أخرى وهي: ما الذي يحمل ثعلب على الكذب والافتراء على كتاب تم ميلاده، وكمل وجوده؟، في رأبي أن الفخر بالكتاب كان وراء هذه الرواية إن صدق صدورها عن ثعلب، وتفسيرها في باب الافتخار بالكتاب أحسن في باب الظن من تفسيرها في باب الخصومة والكذب والتنافس، وفضلاً عن ذلك فإن ثعلباً وصفه المؤرخون اللغويون بأنه ثقة^(٣) ومما يدل على الثقة فيه أنه كان لا يفتي إلا بعلم، وإذا سئل عن شيء لا يعرفه قال: لا أدري. وهذا لا شك خلق العالم الثبت الذي تعنيه الحقيقة العلمية أكثر مما تعنيه الحظوظ النفسية.

وخير مثال تؤيد به هذا القول ما ذكره أبو عمر الزاهد حيث قال: «سئل ثعلب عن شيء فقال: لا أدري، فقيل له: أتقول: لا أدري، وإليك تضرب أكباد الإبل من كل بلد؟ فقال: لو كان لأملك بعدد ما لا أدري بعمر لاستغنت»^(٤).

(١) كتاب سيويه، مقدمة التحقيق / ٢٤.
(٢) طبع بمؤسسة الوحدة للنشر في الكويت طبعة أولى، وطبع طبعة ثانية في دار الرسالة ببيروت في نسخة محققة مزيدة.
(٣) البغية / ١ / ٣٩٧.
(٤) البغية / ١ / ٣٩٧.

ج. المؤلفات التي ظهرت قبل سيبويه؛

الطريق الثالث لمصادر الكتاب هو الاقتباس أو الاعتماد على بعض المؤلفات التي ظهرت قبله.

وقد بينت فيما سبق أن السيوطي في (المزهر) ذكر عند حديثه عن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه «سمع من الفراء والأموي والأحمر وأبي عمرو بن العلاء، وذكر أهل البصرة أن أكثر ما يحكيه من علمائهم من غير سماع إنما هو من الكتب»^(١).

واضح إذًا من هذا النص أنه إلى جانب طريقة الأخذ بالسماع توجد طريقة أخرى وهي الأخذ من الكتب في حالة فقدان السماع، وسيبويه سار على هذا الدرب، ونسج على هذا المنوال، فإلى جانب المصادر العلمية المتمثلة في النحويين القدماء، وأساتذته المعاصرين كان يعتمد على النقل من المؤلفات السابقة، وإن لم يشر إليها، وبخاصة كتب عيسى بن عمر.

والأخذ عن عيسى بن عمر قضية تناولتها بالتفصيل في كتابي «الحلقة المفقودة» ونجمل في هذا الموضع القول فيها حباً في الاختصار، وإشاراً للإيجاز، لأنها قضية متفرعة أخذت من حجم كتابي الحلقة المفقودة حيزاً كبيراً.

هل سيبويه أخذ عن عيسى بن عمر وتعلمذ عليه؟

معظم المصادر التاريخية تثبت هذه الحقيقة.

وعلى الرغم من إيماني بهذه الحقيقة فإن هناك سحجاً من الشك حول هذا الأخذ، تحتاج إلى ضوء كاشف يضع النقاط على الحروف، أو بعبارة أخرى يضع يدنا على الحقيقة البلقاء.

وقد قام في ذهني أن أبحث عن المدة الزمنية التي انتفع فيها سيبويه بأستاذه عيسى، لنعرف إلى أي مدى تأثر به، وأفاد منه؟

ولما رجعت إلى سنوات الوفاة التي حددتها كتب الطبقات لعيسى وسيبويه راعني أمر لم يتنبه إليه أحد من الباحثين قديماً أو حديثاً فيما أعلم اللهم إلا ياقوت الحموي في معجم الأدباء، أقول ذلك لأنني كنت أعتقد أنني لم أسبق بهذا الرأي، فسرعان ما تبدد هذا الفخر حينما علمت أن ياقوتاً راعه ما راعني من هذه القضية.

(١) المزهر ٢/٤١٢.

ولبيان ذلك أقول: معظم الرواة يحدّدون وفاة عيسى فى سنة ١٤٩ هـ ووفاة سيّويه فى سنة ١٨٠ هـ

وفى رواية أن عمره إذ ذاك ٣٢ سنة، وفى رواية أخرى أنه مات، وقد نيف على الأربعين. فعلى الرواية التى تنص على أنه مات وعمره ٣٢ سنة نستطيع أن نقول: إنها مستحيلة، لأن عمر سيّويه حينما مات عيسى على هذه الرواية كان عاماً واحداً ومن البدهيّ السكوت عن التعليق عليها.

ويميل ياقوت فى معجم الأدباء إلى الرواية الثانية التى تنص على أنه مات وقد نيف على الأربعين، والنيف: هو كل ما زاد على العقد حتى يبلغ العقد الثانى، أى أنه من الممكن أن تكون سنة عند وفاة عيسى ١٢ عاماً تقريباً ولنترك ياقوت ليعرض علينا رأيه فى هذه القضية، قال ما نصه:

«قال المرزبانى»: مات بشيراز، وسنه ثمانون ومائة، وذكر الخطيب أن عمره كان اثنتين وثلاثين سنة، ويقال إنه نيف على الأربعين سنة وهو الصحيح، لأنه روى عن عيسى بن عمر، وعيسى بن عمر مات سنة تسع وأربعين ومائة، فمن وفاة عيسى إلى وفاة سيّويه إحدى وثلاثون سنة، وما يكون قد أخذ عنه إلا وهو بعقل، ولا يعقل حتى يكون بالغاً، والله أعلم^(١).

والذى أميل إليه، لأنه يريح عقلى، ويطمئن نفسى هو ما ذكره معظم الرواة من أن سيّويه مات سنة ١٨٠ هـ كما أننى استريح أيضاً إلى الرواية التى استراح إليها ياقوت، وهى أنه قد مات، وقد نيف على الأربعين سنة لأن عمره إذ ذاك يكون اثنتى عشرة سنة تقريباً، عند وفاة عيسى أو تزيد، وهو عمر يتيح إليه أن يجلس فى مجالس العلماء، ويستمع إليهم، ويأخذ عنهم، وبخاصة إذا علمنا أنه رحل إلى بغداد ليناظر شيخاً من شيوخها، وهو الكسائى ولن يرحل إلا إذا كان قديراً على المهمة التى ندب من أجلها^(٢).

بعد هذا العرض فى تحقيق سن سيّويه عندما رحل إلى عيسى بن عمر للأخذ عنه، أقول:

(١) معجم الأدباء ١٦/١١٥.

(٢) انظر كتاب الحلقة المفقودة للباحث ١٧٦ - ١٧٧.

إنه أخذ عن عيسى فى سن مبكرة، وحمل عنه كتابه (الجامع) الذى لم تؤهله سنة الصغيرة لفهمه، فكان يقرؤه على أستاذه الخليل ليين له غموضه، ويكشف له عن عويصه، ولا أدلّ على ذلك من رواية القفطى إذ يقول: «وإنه لما أحضره (أى الجامع) إلى الخليل بن أحمد ليقرأه عليه عرفه الخليل»^(١).

وبالإضافة إلى ما سبق فإن تعبير سيويه فى الكتاب بقوله:

«وكان عيسى يقول، أو يقرأ يشير إلى ما أفاده سيويه من كتاب عيسى بن عمر، لأن تسجيل قول عيسى فى بعض القضايا النحوية، أو تسجيل قراءة له فى مجال القراءات القرآنية يدل على أن سيويه استقى هذه النصوص من كتابه وأبرز إشارة إلى هذا هو التعبير بـ «كان» التى تدلّ على الماضى، ولو أخذ عيسى هذه النصوص منه مشافهة أو تلقاها واسطة لما عبّر عنها بقوله: «وكان عيسى»^(٢).

هذه هى مجمل المصادر التى تكون فى ضونها كتاب سيويه.

مادة الكتاب:

أما مادته فقد تعرّض لها بالتحليل والدراسة أستاذنا على النجدى بقوله: «والكتاب يشترع العربية، فى طورها الجديد، ويقمى المعالم التى تهدى إلى حقيقتها، وتعين على حمايتها، وينفى الزيف عنها حتى لا يطفئ عليها، ويغير من خصائصها فى الحاضر أو فى المستقبل القريب أو البعيد، فلذلك فهو دراسة واسعة فى النحو والصرف، أى فى أساليب العربية، وبنية مفرداتها، ويعتمد فى مادته على:

أ - عبارات مروية، وغير مروية.

ب - مفردات عربية وأخرى أعجمية.

ج - مسائل مفترضة قيست على نظائر لها فى اللغة.

د - شواهد من القرآن وأخرى من الشعر والرجز»^(٣).

(١) إنباه الرواة ٢ / ٢٧٥.

(٢) انظر سيويه ١ / ٣٩٨، ٢ / ٢٠٢.

(٣) سيويه أيام النحاة / ١٤٢.

أسلوبه:

وأما أسلوبه، فقد وصفه ابن كيسان بأن فيه الغموض بالنسبة لأهل غير زمانه، أما أهل زمانه فإنه بالنسبة لهم واضح فى ألفاظه، وسهل فى معانيه.

يقول البغداديّ فى الخزانة: «وقال ابن كيسان: نظرنا فى كتاب سيويه فوجدناه فى الموضوع الذى يستحقّه، ووجدنا ألفاظه تحتاج إلى عبارة وإيضاح، لأنه كتاب ألف فى زمان كان أهله يألفون مثل هذه الألفاظ، فاختصر على مذاهبهم.

قال أبو جعفر: ورأيت على بن سليمان يذهب إلى غير ما قال ابن كيسان قال: عمل سيويه كتابه على لغة العرب، وخطبها وبلاغتها، فجعل فيه بيناً مشروحاً، وجعل فيه مشتبهاً، ليكون لمن استنبط ونظر فضل، وعلى هذا خاطبهم الله عز وجل بالقرآن.

ويميل أبى جعفر إلى رأى على بن سليمان مبيّناً أن «هذا الذى قاله على بن سليمان حسن، لأنه بهذا يشرف قدر العالم، وتفضل منزلته، إذ كان ينال العلم بالفكرة، واستنباط المعرفة، ولو كان كله بيناً لاستوى فى علمه جميع من سمعه، فيبطل التفاضل، ولكن يستخرج منه الشىء بالتدبير، ولذلك لا يميل، لأنه يزداد فى تدبره علماً وفهماً»^(١).

على أن الكتاب اشتمل على بعض العبارات الغامضة التى وقف جهابذة النحو أمامها حيارى، لا يستطيعون كشف غموضها، وتوضيح مبهمها، ومن هذه العبارات الغامضة ما ذكره المازنى حيث يقول: «سألت الأخفش عن حرف رواه سيويه عن الخليل فى «باب من الابتداء يضم فى ما بنى على الابتداء» وهو قوله: «ما أغفله عنك شيئاً، أى دع الشك» ما معناه؟

قال الأخفش: أنا منذ ولدت أسأل عن هذا.

وقال المازنى: سألت الأصمعى، وأبا زيد، وأبا مالك عنه، فقالوا: ما ندرى ما هو؟

فقال السيرافى: لم يفسر هذا الحرف فيما مضى إلى أن مات المبرد. وفسره أبو إسحاق الزجاج بعد ذلك فقال: معناه على كلام تقدّم، كأن قائلًا قال: ليس «زيدٌ بغافل»، فقال المجيب:

(١) الخزانة ١/ ٣٧١ - ٣٧٢ تحقيق هارون.

بل ما أغفله عنك، انظر شيئاً، أى تفقد أمرك، فاحتج به على الحذف، يريد حذف (انظر) الناصب شيئاً»^(١).



تلمذة كبار النحويين على سيبويه من طريق كتابه:

ولقيمة الكتاب ومكانته فى نفوس كبار النحويين المعاصرين، والذين جاءوا من بعدهم أقبلوا عليه دارسين وباحثين، ليشربوا من معينه الفياض وينهلوا من علمه الغزير.

فمن المعاصرين لسيبويه الذين تتلمذوا على كتابه:

١ - الكسائى: أبو الحسن على بن حمزة إمام مدرسة الكوفة، والمتوفى سنة ١٨٣ هـ يخبرنا عن هذه التلمذة أبو الطيب اللغوى فيقول فى رواية مسلسلة: أخبرنا أبو نصر الباهلى قال: حمل الكسائى إلى أبى الحسن الأخفش خمسين ديناراً، وقرأ عليه كتاب سيبويه سرّاً»^(٢).

ويؤكد هذا الأخذ السيرافى فى روايته التى نقلها سلمة حيث قال: «حدثنى الأخفش، قال جاء الكسائى إلى البصرة، فسألنى أن أقرأ عليه، أو أقرئه كتاب سيبويه، ففعلت فوجه إلى خمسين ديناراً»^(٣).

٢ - أبو نواس: أبو على الحسن بن هانئ الشاعر المتوفى ١٩٨ هـ ومع أنه اشتهر بالشعر، لكن كان له فى اللغة باع طويل، يدل على ذلك ما قاله الجاحظ عنه: ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبى نواس»^(٤).

ومما يدل على أنه تتلمذ على كتاب سيبويه وانتفع به ما ذكره ابن الأنبارى فى (نزهة الألباء) أنه نظر فى نحو سيبويه»^(٥).

٣ - أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ. فقد قرأ كتاب سيبويه، وانتفع به.

(١) تأويل مشكل القرآن / ٦٥.

(٢) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى / ٧٤.

(٣) أخبار النحويين البصريين / ٤٠.

(٤) نزهة الألباء / ٧٧/٢.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

وصاحبه مصاحبة الصديق حتى لا يستطيع الفكاك منه فقد قالوا: «مات الفراء وتحت رأسه كتاب سيبويه»^(١).

٤ - أبو زيد الأنصاري: محمد بن يزيد سعيد بن أوس الأنصاريّ من الخزرج وكان يقال له زيد النحوي. توفى سنة خمس عشرة ومائتين، وقيل أربع عشرة وقيل ست عشرة بالبصرة^(٢).

ويروى أبو الطيب: أن المازني قال: «كُلّ ما في كتاب سيبويه من قوله: أخبرنا الثقة، وسمعت من أثق به فهو عن أبي زيد»^(٣). وعلى الرغم من أن سيبويه أخذ عن أبي زيد، فإن أبا زيد نفسه قرأ الكتاب ونظر فيه، يدلّ على ذلك ما أخبر به الجرميّ قال: «نظر أبو زيد في كتاب سيبويه، فقال: قد أكثر هذا الغلام الحكاية إن كان سمع، فقلت له: قد روى عنك شيئاً كثيراً، فهل صدق فيه؟ قال: نعم، فقلت: فصدّقه فيما روى عن غيرك»^(٤)، هذا وقد عمر أبو زيد طويلاً فقد توفى عن ٩٣ سنة بالبصرة^(٥).

أمّا قراء الكتاب والمتفعمون به من الطبقة التالية لطبقة سيبويه فهم كثيرون نذكر منهم ما يلي:

١ - الجرمي: صالح بن إسحاق أبو عمر الجرّمى المتوفى ٢٢٥ هـ.

والجرميّ كما يقول السيوطي في (البغية): «انتهى إليه علم النحو في زمانه»^(٦) والجرميّ «قرأ كتاب سيبويه على الأخفش، ولم يلق سيبويه»^(٧) ويبدو أن هذه القراءة كانت قراءة تدبر ونقد، فقد ذكر السيوطي في (البغية) أن من مؤلفاته كتاب (غريب سيبويه)^(٨).

٢ - أبو حاتم السجستاني: سهل بن محمد المتوفى سنة ٢٥٠ أو ٢٥٥، وقيل: غير ذلك^(٩).

قال أبو العباس عنه: «وسمعه يقول: «قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين»^(١٠).

٣ - الميرد: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس المتوفى ٢٨٦ هـ. وقد تتلمذ الميرد على سيبويه من طريق كتابه. قال الزبيدي: «كان أبو العباس لا يقرئ أحداً كتاب سيبويه

(٢) بغية الوعاة ١ / ٥٨٢.

(٤) المصدر نفسه / ٧٦.

(٦) البغية ٢ / ٨.

(٩) البغية ١ / ٦٠٦.

(١) مراتب النحويين / ٨٧.

(٣) مراتب النحويين / ٨٦.

(٥) البغية ١ / ٥٨٣.

(٧) أخبار النحويين البصريين / ٥٦.

(٨) البغية ٢ / ٩.

(١٠) أخبار النحويين البصريين / ٧٠.

حتى يقرأه على إبراهيم [ابن السرى الزجاج] ويصحح به كتابه، فكان ذلك أول رياسة أبى إسحق.

وقرأ أبو العباس ثلث كتاب سيويه على الجرمي، وتوفى الجرمي فابتدأ قراءته على المازني^(١).

٤ - محمد بن موسى بن هاشم المعروف بالإفشين القرطبي المتوفى ٣٠٩ هـ . رحل إلى المشرق، ولقى بمصر أبا جعفر الدينوري، وأخذ عنه كتاب سيويه رواية^(٢).

٥ - أبو الطيب عبدالواحد اللغوي المتوفى سنة ٣٥١ هـ صاحب كتاب (مراتب النحويين) قال: «وقد رأيت أنا أجزاء كثيرة من كتاب سيويه خمسين مرة»^(٣).

٦ - من أشهر العلماء المتأخرين الذين صاحبوا كتاب سيويه مصاحبة جادة، حيث عاشوا في محرابه: الحسن بن عبدالله بن المرزبان القاضي أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ هـ. فقد شرح السيرافي كتاب سيويه شرحاً لم يسبق إلى مثله وحسده عليه أبو علي الفارسي وغيره من معاصريه^(٤).

محاولة سرقة كتاب سيويه:

قصة لطيفة ساقها ابن الأنباري في ترجمة أبى الحسن الأخفش، وهي تدور حول محاولة الأخفش سرقة كتاب سيويه، وادعائه له، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة هذا الكتاب بين علماء عصره مما دفع أبو الحسن الأخفش أن يحقد على سيويه، ويعمل جاهداً على أن ينتزع الفضل منه، ويبدو أن هذا الادعاء لو تم ما عرف أحد ذلك، لأن سيويه لم يقرأ هذا الكتاب عليه أحد من العلماء، وما قرأه سيويه على أحد مما شجع الأخفش أن يظهر الكتاب باسمه، ولكن حال بينه وبين ذلك وقوف عالمن من علماء عصره - أمام هذه الرغبة الجامحة، وهما المازني والجرمي، وبذلا جهدهما في أن يبقى الكتاب لصاحبه لا يتنازعه فيه منازع.

والقصة بتمامها كما وردت في (نزهة الألباء) هي أن الطريق إلى كتاب سيويه هو الأخفش، «لأننا لم نعلم أحداً قرأ على سيويه، وما قرأه سيويه على أحد، وإنما لما توفى سيويه قرىء الكتاب على أبى الحسن الأخفش، وكان ممن قرأه عليه أبو عمر الجرمي، وأبو

(٢) البغية ١/ ٢٥٢.

(١) طبقات النحويين واللغويين / ١١٠.

(٤) البغية ١/ ٥٠٨.

(٣) مراتب النحويين / ٨٨.

عثمان المازني، ويقال: إن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لا نظير له في حسنه وصحته، وأنه جامع لأصول النحو وفروعه استحسنته كل الاستحسان، فيقال: إن أبا عمر الجرمي وأبا عثمان المازني - وكانا رفيقين - توهمًا أن أبا الحسن الأخفش قد همّ أن يدعى الكتاب لنفسه، فقال أحدهما للآخر: كيف السبيل إلى إظهار الكتاب، ومنع الأخفش من ادعائه؟ فقال له: نقرؤه عليه، فإذا قرأناه عليه أظهرناه، وأشعنا أنه لسبويه، فلا يمكنه أن يدعيه. وكان أبو عمر الجرمي موسراً وأبو عثمان المازني معسراً، فأرغب أبو عمر الجرمي أبا الحسن الأخفش، وبذل له شيئاً من المال على أنه يقرئه وأبا عثمان المازني الكتاب، فأجاب إلى ذلك، وشرع في القراءة عليه، وأخذ الكتاب عنه، وأظهر أنه لسبويه، وأشاعا ذلك، فلم يمكننا أبا الحسن أن يدعى الكتاب، فكانا السبب في إظهار أنه لسبويه، ولم يسند كتاب إليه إلا بطريق الأخفش، فإن كل الطرق تسند إليه^(١).

شواهد الكتاب الشعرية:

شواهد سيبويه من الشعر العربي قال عنها البغدادي في خزائنه ما نصه: «كانت أبيات سيبويه أصح الشواهد اعتمد عليها خلف بعد سلف.. وقد خرج كتابه إلى الناس، والعلماء كثير، والعناية بالعلم وتهذيبه وكيدة، ونظر فيه وفتش فما طعن أحد من المتقدمين عليه، ولا ادعى أنه أتى بشعر منكر»^(٢) وقد قمت بدراسة حول شواهد سيبويه من شعر المعلقات في كتاب سميت: «شواهد سيبويه من المعلقات في ميزان النقد»^(٣)، وقد ظهر لي من خلال هذه الدراسة اهتزاز رواية البغدادي في الخزائنه عن شواهد سيبويه، لأنه تبين لي بعد الدراسة والبحث أن شواهد المعلقات، وهي ما هي في مجال التوثيق والرواية لم يثبت معظمها في مجال النقد، فكيف بالشواهد الأخرى من الشعر الجاهلي ومن غيره؟.

وبعد، فلعلى بهذه الدراسة أثرت الطريق للباحثين والدارسين في تطور الحركة النحوية منذ عصر أبي الأسود الدؤلي إلى عصر سيبويه في ضوء المؤلفات أو المصنفات التي كانت بحق على درجة كبيرة من التطور النحوي، وقد تجمعت طرقها المختلفة، وشعابها المتعددة في كتاب سيبويه الخالد.



(١) نزهة الألباء / ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) خزائنه الأدب للبغدادي ٨/١.

(٣) طبع ونشر مؤسسة الرسالة - بيروت / ١٩٨٨.

المصادر والمراجع

- (١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي، تحقيق طه محمد الزيني طبع مصطفى الحلبي - القاهرة.
- (٢) إنباه الرواة للقطبي، تحقيق محمد أمي الفضل - طبع دار الكتب المصرية.
- (٣) الإيضاح في علل النحو للزجاجي، تحقيق د. مازن المبارك - طبع دار النفائس - بيروت.
- (٤) بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق محمد أمي الفضل طبع عيسى البابي الحلبي.
- (٥) البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز ابادي، تحقيق محمد المصري طبع جامعة دمشق.
- (٦) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار - دار المعارف بمصر.
- (٧) تاريخ آداب العرب للرافعي - مطبعة الاستقامة.
- (٨) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي - مطبعة السعادة.
- (٩) تاريخ الفلسفة الإسلامية لـ (ت - دي - بور) ترجمة د. محمد عبدالهادي أبو ريدة.
- (١٠) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة. تحقيق السيد أحمد صقر - دار إحياء الكتب العربية - مصر.
- (١١) تحقيق النصوص للأستاذ عبدالسلام هارون - مؤسسة الحلبي - القاهرة.
- (١٢) تفسير القرطبي. دار الكتب المصرية.
- (١٣) الجمل للخليل بن أحمد، تحقيق فخر الدين قباوة - مؤسسة الرسالة - بيروت.
- (١٤) الحضارة الإسلامية لفون كريم، تعريب مصطفى بدر - دار الفكر العربي.
- (١٥) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي د. عبدالعال سالم مكرم - مؤسسة الوحدة بالكويت، وطبعة ثانية - دار الرسالة - بيروت.
- (١٦) خزانة الأدب للبغدادي، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون طبع الخانجي.
- (٢٠) الخصائص لابن جني، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار - طبع دار الكتب المصرية.
- (٢١) ابن درستويه لعبدالله الجبوري - مطبعة العاني - بغداد.
- (٢٢) درة الفواص للحريزي - مكتبة المثنى ببغداد.

- (٢٣) سيويه إمام النحاة لعلى النجدى - عالم الكتب بمصر.
- (٢٤) ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين - دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان.
- (٢٥) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى، تحقيق محمد أبى الفضل - القاهرة.
- (٢٦) الفهرست لابن النديم - المطبعة الرحمانية بمصر.
- (٢٧) كتاب سيويه، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون - مكتبة الخانجى بمصر.
- (٢٨) كنز العمال فى سنن الأقول والأفعال لعلاء الدين بن حسام الهندى مطبعة دائرة المعارف بالهند.
- (٢٩) مجالس العلماء للزجاجى، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون - وزارة الإرشاد بالكويت.
- (٣٠) المدارس النحوية للدكتورة شوقى ضيف - دار المعارف بمصر.
- (٣١) المدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديشى - طبع جامعة بغداد.
- (٣٢) المذكر والمؤنث لابن الأنبارى، تحقيق طارق عبد عون الجنايبى - دار البيان العربى - السعودية.
- (٣٣) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى، تحقيق محمد أبى الفضل، مطبعة مصر.
- (٣٤) المزهر للسيوطى، تحقيق محمد أبى الفضل، طبع عيسى البابى الحلبي.
- (٣٥) معجم الأدياء لياقوت - دار المستشرق - بيروت - لبنان.
- (٣٦) مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده - دائرة المعارف النظامية - الهند.
- (٣٧) نزاهة الألباء لابن الأنبارى، تحقيق محمد أبى الفضل - دار نهضة مصر - القاهرة.
- (٣٨) نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوى - طبع مصر.
- (٣٩) همع الهوامع للسيوطى الجزء الأول، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون، ود. عبدالعال سالم مكرم، وبقية الأجزاء بتحقيق الثانى دار البحوث العلمية - الكويت، ودار الرسالة - بيروت.
- (٤٠) يونس للدكتور حسين نصار طبع وزارة الثقافة بمصر.



١٦. الدلالة التاريخية واللغوية

لكلمة (عَرَب) (١٠)

حينما نصف النحو أو اللغة بكلمة «عربي» في قولنا: النحو العربي أو بكلمة «عربية» في قولنا: اللغة العربية يتبادر إلى ذهننا من أول وهلة سؤال يراود أفكارنا وهو: ما معنى كلمة عربي؟ ما أصلها؟ ما دلالتها؟ كيف نشأت؟ كيف تطورت؟ ومن طبيعة الباحث اللغوي أو النحوي أن يسأل عن حقائق الأشياء، وأن يحاول أن يكشف عن معاني المسميات، ولا أدل على ذلك من هذه القصة اللطيفة فـ «عن أبي حاتم، قال: سألت الأصمعي لم سميت منى مني؟ قال: لا أدري. فلقيت أبا عبيدة فسألته فقال: لم أكن مع آدم حين علمه الله الأسماء، فأسأله عن اشتقاق الأسماء، فأتيت أبا زيد فسألته، فقال: سميت منى لما يبنى عليها من الدماء» (١).

وقصة أخرى ساقها ابن خالويه في «شرح الدرديدي» حيث قال: «سمعت ابن دريد يقول: سألت أبا حاتم عن «ثادق» اسم فرس من أي شيء اشتق؟ فقال: لا أدري، فسألت الرياشي عنه، فقال: يا معشر الصبيان، إنكم لتعمقون في العلم؟ فسألت أبا عثمان الأشناداني عنه فقال: يقال: ثدق المطر: إذا سال وانصب فهو ثادق، فاشتقاقه من هذا» (٢).

هاتان القصتان اللتان ساقهما المزهري بينان في وضوح أن هذه الأسماء ما وضعت اعتباراً، ولا قيلت ارتجالياً، وإنما وراءها أسباب يسأل عنها، واشتقاقات يبحث عن حقيقتها، وأن إجابة أبي عبيدة لمن سأله: «لم أكن مع آدم حينما علمه الله الأسماء» إجابة غير مقنعة في باب العلم والمعرفة.

وتردد ألسنتنا كلمة «عرب» صباح مساء، نقول: نحو عربي، ولغة عربية وقرآن عربي، وشعب عربي، ومجد عربي، ومع ذلك فالكثير منا يجهل أصل هذه التسمية، ولهذا رأيت لزماً على ما دمت أقدم هذا البحث للقراء أن أميط اللثام، وأكشف الغطاء، وأوضح الموقف، لتجلى حقيقة هذه الكلمة، ونعرف أصلها الاشتقاقى، ومدلولاته وتطوراته.

(*) نشر في كتاب: «بحوث في اللغة والأدب صدر سنة ١٩٨٧ بمناسبة مرور عشرين سنة على تأسيس قسم اللغة العربية.

(٢) المزهري ١/ ٣٥١.

(١) المزهري ١/ ٣٥١، ومعنى يبنى عليها: يراق عليها.

الأصل التاريخي لكلمة «عرب»

رأي الدكتور عمر فروخ عضو المجمع اللغوي بالقاهرة:

يرى الدكتور عمر فروخ أن كلمة «عرب» لاتدل على معنى قومي يتصل بالجنس أو بالجماعة الموحدة، ويكشف السبب عن ذلك بأن الجاهليين قبل الإسلام كانوا غارقين في منازعاتهم القبلية فلم يكن لديهم فيما لدينا من التراث اللغوي ما يدل على المدرك القومي الجامع، ولكن لما وقف الجاهليون في أعقاب العصر الجاهلي وجهاً لوجه أمام الفرس على حدودهم الشرقية، ثم كرهوا الحكم الفارسي الذي كان قد استطال في شبه الجزيرة بدءوا يستشعرون شيئاً من البغض للفرس، وشعر عترة بهذا البغض فقال في معلقته عن ناقته:

شربت بماء الدحْرُضَيْنِ فأصبحت زوراءَ تنفر عن حياض الديلم^(١).

إن عترة قد أحس بالدافع القومي الجامع، ولكن لم يجد الكلمة التي تعبر عنه فاضطر إلى أن يدور حول المعنى بيت كامل من الشعر^(٢).

وخلاصة رأي الباحث أن «الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا لا نجد فيه صيغة من جذر (ع - ر - ب) للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس، ولا على معنى يتعلق باللغة التي نتكلمها.

وقد وصل الأمر بعنترة الشاعر أنه بحث عن الكلمة التي تعبر عما يجيش في نفسه من الجنس الذي ينتمى إليه ضد أعدائه الفرس، فقال بيته، وحوم حول المعنى، ولم يهتد إلى اللفظة الجامعة الدالة للفظه الجنس العربي، أو العرب.

على أن الدكتور عمر فروخ بعد نفيه هذا الجذر العربي في الشعر الجاهلي بين أن القرآن الكريم «لم يرد فيه الجذر (ع - ر - ب) إلا في ثلاث صيغ وهي «عرباً» جمع «عروب» بفتح العين نعتاً للمرأة المتحبة لزوجها في قوله تعالى ﴿عَرَبًا أْتْرَابًا﴾^(٣) ثم جاءت الصيغة «أعراب» عشر مرات في سور مدنية فقط، منها ست مرات في سورة التوبة وحدها.

(١) الدحرضين: ماء أو بلد، وقيل: هما ماءان، وزوراء: مائلة من النشاط، والديلم: الأعداء. وانظر ديوان عترة وهامشه / ١٥٨.

(٢) انظر البحوث والمحاضرات (مؤتمر ١٩٦١-١٩٦٢) ص ٢٦٣ - ٢٦٥. مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(٣) الواقعة / ٣٧.

أما الكلمة الفاصلة في هذا الشأن فهي كلمة: «عربي» التي وردت في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة في سور مدنية وفي سور مكية أيضاً.

ويحاول الباحث أن يبين أن هذه الكلمة وهي «عربي» لاتعني الجنس ولا الشعب. وإنما تعني شيئاً واحداً فقط هو وصف اللغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة بينة (١). ومعنى ذلك أن كلمة عربي تعني الإبانة والوضوح ولاتعني الجنس أو الشعب أو القوم.

مناقشة هذا الرأي:

الواقع أن حكم الدكتور فروخ بأن جذر كلمة (عرب) لم يقع في الشعر الجاهلي فهذا حكم يجانبه الصواب، ولايستطيع أحد أن يحكم هذا الحكم إلا إذا استوعب الشعر الجاهلي بأكمله وهذا أمر متعذر فما ورد إلينا من الشعر الجاهلي قليل من كثير وغيبض من فيض.

ومع ذلك فإن هذا الشعر القليل ورد فيه هذا الجذر في شعر النابغة الذبياني وهو شاعر من قمم شعراء الجاهلية، ففي قصيدته التي يمدح فيها النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبى حينما أغار على بنى ذبيان، وسى «عقرب» ابنة النابغة، فسألها: من أنت؟ فقالت: أنا بنت النابغة، فقال: والله ما أحد أكرم علينا من أهلك، ولا أنفع لنا منه عند الملوك، فجهزها وخلأها. أقول: في هذه القصيدة ورد جذر كلمة «عرب»، وهي قصيدة مشهورة مطلعها:

أهاجك من سعداك مغنى المعاهد بروضة نعى فذات الأسود
إلى أن قال:

عهدت بها سعدى وسعدى غريرة عروب تهادى فى حوار خرائد (٢).

وكلمة «عروب» فى البيت تغنى أنها مزاحة متحبية.

ووردت كلمة: «عرب» فى شعر النابغة أيضاً، فى قصيدته التى مطلعها:

وفوقهم دروع سابقات وتحتهم المقلمة العراب (٣).

والخيول المقلمة: هى التى علق عليها صوف ملون فى الحرب، والعراب: الخيول الكريمة.

(١) المرجع نفسه والصفحة.

(٢) انظر ديوان النابغة الذبياني / ٩٠ تحقيق محمد الطاهر بن عاشور. نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر.

(٣) انظر النابغة الذبياني، دراسة لغوية للأستاذ عاهد الماضى رسالة ماجستير مخطوطة ص ١١٠ مخطوطة بجامعة الكويت، وروى المعلمة بالعين.

ولو تبسنا شعراء العرب في العصر الجاهلي لطالعنا جذور هذه الكلمة في كثير من القصائد.

وما لى أذهب بعيداً وقد وجهت عدة نقود من بعض أعضاء المجمع اللغوى لهذا الرأى.

نقد الدكتور عوض محمد عوض:

والدكتور عوض جغرافى مؤرخ يعرف كيف يضع الأمور فى نصابها، واستطاع أن يضع النقاط على حروفها فى هذه القصة، فوضح بما لا يدع مجالاً للشك « أننا لانتظر أن تكون الجزيرة العربية منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد مهذاً للروح القومية كما نفهمها الان، لأن الروح القومى هذه شيء جديد، لذلك يجب علينا أن نضع المسائل فى نطاقها المعقول ، فلم تكن هناك قومية عربية منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد.. إلى أن يقول: وكنت أود أتبع ورود اسم «عرب» فى التاريخ سواء أكان عند قدماء الفرس أم المصريين، والأصح أننا نجدها عند قدماء المصريين، لأنهم كانوا يسجلون معلوماتهم أولاً بأول».

ثم يقول: «وعلى ما أذكر أنه فى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد ورد اسم (أرب) أو (آرف) فى النصوص المصرية القديمة، فاللغة العربية والثقافة العربية قديمة وعريقة، وكلمة «عرب» ربما كانت اسماً لشعب كان ظهر وقوى واشتد فى فترة من الزمان، فأصبح اسمه هو السائد ، وله الفضل فى نشر العروبة فى آسيا وأفريقية».

رأى الدكتور مراد كامل:

ذكر أن كلمة «عرب» أو «آرف» معروفة عند الآشوريين، وفى عصر متأخر سموا الطائين عند الآراميين».

رأى الاستاذ عبد الله كنون:

ناقش الدكتور عمر فروخ فى أن اسم العرب لم يظهر إلا عند ظهور الإسلام فى آخر عصر الجاهلية، ولفت نظر الباحث إلى ما نعرفه جميعاً من أن اسم يعرب بن قحطان أبى العرب اليمانية وهو متوغل فى الجاهلية، فيظهر منه أن اسم العرب على الأقل معروف قبل الإسلام بكثير، وعدم عثورنا عليه فى شعر الجاهلية لا يلزم من عدم وجوده، لأن عدم الوجود لا يدل على عدم الوجود».

تعليق الشيخ محمد على النجار:

وعلق الشيخ محمد على النجار على قوله تعالى ﴿عَرَبًا أْتَرَابًا﴾ أى منسوباً إلى العرب، أى نزل بلسانكم أيها العرب، وهو غير ذى عوج أى مستقيم فكلمة «عربي» لم يقصد بها الإبانة فحسب، وإنما قصد بها المعنيان^(١).

رأى:

وفى رأى أن التأريخ لكلمة عربي يكتنفه الغموض، والشعر الجاهلى وإن كان ديوان العرب، والمرأة الكاشفة لحياتهم، فإن ما ورد منه قليل بالنسبة لما لم يرد، وليس هناك من دليل يفصل فى هذه القضية غير النقوش الأثرية التى توضح الغامض، وتكشف المبهم.

وفى بحث الدكتور مراد كامل الذى قدمه لمؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٦١-١٩٦٢ نجد الدليل المرشد فى طريق البحث عن تاريخ ولادة كلمة عرب.

موضوع هذا البحث هو: لغات النقوش العربية الشمالية وصلتها باللغة العربية.

بعد أن بين الباحث الهجرات التى قامت بها القبائل من الجزيرة العربية ابتداء من الألف الرابع إلى الألف الثانى قبل الميلاد وبقاء من بقى فى الجزيرة العربية بدون هجرة - بين أن هناك «آلافاً» من النقوش كشف عنها الباحثون الأثريون «فى المنطقة الواسعة الممتدة» من وسط الجزيرة إلى الصفاة فى الشرق والجنوب من حوران وأخذ العلماء فى معالجتها وحل رموزها وفهمها حتى توصلوا إلى ذلك فى الربع الثانى من القرن الحالى. وهذه النقوش تنقسم إلى ثلاث مجموعات:

١ - أقدمها المجموعة التى نسميها الثمودية، وقد عثر على كتابتها فى «حائل» وفى «الطائف» و«تيماء» و«مدائن صالح» وقد ورد اسم الثموديين فى نقوش الملك «سرجون الأشوري» سنة ٧١٥ ق.م.

٢ - المجموعة الثانية هى التى تعرف بالصفوية، وسميت بذلك لوجودها فى منطقة الصفاة منقوشة على حجارة: «اللابا» فى «الحرّة» فى جنوب شرق دمشق.

٣ - المجموعة اللحيانية، وهى التى عثر عليها فى شمالى الحجاز، وفى مدائن صالح، وخشم جبلة، وتيماء.

(١) انظر هذه الآراء والتعليقات فى «مؤتمر البحوث والمحاضرات» ١٩٦١-١٩٦٢ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ٢٦٣ - ٢٧١.

أما النقوش الثمودية فقد احتفظت لنا بكثير من الكلمات العربية والصيغ اللغوية، فالضمائر المنفصلة أنا وأنت، والمتصلة تطابق العربية تماماً، كما وردت «ذو الطائبة»^(١) التي سجلها النحاة في قواعدهم.

ووردت أفعال على صيغة فعل مثل : علم - حل - رعى - رهب - كتم - عشق - كلم (أى جرح) و «نوي» أى هاجر.

وورد للمجهول صيغة فعل مثل: قنص، وصيد.

ووردت صيغة تفعل مثل تشوق أى «اشتاقت».

ومن الحروف التي وردت : إلى ، الباء، وفي ، ومن ، واللام.

ووردت واو العطف والفاء كما فى العربية.

ووردت لام الأمر فى الاستعمال مثل لام الأمر فى العربية.

ومن أسماء الأعلام فى الثمودية : أحمد - بدر - جشم - وائل - زيد - حليم - طاهرة - ظريفة - كلب - لبيد - مطر.

وأما اللغة الصفوية فهى لهجة عربية شمالية.

ومن مفرداتها: أثر ، وسفر، أخذت معنى الكتاب، وآية: جاءت بمعنى كتابة، ووردت آية بمعنى الكتابة فى شعر الهذليين.

ووردت كلمة «جو» ومعناها. واد (بمعنى المنخفض) فى نقائض جرير والفرزدق، ومنها «الجواء» فى معلقة عنترة.

ووردت «ها» للنداء، وهى هاء التنبيه فى العربية والتي نجدها فى بابها.

ومن الأفعال التي وردت: نفر بمعنى هرب، وحرص بمعنى تطلع، وكلم بمعنى جرح.

ومن المفردات: فرس - ضأن - خيل - خال - خمسة - معزى - نخل أى «واد» - نقمة أى «نار».

ومن أسماء الأعلام : إياس - أوس - أسود - همام - ظالم - كاهل - شداد - شديد - شامت - تيم.

(١) عند النحاة هى اسم موصول. بمعنى : الذى ، وقد نصت عليها كتب النحو وأوردوا شواهد كثيرة لها.

ومن التعبيرات التي وردت في هذه اللغة:

«حى لذى يقرأ هكتاب» ومعناها : ليحيا من يقرأ هذا الكتاب.

وأما لغة النقوش اللحيانية: فمن حيث الحروف فهى كما فى العربية وفى كتابتهم كتبوا : عويد : (عوذ) وطلال (طلل) وعاص (عصي) وكتبوا زيد : (زد) وأوس بن حجر (أس بن حجر).

وقلبوا الباء إلى جيم حنكية ثم إلى جيم معطشة على الأغلب وهذا شائع إلى اليوم فى بعض لهجات الكويت وهى الجمعية مثل الراعى = الراعى^(١).

وهذا النص الذى لخصته من بحث الدكتور مراد كامل يعنى مايلي:

١ - اللغة العربية ضاربة فى القدم فى عصور ما قبل الميلاد.

٢ - تؤيد النقوش الشمودية والصفوية واللحيانية أن أصولها وحروفها وأفعالها وأسماءها لا تختلف عن العربية التى نزل بها القرآن الكريم إلا فى بعض معانى الكلمات، وكتابتها، وطريقة استعمالها، وهذا أمر طبعى لأن اللغة العربية فى طريقها الطويل منذ ولادتها إلى عصرنا الحاضر وهى تحمل هذه الاختلافات اللهجية التى تختلف من شعب إلى شعب، ومن بيئة إلى بيئة حتى البيئة الواحدة نجد فيها مظاهر هذا الاختلاف.

والظواهر الصوتية التى حفلت بها هذه النقوش ليست بعيدة عن الظواهر الصوتية فى لهجاتنا المعاصرة كقلب الياء جيماً معطشة فى اللهجة الكويتية.

٣ - وعلى الرغم من تعدد أماكن هذه النقوش، وتعدّد من تتسبب إليهم فإن هناك أصولاً مشتركة فى هذه النقوش تسير جنباً إلى جنب مع أصول اللغة العربية الفصحى، وإن اختلفت عنها أحياناً فى بعض العبارات والكلمات.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هنا. هل هذه النقوش التى تحمل الكثير من الألفاظ العربية حروفاً ومفردات، وتراكيب كانت تحت مسمى واحد هو العربية؟

(١) يتصرف من بحث: لغات النقوش العرب الشمالية وصلتها باللغة للدكتور / مراد كامل. انظر البحوث والمحاضرات مؤتمر ١٩٦١ - ١٩٦٢. مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وللإجابة عن هذا السؤال نؤكد أن المهم في هذه النقوش هو المعنى والفحوى لا المظهر واللفظ ، فما دامت الحروف عربية، والكلمات عربية، والتعبيرات، وما دامت هذه النقوش ليست نقوشاً عبرية أو سريانية ، فلم لا تكون عربية؟

ومن البدهي حينما تنقش الكلمات على الأحجار لتبين تاريخاً أو تسجل حادثاً ، أو تسطر قصة لا يحتاج ناقشها إلى أن يقول : هذه نقوش عربية.

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول : إن هذه النقوش حجة قاطعة على أن كلمة عرب أو عربي ليست غريبة في هذه الفترة التي كتبت فيها هذه النقوش.

حقاً إن هناك اختلافات كبيرة بين هذه اللغة المنقوشة والعربية الفصيحة ، ولكنها اختلافات لهجية، والاختلافات اللهجية ما زالت حتى هذا اليوم تستبد بالستنا في وطننا العربي الكبير ومع ذلك لانقول : إننا نتكلم بغير العربية، ونعني بذلك أننا نتكلم بلهجة تحمل كثيراً من عناصر العربية الفصحى.

والمقولة التي يردها الرواة والتي ينسبونها إلى أبي عمرو بن العلاء حينما قال : «وما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»^(١). قد أشار إليها الدكتور جواد على حينما قال : «ولكن علماء العربية لم يتنصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان آخر مخالف للساننا بل عدّوهم من صميم العرب ومن لبّها.

ونحن هنا لانستطيع أن ننكر على الأقسام العربية المنسبة عروبتها لمجرد اختلاف لسانها من لساننا، ووصول كتابات منها مكتوبة بلغة لانفهمها، فلغتها هي لغة عربية، ما في ذلك شبهة ولا شك»^(٢).

رأى الدكتور طه حسين في كلمة أبي عمرو بن العلاء:

وقد هش الدكتور طه حسين لهذه الكلمة لأنها صادفت هوى في نفسه حينما حاول إنكار الشعر الجاهلي، فقد اعتمد على مقولة أبي عمرو بن العلاء حينما سجّل في كتابه

(١) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي / ٨.

(٢) انظر الفبصل في تاريخ العرب / ١ / ٣٢.

«الأدب الجاهلي»: أن الشعراء الجاهليين معظمهم ينتسب إلى قحطان، وكثرتهم كانوا ينزلون اليمن، والقلة منهم هاجرت إلى الشمال مع أن لسان حمير في اليمن ليس هو لسان عدنان في الشمال وقد قال أبو عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا» إلى أن يقول: وينبى على هذا أن الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفتية أن يكون لهؤلاء الشعراء ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن^(١).

نقد الدكتور طه حسين في هذا الرأي:

لم يسكت النقاد عن هذا الرأي الخطير لأن له صلة بإعجاز القرآن الكريم وتحديده لأرباب القول، وأساطين الفصاحة.

نقده الشيخ أحمد رضا العاملي حينما أنكر عروية حمير مبيّناً أن القبائل كانت تجتمع من جنوبيين وشماليين في أسواقها وتتفاهم دون أدنى كلفة، ويساعدتهم على ذلك أن لغاتهم أو لهجاتهم على ما كانت عليه متحدة في صميمها، وأن هذا الاختلاف لم يعد كونها لهجات للغة واحدة.

ويقدم دليلاً على ما يقول في قصة وفد الحجاز. عند سيف بن ذى يزن ملك اليمن، وعلى رأس ذلك الوفد سيد قريش عبد المطلب بن هاشم يخطب يبيانه القرشي العدناني، وسيد اليمن يُصنّف إليه، ويسمع شاعر الوفد أمية بن أبي الصلت ينشد قصيدته بلهجته الفصحى، والملك يصغى طروباً لا يجد غرابة في ذلك^(٢).

ونقد هذا الرأي أيضاً الشيخ محمد الخضر حسين حينما ذكر أن طه حسين حرّف كلمة أبي عمرو بن العلاء لهويّ في نفسه^(٣).

ويحلل الدكتور أحمد الحوفي كلمة أبي عمرو بن العلاء بأن «اللّغتين عريبتان» ولكن

(١) انظر في الأدب الجاهلي لطلح حسين / ٦٥.

(٢) انظر مولد اللغة للشيخ أحمد رضا العاملي / ٥٦، وانظر أيضاً: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ٣٣٤ للدكتور/ عبد العال سالم مكرم.

(٣) انظر نقض كتاب: «في الشعر الجاهلي» / ٧٤ للشيخ محمد الخضر حسين.

التطور والمكان والزمان والأحداث والألسنة.. إلخ قد شققت من اللغة الواحدة لهجتين بدليل قوله: «ولا عربيتهم بعربيتنا، والعرب يطلقون على اللهجة: اللسان»^(١).

رأى المستشرقين في أصل كلمة «عرب»:

ساق الدكتور جواد على في كتابه «تاريخ العرب» رأى المستشرقين في تاريخ هذه الكلمة، وماذا كانت تعنى؟ وهل كان مفهومها الجنس أو الجماعة التي تعيش في حاضرة، وليست في بادية؟

يقول مانصه: «أما المستشرقون وعلماء التوراة المحدثون فقد تتبّعوا تاريخ الكلمة، وتتبعوا معناها، وبحثوا عنها في الكتابات الجاهلية وفي كتابات الآشوريين والبابليين واليونان والرومان والعبرانيين فوجدوا أن أقدم نص وردت فيه لفظة «عرب» هو نص آشوري من أيام الملك (شلمنصر الثالث) ملك آشور، وقد تبين لهم أن لفظة «عرب» لم تكن تعنى عند الآشوريين ما تعنيه عندنا من معنى بل كانوا يقصدون بها بداوة وإمارة (مشيخة) كانت تحكم في البادية المتاخمة للحدود الآشورية، كان حكمها يتوسع ويتقلص في البادية تبعاً للظروف السياسية، ولقوة شخصية الأمير. وكان يحكمها أمير يلقب نفسه بلقب «ملك» يقال له «جنديبو» أي جنذب»^(٢).

ويذكر الدكتور جواد أيضاً أن الكلمة وجدت في الكتابات البابلية في جملة: «ماتوري» MATU A- RA - BI ، ومعنى: ماتو: أرض، فيكون المعنى أرض عربى أى أرض العرب أو بلاد العرب أو العربية^(٣).

وبعد هذا العرض التاريخي لكلمة عربى نتساءل: هل وجدت هذه الكلمة في النصوص الدينية القديمة؟

كلمة (عرب) في ضوء النصوص الدينية:

إن أقدم كتاب ديني بين أيدينا هو التوراة أو العهد القديم أو العتيق الذي جمع أشعار الأنبياء والرسل من بنى إسرائيل. وبعد البحث رأيت أن هذه الكلمة وردت في نبوءة «ارميا» في الفقرة الثانية ص ٤٣٤ من التوراة وهي:

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي ١ / ٤١.

(٢) انظر الفيل في تاريخ العرب ١ / ١٧.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

«لقد قعدت لهم كالأعرابي في البادية، وذنبت الأرض بزناك وفجورك».

ووردت في نبوءة (أشعيا) الفصل الثالث عشر ص ٣٥٨، فقرة ٢١ وهي: «فلا تسكن أبداً (يتحدث عن أرض الكلدانيين) ولا تعمر إلى جيل فجيل. ولا يضرب أعرابي فيها خباء، ولا تربض هناك رعاة»^(١) وفي ضوء هذين النصين نستطيع أن نقول: إن التوراة تعنى بالأعرابي من نشأ في البادية وعاش فيها بعيداً عن الحضرة والمدن.

ويجاري التوراة في هذا التلمود فقد قصدت لفظه «عرب» «وعرييم» (ARBIM): الأعراب كذلك أي المعنى نفسه الذي ورد في الأسفار القديمة»^(٢).

كلمة (عرب) عند المؤرخين اليونان والرومان؛

وإذا رجعنا إلى المؤرخين اليونان والرومان فيأنا نجد أن لفظه (العربية) (ARABAE) هي في معنى بلاد العرب، وقد شملت جزيرة العرب وبادية الشام.

وسكانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم على سبيل التغليب لاعتقادهم أن البداوة كانت هي الغالبة على هذه الأرضين فأطلقوها من ثم على الأرضين المذكورة.

وتدلّ المعلومات الواردة في كتب اليونان واللاتين المؤلفة بعد (هيرودوتس) على تحسن وتقديم في معارفهم عن بلاد العرب، وعلى أن حدودها قد توسعت في مداركهم فشملت البادية، وجزيرة العرب، وطور سيناء.. وصارت كلمة عربي عندهم علماً للشخص المقيم في تلك الأرضين من بدوٍ ومن حضره^(٣).

ويميل الدكتور جواد على بعد عرضه لهذه النصوص المتعددة في كلمة عرب وأعراب إلى أن الكلمتين تعنيان معنى واحداً وهو الحياة البدوية الصحراوية التي يعيش فيها هؤلاء الناس. ومن ثمّ سموا أعراباً أو عرباً.

يقول في الموضوع نفسه: «وقد وردت اللفظة - أعني لفظه عرب - في كل هذه النصوص بمعنى أعراب ولم ترد علماً على قوم أو جنس بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر»^(٤).

(٢) انظر تاريخ العرب لجواد على ٢١/١.

(٤) المرجع نفسه.

(١) انظر التوراة في هذا الموضوع.

(٣) انظر تاريخ العرب لجواد علي/ ٢٢.

ونحن لانميل إلى هذا الرأي لأنه مجرد اجتهاد وصل إليه من خلال النصوص التي عرضها.

ولو آمننا بهذا الرأي لأنكرنا أن للعرب حضارة قبل الإسلام وهذا موضوع خطير، لأنه يتنافى مع النصوص القرآنية، وهى النصوص التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها تنزل من حكيم حميد، وإليك البيان:

حضارة العرب قبل الإسلام:

لا ينكر أحد أن للعرب حضارة قبل الإسلام، فليس من المنطق أو المعقول أن ينزل القرآن الكريم بجلاله وقدره، وعظيم أسلوبه، وروعة بيانه على قوم رحّل لا يدركون ما فيه من سمو المعاني، وما اشتمل عليه من أساليب مُعجزة، ومن تراكيب مفحمة، ومن آداب، وحكم، وعلم ومنطق، وفكر وتشريع.

وكما يقول المؤرخون: إن العلاقة وطيدة بين الحضارة والماء، فإذا وجد الماء تكونت المدن، ونمت الحضارة، وكثر الخير، وازدهر الفكر، وارتقى الإنسان، فهل وجد الماء فى الجزيرة العربية لتنمو الحضارة؟

تجيبنا على هذا التساؤل النصوص المصرية القديمة التى تنصّ على أنّ الجزيرة العربية وجدت فيها أخشاب ضخمة: «وأن المنطقة الواقعة بين «العلا» و«معون» أو «معان» من المناطق الصحراوية فى الوقت الحاضر من أراضى ثمود قديماً قد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار، ولعل ذلك كله هو الذى حمل المصريين القدماء على ألا يُسمّوا بلاد العرب باسمها الخاص بها، وإنما سموها فى كتاباتهم بأرض الله، ووصفوها بتنتاج أشجارها من البهار والتوابل.

أما الروايات اليونانية والرومانية القديمة فكانت تقول صراحة بوجود أنهار طويلة فى بلاد العرب.

فإن «هيرودوت» أبا التاريخ وقد زار بلاد العرب بنفسه قد ذكر خبر نهر فى بلاد العرب دعاه «كورس». وقال عنه: إنه من الأنهار العظيمة وإنه كان يصب فى البحر الأحمر، وإن ملك العرب قد كان عمل على جلب المياه من هذا النهر العظيم بثلاثة أنابيب من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات تمتد إلى الصحراء على مسيرة اثنى عشر يوماً من النهر فتصب فى مواضع منقورة تستعمل لحزن المياه».

وذكر بطليموس اسم نهر عظيم سماه «لار» LAR وقال: «إنه ينبع من منطقة نجران ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقاً بلاد العرب حتى يصب في الخليج العربي» (١).
وما لى أذهب بعيداً والقرآن الكريم نفسه مؤيد لوجود هذه الحضارة فلننظر ماذا يقول القرآن الكريم؟

الحضارة العربية قبل الإسلام في ضوء القرآن الكريم:

قبل أن نتحدث عن جذور الحضارة العربية قبل الإسلام من خلال النصوص القرآنية نتساءل هل جذور كلمة «عرب» تردت في القرآن الكريم وسجلت في آياته؟
بالرجوع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم نلاحظ ما يأتي: تشكلت جذور كلمة (ع - ر - ب) في القرآن الكريم في ثلاث صيغ: «عُربٌ» بضم العين والراء، وأعرابٍ، وعربيّ.

١ - «عُربٌ» وردت مرة واحدة في قوله تعالى، الواقعة/ ٣٧ ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُربًا أُنثَاءً﴾ وهو جمع «عروب» والعروب: العاشقة لزوجها أو المتحبة إليه المظهرة له ذلك، قال الزبيدي في تاج العروس: أنشد ثعلب.

فما خَلَفُ من أمِّ عِمْرانَ سَلَفُ من السَّودِ ورَّهَاءُ العِنانِ عَرُوبُ

قال ابن سيدة: هكذا أنشده ولم يفسره. قال: وعندى أن عروب فى هذا البيت هى (الضحاكة) وهم مما يعيبون النساء بالضحك الكثير (٢).

٢ - ووردت كلمة: «أعراب» فى التوبة الآيات: ٩٠، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٢٠.

٣ - وكلمة عربيّ تكررت فى القرآن الكريم ١١ مرة، فى النحل ١٠٢، وفى الشعراء ١٩٥، وفى فصلت ٤٤، وفى يوسف ٢ وفى الرعد ٣٧، وفى طه ١١٣، وفى الزمر ٢٨، وفى فصلت ٣ وفى الشورى ٧، وفى الزخرف ٣، وفى الأحقاف ١٢.

(١) انظر تاريخ بلاد العرب لجواد على ١/١٠٢، ١٠٥، ١٨٩، وانظر أيضاً «العرب والحضارة الإنسانية» للدكتور محمد معروف الدواليبي نقلاً عن مجلة اللسان العربي - المجلد السابع، الجزء الأول / ٧٧.

(٢) أنظر تاج العروس: «عرب» ٣/ ٣٣٨، والسلفع كما فى القاموس: الصخابة، البديثة، السيئة الخلق - والورهاء: المرأة التى كثر شحمها.

ومن خلال هذا الإحصاء يتبين لنا أن صيغة أعراب تكررت عشر مرات على حين تكررت كلمة عربي إحدى عشرة مرة.

ماذا يعنى هذا؟ هل القرآن الكريم ارتجل هذه الصيغ ارتجالاً؟

هل القرآن الكريم يورد ألفاظاً وصيغاً لا عهد للعرب الذين نزل عليهم بها؟

هل القرآن الكريم الذى تحدى بلغاء العرب فى أن يأتوا بمثله أو بآية من آياته يتحداهم بكلمات لا يفهمون مدلولها، وبصيغ لا يعرفون حقيقتها؟ اللهم لا، فالقرآن الكريم نزل بهذه اللغة ليتحدى العرب بما تتكلم به العرب، وكلمة عرب أو أعراب لم تكن مجهولة المعنى فى أذهان من تحداهم.

وبعد هذه الجولة القصيرة فى ذكر جذور مادة «عرب» فى القرآن الكريم نحول مجرى الحديث إلى موضوع الحضارة العربية قبل الإسلام فى ضوء القرآن الكريم.

لاشك أن البحوث التاريخية والاكتشافات الجغرافية فى شبه جزيرة العرب تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الجزيرة تحتوى على مياه متدفقة بسبب الأنواء، وكثرة الأمطار التى تسبب وجود الأنهار: ويسعفنا فى هذا الاتجاه مؤيداً لهذه الحقيقة ما ذكره الجغرافى (اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي) فى كتابه: (تاريخ الأدب الجغرافى) الذى نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم نشر الإدارة الثقافية فى الجامعة العربية - حيث يتحدث عن الجزيرة العربية فى فجر التاريخ فيقول: «بزغت فيها (والضمير عائد على شبه الجزيرة العربية) أولى مظاهر الحضارة العربية التى ما لبثت أن ترعرعت سريعاً، وأصبحت عنصراً أساسياً فى حضارة البشر جمعاء».

ويقول فى موضع آخر: «وثمة ظاهرة فلكية هامة توصل إليها البدو والحضر على السواء فقد أمكنهم التنبؤ بحالة الطقس، وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة نتيجة الخبرة طويلة الأمد بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معينة. وكان العرب يعرفون ذلك باسم «النوء» وجمعه أنواء، وقد لعب دوراً كبيراً فى حياتهم»^(١).

والناظر إلى لسان العرب فى هذه المادة يجد حديثاً طويلاً عن هذه الأنواء ومنازلها.

قال أبو عبيدة متحدثاً عنها: «الأنواء ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع فى أزمنة السنة،

(١) انظر ص ٤٠، ٤١ من هذا الكتاب.

كلها من الصيف والشتاء والربيع والخريف يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته، وكلاهما معلوم مسمي، وانقضاء هذه الثمانية والعشرين كلها مع انقضاء السنة، ثم يرجع الأمر إلى النجم الأول مع استئناف السنة المقبلة».

وكان ابن الأعرابي يقول: «لا يكون نوى حتى يكون معه مطر وإلا فلا نوء» (١).

وقد قام اللغويون بجهد كبير في جمع الألفاظ والكلمات والصيغ التي تتعلق بالأنواء وما يتبعها من كلاً، وماء ونبات، وحيوان في كتب ذخرت بها المكتبة العربية، ومن هؤلاء اللغويين الذين عنوا بالتأليف في هذا الميدان الأصمعي المتوفى سنة ٢١٣ هـ فقد «ألف كتاباً في الأنواء، والأثواب، والأخبية، والبيوت، والسلاح، والدلو، والرحل، والسرّج، واللجام، والإبل، وحلّق الإنسان، والخيل والشاء والنبات والشجر» (٢). وابن الأعرابي ألف في «خيل العرب والأنواء والذباب، والزرع والنخل والنبات» (٣).

وفي كتاب مستقبل تحدّث ابن الأعرابي عن البئر. فقد وضع «مجموعة لابأس بها من الألفاظ التي توصف بها الآبار في حفرها واستخراج المياه منها وقلة تلك المياه وكثرتها، وأجزاء البئر وأنواعها، وأسماء كلّ نوع، وأنواع المياه الخارجة منها، وآلات استخراج المياه من الآبار كالبكرة والحبال والدلو» (٤).

ألا يدل هذا على أن الجزيرة العربية موطن حضارة، ومستقر نهضة وكيف وضعوا مسميات عديدة لألفاظ كثيرة في موضوع واحد كالبئر أو النبات أو الحيوان؟! وستناول بعد هذا التمهيد الآيات القرآنية التي سجلت ظواهر الحضارة العربية في عصورها الأولى.

الحضارة العربية في ظلال الآيات القرآنية:

من سورة الأعراف آية ٧٤:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

(١) انظر حديث أبي عبيدة، وقول ابن الأعرابي في اللسان مادة: «نوا».

(٢) انظر مقدمة كتاب البئر لابن الأعرابي / ٥.

(٣) المرجع نفسه والصفحة. (٤) المرجع نفسه ص / ٦.

وهذه الآية نزلت في قوم ثمود، وهم قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وسميت باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح .

ويذكر الألوسي: «أن عاداً لما هلكوا عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض، وعمّروا حتى جعل أحدهم بيني المسكن من المدر فينهدم والرجل حيّ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سعة من معاشهم فعثوا في الأرض، وعبدوا غير الله تعالى، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً» (١).

وتدل هذه الآية على أن الحضارة بلغت أوجها عند هذه القبيلة العربية فبنوا مساكنهم من المدر، وتطوّروا ففتحوا مساكنهم في الجبال. وفن البناء ظاهرة حضارية، لأن مساكنهم تؤلف مجتمعاً له خصائص المجتمعات الحديثة، وله مقومات الحضارة التي تقوم على التكيف مع متطلبات هذا المجتمع.

وفن النحت لايقوم به إلا خبير دقيق، وصانع ماهر، وهذا لا يتوافق أبداً مع بدوى لايعرف من الحياة إلا رعى الغنم أو الإبل.

والحضارة توحى لأصحابها بأنهم أهل اقتدار، وقد تزيد هذه القدرة عن حدّها فتصير طغياناً وجبروتاً يشدهم إلى الفساد المدمر، ولهذا أرسل الله إليهم صالحاً ليعيد إليهم رشدهم وصوابهم ، ولكنهم لم يستجيبوا فصبّ عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد.

وهذه ظاهرة نلاحظها في أيامنا هذه، ظاهرة الحضارة التي تعطى صاحبها قوة الاقتدار فيطغى ويدمر.

وفي سورة الفجر آية ٦، ٧، ٨

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

هذه الآية نزلت في قوم عاد الذين جعلوا لهم مدينة مشهورة وهي مدينة (إرم) على قول أنها مدينة أو أن إرم جدهم الأعلى وأضيفت المساكن ذات العماد إليه (٢)، وهي مساكن بالنص القرآني لم يخلق مثلها في البلاد ، وهذا مما لا ريب فيه يدلّ دلالة واضحة على أن

(١) انظر تفسير الألوسي ١٦٦/٨ .

(٢) انظر تفسير الألوسي ١٢٢/٣٠ .

قوم عاد كانوا ذوى حضارة ولا يستطيع البدوي الذى جعل الأرض فراشاً، والسماء غطاء أن يقوم بمثل هذا العمل الضخم، وهو بناء مدينة ذات عمُد لانظير لها فى بنائها وضخامتها، وجمالها.

ولعل زهير بن أبى سلمى وهو شاعر جاهليّ أحس بهذا المجد العريقى فى ضخامة البناء، وروعة المعمار، وإقامة العمد، فقال:

وآخرين ترمى الماذى عدتهم من نسج داود أو ما أورثت إرم^(١).

فكان «إرم» فى بيت زهير تعنى القوة والمجد حينما أراد أن يمدح الآخرين بأنهم يملكون عدة السلاح الصّارم الذى نسج بمهارة داود وحذقه أو كأنه ورث من أهل إرم الذين يضرب بهم المثل فى القوة والبطش.

وفى الآية السادسة من سورة الأنعام تذكير للعرب فى إيان رسالة محمد عليه السلام بأن يتعظوا ويعتبروا بما حدث لأجدادهم حينما تجنّبوا الحق، وانحرفوا عن الصواب.

تُسجّل هذه الآية ظاهرة الحضارة التى كان يعيش فى ظلها أجدادهم فى رزق دائم، وخير شامل، ونعيم مقيم، وقصور شاهقة، وأنهار تحتها جارية.

يقول الله تعالى مذكراً هؤلاء العرب:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾

هل هناك أوضح من هذه النصوص فى حضارة العرب قبل الإسلام. وهناك نصوص من التوراة تنير الطريق نحو هذه الحضارة أيضاً.

نصوص من التوراة:

ذكرت فيما سبق أن الجزيرة العربية كانت موطن الكثير من القبائل العربية، كالأكاديين والأراميين، والكنعانيين قبل أن تهاجر هذه القبائل من الجزيرة، لأنه فيما بعد هاجر الأكاديون فى الألف الرابع قبل الميلاد إلى ما بين النهرين.

(١) انظر تفسير الألوسى ٣٠، والمآذى: السلاح، وانظر أيضاً شرح ديوان زهير بن أبى سلمى / ٨٢.

وفى الألف الثالث قبل الميلاد هاجر الكنعانيون، واتجهوا إلى الشمال الغربي من شبه الجزيرة.

وفى الألف الثاني قبل الميلاد هاجرت قبائل إلى شمال الجزيرة وهم الآراميون. وقبل الهجرة كانت الجزيرة العربية كما أسلفنا سابقاً ذات حضارة تتطلع إليها الشعوب الأخرى.

ومن هذه الشعوب الشعب العبري.

أما النصوص التي وردت فى التوراة للإشارة إلى هذه الحضارة فهى ما يأتى:
فى سفر الخروج الفقرة ٧، ٨ من الفصل الثالث.

«فقال الرب إنى قد نظرت. إلى مذلة شعبي..وسمعت صراخهم من قبل مُسَخَّرِيهِمْ،
وعلمت بِكَرْبِهِمْ» (الفقرة السابعة)

«فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض طيبة واسعة
أرض تدرّ لبناً وعسلاً إلى موضع الكنعانيين والحيثيين» (الفقرة الثامنة).
وفى الفصل الثالث والثلاثين: (الفقرة الأولى).

«وقال الرب لموسى: هلّم فاصعد من ها هنا أنت والشعب الذين أخرجتهم من أرض
مصر إلى الأرض التى اتسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب».

وفى (الفقرة الرابعة) من الفصل نفسه: إلى أرض تدر لبناً وعسلاً.

بعد تضافر هذه النصوص على حضارة العرب القديم قبل الإسلام نتوجه إلى المعاجم اللغوية لتدلى بدلوها فى هذه القضية.

حضارة العرب من خلال المعانى اللغوية لهذه الكلمة:

تدل كلمة «عرب» فى المعاجم اللغوية على معان عديدة، اقتصر فقط هنا على بعض المعانى التى تتعلق بعناصر الحضارة :

فى «تارج العروس» وردت كلمة (عرب) بمعنى الماء الكثير، وقال الزبيدي: والعربُ الماء الكثير الصّافي، يقال : ماء عَرَبٍ كثير، ونهر عَرَبٌ : غَمْرٌ، وبئر عَرَبَةٌ: كثيرة الماء.

الإعراب والتعريب معناهما واحد: وهو الإبانة.

والإبانة تعنى الوضوح والصفاء، والوضوح والصفاء من صفات الماء.

وفى الحديث: (وَالثِّبُّ تُعْرَبُ عَنْ نَفْسِهَا) أى تبيّن وتوضّح، والتعريب أيضاً كما فى تاج العروس: الإكثار من شرب العَرَب وهو الكثير من الماء الصافى.

وأعرب: سقى القوم: إذا كان مرة غباً ومرة خمساً ثم قام على وجه واحد.

فهذه بعض المعانى التى احتفظت بها المعاجم لكلمة عرب، فى مجال علاقتها بالماء والصفاء والبيان والوضوح وهى من مستلزمات الحضارة والتّقدم.

وقبل أن نتناول المعانى التى احتملتها كلمة عرب غير المعانى التى لها علاقة بالماء والبيان والصفاء من أجل إثبات أن هناك حضارة عربية قبل الإسلام أحب أن أبين أن العبرانيين كانوا يتعامون عن دلالتها الحضارية ليشبتوا أنّ لها معنى واحداً، وهو الجفاف والبادية والصحراء، والأرض الفقيرة. ولاشك أن هذا متناقض مع النصوص القديمة فى التوراة التى أشرنا إليها سابقاً والتى تصف مساكن الكنعانيين مبيّنة أنهم يسكنون فى أرض جديدة ذات أمطار وعيون وأنها تفيض لبناً وعسلاً.

وقد اتفقت نظرية «كيتاني» العلمية مع المعاجم اللغوية العربية حينما أعطت لكلمة عرب معنى الماء والأمطار، يقول الأستاذ معروف الدواليبى فى بحثه عن العرب والحضارة الإنسانية: إن «كيتاني» قد تصور «بلاد العرب فى الدورة الجليدية الأخيرة جنةً بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدّة طويلة، وكانت سبباً فى رسم تلك الصورة البدئية فى مخيلة كتّاب التوراة عن «جنة عدن» وأن «جنة عدن» فى داخل بلاد العرب، والتى يقول عنها فى الجملة: إنها بلاد كثيرة الأمطار، وكثيرة الأنهار، وكثيرة الأشجار^(١).

على أن اللغويين العرب تناولوا هذه الكلمة مسلّطين عليها أضواء التاريخ، معدّين ما دار حولها من آراء من أجل الكشف عن ميلادها كيف جاءت؟ وكيف تطوّرت؟ وما العلاقات التى تربط بين الصيغ التى اشتقت من هذه الكلمة؟

(١) انظر تاريخ العرب لجواد على / ٥٩، وبحث العرب والحضارة الإنسانية للأستاذ معروف الدواليبى، مجلة لسان العرب: المجلد السابع، الجزء الأول / ٧٥.

كلمة عرب في ضوء المعاجم اللغوية:

١. الجمهرة لابن دريد:

ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصريّ المتوفى سنة ٣٢١هـ عمدة اللغويين، وقدوة المتأديين تناول مادة: «عرب» في جمهرته فذكر أن: «العرب ضد العجم، وكذلك العُرب والعُجم».

ويبين أن العرب العاربة سبع قبائل: عاد وثمود، وعميق، وطسم، وجديس، وأميم، وجاسم، وقد انقرضوا كلهم إلا بقايا متفرقين في القبائل.

والعربة: النهر الشديد الجري. وإعراب الكلام: إيضاح فصيحته (١) وفي الجمهرة أيضاً: العربية: اللغة فتسمى «حمير اللغة العربية» فيقولون هذه عربيتنا أى لغتنا (٢).

٢. لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المتوفى سنة ٧١١هـ.

في اللسان: مادة: عرب: العُربُ والعَرَبُ: جيلٌ من الناس معروفٍ خلاف العَجَمِ. والعرب العاربة: هم الخُلص منهم، وأخذ من لفظه فأكد به كقولك: لَيْلٌ لائِلٌ. والعربيُّ إلى العَرَبِ وإن لم يكن بدويًّا. وعربيٌّ بين العروبة والعروبية وحكى الأزهري: رجل عربيٌّ إذا كان نسبه في العرب ثابتاً وإن لم يكن فصيحاً، وهما من المصادر التي لا أفعال لها.

وتفرق المعاجم بين العربيِّ والأعرابيِّ. فمن نزل بلاد الرِّيف واستوطن المُدن والقرى ممَّن يتّمسق إلى العرب، فهم عرب وإن لم يكونوا فُصحاء.

والأعرابيُّ: هو البدويُّ صاحب نجمة وارتياح للكلا، وتتبع لمساقط الغيث سواء كان من العرب أو من مواليهم.

والأعرابيُّ إذا قيل له: يا عربيٌّ فرح بذلك وهشَّ له، والعربيُّ إذا قيل له: يا أعرابيٌّ غَضِبَ له.

(١) انظر الجمهرة ١/٢٦٦.

(٢) المرجع نفسه ١/٢٦٧.

التعريب:

ومن الصيغ المتعلقة بكلمة عرب: التعريب، والتعريب كما يقول اللسان: مادة «عرب»: لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب، إنما هم عرب، لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن سواء منهم الناشئ بالبدو، ثم استوطن القرى والناشئ بمكة ثم هاجر إلى المدينة.

فإن لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم، واقتنوا نعاماً ورعوا مساقط الغيث بعدما كانوا حاضرة أو مهاجرة قيل: قد تعربوا، أى صاروا أعراباً بعدما كانوا عرباً. ويتفق اللسان مع الجمهرة فى تسمية اللغة العربية بالعربية، يقول اللسان: والعربية: هى هذه اللغة.

الأراء فى كلمة العرب من حيث التسمية:

لم تسكت المعاجم اللغوية عن البحث فى هذه الكلمة، وسبب إطلاقها على هذا الجيل من الناس الذى يتكلم العربية.

قال بعض اللغويين المؤرخين: سبب التسمية أن «يعرب» بن قحطان وهو أبو اليمن كلهم أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب ومن يعرب جاءت التسمية بـ «عرب».

وقيل إن أولاد إسماعيل نشئوا (بعربة)، وهى من تهامة فنسبوا إلى بلدهم.

وفى رأى الأزهرى أنهم سموا عرباً باسم بلدهم: (العربات).

وقيل سموا كذلك لأنه انتموا إلى بلدهم: «عربة» وفى تاج العروس ١٦ / ٣٤٤: «وعربة: قرية فى أول وادى نخلة من جهة مكة، وأخرى فى بلاد فلسطين، كذا فى المراصد».

ويدلّل الزبيدى على صحة هذه التسمية بقوله كما فى تاج العروس:

«وأقامت قريش بعربة فتنحّت بها، وانتشر سائر العرب فى جزيرتها، فنسبت العرب كلهم إليها، لأن أباهم إسماعيل عليه السلام بها نشأ، وربّ أولاده فيها فكثروا، فلما لم تحتلمهم البلاد انتشروا فأقامت قريش بها».

(١) انظر اللسان: مادة: عرب.

وروى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه، قال: قريش هم أوسط العرب فى العرب داراً، وأحسنه جواراً، وأعربه ألسنةً.

مناقشة رأى الأزهرى:

ورأى الأزهرى على وجاهته وجهت إليه اعتراضات وانتقادات من هذه الانتقادات ماأتى:

١ - المعروف فى أسماء الأرضين أنها تنتقل من أسماء ساكنيها أو بانيها أو من صفة فيها أو غير ذلك.

وأما تسمية الناس بالأرض، ونقل اسمها إلى من سكنها أو نزلها دون نسبة فغير معروف.

٢ - قولهم سميت العرب باسمها لنزولهم بها صريح بأنها كانت مسمّاة بذلك قبل وجود العرب وحلولهم الحجاز... والمعروف فى أراضى العرب أنهم هم الذين سمّوها ولقبوا بلدانها ومياهها، وقراها وأمصارها وباديتها وحاضرتها بسبب من الأسماء كما هو الأكثر وقد يرتجلون الأسماء، ولا ينتظرون لسبب.

٣- ما ذكر يقتضى أن العرب إنما سميت بذلك بعد نزولها فى هذه القرية، والمعروف تسميتهم بذلك فى الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل وغيرهما، فكيف يقال: إنهم سمّوا بعد نزولهم هذه القرية؟

٤ - المعروف فى المنقول أن يبقى على نقله على التسمية، وإذا غير إنما يُغير تغييراً جزئياً للتمييز بين المنقول والمنقول عنه فى الجملة، والمنقول أوسع دائرة من المنقول عنه من جهات ظاهرة لكون أصل المنقول عنه «عربه» بالهاء، ولا يقال فى المنقول، ولكونهم تصرفوا فيه بلغات لا تعرف ولا تسمع من المنقول عنه، فقالوا: عرب محرّكة وعُربُ بضمّتين، وأعراب وأعرابى وغير ذلك.

٥ - والعرب أنواع وأجناس وشعوب وقبائل متفرّقون فى الأرض لا يكاد يأتى عليهم الحصر، ولا يتصور سكناهم كلهم فى هذه القرية أو حلولهم فيها، فكان الأولى أن يقتصر بالتسمية على من سكنها دون غيره.

الإجابة عن هذه الانتقادات:

إن إطلاق العرب على الجيل المعروف لا إشكال أنه قديم كغيره من أسماء باقى أجناس الناس وأنواعهم وهو اسم شامل لجميع القبائل والشعوب. ثم إنهم لما تفرقوا فى الأرضين وتنوعت ألقاب وأسماء خاصة باختلاف ما عرضت من الآباء والأمهات والحالات التى اختصت بها كقريش مثلاً، وثقيف، وربيعة، ومُضَر، وكنانة، ونزار، وخزاعة، وقضاعة.. إلخ، فأوجب ذلك تمييز كل قبيلة باسمها الخاص، وتنوسى الاسم الذى هو العرب، ولم يبق له تداول بينهم ولا تعارف واستغنت كل قبيلة باسمها الخاص مع تفرق فى القبائل، وتباعد الشعوب فى الأرضين.

ثم لما نزلت العرب بهذه القرية فى قول أو قريش بالخصوص فى قول راجعوا الاسم القديم وتذكروه، وتسموا به رجوعاً إلى الأصل، وبدل على أنه رجوع للأصل وتذكر بعد النسيان أنهم جردوه من الهاء الموجودة فى اسم القرية، وذكروه على أصله الموضوع القديم^(١).

ولو نظرنا إلى الرسائل السماوية لراعنا أن الجزيرة العربية هى مهد الرسالات، والرسالات حضارة، وأية حضارة؟ ففى لسان العرب مادة: «عرب» أنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: خمسة أنبياء من العرب، وهم محمد، وإسماعيل، وشعيب، وصالح، وهود صلوات الله عليهم.

وهؤلاء الأنبياء كلهم كانوا يسكنون بلاد العرب فكان شعيب وقومه بأرض قريش، وكان صالح وقومه بأرض ثمود، ينزلون بناحية الحجر.

وكان هود وقومه عاد ينزلون الأحقاف من رمال اليمن، وكانوا أهل عمَد.

وكان إسماعيل بن إبراهيم، والنبى المصطفى ﷺ من سُكَّانِ الحَرَمِ^(٢).

وبعد، فلعلنا بعد هذه الجولة فى الأصل التاريخى واللغوى لكلمة (عرب) أكون قد وفيت حقها من البحث.



(١) انظر هذا الرأى والاعتراضات التى وجهت إليه. ودفع هذه الاعتراضات وردّها فى تاج العروس ٣/ ٣٤٤

- ٣٤٨ -

(٢) انظر لسان العرب مادة: عرب ٢/ ٧٧، ٧٦.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- تاج العروس للسيد / محمود مرتضى الحسيني الزبيدي. (سلسلة التراث العربي) وزارة الإعلام - الكويت.
- ٢- تاريخ الأدب الجغرافي - كراتشكوفسكي - ترجمة صلاح الدين عثمان- نشر الإدارة الثقافية في الجامعة العربية.
- ٣- تفسير الألوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٤- التوراة.
- ٥- الجمهرة لابن دريد - دار صادر - بيروت.
- ٦- الحياة العربية من الشعر الجاهلي : دكتور أحمد الحوفي - مطبعة نهضة مصر بالفجالة.
- ٧- ديوان النابغة الذبياني - تحقيق محمد الطاهر بن عاشور - الشركة التونسية للتوزيع.
- ٨- طبقات الشعراء : ابن سلام الجهمي - دار المعارف بالقاهرة.
- ٩- في الأدب الجاهلي : دكتور طه حسين - دار المعارف - القاهرة.
- ١٠- الفیصل في تاريخ العرب: دكتور جواد على.
- ١١- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية د. عبد العال سالم مكرم. طبعة أولى - دار المعارف بمصر - مؤسسة الصباح بالكويت: ط ثانية - مكتبة التراث بالأزهر: ط ثالثة.
- ١٢- كتاب البئر لابن الأعرابي - تحقيق د. رمضان عبد التواب - نشر الهيئة العربية للتأليف والنشر.
- ١٣- لسان العرب.
- ١٤- المزهر - جلال الدين السيوطي - طبعة ثانية - الحلبي.
- ١٥- مجلة اللسان العربي - إصدار المكتب الدائم للتنسيق والتعريب - الرباط.
- ١٦- مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة.
- ١٧- مولد اللغة- الشيخ أحمد رضا العاملي - نشر دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ١٨- النابغة الذبياني - دراسة لغوية - الأستاذ عاهد الماضي رسالة ماجستير مخطوطة - جامعة الكويت.
- ١٩- نقض كتاب (في الشعر الجاهلي) الشيخ محمد الخضر حسين - المطبعة السلفية.



١٧. جلال الدين السيوطى وأثر موسوعته النحوية: (*)

مجمع الهوامع فى تيسير حركة النحو المصاهرة

مقدمة

قبل أن نعرض للسيوطى موسوعته النحوية (مجمع الهوامع) وأثر هذه الموسوعة فى حركة تيسير النحو المعاصر، لابد لنا من إلقاء الضوء على العوامل التى كونت هذه الشخصية الفذة التى جمعت الفكر الإسلامى بشعابه المختلفة، وألوانه المتعددة، حيث إنه شارك فى كل علم وأسهم فى كل فن، وأدلى بدلوه بين الدلاء فامتلاً وفاض فقها وأصولاً، تفسيراً وحديثاً، نحواً ولغة، تاريخاً ورجالاً.

ويبدو أن السيوطى أحسّ بهذا الفضل الذى وصل إليه، وبهذه القمة التى ارتفع إليها فقال فى ترجمته الذاتية التى سجلها فى كتابه: «حسن المحاضرة»: «رزقت التبحر فى سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعانى، والبيان، والبديع على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم، وأهل الفلسفة».

وقد زاد إحساسه بنفسه، وشعوره بقيمة قدره حينما أدرك أنه أحاط بعلم عصره، ومن كان شأنه كذلك فلا عجب أن يكون من الذين كملت عندهم أدوات الاجتهاد.

كلمة ثقيلة فى الميزان لا يتجرأ أن يدعيها أو يحملها إلا من تفوق على علماء عصره، وكيف لا يكون السيوطى من المجتهدين، وهو الذى يقول عن نفسه: «ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها، وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها، ونقوضها، وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولى ولا بقوتى، فلا حول ولا قوة إلا بالله»

ولعل السيوطى أدرك بهذا الحديث عن النفس أن الغرور بدأ يتسرب إلى نفسه، فسد الباب دونه، ولم يملكه أن يصل إليها، فقال بعد أن عدد مواهبه، وأظهر ما يتمتع به من

(*) بحث ألقى ملخصه فى الاحتفال الذى أقامته المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة فى الفترة من ٣-أبريل ١٩٩٣ إلى ٥-أبريل ١٩٩٣ بقاعة المؤتمرات - جامعة الأزهر

قدرات : «أقول ذلك تحدثنا بنعمة الله تعالى لا فخرا، وأى شيء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر؟»^(١).

والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذا المقام هو: ما العوامل التى كونت هذه الشخصية الفذة التى تعد أكبر شخصية فى التاريخ الإسلامى من حيث العلم أو المعرفة؟ ذلك ما سنجيب عنه فى النقطة التالية:

(١) العوامل التى ساعدت على تكوين شخصية السيوطى العلمية؛

فى مقدمة هذا البحث طرحت سوآلا يحتاج إلى إجابة تبين الغامض وتوضح المبهم، فالسيوطى يعتبر فلتة فى مجال العلم قلما وجود الزمان بمثله، وإن الباحث ليقف حائرا أمام هذا الرجل الذى طبقت شهرته الآفاق، كيف استطاع السيوطى أن ينبغ، وينضج هذا النضج، ويجلس على قمة كل علم، ويكتب فى كل فن، ويصنف فى كل لون من ألوان المعرفة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات يمكننى أن أوضح هذه العوامل التى ساعدت على تكوين شخصيته فيما يلى:

١- البيئة العلمية التى نشأ فيها؛

لاشك أن البيئة التى نشأ فيها السيوطى كان لها أثر كبير فى تكوين شخصيته العلمية، فقد كان والده من العلماء، صنع ابنه على عينه، وتربى فى كنفه، وجلس فى حجره، ورأى منزلته فى العلم بعينه، وقد قال عنه السيوطى:

«والدى الإمام العلامة ذو الفنون»^(٢).

وتحدث السيوطى عن والده فى مجال العلوم التى درسها والده على مشايخ عصره وبرع فيها فقال: «أقبل على العلوم بأنواعها، فأخذ عن مشايخ عصره وبرع فى الفقه والنحو والصرف والمعانى، والبيان والفرائض، والحساب بأنواعه، والمنطق والوثائق، وكانت له اليد الطولى فى الإنشاء مطنبا وموجزا»^(٣).

(١) انظر ترجمته فى حسن المحاضرة ١/ ٣٣٩ وما بعدها.

(٢) نظم المقيان/ ٦٥

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

ووالد السيوطى مؤلف كبير، فمن مؤلفاته:

حاشية على شرح الألفية لابن المصنف، وحاشية على أدب القضاة للغزى، ورسالة فى إعراب قول المنهاج: «وما ضُيِّبَ بذهب أو فضة ضبة».

حاشية على العضد، وكتاب فى الوثائق، وكتاب فى التصريف، وأجوبة اعتراضات ابن المقرئ على الحاوى الصغير^(١).

ولاشك أن السيوطى أفاد من والده حب العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره مما جعله فيما بعد نجم زمانه.

(٢) تلمذته على نبغاء عصره:

من هؤلاء النبغاء:

أ- شيخه الشمنى: أشاد به السيوطى فى البغية بقوله: شيخنا الإمام تقى الدين أبو العباس ابن العلامة كمال الدين بن العلامة أبى عبدالله الشمنى... المحدث الأصولى المتكلم النحوى، البيانى المحقق، إمام النحاة فى زمانه، وشيخ العلماء فى أوانه، شهد بنشر علومه العاكف والبادى، وارتوى من بحار فهومه الظمان والصادى.

ويبدو أن السيوطى كان مولعا بشيخه، معجبا بعلمه، مقدرًا لفضله، مكرما لنبوغه. فبعد هذه المقدمة التى مدح فيها استاذه وأغرقه فى المدح، ووصف فيها علمه وأسرف فى الوصف أخذ يعدد بعد ذلك ما برع فيه من المعارف، وما نبغ فيه من العلوم المختلفة، فقال:

وأما التفسير فهو فى بحر المحيط، وكشاف دقائقه بلفظه الوجيز، الفائق على الوسيط والبسيط... إلى أن يقول:

وأما النحو فلو أدركه الخليل لاتخذة خليلا، أو يونس لأنس بدرسه، وشفى منه غليلا وأما المعانى فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصباح، وماذا يفعل المفتاح مع من ألقى إليه المقاليد أبطال الكفاح، إلى غير ذلك من علوم معدودة، وفضائل ماثورة مشهورة.

وكما عبر السيوطى عن شعوره نحو أستاذه نثرًا عبر عنه شعراً فقال:

(١) المصدر نفسه والصفحة.

هو البحر، لابل دون ما علمه البحر هو البدر لابل دون طلعتة البدر
هو النجم، لابل دونه النجم رتبة هو الدر لابل دون منطقه الدر
هو العالم المشهور فى العصر والذي به بين أرياب النهى افتخر العصر^(١)

ب- ومن هؤلاء النبغاء الكافيجى. هو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى
قال عنه السيوطى فى البغية: شيخنا العلامة أستاذ الأستاذين محيى الدين أبو عبدالله
الكافيجى الحنفى.

قال السيوطى عنه: لزمته أربع عشرة سنة فما جتته من مرة إلا سمعت منه التحقيقات
والمعائب مالم أسمعته قبل ذلك، قال لى يوما: أعرب: زيد قائم، فقلت: قد صرنا فى مقام
الصغار، ونسأل عن هذا؟ فقال فى: زيد قائم مائة وثلاثة عشر بحثا فقلت: لا أقوم من هذا
المجلس حتى استفيدها، فأخرج لى تذكروته، فكتبتها منها ولا ينسى السيوطى أن يبين العلاقة
الحميمة بينه وبين أستاذه فقال «وما كنت أعد الشيخ إلا والدك لكثرة ما له على من الشفقة
والإفادة، وكان يذكر أن بينه وبين والدى صداقة تامة، وأن والدى كان منصفًا بخلاف أكثر
أهل مصر»^(٢).

وبعد، فهذان هما الشيخان اللذان أثرا فى تكوين شخصية السيوطى العلمية ومما لاشك
فيه أن للسيوطى أساتذة كثيرين غير هذين الشيخين، ولا أدل على ذلك من قوله: «وأما
مشايخى فى الرواية سماعا وإجازة فكثير، أوردتهم فى المعجم الذى جمعتهم فيه، وعدتهم
نحو مائة وخمسين، ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالى بما هو أهم، وهو قراءة
الدراية»^(٣).

٣- وفرة خزائن الكتب فى عصره:

فى عهد الفاطميين اهتم ملوكهم بخزائن الكتب وجمعها، فقد ذكر المقرئى أنه «ذكر
عند العزيز بالله كتاب: «العين» للخليل بن أحمد، فأمر خزان دفاتره، فأخرجوا من خزائنه
نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد، وذكر عنده كتاب
الجمهرة لابن دريد، فأخرج من الخزانة مائة نسخة منه»^(٤).

(١) انظر ترجمة الشمنى فى بغية الوعاة من ص ٣٧٥-٣٨١ الجزء الأول.

(٢) انظر ترجمة الكافيجى البغية ١١٧/١ - ١١٩.

(٣) حسن المحاضرة ١/٣٣٩. (٤) الخطط ١/٤٠٨.

ويذكر لنا المقرئ أيضاً أن أعظم خزائهم هي خزنة القصر الفاطمي، وقد تفرعت إلى أربعين خزنة، ومن جملتها خزنة واحدة كان فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة، ولكثرة الكتب في خزائن هذا القصر اختلف المؤرخون في عددها، فمن قائل إنها كانت تزيد على مائتي ألف مجلد... وبعضهم يرفع محتوياتها إلى ألفي كتاب، وقد ذكر ابن واصل أنها كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد^(١).

وفي عهد الأيوبيين تبذرت هذه الثروة الضخمة من الكتب التي تعددت في خزائن القصر وفي دار الحكمة وغيرها من المساجد والمدارس، بددوها، لأنها كانت تحمل طابع المذهب الشيعي، وليس هذا فحسب، بل لأنها كانت ملكاً للفاطميين بغض النظر عن موضوعاتها وموادها.

يدل على ذلك حديث العماد الخاص ببيع الكتب في يومين من كل أسبوعين^(٢) بالقصر ولكن مع هذا فإن الكتب لم تضيع كما ضاعت كتب بغداد، لأنها وجدت من يقدرها من العلماء والأدباء فقلوها إلى قصورهم وإلى مدارسهم كما فعل القاضي الفاضل الذي أنشأ مدرسته، وجعل فيها من الكتب التي كانت في القصر مائة ألف مجلد^(٣).

وليس معنى ذلك أن الأيوبيين قصروا في إنشاء المكتبات ففي عهدهم تباروا في جمع الكتب التي لا تحمل الطابع الشيعي، فقد ذكر لنا المؤرخون أن الملك الكامل أنشأ في مدرسته داراً للكتب عين لها أميناً يشرف عليها^(٤).

وفي عهد المماليك تبارى السلاطين والأمراء في إنشاء المكتبات العامة والخاصة، ففي كل مدرسة من المدارس التي ورثوها من الأيوبيين أنشئت مكتبة.. فالملك الظاهر بيبرس أنشأ في المدرسة الظاهرية خزنة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وكذلك فعل الناصر «قلاوون» فقد ألحق بالقبة مكتبة ضخمة، فيها عدة أحمال من الكتب في سائر العلوم ورتب لها أميناً ومساعدتين^(٥).

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) انظر الروضتين ١/ ٢٦٨.

(٣) الخطط المقرئ ٢/ ٢٥٥.

(٤) ذيل الروضتين ٦٥. شهاب الدين المقدسي طبعه أولى.

(٥) السلوك المقرئ ١/ ١٠٠١، وحسن المحاضرة ٢/ ١٤٣.

ويبدو أن نظام الاستعارة كان معمولاً به فى هذه المكتبات والخزائن فقد وجدت فى ترجمة أبى حيان الأندلسى أنه كان يعيب على مشترى الكتب ويقول له: «الله يرزقك عقلا تعيش به، أنا أى كتاب أردته استعرتته من خزائن الأوقاف، وإذا أردت من أحد أن يعيرنى دراهم ما أجد ذلك»^(١).

ومن أهم المكتبات التى عاصرها السيوطى المكتبة المحمودية التى أنشأها جمال الدين محمود بن على الإستدار سنة ٧٩٧هـ بقصبة رضوان، وهذه المكتبة علاقة السيوطى بها وطيدة، فقد نص السخاوى على أن السيوطى أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التى لا عهد لكثير من العصرين بها، فغير فيها يسيراً، وقدم وأخر، ونسبها لنفسه^(٢).

٤- المؤلفات العلمية:

فى عصر السيوطى ازدهر التأليف، وكثرت المصنفات، وقد قدمت هذه المؤلفات أو المصنفات يدا عظيمة للتراث الإسلامى والعربى، فقد ضاعت كتب وفقدت مصنفات، وبادت ذخائر من العلم بفنونه المختلفة فى لهيب هذه الأحداث الطاغية التى عمت العالم الإسلامى من شرقه إلى غربه والتى أوقد نارها، وأشعل لهيها غزو التتار للعالم الإسلامى، ولا أدل على ذلك مما كتبه صاحب الجوائب أحمد بن فارس عن لسان العرب «لابن منظور حيث يقول:» ولولا أن الله تعالى أودع فيه سرا مخصوصا لما بقى إلى الآن. بل كان لحق بنظرائه من الأمهات المطولة التى اغتالتها طوارق الحداثان^(٣).

وإذا نظرنا إلى الكتب المؤلفة فى مجال النحو فى هذه الفترة من التاريخ نجد أنها كثرت وتعددت وأثمرت ثماراً طيبة.

ومن أهم هذه الكتب: الكافية الشافية لابن مالك. والخلاصة أو الألفية له، وتسهيل الفوائد، وقد احتفظت المكتبة العربية بشروح عدة لهذه المؤلفات التى مازال بعضها يدرس حتى الآن.

(١) نفع الطيب ٢/٢٩٧.

(٢) الضوء اللامع ٣/٦٦.

(٣) انظر تقديم أحمد بن فارس للسان العرب / ٢.

ومن أشهر الكتب النحوية لابن هشام التي اسهمت في الحركة النحوية في عصر السيوطي كتاب «الإعراب في قواعد الإعراب»، و «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومغنى اللبيب عن كتب الأعراب».

ومما لا شك فيه أن هذه الكتب أضفت على العصر ازدهارا لم يعهد من قبل وتطورا ساعد على انتشار الفكر النحوي الذي كان له أكبر الأثر في تكوين السيوطي العلمي من الناحية اللغوية والنحوية.

5- نبوغه المبكر؛

القارئ لسيرة السيوطي الذاتية التي كتبها عن نفسه يرى أن السيوطي ظهرت بوادر نبوغه منذ أن شب عن الطوق فختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثمانين سنين^(١).

على أن والد السيوطي كان يحس أن لابنه شأنا، ولذلك كان يصحبه معه إلى مجالس العلماء يقول الغزالي: «وأحضره والده قبل موته وهو صغير مجلس رجل كبير من العلماء، أخبره بعض أصحاب أبيه أنه مجلس الحافظ ابن حجر»^(٢).

ولم ينس السيوطي أن يبين أنه مبارك النشأة، وأن سبب نبوغه نابع من هذه البركة، ولو لم يصرح بذلك قال: «وحملت في حياة أبي إلى الشيخ محمد المجنوب، رجل كان من كبار الأولياء بجوار المشهد النقيسي فبرك علي».

ويبين السيوطي أنه حضر على مشايخه كثيرا من العلوم المختلفة التي تعد لبنات في بناء صرحه العلمي، فمن نسيجها تكونت شخصيته، ومن معينها لمع نجمه، وسطمت شهرته.

ولإحساسه بنبوغه أجازوه بالتدريس في مجال العربية، وهذه الإجازة بدأت من وقت مبكر، فقد نص السيوطي في ترجمته لنفسه في كتابه: «حسن المحاضرة» أنه أجاز بالتدريس في مستهل سنة ست وستين^(٣) ومعنى ذلك أن سنه في هذا الوقت لا يتجاوز سبعة عشر عاما إذا علمنا أن مولده كان بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة^(٤).

(١) الكواكب السائرة ١/ ٢٢٦

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٦ ومعنى «برك علي» أي دعا له بالبركة.

(٤) المصدر نفسه.

ألا يدل ذلك على أن السيوطي جلس معلما وشيخا في هذه السنة مما يدل على عبقرية
مشتعلة، ونبوغ عظيم.

ومن أساتذته الذين كتبوا له إجازة عظيمة أستاذه الكافيجي، فبعد الحديث عنه قال:
«وكتب لي إجازة عظيمة»^(١).

وبعد،

فمما تقدم نستطيع أن نقول: إن السيوطي بعد أن تكونت شخصيته هذا التكوين العلمى
بدأ فى التأليف والتصنيف، وكثرت مؤلفاته، وتعددت تصانيفه، وبلغت المئات، وفاضت بها
المكتبات ولاعجب فى ذلك فلم يترك شيئا إلا كتب فيه، ولم يترك بابا من أبواب المعرفة إلا
فتح هذا الباب على مصراعيه.

كتب فى كل فن، وأبدع فى كل علم، وعاش فى محراب الفكر متبتلا قدم لنا هذا الزاد
الذى تفخر به المكتبة الإسلامية.

وكان السيوطي على حق حينما قال بدون مبالغة: «ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة
مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها، ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين
اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لاجهولى ولايقوتى»^(٢).

ولنا أن نتساءل: كيف استطاع السيوطي أن يؤلف هذا العدد الهائل من الكتب؟ ذلك
ماسنجيب عنه فى النقطة التالية:

ب- مؤلفات السيوطي فى الميزان؛

كان السيوطي دقيقا كل الدقة حينما حصر لنا مؤلفاته فى ترجمته الذاتية حيث ذكر أن
مؤلفاته بلغت ثلاثمائة كتاب سوى ما غسله ورجع عنه^(٣) غير أن الشيخ عبد الحى الكتانى
فى فهرس الفهارس (٢/ ٣٥٩) يقول: «وقد ظفرت بكراسة من تأليف السيوطي، عدد فيها
تأليفه إلى سنة ٩٠٤هـ قبل موته بسبع سنين، أوصل فيها عدد مؤلفاته إلى ٥٣٨»^(٤).

وقد اختلفت كتب الفهارس والتراجم فى أعداد هذه المؤلفات:

(١) انظر ترجمته فى حسن المحاضرة.

(٢) المصدر نفسه / ٣٣٩.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر مكتبة الجلال السيوطي / ٣٨.

فابن العماد في «شذرات الذهب»، ذهب إلى أن عدتها فاقت على خمسمائة مؤلف وحاجي خليفة في كشف الظنون أوصلها إلى ستمائة مؤلف.

وإسماعيل البغدادي في هدية العارفين أوصلها إلى ستمائة مؤلف وأوصلها «بروكلمان» إلى ٤٢٥ مؤلفا.

وقد أوصلها صاحب مكتبة الجلال السيوطي إلى ٧٢٥ مؤلفا^(١).

وأوصلها صاحباً: «دليل مخطوطات السيوطي» إلى ٩٨١ مؤلفا^(٢).

ولو نظرنا إلى هذه الأعداد التي تقرب من الألف لاستبدت بنا الحيرة واستولى علينا العجب، كيف يتأتى لرجل توفي عن ٦٢ سنة أن يستوعب هذا الكم الهائل من المعرفة لتصل مؤلفاته إلى هذا العدد الذي نسبه إليه مفرسو كتبه؟

يعتقد كثير من الباحثين أن السيوطي لم يجمع نصوص هذه المؤلفات بقلمه، وإنما جمعها طلابه وتلاميذه من المؤلفات التي ورثها عصر السيوطي من العصور التي سبقت.

وعمل تلاميذه كما يدعى بعض الباحثين هو التنقيب عن النصوص المختلفة في المكتبات المنتشرة في القاهرة وغيرها، وجمعها، ثم تقديمها للسيوطي ليرتبها حسب قدرته الاستيعابية لعلوم عصره، أي أن السيوطي قدمت له المادة فتولاها بالتنقيح والتهذيب، والتصنيف والتبويب مما ساعده على أن يقوم بتأليف هذه الكتب التي كثر عددها.

وفي رأيي أن هذا الرأي لو صح ما كان في ذلك نقص لفكر السيوطي أو اتهام لعقله فلا ضير على السيوطي أن يعمل في هذه النصوص التي جمعت عقله، ويطوعها فكره، ثم يخرجها شراباً سائفاً لمفكرى عصره ليرتووا منه، وفي ذلك إسهام فكري في ثقافة العصر من ناحية. وبناء علمي لتلاميذه حيث يعودهم على البحث ويدربهم على الجمع، ويعرفهم مصادر المعرفة من ناحية أخرى.

أقول: لو صح ذلك لما كان في ذلك عيب يلتصق بالسيوطي، لكن الأمر ليس كما يدعى هؤلاء الباحثون للأمر الآتية:

(١) مكتبة الجلال السيوطي / ٣٨، ٣٩.

(٢) انظر الصفحة الأخيرة من دليل مخطوطات السيوطي.

١- لم يحدثنا نقاد السيوطى ومنافسوه الذين عاصروه كالسخاوى وغيره بهذه الفكرة التى تتردد على السنة كثير من المفكرين فى العصر الحاضر، فعلى الرغم من ضراوة المنافسة التى كانت بينه وبين السخاوى لم نجد نصا واحدا يشير به السخاوى إلى هذا الادعاء، ولو كان الأمر كما يقولون لاتخذها السخاوى فرصة سانحة للتنديد بالرجل، وللتقليل من شأنه، لأن الممثل فى كتبه ليس له فيه إلا التهذيب والترتيب والتنظيم، وهذا لم يفعله السخاوى مما يؤكد أن التهمة باطلة، والادعاء ظالم.

٢- حقا إن السخاوى اتهمه بالاختلاس من مصنفات مشايخه حيث ذكر فى «الضوء اللامع» عند التعرض لمؤلفات السيوطى أن كتبه «فيها ما اختلسه عن تصانيف شيخنا: «لباب النقول فى أسباب النزول» و «عين الإصابة فى معرفة الصحابة» .. إلى أن يقول:» فكل هذه تصانيف شيخنا، وليته إذا اختلس لم يمسخها، ولو نسخها على وجهها لكان أنفع، وفيها مما هو لغيره الكثير»^(١).

رحم الله السخاوى، فقد كان مبالغا إلى حد كبير فى اتهامه السيوطى، ووجه المبالغة أن معظم مشايخ السخاوى هم مشايخ السيوطى، فلا يستطيع معاصر أن ينقل عن مشايخه المعاصرين الأحياء كتبهم، وينسبها لنفسه فى عصر ازدهرت ثقافته، ولا يخفى لصوص الكلمة على أحد، فأغلب الظن أن السخاوى أطلق الاتهام من غير أن يقدم الدليل، فلم يبين لنا الطريقة التى مسخ بها السيوطى كتب شيوخه، والاختلاس الذى اختلسه من مؤلفاتهم ومصنفاتهم، هذه ناحية.

وناحية أخرى، كيف يرضى شيوخه الأحياء أن تمسخ كتبهم أمام أعينهم وهم ساكتون مع أن هؤلاء الشيوخ أشادوا بالسيوطى وأجازوه؟

لهذا لا نأخذ بكلام السخاوى فى هذه القضية، لأنه كلام منافس لا يصدر منه إلا ما يكرهه السيوطى، وقد قال ابن عباس فى منافسة العلماء «العلماء أشد تغايرا من التيوس فى زروبيها»^(٢).

(١) انظر الضوء اللامع ٣/ ٥٦٨.

(٢) انظر مقدمة تدريب الراوى/ ١٧.

٣ - تحدثنا كتب التاريخ أن السيوطي «لما بلغ أربعين سنة من عمره أخذ في التجرد للعبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنه لم يعرف أحدا منهم»^(١).

ومعنى ذلك أن السيوطي تجرد للعبادة والتأليف، وترك الفتيا والتدريس وبقي على حاله في هذا الميدان طوال ٢٢ عاما، ففى خلال هذه المدة ألف هذا العدد الضخم من المؤلفات، وهذا أمر ليس بغريب، لأن السيوطي لم يشغله شىء فى الحياة سوى العلم، فإضافة مؤلفاته التى ألفها قبل سن الأربعين إلى المؤلفات التى ألفها فى فترة الانقطاع، ومدتها اثنان وعشرون عاما يتضح لنا أن هذه الكثرة طبيعية جدا، وليست غريبة لتُنسب إلى تلاميذه كما يدعى بعض المحدثين.

٤ - على أن المؤلفات بعضها لايتجاوز ورقات، أو فى حجم كراسة من الكراسات، وقد اعترف بذلك السخاوى نفسه حينما قال عن كتبه: «ورأيت فيها ما هو ورقة أو دون الكراسة»^(٢).

والناظر إلى مؤلفات السيوطي يجد أن السيوطي نفسه بين أن بعض مؤلفاته تلخيص عن مؤلفات أخرى له، أى أنه يلخص ما ألف ويسميه كتابا، وقد يعلق عليه ويسميه كتابا آخر، ومن هنا تعددت المؤلفات وكثرت.

٥ - الكثير من كتب السيوطي حواها كتاب: الحاوى للفتاوى «الذى طبع فى جزأين، ويحوى كثيرا من علوم الفقه والتفسير والنحو والإعراب، وسائر الفنون، يضم هذا المؤلف حوالى ٧٨ كتابا.

وقد ذكر الأستاذ المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم فى مقدمة تحقيقه كتاب «معترك الأقران» للسيوطي أنه إذا كان العدد الذى ذكره السيوطي وغيره يحوى أمثال هذه الكتب الصغيرة فليس بعيدا صحة ما نسب إليه من الكتب»^(٣).

٦ - تيسير الحصول على المراجع والمصادر، هذا التيسير لاشك أنه ساعد السيوطي على

(١) الكواكب السائرة ١/ ٢٢٨.

(٢) الضوء اللامع ٣/ ٦٨.

(٣) مقدمة الكتاب: «معترك الأقران» ص: ك.

إنجاز مؤلفاته بهذا العدد الوفير، والسرعة المنقطعة النظير، فالسيوطى أشار علماء عصره إلى إنه من المترددين على مكتبة المحمودية التى أشرنا إليها سابقا.

وكان للسيوطى رأى فى مراجع هذه المكتبة ومؤلفاتها، وخلاصة رأيه أن العلم لا يحبس، فمن حق القراء أن يستعمروا من هذه المكتبة ما شاءوا، ليقروا فى المكان الذى يستريحون إليه، وفى الوقت الذى يريدون تسهيلا لطلب المعرفة وتذليلا للبحث العلمى:

والذى حملة على ذلك أن واقف الكتب على هذه المكتبة اشترط ألا يخرج منها كتاب خارج مبنائها بإعارة أو غيرها.

وقد ظفرت بوثيقة تضم فتوى السيوطى فى شأن مؤلفات هذه المكتبة، وهى وثيقة رائعة تدل دلالة واضحة على قدسية العلم والمؤلفات فى هذا العصر المزدهر.

وقد نشرت هذه الوثيقة فى مجلة معهد المخطوطات العربية الجزء الأول من المجلد الرابع مايو ١٩٥٨م باسم: «بذل الجهود فى خزانة محمود، بتحقيق الأستاذ المرحوم فؤاد سيد.

وهذه الوثيقة بخط شهاب الدين بن ناصر الدين بن أحمد بن محمد بن يوسف العبادى الغمرى الشافعى المتوفى ٩٨١هـ^(١).

وقد سجلت فى كتابى: «جلال الدين السيوطى وأثره فى الدراسات اللغوية»^(٢) نص هذه الوثيقة التى عرض فيها لأراء علماء عصره فى شروط هذا الوقف.

ويتضح من عرض هذه الآراء أن السيوطى كان يميل إلى الرأى الذى يقول «إن مقصود الواقف تمام النفع وتمام الحفظ، فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بها فى تصنيف، وذلك لا يمكنه على الوجه الأتم فى المدرسة، ووثق بتمام حفظه وصونه جاز الإخراج له، ويستثنى من المنع»^(٣).

وقبل أن نهى الحديث فى قضية كتب السيوطى المتعددة أحب أن استنبط من هذه الفتوى

(١) انظر مجلة معهد المخطوطات العربية / ١٣٤.

(٢) انظر هذه الوثيقة ٢٩٣-٢٩٦.

(٣) انظر الوثيقة / ٢٩٤.

كما استنبط السيوطى أن وراء هذه الفتوى هدفا كبيرا للسيوطى، وهو الانتفاع بذخائر هذه المكتبة، ويبدو أنها مكتبة تميزت عن المكتبات الأخرى السائدة بأنها تحوى كتباً نادرة لا توجد فى غيرها، ومراجع ثمينة لا توجد إلا فيها.

وبعد هذه الجولة التى تعتبر ضرورة لا بد منها، لأنها وضعت النقاط على الحروف بالنسبة لشخصية السيوطى العلمية - ننتقل إلى السيوطى النحوى، فبإعانه فى النحو طويل، وقدرته فى مجاله فائقة، ومعرفته بقضاياها رائعة.

ج. السيوطى فى ميدان النحو العربى؛

للسيوطى مؤلفات عدة فى النحو العربى منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو مخطوط ومنها ما هو مفقود.

أما الكتب التى طبعت وحقت فهى ما يلى:

١- همع الهوامع شرح جمع الجوامع فى سبعة مجلدات بتحقيقى، واشترك معى فى تحقيق الجزء الأول منه أستاذنا المغفور له عبد السلام هارون.

٢- الأشباه والنظائر فى النحو بتحقيقى فى تسعة مجلدات.

٣- شرح شواهد المغنى بتعليق ابن التلاميذ الشنقيطى - لجنة إحياء التراث العربى.

٤- شرح ألفية ابن مالك، ويسمى «البهجة المرضية فى شرح الألفية» - طبع بتحقيق عبد القادر أحمد عبدالقادر - كلية آداب - جامعة دمشق.

٥- الاقتراح فى أصول النحو وجدله.

نشر محققا بتحقيق الدكتور أحمد محمد قاسم.

٦- «مسألة ضربى زيدا قائما».

هو مؤلف ألحق بالأشباه والنظائر فى نسخه المخطوطة، وليس له ذكر فى النسخة المطبوعة قديما. وقد حقت هذه المسألة ضمن تحقيقى لكتاب «الأشباه والنظائر».

هذا وقد سقط هذا المؤلف من سجل فهرس مكتبة الجلال السيوطى «مع أن السيوطى أشار إليه ضمن كتبه فى «حسن المحاضرة».

٧- الفريد فى النحو والتصريف والخط:

طبع محققا بوزارة الأوقاف العراقية - «قسم التراث» تحقيق الشيخ عبد الكريم مدراس وطبع محققا مرة أخرى بدار الرسالة ببغداد بتحقيق الدكتور نيهان ياسين حسين.

وأما الكتب المطبوعة التى لم تحقق فهى ما يلى:

١- «الأخبار المروية فى سبب وضع العربية».

طبع ضمن مجموعة: «التحفة البهية» والطرفة الشهية بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢هـ.

٢- «رفع السنة فى نصب الزنة»^(١) طبع ضمن: «الحاوى للفتاوى».

٣- فجر الثمد فى إعراب أكمل الحمد طبع ضمن كتاب «الحاوى للفتاوى» للسيوطى.

٤- الزند الورى فى الجواب عن السؤال السكندرى «طبع ضمن: الحاوى للفتاوى».

وأما الكتب المخطوطة التى مازالت فى رفوف المكتبات تنتظر البعث والنشور فهى

مايلى:

١- النكت على الألفية والكافية والشافية والشذور والنزهة (أى نزهة الطرف

«للميدانى»).

٢- الفتح القريب على معنى اللبيب.

٣- شرح الملح وهو ملححة الإعراب المشهورة بتأليف الحريرى.

٤- المصاعد العلية فى القواعد النحوية.

٥- الشمعة المضئية فى علم العربية.

٦- درة التاج فى إعراب مشكل المنهاج.

٧- التوشيح على التوضيح لابن هشام.

٨- تعريف الأعجم بحروف المعجم

٩- نكت على حرف الشواهد للمغنى.

(١) فى قوله صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله زنة عرشه»

وهناك كتب مفقودة أشار إليها السيوطى فى «حسن المحاضرة» ضمن مؤلفاته وليس لها ذكر فى كتب الفهارس التى احتوت مؤلفات السيوطى مخطوطة أو مطبوعة وهى كما يلى:

١- مختصر الملحّة.

٢- مختصر الألفية ودقائقها.

٣- شرح كافية ابن مالك.

٤- السلسلة الموشحة.

٥ - الشهد فى النحو.

٦- شذا العرف فى إثبات المعنى للحرف.

٧- السيف الصقيل فى حواشى ابن عقيل.

٨- حاشية على شرح شذور الذهب.

٩- شرح القصيدة الكافية فى التصريف.

١٠- قطر النداء فى ورود الهمزة للنداء.

١١- شرح ضرورى التصريف لابن مالك.

هذه مجمل مؤلفات السيوطى فى مجال النحو العربى حرصت على تسجيلها لتسير الطريق أمام المحققين والدارسين من أجل تحقيق ما لم يحقق من المطبوعات والمخطوطات. على أن أماكن المخطوطات التى سجلتها هنا ذكرتها فى كتابى الذى تم نشره بعنوان «جلال الدين السيوطى وأثره فى الدراسات اللغوية».

هذا ومن أهم كتب السيوطى النحوية «ممع الهوامع شرح جمع الجوامع» الذى سنخصه بمزيد من البحث، لأنه أثرى النحو العربى، والذى يعتبر بحق قرآن النحو، والذى أفاد منه الدارسون فى حركة تسيير النحو.

د- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع:

من ترجمة السيوطي لنفسه عند الإشارة إلى مؤلفاته في فن العربية وتعلقاته ذكر أن من مؤلفاته: «جمع الجوامع» وشرحه يسمى: «همع الهوامع»^(١).

١- أهمية «همع الهوامع»:

يعتبر همع الهوامع أهم كتاب في النحو العربي للأمر الآتية:

= الكتاب سجل حافل بمسائل النحو، وقضاياها منذ عصر سيويه إلى عصر المؤلف.

= وهو موسوعة ضخمة في الشواهد الشعرية.

وقد وفقني الله تعالى إلى تحقيقه في سبعة مجلدات، تم طبعها ونشرها منذ سنوات.

وقد بلغت شواهد ١٨٢٠ شاهدا، رقتها عند تحقيقي لها.

= اعتمد مؤلفه كما يقول في مقدمته على أكثر من مائة مرجع، وبعض هذه المراجع

مفقودة من المكتبة العربية، وبذلك يتيح للباحثين، وبخاصة طلاب الدراسات العليا الفرصة

للوقوف على نصوص نحوية أو لغوية من مراجع مفقودة.

= معظم الكتب النحوية التي يدرسها الطلاب في الجامعات العربية وغيرها كالتصريح

وحاشية الصبان، وحاشية يتس والخضري، كلها تعتمد في كثير من المسائل على كتاب: «همع

الهوامع» من الاستدلال به، ونقل النصوص منه^(٢).

٢- منهجة في تأليف همع:

حصر منهجه التأليف لهذا الكتاب في مقدمات وسبعة كتب، فقال مشيرا إلى منهجه

بعد مقدمة الافتتاح:

= المقدمات: تعريف الكلمة وأقسامها، والكلام والكلم والجملة، والقول، والإعراب

والبناء، والمنصرف وغيره، والنكرة والمعرفة وأقسامها.

= الكتب:

= الكتاب الأول: في العمد، وهي المرفوعات، وماشابهها من منصوب النواسخ.

(١) في القاموس: «همع» جمعت عينه همعا وهموعا وهمانا: أسالت الدمع، وسحاب همع: ماطر.

وفي اللسان: «همع»: وسحاب همع: ماطر بنونه على صيغة: هَطَل.

(٢) انظر مقدمة همع الهوامع بتحقيقي.

= الكتاب الثاني: فى الفضلات وهى المنصوبات.

= الكتاب الثالث: فى المجزورات، وما حمل عليها من الجزومات، وما يتبعها من الكلام على أدوات التعليق غير الجازمة، وما ضم إليها من بقية حروف المعانى.

= الكتاب الرابع: فى العوامل من هذه الأنواع، وهو الفعل وما ألحق به، وختم باشتغالها عن معمولاتها، وتنازعها فيها.

= الكتاب الخامس: فى التوابع لهذه الأنواع، وعوارض التركيب الإهراي من تغيير كالإخبار والحكاية والتسمية، وضرائر الشعر، وهذه الكتب الخمسة فى النحو.
= الكتاب السادس: فى الأبنية.

= الكتاب السابع: فى تغييرات الكلم الإفرادية كالزيادة والحذف، والإبدال، والنقل، والإدغام، وختم بما يناسبه من خاتمة الخط.

وهذا المنهج أحسن السيوطى أنه منهج فريد لم يسبق إليه.

فقال: «هذا ترتيب بديع لم أسبق إليه، حذوت فيه حذو كتب الأصول.

وفى جعلها سبعا مناسبة لطيفة مأخوذة من حديث ابن حبان وغيره.

«إن الله وتر يحب الوتر، أما ترى السموات سبعا، والأيام سبعا، والطواف سبعا»^(١).

٣- ظواهر من منهج السيوطى فى تأليف الهمع:

أ- ترك بياض أو فراغ فى بعض النصوص التى أوردتها فى كتابه، وإذا بتر النص وتقطعت أوصاله عز على القارىء فهمه وصعب على الباحث إدراكه، وليس السيوطى وحده فى هذا المضمار، فكثير من كتب التراث المخطوطة والمطبوعة سمت بعض نصوصها بهذا البياض أو الفراغ.

وقد أدرك الدكتور (فرانتز روزنتال) فى كتابه: «مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى» هذ الظاهرة وعللها تعليلا مقبولا فقال ما نصه:

«ومن اسباب اختلاف القراءات فى المخطوطات عادة المؤلفين والعلماء فى ترك بياض أو فراغ فى مصنفاتهم لإضافات يضيفونها هم أو غيرهم فيما بعد، وذلك لأنه قد يصدق أنهم عندما كانوا يكتبون لم تتوفر لهم هذه المعلومات تركوا لها فراغا»^(٢).

(١) انظر مقدمة همع الهوامع بتحقيقى.

(٢) مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى/ ٨٣، ٨٤.

وقد استطعت بحمد الله تعالى أن أعثر على معظم النصوص المفقودة في همع الهوامع. وهي نصوص فقدت في النسخة المطبوعة طبعة يتيمة سنة ١٣٢٧ هـ بمطبعة السعادة بمصر، وفقدت في النسخ المخطوطة التي حققت الهمع في ضوئها.

ومن هذه النصوص التي فقدت وعثرت عليها في كتب التراث النص الذي ذكرته في هامش ص ٨١ من الجزء الثاني حيث ذكر السيوطي أربع مسائل، ذكر منها ثلاثاً ثم قال: الرابعة... وبعدها بياض ومن ذلك مثلاً النص الذي ذكر فيه: وزعم الحريري.. وبعده بياض. انظر هامش ص ٢١٣ الجزء الثاني. وغير ذلك كثير.

ب- الكتاب لم يسر على نسق واحد، حيث بدأ فيه أولاً بذكر نصوص: «جمع الجوامع» متكاملة ثم يذيلها ويعلق عليها بالشرح بعد ذلك.

وسار على هذا النهج حتى نهاية نواصب المضارع. ثم بعد ذلك غير طريقته فمزج المتن بالشرح أى مزج الجمع بالهمع، ثم عاد بعد ذلك إلى نهاية الكتاب على الطريقة الأولى. ولعل ضيق الوقت، والعجلة في الجمع، والتسرع في الحصول على النصوص كان ذلك هو السبب في عدم التزامه طريقة واحدة.

وقد أحس السيوطي بهذا العيب المتمثل في عدم التزامه طريقة واحدة في الشرح فقال: بعد انتهائه من نواصب المضارع، والبداية في الكتاب الثالث في المجرورات ما نصه:

وقد انقضى القول في شرح الكتاب الثاني من كتابنا «جمع الجوامع» وهذا القدر إلى هنا نصف الكتاب، وأعلم أنى لما شرعت في شرحه كنت بدأت أولاً بشرح النصف الثاني، فكتبت من أول الكتاب الثالث إلى بناء جمع التكسير على طريقة المزج، ثم بدا لى أن أغير الأسلوب فشرعت من أوله على النمط المتقدم. وكان في نيتي الاستمرار على هذه الطريقة إلى آخر الكتاب وإلغاء القطعة التي كتبتها أولاً بمزوجة، ثم لما ضاق الزمان عن ذلك أبقيت كل قطعة على حكمها وضممت هذه القطعة إلى تلك، ووصلت بينهما.

ولا يضير كون الشرح على أسلوبين، نصفه بلا مزج، ونصفه ممزوج ونعود هناك إن شاء الله إلى تكملة بقية الكتاب من جمع التكسير إلى اخره على طريقة أوله^(١).

(١) انظر همع الهوامع ١٤٩/٤ بتحقيقى .

ج - ومن الظواهر اللافتة للنظر أمانته فى النقل، فلا ينقل نصا إلا وينسبه إلى صاحبه أو يرجعه إلى مصدره، وهى سمة بارزة فى كل ما كتبه السيوطى نحواً أو لغة أو فقها وحديثاً، ولا أدل على ذلك من القصة التى ساقها فى مجال الأمانة من حيث نقل العلم ومسائله فى كتابه «الأشباه والنظائر» وملخص هذه القصة أن الشيخ بهاء الدين بن النحاس وجد بخط على بن عثمان بن جنى عن أبيه «أن الفروع هى المحتاجة إلى العلامات، والأصول لا تحتاج إلى علامة بدليل أنك تقول فى المذكر: قائم، وإذا أردت التأنيث قلت: قائمة، فجئت بالعلامة عند المؤنث، ولم تأت للمذكر بعلامة، وتقول: رأيت رجلاً فلا يحتاج إلى العلامة، وإن أردت التعريف أدخلت العلامة، فقلت رأيت الرجل، فأدخلت العلامة فى الفرع الذى هو التعريف، ولم تدخلها فى التنكير، وإذا أردت بالفعل المضارع الاستقبال أدخلت عليه السين لندل بها على استقباله، وذلك يدل على أن أصله موضوع للحال، ولو كان الاستقبال فيه أصلاً لما احتاج إلى علامة» انتهى.

نقل السيوطى هذه القصة من كلام الشيخ بهاء الدين بن النحاس فى «التعليقة» (أى التعليق على المقرب لابن عصفور) وختمها بقوله: انتهى، ثم علق عليها بقوله: «وانظر إلى دين الشيخ بهاء الدين بأمانته، كيف وجد فائدة بخط ولد ابن جنى نقلها عن أبيه، ولم تسطر فى كتاب، ولم يستجز ذكرها من غير عزو إليه، لا كالسارق الذى أغار على تصانيفى التى أقلت فى تتبعها سنين وهى، كتاب: «المعجزات الكبير» وكتاب: «الخصائص الصغرى» وغير ذلك فرقها وضمها، وغيرها مما سرقه من كتاب الخيضرى والسخاوى فى مجموع وادعاه لنفسه، ولم يعمز إلى كتبى، وكتب الخيضرى والسخاوى شيئاً مما نقله منها، وليس هذا من أداء الأمانة فى العلم»^(١).

وكل النصوص التى ساقها فى كتابه الهمع ينسبها إلى أصحابها، ويختمها بقوله: «انتهى».

د - ومن الظواهر أيضاً أنه يشيد بمنهجه فى الظروف المبنيات ويقول:

«أوردت فى هذا الفصل ما لم اسبق إلى جمعه واستيفائه من مبنى ظرف الزمان والمكان مرتباً على حروف المعجم»^(٢).

(١) انظر الأشباه والنظائر بتحقيقى ٢/٢٨٣.

(٢) الهمع ٣/١٧١.

ومعنى ذلك أنه فى هذا الفصل الذى ساقه فى الظروف المبينة ابتكر منهجه ولم يسبقه أحد إلى هذا الابتكار.

هـ- ظاهرة جمع المذاهب النحوية للبصريين والكوفيين والبغداديين، وآراء كبار النحاة إلى عصره عرضها فى هذا الكتاب، وله من هذه المذاهب والآراء وقفات تدل على دقته فى المناقشة، وقدرته على الترجيح، وتوفيقه فى الاختيار.

و- مصادر هذا الكتاب متعددة، كثرت فى متنه «جمع الجوامع» حتى وصلت إلى مائة مصنف، كما ذكر.

ولم يعدد الرجل المصادر التى ضمها شرحه لهذا المتن فى كتابه الهمع، وقد استطعت أن أحصرها فى فهرس الهمع فى ١٤٥ مصدرا.

ولاشك أن هذا يدل على أن السيوطى كان مستوعبا للمكتبة الإسلامية والعربية، لأن توافر هذا العدد لديه فى وقت لم تظهر فيه الطباعة يشير فى وضوح إلى أن الرجل وضع يده على معظم المؤلفات النحوية التى بدأت بكتاب سيويه، وانتهت إلى مؤلفات علماء عصره.

هذا وقد اتهم بعض النقاد المحدثين أن السيوطى عارض آراء وباسط نقول ومسجل نصوص، وليس له من فضل إلا فضل الجمع والتبويب.

ولعل هؤلاء المحدثين تأثروا بخصمه السخاوى حين اتهمه بالتحريف والتصحيف قال السخاوى: «كل ذلك مع كثرة ما يقع له من التحريف والتصحيف، وما ينشأ من عدم فهم المراد، لكونه لم يزاحم الفضلاء فى دروسهم، ولا جلس بينهم... بل استمد مذهبه من بطون الدفاتر والكتب»^(١).

ولله در الشوكاتى فقد دافع عن السيوطى، ونفى عنه هذا الاتهام، فقال رادا على من اتهمه بالمسخ والأخذ ما نصه:

«وليس بعيب، فإن هذا مازال دأب المصنفين يأتى الآخر، فيأخذ من كتب من قبله، فيختصر أو يوضح، أو يعترض، أو نحو ذلك من الأغراض التى هى الباعثة على التصنيف، ومن ذاك الذى يعمد على فن قد صنف فيه من قبله فلا يأخذ كلامه؟»^(٢).

(١) الضوء اللامع ٣/ ٦٩.

(٢) البدر الطالع، الجزء الأول ترجمة رقم ٢٢٨.

وللرد على هؤلاء الذين اتهموا السيوطى بأنه جامع لامبتكر، وأن شخصيته لانتجاوز عرض الآراء وتبويبها. نرد على هؤلاء بأن السيوطى، وبخاصة فى كتابه مع الهوامع له اختيارات تقوم على التعليل والتدليل، كما أن له آراء مستقلة خالف فيه غيره من كبار النحويين، فضلا عن الانتقادات التى وجهها إلى كبار الشيوخ السابقين واللاحقين من النحاة المعاصرين.

آراء السيوطى النحوية

أ- آراء اختارها وعلل لها من ذلك مايلي:

* فى زمان المضارع خمسة أقوال. هل هو للحال أو للاستقبال أو هو مشترك بين الحال والاستقبال.

قال السيوطى: الرابع أنه حقيقة فى الحال، مجاز فى الاستقبال، وعليه الفارسى وابن ابي ركب، قال السيوطى: وهو المختار عندى بدليل حملة على الحال عند التجرد من القرائن، وهذا شأن الحقيقة، ودخول السين عليه لإفادة الاستقبال، ولاندخل العلامة إلا على الفروع كعلامات التثنية والجمع^(١).

* فى: «قبضت عشرة ليس غير».

قال السيوطى: الأخصش يقول بإعرابها (أى غير) «فى الضم والفتح معا وإن حذف التنوين لانتظار المضاف إليه، وعلى الفتح هى خبر ليس، والاسم محذوف، أى ليس المقبوض غير ذلك». قال السيوطى: «وهو المختار عندى لما تقدم فى أى الموصولة^(٢)».

* يختار رأى ابن عصفور ويعلل له فى أن الجمهور يرى أن الفعل بعد «لن» لا يخرج عن كونه خبرا كحاله بعد سائر حروف النفى غير «لا» وذهب قوم إلى أنه قد يخرج بعد «لن» إلى الدعاء كحاله بعد «لا» قال الشاعر فى «لا»:

* ولازال منهلا بجرعائك القطر *

وقال فى لن:

لن تزالوا كذلكم ثم لازل
ت لكم خالدا خلود الجبال

(١) مع الهوامع ١/١٨.

(٢) الهمع ٣/١٩٧.

وهذا القول اختاره ابن عصفور، وهو المختار عندي، لأن عطف الدعاء في البيت قرينة ظاهرة في أن المعطوف عليه دعاء لا خبر^(١).

* ويختار رأى شيخه الكافيجي في إعراب «درهم» مبتدأ في قولهم «بحسبك درهم»، و «بحسبك» خبر مقدم نظرا للمعنى لأنه محط الفائدة، إذا قصد الإخبار عن درهم بأنه كافيهِ وما قاله شيخنا هو الصواب.

وعلق على مقاله النحويون في أن: «بحسبك مبتدأ، والباء حرف جر زائد غير مرضى»^(٢).

وهناك آراء أخرى كثيرة اختارها السيوطي وعلل لها ولايتسع البحث لذكر الكثير منها، ونكتفي بالأمثلة التي ذكرتها لتكون دليلا على أن السيوطي إذا اختار، اختار بعقل واع، وفكر مستنير مع التعليل المقبول لما اختاره.

ب- وللسيوطي في كتابه همع الهوامع آراء مستقلة لم يقلد فيها أحدا من النحويين ولم يسر فيها على درب من سبقه أو عاصره، مما يدل على تمرس كامل بالنحو وقضاياها. فمن آرائه النحوية المستقلة ما يلي:

* «في كأن» قال السيوطي! و «كأن» للتشبيه لامعنى لها عند البصريين غيره، وزعم الكوفيون أنها تأتي للتحقيق والوجوب كقوله:

فأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

أى «أن» الأرض، لأنه قد مات ورثاه بذلك.

وخرجه ابن مالك: على أن الكاف للتعليل كاللام، أى لأن الأرض.

قال السيوطي: «قلت وعندي تخريج أحسن من هذا، وهو أنه من باب تجاهل العارف كقوله:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف^(٣).

(١) الهمع ٩٦/٤.

(٢) الهمع ٥/٢.

(٤) الهمع ١٥٠/٢-١٥١.

* فى تنوين المنادى:-

قال السيوطى: يجوز تنوين المنادى المبني فى الضرورة بالإجماع. ثم اختلف: هل الأولى بقاء ضمه أو نصبه؟

فالتحليل وسيبويه والمازنى على الأول علماً كان أو نكرة مقصودة كقوله:

* سلام الله يامطر عليها *

وأبو عمرو وعيسى بن عمر والجرمى والمبرد على الثانى رداً إلى أصله كما رد المنصرف إلى الكسر عند تنوينه فى الضرورة كقوله:

* يا عدياً لقد وقتك أواقى *

واختار ابن مالك فى شرح التسهيل، بقاء الضم فى العلم، والنصب فى النكرة المعينة لأن شبهها بالمضمر أضعف.

قال السيوطى: «وعندى عكسه، وهو اختيار النصب فى العلم، لعدم الإلباس فيه والضم فى النكرة المعينة، لثلا يلتبس بالنكرة غير المقصودة، إذ لا فارق حيثئذ إلا الحركة لاستوائهما فى التنوين» ثم قال «ولم أقف على هذا الرأى لأحد»^(١).

* وفى التلقى بالقسم:-

قال السيوطى: «ويتلقى فى القسم بـ«ما» و«لا»، و«إن».... قيل: و«لن» و«لم» فى الفعلية كقول أبى طالب:

* والله لن يصلوا إليك بجمعهم *

وحكى الأصمعى: أنه قال لأعرابى: ألك بنون؟ قال: نعم، وخالفهم لم تقم عن مثلهم منجية».

ومن الآراء التى ساقها أنه يجوز التلقى بـ«لم» دون «لن»، نقله أبو حيان: عن محمد بن خلصة الضرير، «قال: و«لن» وإن كانت كـ«لا» فى نفي المستقبل إلا أنها نفى لـ«سيفعل»، فلما كانت فى مقابلة السين لم يتلق بها كالسين» قال السيوطى مدلياً بدلوه بين الدلاء:

(١) مع الهوامع ٣/ ٤٢-٤٣.

وعندى عكسه، وهو جواز التلقى بـ «لن» دون «لم» لأنها للماضى والقسم بالمستقبل أجدر، ولأن المثال السابق^(١) يظهر فيه الحمل على الاستئناف، وتام الكلام عند «وخالقهم» والبيت لا يحتمله وما قاله من إلحاقها بالسين مردود، لأن الحرف المتلقى به جعل لتأكيد الجملة المقسم عليها، ولا تأكيد فى السين، ولن يفيد تأكيد النفى، فالتلقى بها حينئذ أحسن»^(٢).

* فى باب «إذ» و«إذا».

يذكر السيوطى أن «إذ تلزم الظرفية، فلا تتصرف بأن تكون فاعلة أو مبتدأة إلا أن يضاف اسم الزمان إليها نحو: حينئذ، ويومئذ.... ثم قال: «قولى: وألحق بها شيخنا الكافيجى^(٣) فى ذلك» أشرت إلى مسألة غريبة قل من تعرض لها، وذلك أنى سمعت شيخنا رحمه الله يقول فى قوله تعالى: «وَلَيْتِنِ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ»^(٤)، ليست «إذا» هذه الكلمة المعهودة، وإنما هى «إذا» الشرطية حذف جملتها التى تضاف إليها، وعوض فيها التنوين كما فى «يومئذ»، وكنت استحسن هذا جدا، وأظن أن الشيخ لا سلف له فى ذلك... وقد أوسعت الكلام فى ذلك فى «الإتقان» و«حاشية المغنى»^(٥).

وبعد.. فهذه جملة من آراء السيوطى المستقلة فى كتابه معع الهوامع، ومع هذا الآراء المستقلة فقد استطاع السيوطى بما أوتى من فكر ثاقب ونظر دقيق أن يوجه نقده إلى كثير من النحويين.

ج. السيوطى الناقد:

من هذه الآراء التى نقد بها كبار النحويين ما يلى:

* نقده لابن الطراوة: فى جواز تقديم الخبر أو تأخيرها، سواء اعتمد على نفى أو استفهام أو لم يعتمد، والبصريون يجيزون ذلك بسماع حكى: «تميمى أنا».

قال السيوطى: «وذهب ابن الطراوة إلى جواز «زيد أخوك» دون «قائم زيد» بناء على مذهب له غريب خارج عن قانون العربية، وقد أشرت إليه فى كتاب: «الاقتراح فى أصول النحو» وتركته هنا لسخافته»^(٦).

(١) «نعم وخالقهم لم تقم عن مثلهم منجبة».

(٢) الهمع ٤/ ٢٤٤. (٣) عبارة المتن: «جمع الجوامع».

(٤) المؤمنون/ ٣٤.

(٥) الهمع ٣/ ١٧٥. (٦) الهمع ٢/ ٣٨.

• وينقد ابن هشام في علم جواز «لا غير»

ذكر ابن هشام أن «غير» مبنى على الضم لحذف المضاف إليه بعد «ليس»: كقولهم: قبضت عشرة ليس غير. قال السيوطي: «وذكر ابن هشام أن شروطها أن تقع بعد ليس، وأن قول الفقهاء «لا غير» لحن، وليس كما قال، فقد صرح السيرافي وابن السراج وأبو حيان أن «لا» و«ليس» سواء في ذلك وأنشد ابن مالك:

* لعن عمل أسلفت لا غير تسأل * (١)

وينقد ابن هشام مرة أخرى ويتهمه بالسهو في «لو» التي للتمنى: قال السيوطي: وترد «لو» للتمنى كقولك: «لو تأتيني فتحدثني».

وأنكر ذلك قوم، وقالوا: ليست قسما برأسها، وإنما هي الشرطية، أشربت معنى التمني، وعلى الأول لا جواب لها في الأصح..... ونقل الشيخ جمال الدين بن هشام في «المغنى» عن ابن الصائغ وابن هشام (٢) أنهما قالوا: «يحتاج إلى جواب كجواب الشرط وهو سهو» (٣).

وينقد شيخه السبكي:

السيوطي في الأبنية من كتاب الهمع تحدث عن فعل التعجب وعن شروطه. فمن شروطه أن يكون قابلا للكثرة. قال السيوطي: قال أبو حيان: وشذ «قولهم: ما أعظم الله وما أقدره في قوله:

* ما أقدر الله أن يدنى على شحط *

لعدم قبول صفات الله الكثرة. والمختار وفاقا للسبكي وجماعة.... جوازه. والمعنى في: «ما أعظم الله» أنه غاية في العظمة، ومعنى التعجب فيه أنه لا ينكر، لأنه مما تحار فيه العقول، وإعظامه تعالى وتعظيمه: الثناء عليه بالعظمة، واعتقادها، وكلاهما حاصل والموجب لهما أمر عظيم. والدليل على جواز إطلاق صفة التعجب والتفضيل في صفاته تعالى لقوله: «أسمع بهم وأبصر» (٤) أي ما أسمعهم وما أبصره.

(١) الهمع ٣/ ١٩٧.

(٢) ابن هشام الخضراوي، وليس ابن هشام صاحب المغنى.

(٤) مريم / ٣٨.

(٣) الهمع ٤/ ٣٥١.

وقول أبي بكر رضى الله عنه فيما رواه ابن إسحاق فى السيرة عنه «أى رب ما أحلمك، أى رب ما أحلمك» .

وقوله صلى الله عليه وسلم «لله أرحم^(١) بالمؤمن من هذه بولدها»، وقوله لابن مسعود وقد ضرب مملوكه: «لله أقدر عليك منك عليه» رواه مسلم.

فهذه شواهد صحيحة لم يذكر السبكى منها إلا أثر أبى بكر، وعجت كيف لم يذكر^(٢) هذين الحديثين المشهورين، والعذر له أنه تكلم على التعجب، وهما فى التفضيل.

ونكتفى بهذا القدر الذى ذكرناه حول آراء السيوطى فى اختياره، وفى استقلاله وفى نقده، وهى آراء تدحض آراء الذين يتهمونه بأنه ناقل وليس بمبدع، وهذا فى الحقيقة ظلم للرجل ونقص لفضله، وجحد لمكانته.

والإبداع من وجهة نظرى ليس ابتكارا فحسب، على الرغم من أن كلمة ابتكار تحتاج إلى نقاش، لأن الابتكار لا يكون من فراغ، وإلا تحول إلى خيال بعيد من الواقع، وبعده عن الواقع ينفى عنه الإبداع، فكل ابتكار لابد له من أصول يركز عليها من الدراسات التراثية ليصحح نظرية، أو يعدل رأيا، أو يضيف فكرة أو يستخرج من الأصول جديدا لم يسبق إليه.

وإذا نظرنا إلى السيوطى فى كتبه المتعددة الألوان، نجد أن السيوطى مبدع غاية الإبداع.. وأى إبداع أكثر من أنه إذا عرض لفكرة حشد لها من النصوص ما أضاء جوانبها وكشف غامضها، وجلاها واضحة مشرقة؟

وأى إبداع أكثر من جريه وراء النصوص يتبعها هنا وهناك فى كل أماكنها، ليظفر بها ويستخرج منها ما يريد استخراجها.

وأى إبداع أكثر من عرضه نصوصا غابت عنا مصادرهما، وعز وجودها، ولولا كتب السيوطى لما رأينا لها أثرا، ولا عرفنا لها خبرا، ولا شهدنا لها وجودا.

السيوطى إذا بما قدم لتراثنا العربى من غربلة محمودة ونقد بناء، مجدد مبدع^(٣). على أن السيوطى فى موسوعته النحوية همع الهوامع قدم للحركة النحوية المعاصرة فى تيسير النحو

(١) هذه صيغة تفضيل وشروطه كشرط صيغة فعل التعجب .

(٢) الهمع ٤٧ / ٦ .

(٣) انظر جلال الدين السيوطى وأثره فى الدراسات اللغوية / ٥٧٦ .

زادا ويرا اعتمدت عليه في تجديد المسائل النحوية وتيسيرها لتكون سهلة التناول قريبة الفهم لدى ناشئة المعلمين.

٥. همع الهوامع وحركة التيسير:

في كتاب أستاذنا شوقي ضيف: «تيسير النحو التعليمي» عرض لنا نص الجاحظ الذي راعه كثرة التفريعات في النحو العربي، وأنه من العسير على الدارسين الناشئين أن يلموا بها أو يستوعبوا تعليقاتها.

يقول الدكتور شوقي: «وقد طالب الجاحظ معلمى العربية منذ اثني عشر قرنا بتبسيط النحو للناشئة والاكتفاء بتعليمها قواعد الأساسية التي تكفل لها السلامة من اللحن في كتاب إن كتبه، وشيء إن وصفته وشعر إن أنشدته بقول الجاحظ: «وما زاد على ذلك فهو مشغلة لها عما هي أولى به، وعويص النحو لا يجرى في المعاملات ولا يضطر إليه شيء».

وإذا كان الجاحظ دعا إلى تبسيط العربية للناشئة في زمن من أزمنة ازدهارها، فأولى لنا أن ندعو إلى التبسيط للناشئة في زمننا الذي بعد قرونا طويلة عن أزمنة هذا الازدهار^(١).

وفي قراءتي للحركة التيسيرية للنحو التعليمي التي سجلها أستاذنا في كتابه رأيت الهمع يطل بوجهه في كل صفحة من صفحات هذه الحركة التيسيرية، والنماذج الآتية توضح هذه الظاهرة تمام التوضيح.

١ - إلغاء عمل كان وأخواتها في خبر المبتدأ اعتمادا على مذهب الكوفيين حيث «أراحوا الناشئة إذ أعربوا كان وأخواتها أفعالا تامة لا ناقصة وما بعدها فواعل، والمنصوب أحوالا»^(٢). وهذا الذي ذكره الدكتور شوقي اعتمد فيه على كتاب «همع الهوامع»، إذ يقول السيوطي في الهمع بصدد رفع الاسم بعدها وانتصاب الخبر: ذهب الفراء إلى أن الاسم ارتفع لشبهه بالفاعل، وأن الخبر انتصب لشبهه بالحال، فكان زيد ضاحكا مشبه عنده: بـ«جاء زيد ضاحكا»، ولكن الكوفيين الذين يتسمى إليهم الفراء كانوا أكثر صراحة منه حينما قالوا إن خبرها «انتصب على الحال»^(٣).

(١) انظر تيسير النحو التعليمي / ٤، ٣.

(٢) تيسير النحو / ٥٠.

(٣) تيسير النحو / ٦٤.

ويميل الدكتور شوقي ضيف اعتمادا على ما ذكره الهمع إلى أن إعراب الكوفيين أدق من الناحية التربوية، إذ لا تنقسم الأفعال بسبب كان وأخواتها إلى أفعال تامة تليها فواعل مثل «قام»، وأفعال ناقصة لا يليها فواعل، بل تطرد قاعد الفعل والفاعل دون استثناء صوري^(١).

٢. إلغاء عمل «أبواب ما» و«لا» «ولات» العاملة عمل ليس؛

يرى الدكتور شوقي بناء على إلغاء عمل «ليس» أخت «كان» أن تلغى الحروف التي تعمل عملها وهي «ما، لا، لات» قال: فلم يعد ما بعدها يعرب اسما لها والمنصوب خبرا، بل أصبح المرفوع يعرب فاعلا، والمنصوب حالا.

وإذا أمعنا النظر في صيغة "ما زيد مسافرا" في لغة الحجازيين، ورجعنا إلى إعراب الكوفيين لها، وجدناهم لا يأخذون بإعراب البصريين .. بل يعربون المرفوع مبتدأ، والمنصوب بعدها خبرا ينزع الخافض له^(٢). واعتمد الدكتور شوقي في تيسيره لهذه القاعدة على الهمع حينما قال السيوطي ما نصه :

« وزعم الكوفيون أن "ما" لا تعمل شيئا في لغة الحجازيين، وأن المرفوع بعدها باق على ما كان قبل دخولها، والمنصوب على إسقاط الباء، لأن العرب لا تكاد تنطق بها إلا بالباء، فإذا حذفوها عوضوا منها النصب كما هو المعهود عند حذف حرف الجر، وليفرقوا بين الخبر المقدر فيه الباء وغيره»^(٣).

وأما «لا» فإن الدكتور شوقي يلغى عملها اعتمادا على الهمع فلم تأت عاملة إلا في بيتين، بيت لشاعر مجهول، وهو :

تعز فلا شيء على الأرض باقيا ولا وزر مما قضى الله واقيا
وبيت للناطقة الجعدى وهو قوله:

وحلت سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا عن جها متراخيا ..

واعتمد في إلغائها على رأى أبى حيان حيث قال : «إن إعمال «لا» لم يرد صريحا منه إلا

(١) تيسير النحو / ٥٠.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

(٣) الهمع / ٢ / ١١٠.

البيت الأول، والبيت والبيتان لا تبنى عليها القواعد، وإذن فيتبني أن نستغنى عن هذه الصيغة لسبب مهم، وهو أن إعمالها لا يطرد في اللغة^(١).

واعتمد الدكتور شوقي على همع الهوامع في هذه القضية، حيث يقول السيوطي في أحد الأقوال: أنها أجريت مجرى «ليس» في رفع الاسم خاصة، فترفعه ولا تعمل في الخبر شيئا، وعليه الزجاج، واستدل له بأنه لم يسمع النصب في خبرها ملفوظا به....

وقال ابن مالك: عملها أكثر من عمل «إن».. وقال أبو حيان: الصواب عكسه، لأن «إن» قد عملت نثرا ونظما، و«لا» إعمالها قليل جدا، بل لم يرد منه صريحا إلا البيت السابق، وهو

تعز فلا شيء على الأرض باقيا ولا وزر مما قضى الله واقيا
والبيت والبيتان لا تبنى عليها قواعد^(٢).

٣. إلغاء قاعدة المبتدأ المستغنى عن الخبر:

يرى الدكتور شوقي أن «هذا المبتدأ المستغنى عن الخبر وأمثله من صنع النحاة، استضاءوا فيها بأبيات مجهولة القائل، أما القرآن الكريم فلم يرد فيه شواهد تؤيد تلك القاعدة، وكذلك لم ترد شواهد لشعراء جاهليين أو إسلاميين معروفين تؤيدها.

ويعيب الدكتور شوقي هذه القاعدة بأنها تنقض قاعدة المطابقة بين المبتدأ والخبر أفرادا وتثنية وجمعا، فالمبتدأ فيها دائما مفرد ويليه فاعله أو نائبه مثنى أو مجموعا مثل: ما قائم الزيدان أو الزيدون، والصحيح أن يقال: ما قائمان الزيدان، ما قائمون الزيدون، والعبارات بذلك تتكون من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر.

وبذلك لا نقسم المبتدأ قسمين: قسما له خبر، وقسما له فاعل أو نائب فاعل، وفي الوقت نفسه لا تنقض قاعدة المطابقة^(٣).

ومن الواجب أن تلغى هذه القاعدة دون تردد.

والناظر لهذا الإلغاء يرى أن من ورائه السيوطي في كتابه: همع الهوامع، حيث ذكر ابن

(١) تيسير النحو التعليمي ٩٨/٢.

(٢) الهمع ١١٩/٢، ١٢٠.

(٣) تيسير النحو ٨٨، ٨٩.

حوط الله أن الوصف : «يجوز تثنيته وجمعه، واستدل بحديث أو «مخرجى». هم «قال السيوطى لو ثنى الوصف وجمع جعل خيرا مقدا والمرفوع مبتدأ مؤخرا»^(١).

٤. إلغاء عمل «كأن» إذا خففت من «كأن» الثقيلة؛

قال الدكتور شوقى فى كتابه: تيسير النحو : * وذهب الكوفيون: إلى أنها مهملة وليس لها اسم ولا خبر، ورأيهم أولى ، لأنه ليس فيه تقدير ولا تأويل، وينبغى أن يحذف إعرابها الأول من كتب الناشئة ويكتفى بأنها ساكنة مهملة مع ملاحظة أنها تكثر قبل «لم» و«قد» كما فى مثل : «كأن لم يسمع»^(٢).

وقد اعتمد فى رأيه هذا على الهمع حينما قال السيوطى: «تحفف كأن وفى إعمالها حينئذ الأقوال الثلاثة فى «أن» أحدها: المنع، وعليه الكوفيون....»^(٣).

٥. عدم اشتراط المستقبل فى عمل اسم الفاعل؛

فى تيسير النحو ما نصه: « لايجز البصريون نصب اسم الفاعل للمفعول به إذا كان زمانه ماضيا، فلا يقال : زيد ضارب عمرا أمس، بل يضاف اسم الفاعل إلى مفعوله فيقال: زيد ضارب عمرو أمس وينقض قاعدتهم قوله تعالى فى سورة الكهف: «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» و «باسط» هنا اسم فاعل بمعنى الماضى، وذراعيه مفعوله، ولكن النحاة -واقصد نحاة البصرة تأولوا استخدام الفاعل فى الآية على أنه لحكاية الحال».

ويؤيد الدكتور شوقى رأى الأخفش، والكسائى امام مدرسة الكوفية حيث أبطلا هذه القاعدة، وقالوا: إن اسم الفاعل يعمل مطلقا.

وعلى هذا الاساس يدعو صاحب التيسير الغاء هذه القاعدة من النحو التعليمى ويوضع مكانها أن اسم الفاعل ينصب مفعولا به سواء كان زمانه ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا وقد يضاف إليه»^(٤).

(١) الهمع ٧/٢،

(٢) تيسير النحو / ١٠٣.

(٣) الهمع ١٨٧/٢.

(٤) تيسير النحو / ١٥٥، ١٥٦.

ووراء هذا النص نص السيوطى فى الهمع إذ قال بصدد عدم اشتراط المستقبل: «وقال الكسانى وهشام ووافقهما قوم ينصب «مابعد» اعتبارا بالشبه معنى، وإن زال الشبه لفظاً، واستدلوا بقوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَهُمْ بِأَسْطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ (١).

والناظر لكتاب تيسير النحو التعليمى يرى ان كل مسائله التى ألقى فى مجالها بعض القواعد النحوية المعقدة، ووضع قواعد اخرى سهلة ميسرة اعتمدت هذه المسائل على كتاب همع الهوامع حيث اختار الدكتور شوقى من أقوال أئمة النحو ما يتناسب مع التيسير.

وكان السيوطى يرى عن ظهر غيب أن إصراره على سرد آراء النحويين فى قضايا النحو ومسائله، قد يتيح الفرصة للمتأخرين لتعديل بعض القواعد القديمة أو إلغاؤها أو تحديدها اعتماداً على الآراء النحوية التى ساقها لكبار النحويين من أجل نحو جديد ميسر فى ضوء هذه الآراء.

ومن أجل أن تتحقق مقولة الجاحظ بتبسيط قواعده الأساسية التى تكفل لها السلامة من اللحن فى كتاب إن كتبه، وشيء إن وصفته، وشعر إن انشدته، وما زاد على ذلك فهو مشغلة لها عما هى أولى به، وعويص النحو لا يجرى فى المعاملات، ولا يضطر إليه شيء (٢).



(١) الكهف / ١٨.

(٢) مقدمة تيسير النحو.

المصادر والمراجع

- ١- الاشباه والنظائر فى النحو لجلال الدين السيوطى:
تحقيق الدكتور عبدالعال سالم مكرم . نشر دار الرسالة - بيروت ١٩٨٥ م .
- ٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لبدر الدين محمد بن على الشوكاتى . مطبعة السعادة . طبعة أولى سنة ١٣٤٨ م .
- ٣- بغية الوعاة لجلال الدين السيوطى، تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم - مطبعة عيسى الجلى .
- ٤- تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى لجلال الدين السيوطى - تحقيق الاستاذ عبدالوهاب عبداللطيف - طبعة ثانية من منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .
- ٥- تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا مع نهج تجديده للدكتور شوقى ضيف - نشر دار المعارف .
- ٦- جلال الدين السيوطى وأثره فى الدراسات اللغوية للدكتور عبدالعال سالم مكرم - نشر دار الرسالة بيروت طبعة أولى ١٩٨٩ م .
- ٧- حسن المحاضرة للسيوطى : تحقيق الأستاذ محمد ابى الفضل - مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة .
- ٨- الخطط والأثار فى مصر والقاهرة و النيل وما يتعلق بها من الأثار لتقى الدين أحمد بن على بن عبدالقادر المقرئى - دار الطباعة المصرية ببولاق سنة ١٢٧٠هـ .
- ٩- دليل مخطوطات السيوطى وأماكن وجودها للأستاذين أحمد الخازندار، ومحمد إبراهيم الشيبانى نشر مكتبة ابن تيمية، طبعة أولى ١٩٨٣ م .
- ١٠- ذيل الروضتين، لأبى شامة المقدسى، تحقيق محمد زاهد الكوثرى - طبعة أولى ١٩٤٧ م .
- ١١- الروضتين فى اخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسى - مطبعة وادى النيل - القاهرة .
- ١٢- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقرئى .
تحقيق الدكتور زيادة - مطبعة دار الكتب .

- ١٣- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوى - منشورات مكتبة الحياة - بيروت.
- ١٤- القاموس المحيط للفيروزابادى.
- ١٥- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزى - المطبعة الأمريكية - بيروت.
- ١٦- لسان العرب: عدة طبعات .
- ١٧- مجلة معهد المخطوطات العربية - القاهرة - الكويت .
- ١٨- معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ، تحقيق الأستاذ على محمد البجاوى - طبع دار الفكر العربى - القاهرة .
- ١٩- مكتبة الجلال السيوطى للأستاذ أحمد الشرقاوى إقبال : طبع الرباط - المغرب سنة ١٩٧٧م.
- ٢٠- مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى للدكتور فرانتروزنتال - ترجمة الدكتور أنيس فريحة .
- ٢١- نظم العقيان فى أعيان الأعيان لجلال الدين السيوطى - حرره الدكتور فيليب حتى - المطبعة السورية الأمريكية فى نيويورك.
- ٢٢- نفع الطبيب للمقرى تحقيق الأستاذ محمد محى الدين عبدالحميد مطبعة السعادة بمصر.
- ٢٣- همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع للسيوطى فى سبعة أجزاء ، الجزء الأول منه بتحقيق المرحوم الأستاذ عبدالسلام هارون، والدكتور عبدالعال مكرم، وبقية الأجزاء بتحقيق الثانى .



١٨- من المسيرة التاريخية للتعليمات النهويّة (*)

أ- أصالة النحو العربي،

أشرفت شمس الإسلام على الجزيرة العربية، وامتدت أشعتها إلى أرجاء العالم، لتبدد ظلامه، وتحول الجهل إلى معرفة، والفوضى إلى نظام، والعبودية إلى الحرية والحياة.

ومن أجل قيم الإسلام العظيمة، ومبادئه الكريمة دخل الناس في دين الله أفواجا، لافرق بين سيّد ومسود، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين حر وعبد.

وللتفقه في دين الله، وتلاوة القرآن، وفهم أحكامه كانت الحاجة ماسة إلى تعليم العربية والتفقه فيها، فجلسوا في حلقات الدرس ليستوعبوها وشاركوا في نهضتها، وسهموا في نشرها.

ومن الطبيعي أن تتعثر السنة هؤلاء الأعاجم الذين دخلوا في دين الله أفواجا في نطق العربية، مما كان سببا في ظهور اللحن، «فصهب الرومي من صحابة رسول الله ﷺ كان يقول: «إنك لهائن يريد: إنك لخائن، وكان صهيب يرتضخ لكنه رومية» (١).

والشاعر سحيم المشهور بعبد بنى الحسحاس المعاصر لرسول الله ﷺ «كان يرتطن لكنه أجنبية» (٢).

وسحيم هذا حبشي الأصل اشتراه عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، وكتب إلى عثمان رضى الله عنه: أتى قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً فكتب إليه لا حاجة لنا فيه، إنما حظ أهل الشاعر إذا شبع أن يُشَبَّبَ بنسائهم، وإذا جاع أن يهجوهم (٣).

وقد امتد هذا اللحن إلى القرآن الكريم على عهد النبي ﷺ: فعن أبي الدرداء قال: «سمع النبي ﷺ رجلاً قرأ فلحن قال: أرشدوا أخاكم» (٤) وفي رواية سجلها ابن جنى في الخصائص: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل» (٥).

(*) بحث القى ملخصه في ندوة عقدت تحت إشراف معهد المخطوطات - الكويت.

(١) انظر: محاضرات عن «مشكلات حياتنا اللغوية» / ٤٣ لأمين الخولي.

(٢) البيان والنبين للجاحظ / ٧٩. (٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة / ١ / ١٥٣.

(٤) كنز العمال في سن الأفعال والأفعال لعلاء الدين بن حسام الهندي / ١ / ١٥١.

(٥) الخصائص / ٢ / ٨.

ومن أجل ذلك أو بعبارة أخرى من أجل أن يبقى كتاب الله مصنوعاً من كل تحريف محفوظاً من كل عبث دعت الحاجة إلى علم النحو ليحافظ على بناء العربية، وليمتد إلى الأجيال المتابعة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنه العلم الذي يعطى اللغة العربية قوة لتتحدى الزمن، وتبقى على مرور العصور جبارة لأنحني رأسها لعواصف العامية، ولهجات السُّونة، وصيحات الجهلة ودعاة الهدم باسم التجديد، وباسم التطور.

ونشأة النحو العربي على الرغم من الروايات المتعددة التي دارت حولها مرتبطة بأبي الأسود الدؤلي في خلافة علي كرم الله وجهه.

والذي جعلني أستريح إلى هذا الرأي هو أن أبا الأسود كما يقول المؤرخون عنه: من أكمل الرجال رأياً، وأسداً عقلاً.

وكان له حس مرهف بمواقع الخطأ حينما تنحرف الألسنة عن جادة الصواب. والروايات التي قيلت عنه في هذا المجال متعددة سجلتها كتب الأدب، وتناقلتها الرواة:

ولا أدلّ على ذلك من هذا العمل العظيم الذي قام به، وهو تنقيط المصحف تنقيط إعراب، فقد طلب من زياد أن يبعث إليه بثلاثين رجلاً، فأحضرهم زياد فاختر منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار فيهم رجلاً من عبد القيس، فقال له: خذ المصحف، وصبغاً يخالف المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط نقطة واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره.

هذه رواية ابن الأنباري في كتابه: «نزهة الألباء» وهذا دليل واضح على أن أبا الأسود هو الذي وضع البذور الأولى للمصطلحات النحوية ثم جاء خلفاؤه من بعده، وساروا في هذا الطريق حتى نما النحو على يدهم، وأتى ثماره بفضلهم.

هذا ولم يكن النحو الذي تطور على يد النحاة بعد أبي الأسود نحواً منطقياً، لأن النجاة استقرءوا كلام العرب شعرهم ونثرهم وحاولوا أن يصنعوا في ضوء هذا الاستقراء قواعدهم التي توصلوا إليها، وهذا أمر طبعي، فالخليل بن أحمد مثلاً استخرج بحور الشعر

العربي من استقراء أشعار العرب، وحاول بعلم العروض الذي ابتكره أن يرد جميع ما ورد من أشعار العرب إلى أوزان قلما تتخلف.

أقول : فعلى هذا المنوال نسج النحاة الأولون في مجال بناء القاعدة أووضع الأصول النحوية.

حقاً، إن عبدالله بن أبي أسحاق أخذ عن عنبسة الفيلى تلميذ أبي الأسود وقد قالوا عن عبدالله، إنه أول من علل النحو، وكان شديد التجريد للقياس.

وفى رأى أن قياس عبدالله بن أبي أسحاق كان قياس فطرة لقياس منطوق، فالإنسان بحكم إدراكه يقارن بين الأشياء، فيعرف ما اشتبه منها وما لم يشته، ما اتفق وما لم يتفق، ثم يستنبط من هذه القواعد المشابهة، أو الظواهر المتقاربة مقاييسه وأصوله، ولا أدل على ذلك من أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟

قال: أفضى بما فى كتاب الله. قال: فإن لم يكن، قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله، قال: اجتهد رأى ولا ألو، قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدرى، ثم قال: الحمد لله، الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله « (١).

وفى هذا النص ما يدل على أن من أصول التشريع الاجتهاد بالرأى، والاجتهاد بالرأى يقوم أولاً وأخيراً على القياس ودليل آخر، فقد رووا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى قاضيه أبى موسى الأشعري فى رسالة مشهور، ما نصّه:

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولاسنه، اعرف الأشباه، وقس الأمور عند ذلك».

فهل كان عمر بن الخطاب يجرى على سنن منطوق أرسطو أو جدل فلاسفة اليونان حينما يقول: اعرف: الأشباه، وقس الأمور عند ذلك!

الأمر فى نظرى لا يعدو أن يكون من طبيعة الإنسان أن يبحث عن العلة أو السبب فى كل حكم يصدره، وفى كل رأى يميل إليه. أكبر الظن أن بعض المستشرقين لا يسلمون بأن

(١) انظر : أصول الأحكام الشرعية/ ١٢ للأستاذ المرحوم الشيخ على حسب الله.

النحو عربى النشأة، وإنما نقل إلى العرب من اليونان، وبذلك تسربت العلة إلى بنائه، وكان القياس الأساس الأول فى كل أحكامه.

والحقيقة أن هذا القول مغرض، فإن المستشرقين الذين وضعوا الحق نصب أعينهم اعترفوا بما لا يدع مجالاً للشك أنه كما تنبت الشجرة فى أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب ومن الرائع فى هذا المجال أن أسجل شهادة «يوهان فك» حيث ذكر فى مقدمة كتابه «العربية» ما نصه: «ولقد تكفلت القواعد التى وضعتها النحاة العرب فى جهد لا يعرف الكلل، وتضحية جديرة بالإعجاب بعرض اللغة الفصحى، وتصويرها فى جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ، وتركيب الجمل ومعانى المفردات على صورة محيطية شاملة حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة المستزيد»^(١).

فهذا النص يدل فى وضوح وصرحة على أن النحو العربى أصيل المنبت. عربى النشأة. وحتى فى العصور المتأخرة بعد ترجمة المنطق، وفلسفة سقراط وأرسطو إلى العربية احتفظ النحو العربى باستقلاله التام، وطابعه الخاص وأقيسته المتميزة، ذلك لأن أقيسة النحاة تسير فى درب وأقيسة المناطق تسير فى درب آخر.

وقد أشار إلى ذلك أبو حيان التوحيدى فى كتابه: «الهوامل والشوامل» فقد جاء فى صفحة ٣٩٢ مانصه:

«سئل بعض العلماء بالنحو واللغة فقيل له: أيستمر القياس فى جميع ما يذهب إليه فى الألفاظ؟ فقال: لا، فقال السائل: فينكسر القياس فى جميع ذلك؟ فقال: لا، فقيل له: فما السبب؟ فقال: لا أدرى، ولكن القياس يفرع إليه فى موضع، ويفزع منه فى موضع».

قال أبو على مسكويه مفسراً هذا الكلام: «أما قياس النحويين فليس مبنياً على أوائل ضرورية، فلذلك لا يستمر، وإنما أجاب هذا الرجل العالم بالنحو عن القياس الذى يخص صناعته ولم يلزمه إلا ذلك، فأما الفيلسوف فقياساته كلها مستمرة لا ينكسر منها شيء، ولا سيما ضرب من القياس يسمى برهاناً»^(٢).

(١) مقدمة «العربية» لـ «يوهان فك»

(٢) انظر: الهوامل والشوامل/ ٣٩٢-٣٩٤ لأبى حيان التوحيدى.

ومالى أذهب بعيداً ، والخليل نفسه لم تكن أقيسته إلا من وحى الفطرة مع أن السيرافى كما نصر على ذلك السيوطى فى البغية يقول عنه: كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه»(١) .

وما أظن أن السيرافى يعنى أنه تتلمذ على الفكر الأرسطى، وتأثر بمنهجه فى القياس، وإنما كان يعنى فى رأى أن الخليل كان يدرك بذكائه الخارق، وفكرة المتقدم، وعقليته النادرة ظواهر الأساليب العربية، فيقيس أسلوبها بأسلوب وظاهرة بظاهرة، فيستنبط ما يريد أن يستنبطه من قواعد.

ولا أدل على ذلك من إجابته الرائعة حينما سأله بعض العلماء.

«أعن العرب أخذت هذه التعليقات أم اخترعتها من نفسك؟ فقال الخليل : إن العرب نطقت على سببها وطباعها وعرفت مواقع كلامها، وقامت فى عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنهم - وعللتُ أنا بما عندى أنه علة لما عللته، فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمس، وإن تكن هناك علة غير ما ذكرت، فالذى ذكرته محتمل أن يكون علة له، ومثلى فى ذلك مثل حكيم دخل داراً محكمة البناء، عجبية النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيتها بالخبر الصادق، والبراهين الواضحة، فكلمها وقف هذا الرجل الداخل الدار على شى منها قال : إنما فعل هذا (هكذا) لعله هى (كذا) لعله سنحت له وخطرت، فجائز أن يكون الحكيم البانى الدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الرجل الذى دخل الدار وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة. ثم قال الخليل : فإن صحت لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته للمعلول فليات بها»(٢).

والذى أريد أن أخلص إليه فى هذه المحاضرة أن النحاة الأقدمين من عصر أبى الأسود إلى عصر سيويه لم يتأثروا بالمنطق اليونانى فتعليقاتهم وأقيستهم ليست يونانية الأصل أو أجنبية المنبت، ولكنها عربية فى صميمها، استخراجوها فى ضوء الفطرة والطبيعة، لا فى ضوء المنطق والجدل، ثم نمت هذه التعليقات على يد خلفائهم، فكمل البناء النحوى، وأصبح

(١) البغية ١/ ٥٥٧.

(٢) إيضاح علل النحو للزجاجى ٦٥-٦٦.

حصناً يحرسُ بناء اللغة من التصدع ولو استنطقنا تاريخ ترجمة المنطق اليونانى إلى العربية لرأينا أن هذا المنطق لم يترجم إلى العربية فى هذه الفترة من التاريخ حتى يمكن للنحاة الأوائل أن يتأثروا به كما يقول بعض الباحثين.

وقد اعترف بأصالة النحو العربى «دى بور» حيث ذكر أن المنطق اليونانى لم يترجم إلا بعد أن استوى عود النحو، وبلغ أشدهً يقول فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية : «جمعت الأمثال والحكم، والخطابات والوصايا ، وكل ماله علاقة بتاريخ الفلسفة بوجه عام وترجم ما جمع منذ العهد الأول.. ثم يقول: ولكن لم يشرع فى نقل كتب اليونان فى الطب والمنطق إلى اللسان العربى إلا فى عهد المنصور^(١) وخلافة أبى جعفر المنصور فى ١٣٦ هـ مع أن ابن أبى إسحاق وهو أول من نسب إليه القياس المنطقى فى النحو العربى توفى سنة ١١٧ هـ فكيف تسنى لابن أبى إسحاق أو من عاصره أن يتأثر بهذا المنطق اليونانى هذا الأثر الكبير؟

على أن الترجمة لم تنشر ولم تزدهر إلا فى عصر المأمون ذلك الذى أنشأ لها مدرسة فى بغداد سميت باسم بيت الحكمة، وكانت الترجمة فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى إلى السريانية وفى النصف الثانى ازدهرت حركة الترجمة إلى العربية شيئاً فشيئاً^(٢).

ومن هذه النصوص تبين فى جلاء أن النحو العربى ظل مصنوناً من أقيسة المنطق الأرسطى إلى أن ازدهرت الترجمة ونقلت الأقيسة المنطقية إلى العربية، وذلك فى القرن الثالث الهجرى حيث تأثر النحو العربى بعض التأثير بالمنطق اليونانى، وظهرت فى بنائه العلل بأقسامها المختلفة مما صعّف النحو وأبعده عن العلل الطبيعية التى لا تحتاج إلى كدّ ذهن أو عناء فكر فى استنباطها واستخراجها ، ولكن مع هذا كله فإن الحرص البالغ على سلامة اللغة كان هو الدافع الأول لمثل هذه الدراسات الضخمة التى ملأت المكتبة العربية. بشروحها وحواشيها، والتعليقات عليها ولا أملك فى هذا المجال إلا أن أسجل كلمة المستشرق دى بور

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية دى بور / ٣٥.

(٢) انظر: التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة الدكتور / عبدالرحمن بدوى / ٢٨.

حيث يقول : إن علم النحو أثر رائع من أثار العقل العربي بماله من دقة فى الملاحظة، ومن نشاط فى جمع ما تفرق، ويحق للعرب أن يفخروا به^(١).

ب- أمثلة تطبيقية للتعليل النحوى قبل ترجمة المنطق:

١- عبدالله بن أبى إسحاق الحضرمى المتوفى ١١٧ هـ قال عنه ابن الأنبارى : إنه أول من علل النحو^(٢) والذى يدل على ولعة بالقياس أن ابن سلام قال: قلت ليونس : هل سمعت من ابن أبى إسحاق شيئاً، قال: نعم قلت له : هل يقول أحد الصويق يعنى السوق قال نعم. عمرو بن نميم تقولها وما تريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطرد و يتقاس^(٣).

٢- روى الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : سمعت أعرابياً يقول : فلان لغوب - أى أحمق - جاءته كتابى فاحتقرها، قال: فقلت له: أتقول: جاءته كتابى؟ فقال: ليس بصحيفة فحمله على المعنى.

٣- ومن تعليقات الخليل قولهم: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بالنصب، قال الخليل حين مثله: إنه بمنزلة رجل رأيته قد سدد سهمًا، فقلت: القرطاس أى أصبت القرطاس أى أنت عندي تَمَن سيصيه .. إلى أن يقول: فإنما رأيت رجلاً قاصداً إلى مكان أو طالباً أمراً، فقلت: مرحباً وأهلاً أى أدركت ذلك وأصبت، فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه^(٤).

ونكتفى بهذا القدر من التعليقات الفطرية التى علل بها النحويون الأوائل فى المسائل النحوية واللغوية قبل سيبويه لتلقى نظرة بعد ذلك على التعليقات عند سيبويه، وكتابه يعتبر الأساس الأول لكل الدراسات النحوية والصرفية واللغوية التى جاءت بعده.

ج- التعليقات النحوية عند سيبويه، المتوفى ١٨٠ أو ١٨٨ هـ.

العلة عند سيبويه تعتبر مرحلة متطورة عن المرحلة السابقة التى قبل سيبويه . وكتاب سيبويه معرض نحوى لآراء النحاة السابقين، وما احتوته هذه الآراء من علل

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية (دى بور) / ٥٧ ترجمة الدكتور أبى ريدة .

(٢) نزهة الألباء / ٢٢ .

(٣) المصدر السابق (٦٠) .

(٤) الكتاب ١ / ٢٩٥ .

وأقيسة، ولم يقتصر سيبويه على ما نقل من غيره من الذين تقدموه بل فرّع العليل، وأكثر من قياس الشبيه بالشبيه والنظير بالنظير، فكتابه بحق يعتبر المعلم الواضح في تاريخ العلة النحوية، ومن أجل توضيح هذه العليل، وبيان هذه الأقيسة أكثر من الأمثلة التي تنير الطريق، إلى جانب الشواهد التي تقويها، وكلام العرب المروى شعراً أو نثراً.

والميزة التي لا تخفى على أحد في كتاب سيبويه أنه أحياناً يفترض أمثلة ليست من واقع الحياة، ولكن جاء بها من أجل أن يقرر حكماً، أو يثبت قاعدة، أو يدعم علة، أو يصحح أسلوباً.

ومما يدل على ذلك أنه يقول: «ولو سميت امرأة بضرب ثم حقرت لقلت: ضريبة، تحذف التاء، ونحىء بالهاء مكانها»^(١).

وسيبويه يستفتى أستاذه الخليل فيما يشبه عليه من تعليل لأنه مولع بحب الاستقصاء وتتبع المسائل النحوية بالدقة التامة والتحليل الرائع.

استمع إليه مثلاً حينما يقول في باب: «تصغير المؤنث»: «اعلم أن كل مؤنث كان على ثلاثة أحرف فتحقيره بالهاء وذلك قولهم في قدم قديمة، وفي يد: يدي»

وزعم الخليل أنهم إنما أدخلوا الهاء ليفرقوا بين المذكر والمؤنث، قلت: فما بال عناق؟ قال: استقلوا الهاء حيث كثر العدد، فصارت القاف بمنزلة الهاء، فصارت ثقيلة في العدد والوزن فاستقلوا الهاء.

وكذلك كل جميع ما كان على أربعة أحرف فصاعداً قلت: فما بال سماء؟ قالوا: سمية، قال من قبل أنها تحذف في التحقير فيصير تحقيرها كتحقير ما كان على ثلاثة أحرف، فإن حقرت امرأة اسمها سقاء، قلت: سقيقى، ولم تدخلها الهاء لأن الاسم قد تم»^(٢).

نماذج من تعليلات سيبويه:

أ- التعليل لرفع المثني بالألف، ونصبه وجره بالياء:

يقول سيبويه: «يكون في الرفع ألفاً، ولم يكن واواً ليفصل بين الثنية والجمع الذي على حد الثنية.

(١) الكتاب ٣/ ٤٥٥.

(٢) الكتاب ٣/ ٨٤٢٤٨١.

ويكون فى الجر ياء مفتوحاً ما قبلها، ولم يكسر ليفصل بين التثنية والجمع على حد التثنية، وتكون فى النصب كذلك.

ولم يجعلوا النصب ألفاً ليكون مثله فى الجمع، وكان مع هذا أن يكون تابعاً للجر فيه أولى، لأن الجر للاسم لا يجاوزه، والرفع قد ينتقل إلى الفعل، وكان هذا أغلب وأقوى^(١). ومعنى هذا أن المثني علامة رفعه الألف.

«ولم يجعلوا الواو علامة للرفع حتى لا يختلط الأمر فى الإعراب بين المثني المرفوع وجمع المذكر المرفوع.

ووضع حداً فاصلاً بين المثني وجمع المذكر، فى حالتى النصب والجر وهو كسر ما قبل الياء فى الجمع، وفتح ما قبل الياء فى التثنية.

ولم ينصب بالألف لأنّ الفتحة من جنسها ليكون نظير الجمع المذكر السالم الذى ينصب بالياء.

ولم ينصب بالواو ليكون إذ ذاك نظير جمع المذكر الذى يرفع بالواو لأن النصب فى الأسماء أقرب إلى الجرّ منه إلى الرفع، وذلك لأنّ الجرّ يختص بالاسم فلا يتجاوزهُ إلى الفعل، فهو ألصق به، وأما الرفع فيكون للأسماء كما يكون للأفعال المضارعة.

فلما كان الجرّ ألصق بالأسماء من الرفع انضم النصب إليه واستعار الياء التى هى سمته^(٢).

ب- ومن تعليقات سيبويه فى نصب جمع المؤنث السالم وجره بالكسر قوله: «جعلوا ثاء الجمع فى الجرّ والنصب مكسورة، لأنهم جعلوا التاء التى هى حرف الإعراب كالواو والياء، والتثنية بمنزلة التثنية، لأنها فى التأنيث نظيرة الواو والياء فى التذكير فأجروها مجراها»^(٣).

(١) الكتاب ١٧/١.

(٢) انظر: العلة النحوية نشأتها وتطورها/ ٦١.

(٣) الكتاب ٧١/١.

«وتوضيح كلامه أن ناء جمع المؤنث السالم هي محل الإعراب فيه، لذلك كانت كالواو والياء في جمع المذكر السالم فكان الرفع فيها نظير الرفع بالواو في هذا الجمع، وكان الكسر فيها في حالتى الجر والنصب نظير الياء التى هي فى الجمع المذكر للجرّ والنصب أيضاً»^(١).

(٣) ويعمل ثقل الفعل وخفة الاسم فيقول: «ألا ترى أن الفعل لا بد له من الاسم وإلا لم يكن كلاماً، والاسم قد يستغنى عن الفعل نقول: الله إلهنا، وعبد الله أخونا»^(٢).

هذا، وقد عقد سيبويه فى كتابه باباً سماه: باب علل ما تجعله من حروف الزوائد، وما تجعله عن نفس الحرف^(٣).

د. تطور العلة على يد المبرد:

فى القرن الثالث الهجرى سطع نجم نحوى بصرى بعد سيبويه، وهو المبرد محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان .

ولد سنة ٢١٠هـ وتوفى على رأى أكثر المؤرخين سنة ٢٨٥هـ ومن البدعى أن المبرد لم يدرك الخليل بن أحمد، لأن الخليل توفى سنة خمس وسبعين ومائة، وله أربع وسبعون سنة كما نصت على ذلك كتب الطبقات.

ومن العجب أن كتاب العقد الفريد نصّ على أن محمد بن يزيد النحوى - أعنى المبرد - قال: أتيت الخليل فوجدته جالساً على طنفسة صغيرة فوسع لى وكرهت أن أضيق عليه فانقبضت، فأخذ بعضدى وقربنى إلى نفسه وقال: إنه لا يضيق سمّ الخياط بمتحايين، ولا تسع الدنيا متباغضين» فهذه القصة تعتبر تصحيحاً أشار إليه محقق المقتضب الأستاذ محمد عبد الخالق عضية، لأن هذا الحديث إنما كان بين الخليل وتلميذه أبى محمد اليزيدى المتوفى سنة ٢٠٢ كما ذكر فى خزنة الأدب^(٤).

(١) العلة النحوية / ٦١.

(٢) الكتاب ١ / ٢١.

(٣) الكتاب ٤ / ٣٠٧.

(٤) انظر مقدمة المقتضب.

والمبرّد تطورت العلة على يده حتى أصبحت هي النحو في نظره، ونحو بدون علة لا يعتدّ به.

وقد خالف سيبويه إمام المدرسة البصرية في كثير من المسائل التعليلية، فالمبرد اتفق مع سيبويه في أن المبتدأ رفعة واجب، وعلة الرفع عند سيبويه هي الابتداء، تقدم المبتدأ أو تأخر، ولكن المبرد وإن وافقه في أن المبتدأ يرتفع بالابتداء، فإنه خالفه في أن المبتدأ يرفع بالابتداء فقط في حال تقدمه، أما إذا تأخر فإنه يرفع بخبره، ففي قولنا: في الدار زيد، رفع زيد بقولك، في الدار، لأن معناه استقر، وحل محل المضمر فرفعه ما كان يرفع المضمر^(١).

والمبرّد إلى جانب مخالفته سيبويه كان بارعاً في أقيسة النحو وتعليلاته يتلاعب بها كما يشاء، وكان العلل النحوية أطوع من بنائه حينما يريد أن يناقش مسألة أو يحاور نحويّاً في قضيته.

يصور ذلك الزبيدي في طبقاته والقفطي في إنباهه حينما ذكرا أن ثعلباً لما رأى حلقة المبرد في المسجد، وأنها عامرة بالطلاب الذين التفوا حوله أمر الزجاج وابن الخياط بالتهوض إليه، وقال لهما فضا حلقة هذا الرجل، ونهض معهما من حضر من أصحابه، فلما صاروا بين يديه، قال له الزجاج: أتأذن - أعزك الله - في المناقشة؟

فقال له المبرد: سل عما أحببت، فسأله عن مسألة، فأجابه فيها بجواب أقمعه، فنظر الزجاج في وجوه أصحابه متعجباً من إجابة أبي العباس المبرد، ثم سأله عن أخرى، وأخرى حتى بلغت مسأله أربع عشرة وهو يجيب عن كل واحدة منها بما فعله في المسألة الأولى فلما رأى ذلك الزجاج قال لأصحابه عودوا إلى الشيخ: فلست مفارقاً هذا الرجل، ولا بدّ لى من ملازمته، والأخذ عنه، فعاتبه أصحابه، وقالوا له: تأخذ عن مجهول لا نعرف اسمه، وتدع من قد شُهر علمه، وانتشر في الافاق ذكره؟ فقال لهم: لست أقول بالذكر والخمول، ولكنى أقول بالعلم والنظر^(٢).

ويبدو من هذه الرواية أن ثعلباً أرسل تلاميذه ليفضوا حلقة المبرد في المسجد أول

(١) انظر الانتصار لابن ولاد/١٦٦- نقلاً عن العلة النحوية / ٦٨.

(٢) طبقات النحويين واللغويين / ١٠٩-١١٠.

قدومه بغداد من أجل ألا يشتهر أمره في بغداد ، وينافس شيخها الأجل أبا العباس ثعلب ، فينفض عنه تلاميذه، ويخمد ذكره، ولقد حدث هذا بالفعل فأبو علي أحمد بن جعفر النحوى ختن ثعلب [زوج ابنته] يخرج من منزله ، وهو جالس على باب داره فيتخطى أصحابه ومعه دفتره ومجبرته، فيقرأ على أبي العباس المبرد كتاب سيبويه، فيعاتبه ثعلب على ذلك ويقول له:

إذا رآك الناس تمضى إلى هذا الرجل ، وتقرأ عليه وتركنى ، يقولون ماذا؟ ولم يكن يلتفت إلى قوله^(١).

لهذا اشتعلت نار العداوة بين الرجلين ، وهجا كل منهما الآخر بأقسى الألفاظ وأفحشها.

جاء رجل إلى ثعلب فقال له: يا أبا العباس: قد هجأك المبرد: فقال: بماذا؟
فأشده:

أقسم بالمبتسم العذب ومشتكى الصب إلى الصب
لو أخذ النحو عن الرب ما زاده إلا عمى قلب

فلما أشد أبو العباس أحمد بن يحيى هذين البيتين تمثل بقول الشاعر:

يَشْتَمُنِي عَبْدُ بَنِي مَسْمَعٍ فصنت منه النقس والعرض
ولم أجبه لاحنقارى به ومن يعض الكلب إن عضا^(٢)

وهذه الخصومة العلمية في مجالاتها المختلفة بين المبرد و ثعلب أساسها التعليل النحوى ، وذلك لأن المبرد بصرى يعتمد القياس ويلجأ إلى التعليل ، و ثعلب كوفي يعتمد السماع ، ولا يلجأ إلى التعليل إلا حينما لا يجد الشاهد من القرآن بقراءته ومن كلام العرب شعراً ونثراً.

ومن هنا أذكت هذه الخصومة بين الرجلين ، والاختلاف النحوى بينهما روح التأليف

(١) انظر معجم الأدباء ٥ / ١٢٠.

(٢) طبقات النحويين / ١٠٥ - ١٠٦.

بين أنصار كل منهما؛ فابن دستوريه ألف كتاب: الرد على ثعلب^(١) ، وألف أحمد بن فارس الانتصار لثعلب^(٢): وكذلك فعل أبو بكر بن الأنباري في كتاب له سماه: «الانتصار لثعلب»^(٣).

وحتى الشعراء أدلوا بدلوهم في هذه الخصومة بين الرجلين، وتصويرها، ومن هؤلاء الشعراء الذين انتصروا للمبرد أحمد بن عبد السلام حيث يقول:

وكان الشعر قد أودى فأحيا	أبو العباس دائر كل شعر
وقالوا ثعلب رجل عليم	وأين النجم من شمس وبذر
وقالوا ثعلب يفتى ويُملي	وأين الثعلبان من الهزبر
وهذا في مقالك مستحيل	تشبهه جدولاً وشلاً ببحر

ويبدو أن الخصومة بينهما قد خمدت، ونار البغضاء قد أطفئت، فعرف كل منهما للآخر قدره ومكانته يدل على ذلك أن ثعلب رثى المبرد بهذه الأبيات التي ذكرها معجم الأدباء وغيره من كتب الطبقات، فماذا قال ثعلب:

ذهب المبرد وانقضت أيامه	ولَيَذْهَبَنَّ إثر المبرد ثعلب
بيت من الآداب أضحى نصفه	خرباً، وباقى النصف منه سيخرب
وتزودوا من ثعلب فبكأس ما	شرب المبرد عن قريب يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه	إن كانت الأنفاس مما يُكتب ^(٥)

نماذج من تعليقات المبرد:

١- الجزم بلم.

عند المبرد أنها تنفى الفعل الماضي، ويعلل لوقوعها على المستقبل من أجل أنها عاملة،

(١) الفهرست لابن النديم / ٩٤.

(٢) بغية الوعاة / ١ / ٣٥٢.

(٣) معجم الأدباء / ٥ / ١٤٥.

(٤) معجم الأدباء / ١٩ / ١١٥.

(٥) المصدر نفسه / ١٢٠.

وعملها الجزم، ولا جزم إلا للمعرب، ويبين أنها تنفى الفعل الماضى بقوله: وذلك قولك قد فعل، فنقول مكتئباً لم يفعل، فإنما نفيت أن يكون فعل فيما مضى^(١).

٢- ويعلل لموضع اللام إذا كان نفيًا، ويعنى بذلك اللام التى تسمى لام الجحود إذا وقعت بعد نفى فيقول:

«ما كان زيد ليقوم، وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٣) فـ «أن» بعد هذه اللام مضمرة، وذلك لأن اللام من عوامل الأسماء، وعوامل الأسماء لا تعمل فى الأفعال فى «أن» بعدها مضمرة، فإذا أضمرت «أن» نصبت بها الفعل، ودخلت عليها اللام، لأن أن والفعل اسم واحد كما أنها والفعل مصدر، فالمعنى: جئت لأن أكرمك أى جئت لإكرامك كقولك: جئت لزيد^(٤).

٣- ويعلل إعراب الأفعال المضارعة، وكيف صار الإعراب فيها دون سائر الأفعال، فيقول:

اعلم أن الأفعال إنما دخلها الإعراب لمضارعتها الأسماء ولولا ذلك لم يجب أن يُعرب منها شيء ..

إلى أن يقول: «وإنما ضارع الأسماء من الأفعال ما دخلت عليه زائدة من الزوائد الأربع التى توجب الفعل غير ماضٍ»

وبعد أن تحدث عن الزوائد علل لم سميت أفعالاً مضارعة فيقول: «وإنما قيل لها مضارعة، لأنها تقع موقع الأسماء فى المعنى تقول: زيد يقوم، وزيد قائم، فيكون المعنى فيهما واحداً كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾^(٥) أى لحاكم، ونقول: زيد يأكل، فيصلح أن يكون فى حال أكل، وأن يأكل فيما يستقبل كما تقول: زيد آكل، أى فى حال أكل،

(١) المقتضب ٤٣/١.

(٢) آل عمران/ ١٧٩.

(٣) الأنفال/ ٣٣.

(٤) المقتضب ٤٣/١.

(٥) النحل/ ١٢٤.

وزيدٌ آكلٌ غداً، وتلحقها الزوائد لمعنى كما تلحق الأسماء الألفُ واللامُ للتعريف، وذلك كقولك: سيفعل، وسوف يفعل، وتلحقها اللام في: إن زيداً ليفعل ومعنى: لفاعل^(١).

ونكتفى بهذا القدر من التعليلات التي ساقها المبرد في كتابه ونستطيع أن نقول: إنه لا تخلو صفحة من صفحات كتابه من هذه التعليلات التي اختلطت بكل المسائل النحوية، والقضايا الأسلوبية في كتابه المشهور المقتضب.

هـ العلة عند الزجاجي؛

الزجاجي من رجالات القرن الرابع الهجري لأنه توفي سنة ٣٣٧هـ والعلة عند الزجاجي امتداد متطور للعلة عند المبرد الذي يعتبر من رجال القرن الثالث الهجري حيث توفي سنة ٢٨٥هـ كما أشرت إلى ذلك من قبل.

وليس الزجاجي وحده فارس هذا الميدان لأن عصره شهد من النحويين من اهتمم بالعلة، ومارس البحث فيها، وتفنن في تعريفاتها، وظهرت مؤلفات خاصة قصرت على بحث العلة، وأنواعها، وأقسامها:

حقاً إن القرن الثالث الهجري رأينا فيه من ألف في العلة كقطرب محمد بن المستنير المتوفى سنة ٢٠٦هـ، وقد نص السيوطي في البغية أن له كتاباً يسمى: العلل في النحو^(٢) وكذلك المازني بكر بن محمد بن عدى أبو عثمان المازني المتوفى سنة ثمان وأربعين أو تسع وأربعين ومائتين، فقد ذكر السيوطي في البغية أنه له كتاباً يسمى «علل النحو»^(٣) أما كتب العلل النحوية في القرن الرابع الهجري فقد كثرت ونمت مما يدل دلالة واضحة على أن رجالات هذا القرن اهتموا بالعلة اهتماماً بالغاً، وأعطوها من جهدهم ما جعلها موضع دراسة مستقلة تُولف فيها الكتب إلى جانب المؤلفات النحوية الأخرى.

ومن هذه المؤلفات المقصورة على العلة في القرن الرابع للهجرة كما ذكرت كتب

الطبقات ما يلي:

(١) المقتضب ٢/١-٢.

(٢) البغية ١/٢١٣.

(٣) المصدر نفسه ١/٤٦٥.

- كتاب نقض العلل للحسن بن عبد الله المعروف بلكذة الأصبهاني (١).

- كتاب العلل في النحو لهارون بن الحائك (٢).

- كتاب المختار في علل النحو لمحمد بن أحمد بن كيسان (٣).

- كتاب النحو المجموع على العلل لمحمد بن علي العسكري المعروف بمبرمان أستاذ السيرافي والفارسي (٤).

- كتاب تقسيمات العوامل وعللها لأبي القاسم سعيد بن سعيد الفارقي (٥).

وأشهر هذه المؤلفات المقصورة على العلة كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي المتوفى سنة ٣٣٧هـ. وقد حققه الدكتور مازن المبارك، ونشرته مكتبة دار العروبة بالقاهرة سنة ١٩٥٩م.

أمثلة معدودة من كتاب الإيضاح في علل النحو:

قبل أن نعرض هذه الأمثلة أحب أن أسجل في هذا البحث طرفاً من أهدافه في تأليف هذا الكتاب فيقول:

«وهذا كتاب أنشأناه في علل النحو خاصة، والاحتجاج له، وذكر أسرارها، وكشف المستغلق من لطائفها، وغوامضه دون الأصول، لأن الكتب المصنفة في الأصول كثيرة جداً ولم أر كتاباً إلى هذه الغاية مفرداً في علل النحو، ومستوعباً فيه جميعها، وإنما يُذكر في الكتب بعقب الأصول الشيء اليسير منها مع خلو أكثرها منها، ونضم إلى العلل بعد تقديمها مسائل مجموعة منشورة من سائر الحدود، منها ما استخراجها من كتب العلماء، وبسطناه، وهذبنا ألفاظه وقربناه، ومنها ما تلقيناه من علمائنا رضى الله عنهم تلقيناً ومشافهة بما لم يودعوه كتبهم ولا يوجد فيها البتة (٦).

(٢) المصدر نفسه ١٩/٢٦٢.

(١) معجم الأدباء ٨/١٤٤.

(٣) المصدر نفسه ١٧/١٣٩.

(٤) معجم الأدباء ٨/٢٥٧.

(٥) معجم الأدباء ١١/٢١٧.

(٦) مقدمة الإيضاح / ٣٨.

وعلل النحو عند الزجاجي ثلاثة أضرب:

علل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية.

فأما العلل التعليمية، فهي التي يُتوصل بها إلى تعلم كلام العرب، لأننا لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظًا، وإنما سمعنا بعضًا فقسنا عليه نظيره.

وبضرب الزجاجي لذلك مثالاً فيقول: «إننا لما سمعنا قام زيد فهو قائم، وركب فهو راكب عرفنا اسم الفاعل فقلنا: ذهب فهو ذاهب وأكل فهو آكل، وما أشبه ذلك، وهذا كثير جدًا، وفي الإيماء إليه كفاية لمن نظر في هذا العلم.

فمن هذا النوع من العلل قولنا: إن زيدًا قائم، إن قيل: بم نصبتم زيدًا؟ قلنا بـ «إن» لأنها تنصب الاسم وترفع الخبر، لأننا كذلك علمناه ونعلمه: وكذلك قام زيد. إن قيل: لم رفعتم زيدًا؟ قلنا: لأنه فاعل اشتغل فعله به فرفعه، فهذا وما أشبهه من نوع التعليم وبه ضبط كلام العرب»^(١).

وبعد أن وضح لنا بهذه الأمثلة العلل التعليمية قدم لنا أمثلة أخرى للعلل، القياسية فيقول: «فأما العلة القياسية، فإن يقال: لمن قال: نصبت زيدًا بـ «إن»: لمَّ وجب أن تنصب إنَّ الاسم؟ فالجواب في ذلك أن يقول: لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول، فحملت عليه فأعملت إعماله لما ضارعت، فالمنصوب بها مشبه بالمفعول لفظًا والمرفوع بها مشبه بالفاعل لفظًا، فهي تشبه من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله نحو: ضرب أخاك محمد، وما أشبه ذلك».

وأما القسم الثالث من العلل وهو العلل الجدلية النظرية فقد تناوله الزجاجي بقوله:

«وأما العلة الجدلية النظرية، فكل ما يُعتَلَّ به في باب إنَّ بعد هذا، مثل: أن يقال: فمن أي جهة شابته هذه الحروف الأفعال؟ وبأي الأفعال شبهتموها؟ أبا الماضية أم المستقبل أم الحادثة في الحال أم المتراحية أم المنقضية بلا مهلة.

وحين شبهتموها بالأفعال لأى شىء عدلتم بها إلى ما قدم مفعوله على فاعله نحو:

(١) الإيضاح/ ٦٤.

ضرب زيداً عمرو، وهلا شبهتموها بما قدم فاعله على مفعوله لأنه هو الأصل، وذاك فرع ثان، فأى علة دعنكم إلى إلحاقها بالفروع دون الأصول؟ وأى قياس اطرده لكم فى ذلك؟ وحين شبهتموها بما قدم مفعوله على فاعله، هلا أجزتم تقديم فاعليها على مفعوليها كما أجزتم ذلك فى المشبه به فى قولكم: ضرب أخاك محمد وضرب محمد أخاك؟

وهلا حين امتنعت من ذلك لعله لزمتموه، ولم ترجعوا عنه فتجيزوه فى بعض المواضع فى قولكم: إن خلقك زيداً، وإن أمامك بكرًا وما أشبه ذلك.

وهلا حين مثلتم عملها بعمل الفعل المتعدى إلى مفعول واحد نحو: ضرب زيداً عمرو امتنعت من إجازة وقوع الجمل فى موضع فاعلها فى قولكم: إن زيداً أبوه قائم، وإن زيداً ماله كثير، والفاعل لا يكون جملة؟

ولم أجزتم وقوع الفعل موقع فاعلها فى قولكم إن زيداً يركب وإن عبد الله ركب؟ أرايتم فعلاً وقع موقع الفاعل بدلاً منه نائباً عنه، ما أرى كلامكم إلا ينفص بعضه بعضاً. وينهى الزجاجى حديثه عن العلل الجدلية النظرية بقوله:

«وكل شىء اعتلّ به المستول جواباً عن هذه المسائل فهو داخل فى الجدل والنظر»^(١).

هذا ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن أشهر من شغل بهذه العلل الجدلية النظرية فى القرن الرابع الهجرى على بن عيسى الرماني النحوى سنة ٣٨٤ فى خلافة القادر بالله.

وذلك أنه كان يمزج النحو بالمنطق حتى قال عنه معاصره أبو على الفارسى: إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شىء وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شىء».

وقد أنصف بعض النحويين فى قوله المشهور بالنسبة لرجال القرن الرابع واشتغالهم بالتعليل، قال: النحويون فى زماننا ثلاثة: واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني، وواحد يفهم بعض كلامه وهو أبو على الفارسى، وواحد يفهم جميع كلامه بلا استثناء وهو السيرافى^(٢).

(١) الإيضاح / ٦٥.

(٢) معجم الأدباء / ١٤ - ٧٤ - ٧٥.

و- العلة عند ابن جنى:

ومن أشهر نوابغ القرن الرابع الهجرى عبقرى العربية ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ والذى يعتبر بحق فيلسوف العربية وإمامها المبجل بعد سيويه، والناظر إلى كتبه يرى العجب العجائب . فى مناقشة المسائل، وتحليل القضايا، وحل المشكلات وقد أحس ابن جنى نفسه بهذه الذخيرة العلمية التى تركها للأجيال من بعده فقال عن كتبه:

أزولُ وذكـرـهـا بـاق	على الأيام والحقـب
تناقـلـهـا الرـواة لـهـا	على الأجنان من حدب
فـيرتـعُ فى أزاهـرـهـا	ملوك المعجم والعرب
فـمـن مُثـنٍ إلى مُذـن	إلى مُثنٍ إلى طرب
كـفـاهـا أن يـقـول لـهـا	بهاء الدولة اقترى (١)

والعلة عند ابن جنى مقبولة إذا كانت تعليمية أو قياسية، أما إذا كانت جدلية نظرية فهى عند ابن جنى غير مقبولة، لأنها تؤدى إلى هجئة القول، وضعف القائل به.

استمع إليه يقول: إذا سئلنا عن علة رفع الفاعل ، قلنا: ارتفع بفعله، فإذا قيل: ولم صار الفاعل مرفوعاً؟ فهذا سؤال عن علة العلة.

وهذا موضع ينبغى أن تعلم منه أن هذا الذى سمّوه علة العلة إنما هو تجوّز فى اللفظ، فأما الحقيقة فإنه شرح وتفسير وتتميم للعلة ألا ترى أنه إذا قيل له: فلم ارتفع الفاعل؟ قال: لإسناد الفعل إليه ولو شاء لابتدأ هذا فقال فى جواب رفع زيد من قولك قام زيد: إنما ارتفع لإسناد الفعل إليه، فكان مغنياً عن قوله: إنما ارتفع بفعله، حتى تسأله فيما بعد عن العلة التى ارتفع بها الفاعل، وهذا هو الذى أراده المجيب بقوله: ارتفع بفعله أى بإسناد الفعل إليه نعم، ولو شاء ماظله فقال له: ولم صار المسند إليه الفعل مرفوعاً؟ فكان جوابه أن يقول: إن صاحب الحديث أقوى الأسماء، والضمّة أقوى الحركات فجعل الأقوى للأقوى (٢)، ونبه ابن جنى على هذه المماثلة بقوله: فهنا علة، وعلة العلة، وعلة علة العلة.

(١) معجم الأدباء ١٢/ ١٠٠.

(٢) الخصائص ١/ ١٧٣.

وأيضاً فقد كان له أن يتجاوز هذا الموضوع إلى ما وراءه فيقول: وهل عكسوا الأمر فأعطوا الاسم الأقوى الحركة الضعيفة لثلا يجمعوا بين ثقيلين، فإن تكلف متكلف جواباً عن هذا تصاعدت عدة العلل وأدى ذلك إلى هجنة القول، وضعفة القائل به»^(١).

ولم يكتف ابن جنى برمي من قال بعللة العلة إلخ بالهجنة والضعف وإنما جرد فكره المشرق للرد العلمي على علة العلة فقال.

«ومن بعد فالعلة الحقيقية عند أهل النظر لا تكون معلولة، ألا ترى أن السواد الذي هو علة لتسويد ما يحله إنما صار كذلك لنفسه لا، لأن جاعلاً جعله على هذه القضية، وفي هذا بيان»^(٢).

وحينما يتحدث ابن جنى عن مقاييس العربية وعللها يضع النقاط على الحروف في هذه المشكلة، وبخاصة قضية العامل فالعوامل كما نصّ عليها ابن جنى «ضريان: أحدهما معنوى والآخر لفظي، وهذان الضريان وإن عما وفتشا في هذه اللغة فإن أخواهما وأوسعهما هو القياس المعنوي، ويضرب ابن جنى « أمثلة على ذلك، ففي باب الفاعل والمفعول به يقول: «رفعت هذا لأنه فاعل، ونصبت هذا لأنه مفعول، فهذا اعتبار معنوي لا لفظي، ألا تراك إذا قلت: ضرب سعيد جعفرأ فإن ضرب لم تعمل في الحقيقة شيئاً، وهل تحصل من قولك: ضرب إلا على اللفظ بالضاد والراء والباء على صورة فَعَلْ، فهذا هو الصوت والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوباً إليه الفعل.

وإنما قال النحويون عامل لفظي، وعامل معنوي ليُروك أن بعض العمل يأتي مسيياً عن لفظ يصحبه كمررت بزید، وليت عمراً قائم، وبعضه يأتي عارياً عن مصاحبة لفظ بتعلق به، كرفع المبتدأ بالابتداء ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم، هذا ظاهر الأمر، وعلة صحة القول فأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجرّ والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره، وإنما قالوا: لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ أو باشتمال المعنى على اللفظ وهذا واضح»^(٣).

(١) المصدر نفسه والصفحة والضعفة: قلة الفطنة. وضمف الراى (هامش الخصائص)

(٢) المصدر نفسه ١/١٧٤.

(٣) الخصائص ١/١٠٩-١١٠.

وابن جنى مع إيمانه بأن العمل إنما هو للمتكلم فى الحقيقة إلا أننا نراه فى بعض المواقف يفسر بعض الظواهر النحوية على أساس العمل أو بعبارة أخرى على أساس التعليل.

قال ابن جنى: «سألت الشجرى صاحبتنا، قلت له: كيف يا أبا عبدالله تقول: اليوم كان زيد قائماً؟ فقال كذلك. فقلت: فكيف تقول: اليوم إن زيدا قائم؟ فأبأها البتة.

وفسر ابن جنى بعد هذا الأسلوب عن العربية بعلّة العامل، فقال: «وذلك أن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها لأنها إنما تأتى أبداً مستقبلة قاطعة لما قبلها عمّا بعدها، وما بعدها عما قبلها»^(١).

على أية حال كانت نستطيع أن نقول إن القرن الرابع الهجرى هو عصر التعمق فى العمل من حيث لا تنشأ مسألة نحوية أو قضية لغوية إلا على منوالها.

وفى الوقت نفسه خص بعض مؤلفى هذا العصر العلة بمزيد من الدراسة والبحث فى مؤلفات منها ما هو مخطوط، ومنها ما هو مطبوع، ومن المؤلفات التى طبعت فى العلة وحققت: الإيضاح للزجاجى الذى تحدثت عنه سابقاً، والخصائص لابن جنى: الذى نقلنا منه بعض النصوص التى سجلتها فى هذا البحث.

على أن الأدباء الذين اتخذوا اللغة سليقة وطبعاً، ورواية وسماعاً وجهوا نقدهم اللاذع لهؤلاء النحاة الذين أغرموا بالتعليل ومن هؤلاء الشاعر عمّار الكلبى، وقد عيب عليه بيت من شعره فامتعض لذلك فقال:

ماذا لقينا من المستعربين ومن	قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بكرى يكون بها	بيت خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا
قالوا لحنّت، وهذا ليس متصباً	وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وحرّضوا بين عبد الله من حُمق	وبين زيد فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم	وبين قوم على إعرابهم طُبِعوا
ما كل قولى مشروحاً لكم فخذوا	ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
لأن أرضى أرض لا تشبب بها	نار المجوس ولا تُبنى بها البيع ^(٢)

(١) معجم الأدباء ١٢/١٠٦.

(٢) الخصائص ١/٢٣٩-٢٤٠.

ز. العلة في القرن السادس الهجري

من أبرز علماء هذا القرن الذين تحدثوا في العلة النحوية، وناقشوها، وبينوا فسادها، وضعفوا حجتها ابن مضاء القرطبي.

وابن مضاء القرطبي المتوفى ٥٩٢ هـ هو أحمد بن عبدالرحمن بن مضاء اللخمي^١ القرطبي، أحد من ختمت به المائة السادسة^(١).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل كان القرن الخامس الهجري فقيراً من العلماء والعلم في العالم الإسلامي، فلم نر من تحدث عن العلة أو خصص مؤلفاً فيها كما هو الشأن في القرن الرابع الهجري وما قبله.

الحقيقة أن علماء القرن الخامس الهجري من النحاة واللغويين كانوا يدورون في فلك مؤلفات النحويين الذين سبقوهم، واكتفوا بما سجله الزجاجي وابن جنى والرماني والفارسي في مؤلفاتهم التي كانت محور الدراسة والبحث على مدى قرون طويلة.

إن ابن مضاء كان متوثباً الفكرة، لأن دراسته النحوية المستوعبة، وتلقيه كتاب سيبويه تفهماً، وكثرة ما قرأ من الكتب النحوية واللغوية والأدبية - هيأ له ذلك كله أن يكون صاحب مذهب ورجل فكر، فصنف كتابه «الرد على النحويين» الذي حققه ونشره الأستاذ الدكتور شوقي ضيف^(٢) وقد ناقش في هذا الكتاب النحاة، وبين لهم فساد عللهم، وناقشه في هذا التأليف ابن خروف بكتاب سماه: تنزيه أئمة النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسهو، ولما بلغه ذلك قال: «نحن لا نبالي بالأكباش النطاحة، وتعارضنا ابن الخرفان»^(٣).

ويبدو أن ابن مضاء في دعوته الجديدة التي يمثلها كتاب: «الرد على النحاة» كان متأثراً بالتيارات التجديدية العامة التي كانت سائدة في بيئته إذ ذاك، ففي عهد يعقوب بن يوسف أعظم خلفاء دولة الموحدين، يقول ابن خلكان عنه: «إنه أمر برفض فروع الفقه، كما أمر

(١) البغية ١/ ٣٢٣.

(٢) نشر دار الفكر - القاهرة.

(٣) البغية ١/ ٣٢٣.

الفقهاء ألا يفتوا إلا، بالكتاب والسنة، ولا يقلدوا واحداً من المجتهدين القدماء، بل تكون أحكامهم مما يؤدي إليهم اجتهادهم»^(١).

يقول باحثاً عن الهدف الذي من أجله ألف ابن مضاء كتابه:

«يريد أن يردّ بعض أصول هذا النحو، وأن يخلصه من كثرة الفروع فيه، وكثرة التأويل مستناً في ذلك بسنة أميره يعقوب، إذ كان يعجب مثله على ما يظهر بمذهب الظاهرية، فذهب يحاول تطبيقه على النحو، وقد بدأ فرفض نظرية العامل التي جعلت النحاة يكثرون من التقدير»^(٢).

وفي رأي أن ابن مضاء كان جريئاً في هذه الدعوة التي أحدثت دوياً هائلاً في أوساط النحاة إلى يومنا هذا، فإن النحو الذي عرف، وسجل سيبويه في كتابه الخالد قواعد كان يقوم على نظرية العامل، فلا يرتفع فاعل ولا ينصب مفعول، ولا يجر اسم إلا بعامل، وإذا عزّ العامل الظاهر التجنوا إلى العامل المقدر.

وإذا جرّد النحو من هذا العامل ضاعت مقاييسه، واختلت قواعده، واضطربت مسائله.

ومن هنا كانت أهمية هذه الدعوة التي قام بها ابن مضاء ليهدم هذه النظرية.. ولكن إذا هدمنا العامل على رأي ابن مضاء، فكيف نستطيع أن نميز بين الظواهر النحوية المختلفة من رفع، ونصب وجر؟

في الواقع أن ابن مضاء لم يتركنا في حيرة من هذا الأمر فأجاب في مفتتح الفصل الأول من كتابه عن السؤال بقوله: «وقصدي من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنبّه على ما اجمع على الخطأ فيه، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والحذف والجرم لا يكون إلا بعامل لفظي، فقالوا في: ضرب زيد عمرا: إن الرفع الذي في زيد، والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضرب، وذلك بين الفساد، وقد صرح بخلافه ابن جنى وغيره، وفي الحقيقة ومحصول الحديث أن العمل من الرفع والنصب والجر إنما هو للمتكلم نفسه، والجرم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره».

وفي ضوء هذا النص نستطيع أن نقول: إن ابن مضاء كان أميناً في نسبة الرأي إلى صاحبه، لأن أول من أشار بفساد نظرية العامل هو ابن جنى، ولكن الذي يضيفه ابن مضاء

(٢) الردّ على النحاة/ ١٣.

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٩٢٨.

هو شرح هذه النظرية بأدلة عقلية تكاد تكون مقنعة، قال: «وربما ظن شخص أن معاني هذه العوامل هي العاملة، ويرد على ذلك بأن العامل أو الفاعل إما أن يفعل بإرادة كالأإنسان والحيوان، وإما أن يفعل بالطبع كما تحرق النار، والعامل في النحو ليس فاعلاً بالإرادة ولا بالطبع، وإذا فتصور النحاة له بأنه عامل أو فاعل تصور واهم»^(١).

وفي رأى ابن مضاء أن النحو ليس وفقاً على سيبويه، أو بعبارة أخرى ليس وفقاً على البصريين والكوفيين، لأن قواعد النحو ليست مقدسة لا تقبل النقد، وإجماع النحويين ليس حجة علينا مهما اتفق البصريون والكوفيون على ذلك.

رأى ومناقشة:

على الرغم عما قيل بأن مضاء مولع بالتجديد من أجل التجديد، لأن عصره عصر متطور، ثار على القديم، وانتزع منه قد سبته، فأراد ابن مضاء أن يدلى بدلوه بين الدلاء، أقول على الرغم من ذلك فإن القارىء لكتابه يلمس من خلال سطور السبب الرئيسى وراء هذا التأليف، فقد أطلّ هذا السبب بوجهه بين السطور، وذلك أن النحويين حينما يطبقون أقيستهم وعللهم فى مجال القرآن الكريم، يكثرون التأويلات فى آياته، ويعمدون التخريجات والمحذوفات والزيادات فى مجاله، وهذا لا يتفق مع جلال القرآن الكريم، ولا يتناسب مع عظمته.

استمع إليه يقول: «أما بعد، فإنه حملنى على هذا المكتوب قول رسول الله ﷺ: من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ، وقوله عليه السلام: من قال فى كتاب الله بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، وقوله عليه السلام: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»^(٢).

فمن هذه الأحاديث التى ساقها ابن مضاء تبين لنا السرّ فى ثورته على النحو الموروث.

والحقيقة أن ابن مضاء جانبه التوفيق فى إشعال هذه الثورة على النحو والنحاة، لأنه أراد أن يفلق باب الفكر، ويحول بينه وبين الانطلاق، وبذلك تتعطل القوى الفكرية، وتموت القرائح، وتشل إرادة الإنسان الخلاقة، وذلك كله يتناقض مع الإسلام، دين الفكر، ودين العقل، ودين الحرية.

(١) الرد على النحاة/ ١٣.

(٢) الرد على النحاة/ ٧٩ - ٨٠.

إن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ووفق أساليبها وتراكيبها، وتحدّأها بروعة أسلوبه، وجمال تراكيبه، وبلاغة بيانه، وقوة سحره في النفوس وكلام العرب يكثُر فيه الحذف والزيادة، ويلجأ في نسيجه إلى التقدير.

وقد أثبت في كتابي «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية» كثيراً من هذه الزيادات في القرآن الكريم، لأنها زيادات لها دلالتها البلاغية، وقوتها الأسلوبية ومن هذه الزيادات الواو في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(١) والباء في قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾^(٢)، و«لا» في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٣).

والمحذوفات في القرآن كثيرة، وهي من دون شك محذوفات تعتبر القمة في الإيجاز البلاغي، والإعجاز القرآني، وذلك كحذف المتباد، وحذف الموصول وإبقاء صلته، وحذف الموصوف وإبقاء صفته، وحذف المضاف وإبقاء عمله^(٤).

لهذا الذي قدمت أستطيع أن أقول: إن ابن مضاء فشل في ثورته ضد النحو والنحاة، وإنه كما يقول الدكتور طه حسين: لم يفكر في الإصلاح بقدر ما فكر في هدم النحو القديم^(٥).

وأنا لا أنكر أن النحاة القدامى حينما وضعوا لنا هذه القواعد واستنبطوها من أساليب العرب ومن نهج كلامهم قاموا بعمل خطير، وأن هذه العوامل النحوية ليست لها روح وإرادة أو طاقة وقوة كما نص على ذلك ابن مضاء ولكنها أمارات ودلائل صناعية استعملها النحاة ليفرقوا بين أسلوب وأسلوب، وبين ظواهر الكلام من رفع ونصب وجر وجزم.

وقد سأل أبو إسحاق الزجاج نفسه بعد أن ذكر أن من رفع الفاعل ونصب المفعول إنما فعل للفرق بينهما فقال: فإن قيل: فهلاً عكست الحال، فكانت فرقاً أيضاً، قيل الذي فعلوه

(١) الزمر/ ٧٣.

(٢) المائدة/ ٦.

(٣) الأنعام/ ١٥١.

(٤) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية.

(٥) مجلة المجمع اللغوي ٧/ ٧٢.

أحزم، وذلك أن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد، وقد تكون له مفعولات كثيرة فرفع الفاعل لقلته، ونصب المفعول لكثرتة، وذلك ليقبل في كلامهم ما يستقلون، ويكثر في كلامهم ما يستخفون.

ويبدو أن ابن مضاء كان يقدر لشورته الفشل، لأنه هدم ولم يبني، وخرب ولم يعمر، وأفسد ولم يصلح، ولا أدلّ على ذلك من قوله: «ولعل قائلًا يقول: أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالخلاء أئدرى بنحوي العراق، وفضل العراق على الآفاق كفضل الشمس في الإشراق على الهلال في المحاق، وإنك أخمل من بقعة في شقة، وأخفى من تينة في لبنة، ولا تعرف الزائف من الخالص، فليس هذا بعُشك فادرجي»^(١).

خل الطريق لمن بيني المنار به وأبرز بيرزة حيث اضطرك القدر.

على أنه من الظلم البين أن نتهم النحاة القدامى بالاعتماد على التعليل وحده في بناء القواعد، وتركيب الجمل.

إن القياس والتعليل لا يلجأ إليه النحاة القدامى إلا حينما يعز السماع، وتفقد الرواية. ولهذا كان أبو علي الفارسي صادقاً في وضع النقاط على الحروف في هذه القضية، فقد كان يقول: «إن الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين، ونتبعه من هذه القوانين إنما هو ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها، ويستوى من ليس بفصيح ومن هو فصيح فإذا ورد السماع بشيء... عدل عن القياس إلى السماع»^(٢).

وقد أكد هذا المعنى تلميذه ابن جنى حينما قال: «النحو: هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير والإضافة والتسبب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها ردّ به إليها»^(٣).

(١) الردّ على النحاة/ ٨٤ بتصرف.

(٢) النصف لابن جنى ١/ ٢٧٩.

(٣) الخصائص ١/ ٣٤.

ح. التعليل في ضوء المدارس النحوية

أولاً: في مدرسة البصرة:

١ = منهج مدرسة البصرة في الدراسة النحوية:

علماء البصرة احتضنوا الدراسات النحوية منذ عهد مبكر، لأنها في بلدهم نشأت، وفي مدينتهم تكوّنت، وعلى يدهم أخذت تنمو شيئاً فشيئاً، وتتطور حيناً بعد حين، حتى تسلّم راية هذا العلم الخليل بن أحمد الذي غذى بعلمه تلميذه النابه سيبويه، فتطوّرت على يده، وامتدت إليها حرارة الحياة، وسرت في عروقها شعلة النشاط والتجدد.

وبفضل سيبويه تكونت مدرسة البصرة، واستقرت قواعدها، وتحدّدت مناهجها، وتميّزت مسائلها.

وإني اعتبر بحق أن الجهود الأولى التي بذلها النحاة السابقون قبل أن يظهر سيبويه على مسرح هذه الدراسة - كانت بذوراً طيبة نمت وترعرعت، ولكنها لم تنضج ثمارها، ولم تؤثّر أكلها إلا على يد سيبويه.

على أنه من الواقع التاريخي أن نقرر أن مدرسة البصرة لم تكن وليدة على يد سيبويه لأنها ولدت قبل ذلك، وقد قمت بدراسة تبعت فيها الحركة النحوية من عهد أبي الأسود إلى عهد سيبويه في كتاب سمّيته الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي^(١).

وفي عصر سيبويه نما هذا الوليد وترعرع، واكتمل شبابه وأورق عوده وذلك بظهور كتاب سيبويه الذي أعجز من قبله، وعز على من بعده، لأنه قبلة النحاة، فمن معينه شربوا على اختلاف العصور، وامتداد الأزمنة، ومن أقيسته وقضاياها تفرّع النحو، وتعددت مسائله، وضائق عن الحصر توجيهاته وتأويلاته.

فمن المصريين الذين شربوا من معينه أبو على أحمد بن جعفر الدينوري المصري الذي كان يخرج من منزل ختنه ثعلب، فيتخطى أصحابه ويمضى ومعه محبرته ودفتره، فيقرأ كتاب سيبويه على المبرّد^(٢).

(١) نشر بالكويت ١٩٧٧ ط أولى، وطبع طبعة ثانية مزيدة؟ في مؤسسة الرسالة - بيروت سنة ١٩٩٣.

(٢) طبقات النحويين واللغويين / ٢١٧ تحقيق محمد (أبو الفضل) إبراهيم

وأبو الحسن محمد بن الوليد بن ولاد لقي المبرد وثلعب، وأقام ثمانية أعوام يدرس كتاب سيويه على المبرد.

ولحرص ابن ولاد على كتاب سيويه أراد أن ينقل نسخة الكتاب من المبرد، وكان المبرد يضمن بها ضمناً شديداً فكلم ابنه فيه على أن يجعل له في كل كتاب منه جُملاً قد سماه، فأجابه إلى ذلك فأكمل نسخه^(١).

وفي الأندلس اشتهر جماعة من النحويين بحفظه، فمن أقدم من وقفنا عليه ممن حفظوا كتاب سيويه هو حمدون النحوي المتوفى بعد المائتين. وفي القرن الثالث الهجري كان من أشهر حفاظه الأفيشين القرطبي المتوفى سنة ٣٠٩هـ^(٢).

وقد بلغ الأمر في الأندلس بمروان النحوي المتوفى سنة ٤٨٩هـ أنه عكف على كتاب سيويه ثمانية عشر عاماً لا يعرف سواه^(٣).

وفي العصور المتأخرة كان لكتاب سيويه منزلة رفيعة، فالزمخشري الملع نجوم عصره يشيد بكتاب سيويه فيقول: «يجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيويه»^(٤). عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانِيهِ مِنْ آيَةٍ ﴾^(٥).

هذا الكتاب الذي تحدثنا عنه في إيجاز كان مصدراً للمدرسة البصرية في مجال الدراسات النحوية ومن أهم ما يعتمد عليه منهج مدرسة البصرة في الدراسات النحوية والصرفية هو القياس.

والقياس كما عرفه صاحب التعريفات: هو عبارة عن ردّ الشيء إلى نظيره^(٦).

والقياس عند ابن الأنباري هو اعتبار الشيء بالشيء بجامع^(٧).

والتعريفان متقاربان، ويصبان في مجرى واحد.

(١) المصدر نفسه / ٢٣٦ (٢) الاقتراح / ٤١٣٧، طبع دار الفكر.

(٣) البنية / ٢٥٢ (٤) الكشف / ١٦٥ / ٢.

(٥) الأعراف / ١٣٢ (٦) التعريفات للجرجاني / ١٥٩.

(٧) لمع الأدلة لابن الأنباري / ٩٣.

ويوضح اليسوطى فى كتابه (الاقتراح) أركان القياس فيقول: للقياس أربعة أركان: أصل وهو المقيس عليه، وفرع وهو المقيس، وحكم، وعلة جامعة وذلك مثل أن تركيب قياساً فى الدلالة على رفع ما لم يسم فاعله، فتقول: اسم أسند الفعل إليه مقدما عليه فوجب أن يكون مرفوعاً قياساً على الفاعل، فالأصل هو الفاعل، والفرع هو ما لم يسم فاعله، والحكم هو الرفع، والعلة الجامعة هى الإسناد^(١).

والناظر إلى كتاب سيبويه يجد فيه أمثلة كثيرة للأقيسة المختلفة المتعددة مما يدل على أن القياس وصل على يده إلى كامل نضجه، وتمام قوته.

وقد بلغ الأمر بسيبويه، أنه لم يقف عند استقراء الأمر الواقع بل يفترض فروضاً نظرية، ويعطيها أحكاماً خاصة^(٢).

وهنا يرد إلى ذهننا هذا السؤال: إذا كان البصريون بلغ بهم الأمر فى الاعتداد بالقياس إلى هذا الحد، أعنى حد الفروض النظرية، وإعطائها أحكاماً خاصة، فمن أين استمدّ البصريون اللغة التى قاسوا عليها، وهذا ما نجيب عنه فى النقطة التالية:

= المصادر اللغوية للقياس عند البصريين؛

١ = القبائل البدوية التى ابتعدت عن المؤثرات الأجنبية:

ويحدّد أبو نصر الفارابى فى كتابه المسمى (بالألفاظ والحروف) القبائل التى اعتمد عليها البصريون فى أخذ اللغة عنها والقياس عليها.

قال ما نصه: «والذين نقلت عنهم اللغة العربية، وبهم اقتدى، وعندهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم»^(٣).

(١) الاقتراح / ٩٦.

(٢) مجلة الأزهر المجلد ٢٣ / ٤١ من مقال: ارسطو والنحو العربى للدكتور إبراهيم مذكور.

(٣) الاقتراح / ٢٤.

٢= أشعار العرب الجاهليين والمخضرمين، أما الشعراء الإسلاميون كجرير والفرزدق فأكثر النحاة على عدم جواز الاستشهاد بشعرهم.

وكنا نودّ أن يسير البصريون على منهجهم الدقيق في جمع الشعر العربي ونسبته إلى قائله وبناء القواعد عليه لتطمئن النفوس إلى سلامة المنهج من الانحراف، ولكن ذلك لم يتحقق. قال الجرمي في كتاب سيويه ألف وخمسون بينا سألته عنها فعرف ألفا ولم يعرف الخمسين»^(١).

وقد بينت في كتاب لي أن بعض شواهد سيويه من المعلقات موضع نقد في كتاب اسمه «شواهد سيويه من المعلقات في ميزان النقد»^(٢).

٣= القرآن الكريم: لم يختلف أحدٌ من النحاة أياً كانت مذاهبهم في أن القرآن الكريم أصل من أصول الاستشهاد في اللغة والنحو، والقياس على أسلوبه لأنه كتاب الله المنزل على نبيه ﷺ في أسلوب عربي في القمة من الرقي والكمال»..

والحق أن منهج البصريين في الدراسات النحوية منهج نعوزه الدقة، ويحتاج إلى استيعاب متكامل.

فمن أخطائهم أنهم أبعدوا كثيراً من القراءات القرآنية عن ميدان بناء القواعد وتركيب الأساليب.

قال السيوطي ناقد البصريين في هذا المجال: «كان قوم من النحاة المتقدمين يعيون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية، وينسبونهم إلى اللحن، وهم مخطئون في ذلك، فإن قراءتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها، وثبت ذلك دليل على جوازه في العربية»^(٣).

ومن أخطائهم أنهم حرموا اللغة مورداً لغويًا كبيراً وهو الحديث الشريف وقد أثبت خطأ

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١/٣١٩.

(٢) نشر في مؤسسة الرسالة - بيروت

(٣) الاقتراح / ١٧.

هذا المنهج فى كتابى: «المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة»^(١).

= ومن أخطاء البصريين اعتدادهم بالمنطق والعقل، وتجنبهم الرواية والنقل ففى كثير من المسائل النحوية حكموا أقيستهم، وما يتبعها من تعليقات مع أن اللغة ظاهرة اجتماعية، بل هى كائن حى ينمو فى إطار من بيئته، يتفاعل معها، ويتأثر بها، ولا ينفصل عنها، فمن الظلم أن نخضع هذا الكائن لمقاييس تعوقه من الانطلاق، والنمو والحركة وتعوقه عن أن يؤدى دوره فى الحياة، ويقوم برسالته فى المجتمع.

ونختم الحديث عن القياس فى مدرسة البصرة بمثال توضيحي يبين كيف عقد البصريون النحو بهذه العلل التى حشروها حشراً فى القضايا النحوية واللغوية.

فى قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرِّئَاءِ تَعْبُرُونَ﴾^(٢): الأصل: «إن كنتم تعبرون الرؤيا فلما أفر الفعل وقدم معموله ضعف عمله فقوى بالسلام، وليست اللام المقوية زائدة محضة، ولا معدية محضة لا طراد صحة إسقاطها بل هى بينهما، فلها منزلة بين المنزلتين وهو مُشكل، فإن الزائدة المحضة لا تتعلق بشىء، وغير الزائدة تتعلق بالفعل الذى قوته، فتكون متعلقة غير متعلقة فى آن واحد، وهو ممتنع لأدائه إلى الجمع بين متنافين»^(٣).

ثانياً: فى مدرسة الكوفة

نشأت المدرسة الكوفية بعد أن تطورت المدرسة البصرية، ووصلت إلى القمة فى هذا التطور، ذلك لأن أقيستها وأصولها وتعليقاتها استقرت ونضجت، ونمت وقويت، فلما نشأت مدرسة الكوفة: بعد ذلك كانت مدرسة البصرة ينبوعاً لها يمدّها بالنمو والحياة.

يدل على ذلك أن أبا جعفر الرؤاسى شيخ الكوفيين إنما عرف البصرة كما قال المبرد^(٤).

وقد قال عنه الزبيدى كان أستاذاً أهل الكوفة، فى النحو، وأخذ عن عيسى بن عمر فى

(١) نشر دار الشروق - لبنان ومؤسسة الرسالة - بيروت - طبعة ثانية.

(٢) يوسف / ٤٣.

(٣) التصريح ١١ / ٢.

(٤) البنية ٨٣ / ١.

البصرة، وبعد أن نبغ في الدراسات النحوية، ذهب إلى الكوفة ليذيع فيها علم البصرة، وقد تلمذ عليه علماء النحو من بعده الكسائي والفراء.

والكسائي عميد مدرسة الكوفة خرج إلى البصرة فلقى الخليل، وجلس في حلقاته فقال رجل من الأعراب تركت أسد الكوفة - وتميماً، وعندها الفصاحة وجئت إلى البصرة؟

فقال الكسائي للخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال من بوادي الحجاز، ونجد، وتهامة، فخرج ورجع، وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ، فقدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي موضعه يونس، فجرت بينهما مسائل، أقر له فيها يونس وصدده في موضعه^(١).

وأقبل الطلاب على علماء الكوفة ليأخذوا عنهم النحو، ويتلقون عليهم مسائله وأصوله، وأصبح للكوفيين منهج خاص، تكون بعد طول النظر، وكثرة الجدل.

ومن أجل هذا المنهج الكوفي المغاير في بعض أسسه للمنهج البصري نشأ الخلاف بين المدرستين، واحتدم النزاع بين الطائفتين، وكان لكل مدرسة أنصار وأتباع، أما المنهج البصري فقد سبق بيانه، وأما المنهج الكوفي فيتلخص فيما يلي.

١- الاستشهاد بالقراءات القرآنية: إنهم قبلوا القراءات لأنها تقوم على الرواية والنقل مهما خالفت القياس والمنطق.

وكان رائدهم في القياس على القرآن الكريم بقراءاته المختلفة إيمانهم بأن القرآن الكريم جاء بلغات مختلفة فصيحة، فهو أحق بالقبول، وأجدر بالأخذ حينما تبنى قاعدة أو يقرر حكم، أو يصحح أسلوب.

٢= الاستشهاد بلهجات عرب الأرياف الذين وثقوا بلغتهم على حين رفض البصريون الاستشهاد بها، والقياس عليها.

٣- الاستشهاد بالشعر العربي في الجاهلية والإسلام، ولو كان ما وصل إليه منهم بيت واحد:

(١) البغية ٢/ ١٦٣.

قال الأندلسي شارح المفصل: الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول، جعلوه أصلاً ويؤبوا عليه^(١).

٤ = القياس على القليل النادر، لأن ما ورد من اللغة يعدّ قليلاً بالنسبة لما ضاع منها مستندين إلى كلمة أبي عمرو بن العلاء في هذا حيث نسب إليه قوله: ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم لجاءكم علم وافر، وشعر كثير^(٢).

هذا ومن أهم المؤلفات التي وضعت في الخلاف بين البصريين والكوفيين كتاب: «الإنصاف في مسائل الخلاف» لابن الأنباري المتوفى ٥٧٧هـ والذي حققه المرحوم الشيخ محمد محي الدين.

ومنهج ابن الأنباري في كتاب الإنصاف يقوم على الموضوعية مع أنه كوفي الاتجاه فمن مقدمته نستطيع أن نلمس هذه الموضوعية في وضوح وجلاء.

يقول في المقدمة: «إن جماعة من الفقهاء المتأدبين، والأدباء المتفهمين المشتغلين على بعلم العربية. بالمدرسة النظامية... سألوني أن أخصّ لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحوي البصرة والكوفة... ليكون أول كتاب صنّف في علم العربية على هذا الترتيب، وألف على هذا الأسلوب، لأنه ترتيب لم يصنف عليه أحد من السلف، ولا ألف عليه أحد من الخلف، فتوخيت إجابتهم على وفق مسألتهم، وتحريت إسعافهم لتحقيق طلبتهم، وفتحت في ذلك الطريق وذكرت من مذهب كل فريق ما اعتمد عليه أهل التحقيق، واعتمدت في النصرة على ما أذهب إليه من مذهب أهل الكوفة أو البصرة على سبيل الإنصاف، لا التعصب والإسراف^(٣).

وبالموازنة بين منهجي البصرة والكوفة نجد أن البصريين تشدّدوا بالنسبة إلى القياس والتعليل، فلا يقيسون إلا على الكثير، وحصروا اللغة في قوالب محدودة، واعتبروا ما عدا

(١) الاقتراح / ١٠٠.

(٢) الاقتراح / ٣٧.

(٣) مقدمة الإنصاف.

ذلك شاذاً لا يعتد به في بناء القواعد، على حين نرى الكوفيين فتحوا الباب على مصراعيه، فاحتجوا بكل مسموع حتى ولو كان قليلاً، وأخذوا من كل العرب حتى ولو كانوا من عرب الأرياف الذين جاؤوا الأمم الأخرى واختلطوا بهم، ونجد في شواهد الكوفيين من الشعر ما لا يعرف قائله بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر كالشاهد الذي يحتاجون به على جواز دخول اللام في خبر لكن، وهو قول القائل المجهول:

* ولكتني من حبها لعميد *

على أية حال كانت نستطيع أن نقول: إن الكوفيين انجهموا في الدراسات النحوية وجهة تعود على اللغة والنحو بالحياة والتطور والانتعاش في حين أن البصريين كانوا يحجرون واسعاً، ويضيّقون مقاييسهم مما يُعوق حركة التطور اللغوي.

وتنجه بعد ذلك إلى مدرسة بغداد لتعرف مدى استخدامها للقياس واستقبالها للعلل.

ثالثاً: في مدرسة بغداد

القياس في ضوء مدرسة بغداد:

ينكر بعض الباحثين وجود مذهب بغدادى فيقول: «ولم يكن هناك فيما أرى مدرسة بغدادية، قائمة بنفسها، لها تعاليمها غاية ما في الأمر أن رجالاً خلطوا بين المدرستين البصرية والكوفية فرأوا رأياً من هذه، ورأياً من الأخرى، وإن كانوا في مذهبهم الأصيل يميلون إلى هذه أو يميلون إلى تلك فيكونون بصريين أو كوفيين فحسب»^(١).

وهذا الإنكار للمذهب البغدادى لا نسلم به، لأن آراء البغداديين ضمنتها كتب النحو التراثية، وكان لهم آراء مستقلة لا تسير في موكب آراء البصريين أو تتبع خطى الكوفيين، ويكفي أن أحيل الباحث إلى كتب النحو التي تخرجنا عليها كالهمع، والتصريح والأشمونى ليرى صدق ما أقول.

على أن اختيار البغداديين لرأى بصرى أو كوفى يدل على أن لهم نظرات خاصة ومقاييس معينة يستخدمونها في تفضيل رأى على رأى أو إثارة مذهب على مذهب.

(١) أبو على الفارسي للدكتور عبدالفتاح شلى / ٤٤٦.

أما كيف نشأ المذهب البغدادي فذلك بيانه.

بعد تمصير بغداد أصبحت عاصمة للدولة الإسلامية، ومقرراً لحكم العباسيين، وعلى يد هؤلاء نمت بغداد، وازدهرت حضارتها، وتعددت جوانب الثقافة فيها، وصارت مشعل نور، ومصباح ثقافة، ومركز إشعاع.

لهذا كله وفد إليها الكثير من علماء الكوفة والبصرة.

على أن بغداد حظيت بعلماء الكوفة قبل أن تحظى بعلماء البصرة، فلما اشتهر أمر علماء الكوفة فيها، وذاع صيتهم، وقربهم الخلفاء إليهم أقبل علماء البصرة إلى بغداد لينعموا بما نعم به الكوفيون.

وأشهر نحاة الكوفة الذين اتجهوا إلى بغداد الكسائي الذي اتخذه الرشيد مؤدباً لولده.

وافتقى أثر الكسائي في بغداد الفراء، وكان الفراء تلميذاً للكسائي في بغداد مع أنه كان من أتداده في الكوفة أخذ نحوه من الرؤاسي كما أخذ الكسائي.

وتلميذة الفراء للكسائي جاءت عن تقديره الكبير للكسائي في المجال اللغوي والنحوي يدل على ذلك قوله: «مدحني رجل من النحويين، فقال: ما اختلافك إلى الكسائي وأنت مثله في النحو، فأعجبتني نفسي فناظرته مناظرة الأكفاء، وكأني كنت طائراً يغرف من البحر بمنقاره.

ولمنزلة الفراء في النحو ببغداد اتخذه المأمون مؤدباً لولديه، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى حوائجه فابتدرا إلى نعل الفراء ليقدمها له، فتنازعا أيهما يقدمها له؟، ثم اصطالحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة^(١).

ومن البصريين الذين وفدوا إلى بغداد سيبويه الذي أراد أن يتألق نجمه في مدينة العلم والفكر، ولكن القدر كان أكبر من أمله، فتغلب عليه الكسائي في مناظرة مشهورة بينهما.

ووفد إلى بغداد من البصريين صالح بن إسحاق أبو عمرو الجرمي الذي ناظر الفراء في بغداد حول العامل في الابتداء.

(١) نزهة الألباء / ١٣٠.

قال الفراء للجرمي أخبرني عن قولهم: زيد منطلق، بسم رفعوا زيدا؟ فقال له الجرمي، بالابتداء، قال له الفراء: ما معنى الابتداء؟ قال: تعريته عن العوامل، قال الفراء: فأظهره، قال له الجرمي: هذا معنى لا يظهر، قال له الفراء: فمثله إذاً، فقال الجرمي: لا يتمثل، فقال الفراء ما رأيت كالיום عاملاً لا يظهر ولا يتمثل.

فقال له الجرمي: أخبرني عن قولهم: زيد ضربته: لم رفعتم زيدا؟

فقال الفراء: بالهاء العائدة على زيد، فقال الجرمي: الهاء اسم فكيف يرفع الاسم؟ فقال الفراء: نحن لا نبالي من هذا، فإننا نجعل كل واحد من الاسمين إذا قلت: زيد منطلق رافعاً لصاحبه، فقال الجرمي: يجوز أن يكون كذلك في زيد منطلق، لأن كل اسم منهما مرفوع في نفسه فجاز أن يرفع الآخر، وأما الهاء في ضربته في محل النصب، فكيف ترفع الاسم؟ قال الفراء لا ترفعه بالهاء، وإنما رفعناه بالعائد على زيد، قال الجرمي: ما معنى العائد؟ قال الفراء: معنى لا يظهر، قال الجرمي: أظهره، قال الفراء: لا يمكن إظهاره، قال الجرمي: فمثله، قال: لا يتمثل. قال الجرمي: لقد وقعت فيما فررت منه. فحكى أنه سئل الفراء بعد ذلك، فقيل له: كيف وجدت الجرمي؟ فقال: وجدته آية، وسئل الجرمي فقيل له: كيف وجدت الفراء؟ فقال: وجدته شيطانا^(١).

ومن النحاة الذين خلطوا المذهبين في بغداد: أبو حنيفة الدينوري وأبو الطيب الوشاء، وابن كيسان، والأخفش الصغير.

وظل نحاة بغداد ينهلون من معين المدرستين، ويأخذون بأصح المذهبين مع نظرات خاصة يستخدمونها في الأدلة، ليفضلوا رأياً على رأي، وليؤثروا مذهباً على مذهب.

أقول: ظلوا كذلك حتى تسلم زعامة هذه المدرسة أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جنى، فتطور المذهب على يديهما.

ولقد صور ابن جنى المنهج البغدادي تصويراً رائعاً، دلّ على عقلية، لا تتأثر بالماضي، عقلية حرة لا تضيء القدسية على مذهب ما، لأن الحق أكبر من هذه القدسية.

(١) الإنصاف ٤٩/١.

يقول رحمه الله في مبحث زيادة الهاء في كتابه: سر الصناعة: «رأيت أبا محمد بن درستويه قد أنحى على أحمد بن يحيى في هذا الموضع من كتابه الموسوم بـ«شرح الفصيح» وظلمه، وغصبه حقه، والأمر عندي بخلاف ما ذهب إليه ابن درستويه في كثير مما ألزمه إياه، وما كنت أراه بهذه المنزلة، ولقد كنت اعتقد فيه الترفع عنها، وإن كان من أصحابي، وقائلاً يقول مشيخة البصرة في غالب أمره، وكان أحمد بن يحيى كوفياً قلباً، فالحق أحق أن ينبع أين حل (١)».

ويبدو أن الفترة التي لمع فيها نجم أبي علي وتلميذه ابن جني اشتهرت بالفلسفة والمنطق، يدل على ذلك هذه الأقيسة المعقدة وهذه المقدمات المنطقية التي لا تحصر والتي تظهر بوضوح في نحو أبي علي وفي أقيسة ابن جني، وفي تعليقات الرمانى.

ومن هنا صح لأبي علي الفارسي أن يقول في الرمانى كلمته المشهورة:

«إن كان النحو ما يقوله الرمانى هو النحو، فليس معنا منه شيء وإن كان ما نقوله نحن، فليس معه منه شيء» (٢).

ولما اشتدت الحوادث في بغداد، وكثرت الفتن بها هجرها الكثير من علماء بغداد وفروا إلى الأندلس ومصر.

وأوشكت الثقافة في بغداد أن تنهار بعد أن كانت مركز إشعاع، وخوفاً من اندثار الفكر الإسلامى والعربى تأسست المدرسة النظامية، فاشتهر أمرها، وأقبل الطلاب عليها.

وحظى النحو البغدادي في هذه المرحلة برجلين اشتهرا بالدراسات النحوية، وهما ابن الشجرى وتلميذه ابن الأنباري الذى صار معيداً بالمدرسة النظامية (٣).

ولا نستطيع أن نحصر المسائل النحوية التي قامت على التعليل عند البغداديين ويكفى فقط استيعاب آراء الرمانى في النحو، وآراء ابن جني في العلة التي ملأت كتاب الخصائص لنعرف إلى أى مدى وصلت إليه الأقيسة والتعليقات في نحو هؤلاء النحاة.

(١) سر الصناعة ٢/ ٥٦٨، تحقيق د/ حسن هندواى.

(٢) البغية ٢/ ١٨١.

(٣) الخطط للمقرئى ٢/ ٣٩٢.

وابها: العلة في مدرسة مصر والشام

وإذا تركنا مدرسة بغداد إلى مدرسة مصر والشام التي كان لى شرف الحياة فيها دارساً لرجالها، مستوعبا لمسائلها باحثاً فى قضاياها وذلك، فى كتابى الذى ألفتة عن هذه المدرسة بعنوان: «المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة»^(١) نشر دار الشروق - بيروت ودار الرسالة بيروت.

ونقول فى إيجاز: إن الكتب التى أسهمت فى إنشاء هذه المدرسة من أشهرها:

١ = كتاب سيويه وقد سبق الحديث عنه، ولاهتمام المصريين به قاموا بتشره، وتذليل مسائله، وتسهيل مصاعبه، وذلك بشرحه وتحليله.

فمن المصريين الذين شرحوه وشرحوا شواهد أبو جعفر النحاس المصرى المتوفى سنة ٣٣٨هـ والعالم المصرى النحوى أبو عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب المتوفى ٦٤٦هـ وشرحه من نحاة الشام أبو العباس أحمد بن محمد بن على العنانى المتوفى ٧٧٦.

٢ = المقرب لابن عصفور، تأليف حامل لواء العربية فى زمانه بالأندلس المتوفى سنة ٦٦٣.

ومن المصريين الذى علقوا عليه الشيخ الإمام تاج الدين أحمد بن عثمان التركمانى المتوفى ٧٦٨هـ.

والشيخ بهاء الدين ابن النحاس المتوفى سنة ٦٩٨هـ.

٣ = الجمل للجرجاني: من تأليف الشيخ عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجانى المتوفى ٤٧٤هـ ومن المصريين الذين شرحوه محمد بن أبى الفتح المتوفى سنة ٧٠٩هـ وشرحه من علماء دمشق ابن الخشاب، وفرع منه ٦٩٥هـ.

٤ = الجمل للزجاجى: من تأليف الشيخ أبى القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى النحوى المتوفى ٣٣٩هـ.

ومن المصريين الذين شرحوه ابن هشام النحوى المصرى المتوفى ٧٦٢هـ.

٥ = الإيضاح لأبى على الفارسى المتوفى سنة ٣٣٧هـ ومن النحاة المصريين الذين اهتموا به، وصنفوا له شرحا ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦، وسمى شرحه: المكتفى للمبتدى.

(١) نشر دار الشروق - بيروت طبعة أولى، وطبعة ثانية مؤسسة الرسالة بيروت.

ومن الشاميين الذين نظموا الإيضاح أبو العباس أحمد بن معقل الأزدي المتوفى سنة ٦٤٤هـ.

٦=اللمع لابن جنى:

ومن الشاميين الذى شرحوه قاسم بن قاسم الواسطى المتوفى ٦٢٦هـ.

وشمس الدين أحمد بن الحسن بن الحبّاز الأربلى المتوفى ٦٣٧هـ.

٧=مقدمة ابن بابشاذ، وهى من تأليف العالم النحوى المصرى طاهر بن أحمد بن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩هـ.

وقد قال فى مقدمته: إن النحو علم يُستنبط بالقياس والاستقراء من كتاب الله تعالى والكلام الفصيح.

ومن النحاة الشاميين الذين شرحوا هذه المقدمة موفق الدين البغدادي المتوفى ٦٢٩هـ.

٨=مقدمة الجزولى: وهى بالمسماة بالقانون صنفها أبو موسى الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧هـ.

وأشهر من شرحها من نحاة مصر والشام ابن مالك المتوفى ٦٧٢هـ.

وسمى شرحه: المنهاج الجلى فى شرح القانون الجزولى.

٩=المفصل للزمخشري: الذى شرحه من المصريين ابن الحاجب والمرادى المتوفى ٧٤٩هـ.

ومن الشاميين ابن مالك وابن عمرو الحلبي المتوفى ٦٤٩هـ^(١).

هذا، ومن واجب الإنصاف هنا أن نقرر أن ابن مالك كان أول مؤسس لمدرسة النحو فى مصر والشام منذ أن أصبح هذان الإقليمان قبلة العلماء، ومهد الحضارة الإسلامية بعد سقوط بغداد.

وكان من أعلام هذه المدرسة من بعده أبو حيان، ثم ابن هشام، وامتنعت هذه المدرسة بما أنتجت من كتب، وخرّجت من علماء أن تحدث حركة نحوية هائلة بلغت مداها على يد ابن هشام ثم أخذت تتقهقر إلى الوراء فى أواخر عهد المماليك، ثم فى عهد العثمانيين الذين أصبح العلم فى عصرهم تسوده الركافة، ويستبدّ به السقم والعلة.

(١) انظر: المدرسة النحوية فى مصر والشام للباحث / ١٣٢ - ١٣٧.

ومن هنا كثرت الحواشي والتقريرات، والتعليقات، وأصبح النحو فى ركود وهمود بعد أن كان فى حركة ونشاط.

وظاهر منهج هذه المدرسة أن العلة فى لا تستعمل كأصل من أصول تفعيد القواعد، وبناء الأحكام إلا إذا لم توجد الأصول الأخرى وهى الاستشهاد بالقرآن وقراءته، والشعر الجاهلى والإسلامى إلى سنة ١٣٢هـ. والحديث الشريف، فكل أسلوب من أساليب الكلام، إن كان له أصل من القرآن الكريم قيل من غير تعليل، وتسير هذه المدرسة على هذا النهج بالنسبة للحديث الشريف، ثم بالنسبة عما سمع من كلام العرب، فإذا لم يوجد من هذه الأصول ما يصحح الأساليب استخدمت مبدأ العلة، ولا تستخدم العلة إلا فى قياس يقاس أو حمل فرع على أصل أو إلحاق نظير بنظيره.

فالاسم يبنى مثلاً عند ابن مالك إذا أشبه الحرف فى الوضع كان يكون الاسم موضوعاً على حرف واحد كالتاء فى ضربت أو على حرفين كنا فى أكرمتنا فعلة البناء عند ابن مالك هى الشبه الوضعى فى نظره.

والقياس عند ابن هشام لا يعتمد به إلا إذا كان له سند من كلام العرب فإذا لم يكن هناك سند امتنع القياس، ومن هنا وافق ابن هشام الكوفيين فى منع تقديم خبر «ليس» عليها لأنه لم يسمع مثل ذاهبا لست ثم ألحقها ابن هشام بـ «عسى» من حيث الجمود فى كل منها، وعسى خبرها لا يتقدم باتفاق، فكذلك ليس، لأن علة المنع فى عسى متحققة فى ليس، وهذا المنع قياس.

ولا أستطيع فى هذا البحث أن استطرذ بذكر الأمثلة القياسية والتعليلية عند رجال هذه المدرسة، لأن كتابى المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة ضم طائفة متعددة من هذه الأمثلة فى حقل العلة والقياس.

ونتقل بعد هذه الجولة إلى القياس فى عصرنا الحاضر:

خامساً: القياس فى المجمع اللغوى

تمثل المجمع اللغوى فى عالمنا العربى نهضة كبرى فى تطوير اللغة، وتنمية الأساليب، ومن هذه المجمع مجمع اللغة العربية فى القاهرة حيث أجاز القياس فيما يلى:

١- التضمين: يرى مجمع اللغة العربية أنه قياسى لاسماعى مع العلم بأن النحاة الأقدمين قرروا أنه سماعى ومحفوظ فى جملة أساليب تحفظ ولا يقاس عليها.

والتضمين هو أن يؤدي فعل معدى معنى فعل آخر فيعطى حكمه فى التعدية واللزوم.

ويشترط مجمع اللغة العربية شروطاً ثلاثة ليتحقق هذا التضمين:

١- تحقق المناسبة بين الفعلين.

٢- وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر يؤمن معها اللبس.

٣- ملاءمة التضمين للذوق العربى.

ومن التضمن فى القرآن الكريم قوله تعالى:

أ = ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (١) ضمن خلا معنى انتهى.

ب = ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ (٢) ضمن تأكلوا معنى تضموا.

ج = ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ ﴾ (٣) ضمن أذاعوا معنى تحدثوا.

ومن قرارات المجمع القياسية:

= قرار فعلان للتغلب والاضطراب للفعل اللازم مفتوح العين.

= قرار فعّال للمرض من فعل اللازم مفتوح العين.

= قرار الاشتقاق من أسماء الأعيان، وقد قاسه المجمع للضرورة فى لغة العلوم.

= قرار قياسية التعدية بالهمزة.

= قرار قياسية صيغة استفعال لإفادة الطلب والصيرورة.

وبعد، فإن الحديث عن القياس والعلة فى النحو العربى حديث طويل لأنه لا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتب التراث النحوى إلا وطالعتنا من خلالها العلة بوجوهها المختلفة، وأقسامها المتعددة ونكتفى بالإيجاز الذى كان شعارنا فى هذا البحث، ومن أراد التفصيل، فقد أشرت إلى عدة مصادر تناولت هذا القياس بالتعليل والتحليل. والله الموفق.



مصادر البحث ومراجعته

- ١- أصول الأحكام الشرعية: الشيخ على حسب الله - مطبعة العلوم - طبعة أولى.
- ٢- الاقتراح: جلال الدين السيوطي - طبع الهند.
- ٣- الإنصاف في مسائل الخلاف - ابن الأنباري ، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين - مطبعة السعادة.
- ٤- الإيضاح في علل النحو: الزجاجي - دار النفائس - بيروت.
- ٥- بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي : تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم - طبع عيسى الحلبي.
- ٦- البيان والتبيين - الجاحظ - تحقيق المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٧- تاريخ آداب العرب: الرافعي - طبعة ثانية ١٩٤٠.
- ٨- تاريخ الفلسفة الإسلامية : ت- ج دي بور ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبي ريدة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٩- التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية: ترجمة د. عبد الرحمن بدوي - دار النهضة.
- ١٠- التعريفات : السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد - مطبعة الحلبي.
- ١١- الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي . د. عبد العال سالم مكرم - مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ١٢- الخصائص - ابن جنى - طبع دار الكتب.
- ١٣- الخطط للمقرئزي - دار الطباعة المصرية - بولاق سنة ١٢٧٠هـ.
- ١٤- الرد على النحاة: ابن مضاء القرطبي - تحقيق الدكتور شوقي ضيف. مطبعة دار الفكر العربي .
- ١٥- سر الصناعة لابن جنى - مطبعة الحلبي.
- ١٦- شرح التصريح - الشيخ خالد الأزهرى - عيسى الحلبي.
- ١٧- الشعر والشعراء : ابن قتيبة، مطبعة المعاهد - طبعة ثانية.

- ١٨- طبقات النحويين واللغويين - الزبيدي ، تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل طبع ١٩٥٤ .
- ١٩- أبو على الفارسي: الدكتور عبد الفتاح شلبي - مطبعة نهضة مصر - الفجالة .
- ٢٠- الفهرست: ابن النديم - مطبعة الاستقامة .
- ٢١- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: د. عبد العال سالم مكرم - ثلاث طبعات - دارالمعارف - مؤسسة الصباح - الكويت - المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة .
- ٢٢- الكشاف للزمخشري - مطبعة الاستقامة .
- ٢٣- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال علاء الدين علي بن حسام الهندي - طبع الهند .
- ٢٤- الكتاب: سيبويه - تحقيق الأستاذ المرحوم عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٢٥- مُع الأدلة - ابن الأنباري - تحقيق سعيد الأفغاني - مطبعة الجامعة السورية .
- ٢٦- محاضرات عن مشكلاتنا اللغوية - أمين الخولي - مطبعة معهد الدراسات العربية .
- ٢٧- مجلة الأزهر .
- ٢٨- مجلة المجمع اللغوي .
- ٢٩- المدرسة النحوية في مصر والشام د. عبد العال سالم مكرم - طبع دار الشروق - ومؤسسة الرسالة .
- ٣٠- معجم الأدباء - ياقوت الحموي - مطبعة الحلبي .
- ٣١- المقتضب - المبرد - تحقيق الأستاذ محمد عبد الخالق عزيمة - المجلس الأعلى للشتون الإسلامية .
- ٣٢- المنصف: ابن جنى - تحقيق المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى - والأستاذ عبد الله أمين مطبعة مصطفى الحلبي .
- ٣٣- نزهة الألباء في طبقات الأدباء طبع جمعية إحياء مآثر العرب .
- ٣٤- الهوامل والشوامل: أبو حيان التوحيدى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٣٥- وفيات الأعيان: ابن خلكان طبع سنة ١٣١٠هـ .



١٩. المماليك وإحياء الثقافة العربية

والإسلامية في مصر (*)

في عهد المماليك سقطت بغداد تحت أقدام التار بعد أن كانت عروس الشرق ومهد الحضارة، لبست أزهى حللها، وأجمل ثيابها على يد خلفاء بني العباس الذين جعلوا منها أكبر مركز في ميدان الثقافة والعلم مما جعلها كعبة القصاد، وقبلة العلماء ويفضلها تكونت مراكز علمية في عواصم العالم العربي.

وفي أواخر المحرم سنة ٦٥٦ هـ انجبت جيوش التار إلى بغداد، فأخمدوا شعلتها وبددوا ثقافتها، ورموا كتبها ونفائسها في نهر دجلة لتبتلمها الأمواج.

وفي أيام تعدّ على رؤوس الأصابع أصبحت بغداد خراباً بلقماً، وقاعاً صفصفاً.

وقد وصف ابن كثير مآسى التار التي حلت ببغداد وصفا ترتاع له النفوس، وتنقطع من أجله نياط القلوب^(١).

ولما انجبه هذا الجيش التتارى إلى مصر بعد سقوط بغداد منى بالهزيمة في «عين جالوت» على يد الملك المظفر قطز، سلطان مصر، الذى قاد الجيش بنفسه، دفاعاً عن حرّمات الديار والأوطان، وحفاظاً على كرامة الإسلام والقرآن.

وبعد هذه الهزيمة أصبحت مصر قبلة الأنظار، وتقدم أبناؤها لحمل راية الإسلام، والدفاع عن أمجاده.

وقد عرف المماليك أن للثقافة والعلم رسالة كبيرة فى بناء الأمة، وأنه لم تظهر دولة فى التاريخ، لها مكانة مرموقة، ومجد مؤنث إلا بالعلم والثقافة، ومن ثم أخذوا على عاتقهم القيام بهذه الرسالة، وبخاصة بعد ضياع التراث العلمى فى حوادث بغداد، ورأوا أنهم مسئولون أمام الله وأمام التاريخ عن حياة هذا التراث، وبعثه من جديد.

(*) نشر فى مجلة العربى فى سبتمبر سنة ١٩٧٢.

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١. ص ٢٠٣.

ولقد كانت الحركة العلمية في عهدهم مزدهرة حية موزعة بين المساجد، والمدارس، والربط وخزائن الكتب.

١ - أما المساجد، فإنها في الإسلام دار عبادة، وفي الوقت نفسه دار علم وثقافة، والإسلام دين لا يفرق بين العبادة والعلم، فهما متلازمان لا يستغنى أحدهما عن الآخر. وقد تعددت المدارس في مصر، وقامت برسالتها العلمية خير قيام، وقد أخبرنا العلامة شمس الدين بن الصائغ الحنفى أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر في سنة ٧٤٩ هـ بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه^(١) وفي سنة ٧٦٧ هـ جدد الأمير (يلبغا العمري الخاصكى) دروساً بجامع ابن طولون وعين فيه سبعة مدرسين للحنفية، وقرر لكل فقيه من الطلبة في الشهر أربعين درهماً وارباً قمح، فانتقل جماعة من الشافعية، إلى مذهب الحنفية^(٢).

والجامع الأزهر كان يفتح أبوابه لكل الوافدين إليه سواء أكانوا من ريف مصر أم من البلاد الأخرى كالمغاربة، والعجم الزيالة، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته، وتلقيه، والاشتغال بأنواع العلوم كالفقه والحديث، والتفسير، والنحو ومجالس الوعظ. وكان لجوامع الصعيد في عهد المماليك نصيب كبير من هذه الحركة العلمية والفكرية، احتضنتها مساجده، وغدتها بلبانها جوامعها، فجوامع إسنا، وأسيوط، وقفت، وأسوان، وإدفو، وقوص، لمعت في هذا العصر، وأشرقت فيها نهضة علمية جعلت علماء الصعيد منار علم ومعرفة، وموئل فكرة وثقافة.

وقد سجل لنا «الإدقوى» صاحب كتاب «الطالع السعيد» هذه الحركة في كتابه وعدد لنا العلماء الذين برزوا في صعيد مصر، وكانت لهم قدم راسخة في مضمار العلم والمعرفة.

٢ - وأما المدارس فقد حدثت بعد القرن الرابع الهجرى، ولم تعرف في زمن الصحابة والتابعين. ويذكر المقرئى أن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل «نيسابور» حيث بنيت بها المدرسة البيهقية، والمدرسة السعيدية^(٣).

وأول مدرسة بنيت في مصر المدرسة الناصرية التى بناها صلاح الدين، ثم اقتدى به أولاده وأمرؤه، فبنوا كثيراً من المدارس في القاهرة وغيرها من مدن مصر.

(١) الخطط للمقرئى ج ٢ - ص ٢٥٦.

(٢) أنظر: الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢٦٢.

(٣) الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢٩٦.

هذا وأشهر المدارس التي كانت تقوم برسالة العلم والمعرفة في عهد المماليك هي:
الناصرية - القمحية - الصالحية - الظاهرية - المنصورية.

وأهم المراجع التي تحدثت عن هذه المدارس في تفصيل وإيضاح: الخطط للمقريزي،
وحسن المحاضرة للسيوطي، والطالع السعيد للإدقوي.

٣- ومن المراكز العلمية التي أدت نصيبها من الرسالة العلمية في هذا العصر «الخوانق»
والخوانق جمع «خانقاه» وهي كلمة فارسية معناه «بيت».

ويقول المقريزي: إن الخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربعمئة من سنى الهجرة
وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى.

وقد ذكر أن أول من اتخذ بيتا للعبادة هو «زيد بن صوحان بن صبرة» وذلك أنه عمد إلى
رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة، وليست لهم تجارات، ولا غلات، فبنى لهم دورا
وأسكنهم فيها، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره، وأسكنهم
فيها، فجاء يوما ليزورهم فسأل عنهم، فإذا عبد الله بن عامر عامل البصرة قد دعاهم، فأتاه
زيد، فقال له: يا ابن عامر، ما تريد من هؤلاء القوم، قال: أريد أن أقر بهم فأشققهم، ويسألوا
فأعطيهم، ويشيروا على فأقبل منهم، فقال زيد: لا، وكرامة أأتى إلى قوم قد انقطعوا إلى الله
تعالى فتدنسهم بدنياك، وتشركهم في أمرك حتى إذا ذهب أديانهم أعرضت عنهم فطاحوا لا
إلى الدنيا، ولا إلى الآخرة؟ ثم التفت إليهم زيد قائلاً: ارجعوا إلى مواطنكم، فقاموا، فأمسك
ابن عامر فما نطق بلفظة^(١).

على أية حال قد تطورت هذه الخوانق في عصر المماليك، فلم تكن خاصة بالتصوف
والعبادة بل كانت تقوم إلى جانب المدارس لتؤدي نصيبها من الرسالة العلمية وتحمل جزءا
من عبء الحركة الفكرية.

وأشهر هذه الخوانق هي: خانقاه شيخو، خانقاه سعيد السعداء - البيروية.

٤- ومن المراكز العلمية (الربط) وهي جمع رباط. والرباط «دار يسكنها أهل طريق الله
تعالى، روى أبو داود بن صالح قال: قال لي أبو سلمة بن عبدالرحمن: يا ابن أخي، هل

(١) أنظر: الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٤١٤.

تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ (١)؟ قلت: لا، فقال: يا ابن أخى، لم يكن زمن رسول الله ﷺ غزو تربط فيه الخيل، ولكن انتظار الصلاة بعد الصلاة، فالربط جهاد النفس، والمقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه.

وأشهر هذه الربط التى بنيت فى عهد المماليك، وشاركت فى الحركة العلمية، والفكرية: رباط البغدادية، ورباط الأثار (٢).

٥ - ولما كانت دور العلم لا تستغنى عن الكتاب، فقد أنشئت خزائن الكتب التى تمد هذه الدور بما تحتاجه من الكتب المختلفة فى شتى ألوان المعرفة.

وقد كان لسقوط بغداد، ورمى الكتب التى كانت تحمل ثقافة العرب والإسلام فى نهر دجلة - أثر كبير فى نشأة هذه الخزائن وتكوينها فى عصر المماليك، وليس ثمة شك فى أن هذه الخزائن التى جمعت ما تبعثر من الكتب، وما تفرق، عملت على حفظ التراث العربى من الأيدى العابثة التى لا تقدر للثقافة قدرها، ولا تعطى للعلم منزلته، ولم يسخل المماليك على المدارس فى عهدهم بإلحاق مكتبات خاصة فيها تساعد على الدرس وتيسير العلم للراغبين فيه.

وإذا عرفنا أن الكتب تعرضت لهزات عنيفة من مراكز الثقافة العربية والإسلامية فى العالم العربى بسبب الفتن والحروب، فقد أحرق جنكيز خان من المكتبات فى بخارى ونيسابور وغيرهما من مدائن العلم فى فارس ما لا يدرك إحصاؤه، وكما فعل هولوكو حيث ألقى بالكتب العربية فى نهر دجلة ببغداد، وكما فعل الأسبان فى الأندلس، فإنهم كانوا كلما فتحوا بلداً أخرجوا العرب منه، وأحرقوا كتبهم.

أقول: إذا عرفنا ذلك تبين لنا أن الثقافة الإسلامية فى مختلف العلوم والفنون قد ضاعت فى هذه الأقطار، وأن العلماء بحثوا عن الكتب التى يزاولون فيها نشاطهم العلمى فلم يجدوا إلا القليل، مما يسد حاجة النفس، أو العقل، أو القلب.

لهذا لم يكن ثمة بد من الحصول على ما بقى من الكتب بأى طريق، وبأى ثمن، وتبارى ملوك الدولة وأمراؤها، وكتابها، وأعيانها فى جمع هذه الكتب، ووضعها فى خزائن خاصة لتلحق بالمدارس، أو تنشأ فى القصور لتكون ذخيرة يعتز بها العلماء، ويعتمد عليها الباحثون.

(١) آل عمران - آية: ٢٠٠.

(٢) أنظر: حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٤٧.

حقاً، إن الفاطميين اهتموا بهذا الأمر، وكان غرامهم بجمع الكتب الثمينة أكثر ممن جاء بعدهم سواء أكانوا من الأيوبيين أو من الماليك.

ويذكر لنا المقرئى أن أعظم خزائنهم هى خزانة القصر الفاطمى، وقد تفرعت إلى أربعين خزانة ومن جملتها خزانة واحدة كان فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة.

ولكثرة الكتب فى خزائن هذا القصر اختلف المؤرخون فى عددها فمن قائل: إنها كانت تزيد على مائتى ألف مجلد، وآخر يدعى أنها كانت تشتمل على ألف وستمائة كتاب، وقد ذكر ابن واصل أنها كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد^(١).

ولما جاء الأيوبيون على أثرهم بددوا كثيراً من هذه الثروة الضخمة من الكتب التى تعددت فى خزائن القصر وفى دار الحكمة وغيرها من المساجد والمدارس، بددوها، لأنها كانت تحمل طابع المذهب الشيعى، ولكن مع هذا، فإن هذه الكتب لم تضيع كما ضاعت كتب بغداد، لأنها وجدت من يقدرها ويعرف قيمتها من العلماء والأدباء، فنقلوها إلى قصورهم وإلى مدارسهم كما فعل القاضى الفاضل الذى أنشأ مدرسته، وجعل فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد^(٢).

ولم يقصر الأيوبيون فى هذا المضمار، فجروا على سنن من قبلهم، وأنشأوا مكتبات ضخمة أحقوها بمدارسهم كما فعل الملك الكامل حينما أنشأ فى مدرسته، داراً للكتب، لها أمين يشرف عليها^(٣).

وفى عصر الماليك، استطاع الأمراء، والوزراء أن يحتفظوا بهذا التراث الضخم الذى ورثوه من الفاطميين والأيوبيين، فأنشأوا المكتبات العامة والخاصة، وفى كل مدرسة من المدارس التى ورثوها، أو أنشئت فى عهدهم، مكتبة، فالملك بيبرس أنشأ فى المدرسة الظاهرية خزانة كتب تشتمل على أمهات للكتب فى سائر العلوم^(٤)، وكذلك فعل الناصر قلاوون، فقد ألحق بالقبة مكتبة ضخمة فيها عدة أحمال من الكتب فى سائر العلوم، ورتب لها أميناً ومساعدين.

(١) الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٤٠٨.

(٢) الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢٥٥.

(٣) ذيل الروضتين فى أخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسى ص ٦٥.

(٤) السلوك للمقرئى ج ١ ص ٥٠٤.

ويبدو أن نظام استعارة الكتب كان معمولاً به في هذا العصر، فمن طلب الكتاب وجده وإذا شاء استعاره فقرأه، والذي جعلنى أحكم هذا الحكم، وأصدر هذا الرأى هو أنى وجدت فى ترجمة أبى حيان الأندلسى، صاحب تفسير البحر المحيط، والذي عاش فى مصر هذه الفترة - أنه كان يعيب على مشتري الكتب ويقول له: الله يرزقك عقلاً تعيش به أنا أى كتاب أردته استعترته من خزائن الأوقاف، وإذا أردت من أحد أن يعيرنى دراهم ما أجد ذلك (١)؟

ومعنى هذا أن الكتاب كان فى عصر المماليك ميسراً، والحصول عليه سهلاً بما يدل على أن الثقافة العربية والإسلامية فى مصر وصلت إلى درجة كبيرة من التقدم والرقى. وقد شهد بذلك العالم المؤرخ ابن خلدون فقد قال فى مقدمته فى الفصل الثالث الذى عقده بعنوان «العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتنظم الحضارة»:

«ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة، منذ آلاف السنين... وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلّة... مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير، والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلم، وزخرت بحارها، والله يخلق ما يشاء» (٢).



(١) نفع الطبيب للمقرى جـ ٢ ص ٢٩٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون - ٤٣٤ - ٤٣٥ - مطبعة مصطفى محمد.

٢٠. رأى في كتاب الشعر العربي المعاصر (*)

رسم الكاتب لهذا الموضوع منهجا أخرجه في مدخل، وثلاثة أبواب: أما المدخل، فقد تحدث فيه عن «الشعر بين العصرية والتراث» مبينا معنى المعاصرة، وعلاقة الشعر المعاصر بالتراث، وقدم لنا نماذج توضح هذه العلاقة.

وحديث المؤلف عن العصرية تناول الدعوة التي تدعو إلى العصرية المطلقة، وناقشها مثبتا أنها دعوة فاشلة كفشل العصرية التي دعا إليها أبو نواس حينما خرج على تقاليد الشعر العربي.

والخطوط الأساسية لهذه العصرية أهمها في نظر المؤلف:

١ - التجربة الجمالية للشعر المعاصر وهي التجربة الماثلة في حركة التجديد.

٢ - ارتباط الشاعر الجديد بأحداث عصره، وقضاياها.

٣ - الشاعر المعاصر، لا بد أن يكون متقفا بأوسع معاني الثقافة.

وأما الباب الأول «قضايا وظواهر فنية» فقد قسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: «التشكيل الموسيقي لتجربة الشعر الجديد» وما دام الكاتب في مجال هذا التشكيل فلم ينس وفاء للتاريخ أن يتحدث عن مدرسة العقاد، وشكري، والمازني موضحا أنها بداية، أو عهد للشعر الجديد، لأن هذه المدرسة قدمت بشعرها حصيلة شعورية تبرز معاناة الإنسان للحياة، ويسندها عقل حصيف، وذكاء لملاح وقد عقد المؤلف في هذا الفصل موازنة طويلة بين فن الكلمة من حيث هو فن زماني كفن الموسيقى، وبين الفنون المكانية الصرفة كالرسم والتصوير والنحت.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب «قضايا الإطار الموسيقي الجديد للقصيدة» يحدد أشكال التجديد والتطور في موسيقى الشعر المعاصر بثلاث مراحل أساسية، مرحلة البيت الشعري، ثم مرحلة السطر الشعري ثم مرحلة الجملة الشعرية.

(*) نشر في مجلة البيان الكويتية - فبراير سنة ١٩٧٠.

ولا ينسى فى هذا الفصل أن يتحدث عن ظاهرة النظام، وهل هو الجمال؟ وقد حملته مناقشة هذه الظاهرة على أن يعيش فى القضايا الفلسفية التى تنبع منها.

وفى الفصل الثالث «تشكيل الصورة فى الشعر المعاصر» يحاول المؤلف أن يقنعنا بمقدمات طويلة أن الشاعر كالطفل يحب ألوان الطبيعة وأشكالها، وقد انتهى إلى هذه النتيجة بعد حديث طويل عن التشكيل المكانى فى القصيدة، وأن القصيدة الحديدية هى التى تخضع الطبيعة لحركة النفس، وأن الشاعر فنان، والفنان يلون الأشياء بدمه، ولكن كيف يخضع الشاعر الطبيعة لحركة النفس، وحركة النفس تروج بشتى الأفكار، ومختلف العواطف والمشاعر؟ وقد حاول المؤلف أن يلائم بين الفكر والطبيعة، لأنه من هذه الملائمة، أو من هذه المعانقة على حد تعبيره تبرز لنا صورة حية ترتبط فيها النفس بالطبيعة أو بالوجود، ومن ثم تحدث أثرها الجذاب فى العين القارئة أو الأذن السمعية.

والباب الثانى من هذا الكتاب عنوانه: «قضايا وظواهر فنية ومعنوية» وقد ضم هذا الباب أربعة فصول:

الفصل الأول: «المصطلح الجديد، وظاهرة الغموض» وقد تحدث فيه عن اللغة عن قيمتها ومكانتها، ثم يعرض بعد ذلك لظاهرة الغموض محللا هذه الظاهرة فى صفحات عديدة، خلاصتها أن الشاعر يدرك الأشياء إدراكا أبعد مدى مما نصنع، ومن هنا يذهب إلى الاختراع والاختراع خيال، ومنطق الخيال غير منطق الواقع، وعند ذاك يلعب المجاز الدور الأول، فإذا للكلمات من حيث دلالتها أبعاد جديدة وإذا الصور رموز اخترعها الخيال للأفكار.

ويسلمنا هذا الفصل إلى الفصل الثانى «الرمز والأسطورة» وما لا شك فيه أن هناك تداخلا بين هذا الفصل، والفصل الذى سبقه فظاهرة الغموض حينما تبلغ قمته تصبح رمزا، والاكثار من استخدام الرمز من الظواهر الفنية اللافتة للنظر فى تجربة الشعر الجديد.

على أن هذه الرموز محاولات أمكن للمؤلف أن يرجعها إلى علاقة الإنسان بالكون، وعلاقته بالله، وعلاقته بالإنسان نفسه، ومن ثم ارتبط الرمز بالدين أو بالعقيدة.

ولم ينس المؤلف حين تناوله لظاهرة الأسطورة أن يتحدث عن نشأتها، عن علاقتها بالفكر، عن استقامتها الخ وذلك فى «الفصل الثالث من هذا الباب».

وأما الفصل الرابع فقد خصصه لدراسة «معمارية الشعرية المعاصرة» ويقصد بالمعمارية بناء العمل الفني فى القصيدة، وقد بين لنا فى هذا الفصل أن معمارية القصيدة قد تطورت على أيدي الشعراء فى الاتجاه الدرامى، واستمر خط التطور بالقصيدة الجديدة فى هذا الاتجاه إلى أن اتخذت القصيدة الأولى الإطار المسرحى الكامل، كمسرحية (جميلة) لعبدالرحمن الشرقاوى، والفنى مهراى ومسرحية الحلاج لصلاح عبدالصبور.

والفصل الخامس والأخير من هذا الباب عنوانه «التزعة الدرامية» والتزعة الدرامية فى رأى المؤلف، هى ذلك اللون من التفكير الذى لا يسير فى اتجاه واحد، وإنما يأخذ دائما فى الاعتبار أن كل فكرة تقابلها فكرة، وأن كل ظاهر يستخفى وراءه باطن.

والباب الثالث من هذا الكتاب وهو الباب الأخير اتخذ له عنوانا هو «قضايا وظواهر معنوية».

وقد أدار الحديث فى الفصل الأول عن «الشاعر والمدينة» وأوضح السر فى هذا الاهتمام بالمدينة لأن المدينة رمز للحضارة الإنسانية الحديثة، وأن الشعراء عانوا من هذه الحضارة ماعانوا، فجاء شعرهم من وحى هذه المعاناة.

وفى الفصل الثانى استطاع المؤلف أن يعرض لظاهرة الحزن فى الشعر المعاصر وقد أرجع هذه الظاهرة إلى المعرفة، فهى مصدر الأحزان، ذلك لأن تحصيل المعرفة منفعة فى ذاته، ولكنك قد تصل إلى مرحلة لا بد أن تلقى على نفسك فيها هذا السؤال: ثم ماذا بعد ذلك؟ إن الأمل يبقى دائما معلق بالشىء الجديد، الشىء البكر، وإلى أن يحدث هذا لا بد أن يمضى الضجر بالنفوس ويخلق لها التعاسة.

والفصل الأخير من هذا الباب، وان شئت فقل من هذا الكتاب عنوانه «الالتزام والثورية» وقد وضع فى هذا الفصل ميزانا حساسا للأديب الحق، فالأديب الحق هو الذى يواجه نفسه ومجتمعه بضمير واحد، لأنه يحس أن مشكلاته لا تنفصل عن مشكلات الناس ومن أجل هذا تشعب حديثه فى هذا الفصل عن «الفن والمجتمع» وعن «الفن والعقيدة».

ويعد، فإن هذا الكتاب بذل فيه صاحبه جهدا مشكورا غير أن هناك بعض ملاحظات ظهرت لى أثناء قرءاته.

من هذه الملاحظات أن المؤلف فى مدخل كتابه «الشعر بين العصرية والتراث» أطال فى معنى العصرية، وأقسامها، وسماتها، وهو طول معيب وبخاصة فى المقدمات، أو فى المداخل، لأن المقدمة فى نظرى خطوط عريضة تشير إلى المنهج فى إيجاز. أما الشرح والإطناب فذلك يحسن فى فصول الكتاب وأبوابه، وقد غالى المؤلف مغالاة غير محمودة فى نظرى حيث ذكر أن التراث العربى من حيث هو جوهر لم يظفر بتقدير، وحسن فهم، واستيعاب من الشعراء قدر ما ظفر به من شعراء التجربة الجديدة، وقد استند فى هذا القول إلى مسرحية: «مأساة الحلاج» لصلاح عبد الصبور.

وفى رأى أن المؤلف فتته هذا الشعر الجديد، فقال ما قال، مغمضا عينه عن الحقيقة التى تؤكد أن الشعراء العرب، شعراء القصيدة التقليدية قد وعوا هذا التراث وحفظوه وسجلوه أكثر من شعراء التجربة الجديدة، واذكر فى هذا المقام مسرحيات شوقى، ومسرحيات عزيز أباطة تلك المسرحيات التى مثلت على مسارح القاهرة، وغيرها فترة من الزمن كانت فيها مسرحية الحلاج فى ضمير الغيب لم تولد بعد.

وفى نظر المؤلف أن الشاعر المعاصر هو الذى ترتبط نفسه بأحداث عصره سواء فى البيئة المحلية المحدودة أو فى البيئة العالمية، وكأنه بهذا القول ينفى صفة العصرية عن الشعر العربى التقليدى، وهو معنى لا يستند إلى حجة، أو بأوى إلى ركن شديد ذلك لأن الشعر العربى كان طوال حياته منذ عرفناه، فى الجاهلية والإسلام، وفى العصور التى جاءت من بعده حتى عصرنا الحاضر شعرا يتصل بالحياة، وما أكثر هذه العبارة التى تردت فى كتب تاريخ الأدب: «الشاعر ابن البيئة» وفى هذه العبارة ما يؤكد العصرية، ويوضح العلاقة بين الشاعر والحياة.

ومن هذه الملاحظات: انه يقرر فى الفصل الأول من الباب الأول حينما تحدث عن التشكيل الموسيقى لتجربة الشعر الجديد - يقرر أن مدرسة العقاد وشكرى والمازنى كانت بداية أو تمهيدا للشعر الجديد إلا أن هذه المدرسة قدمت بشعرها حصيلة شعورية تبرز معاناة الإنسان للحياة.

ومما لا شك فيه أنه إذا كانت هذه المعاناة الإنسانية بداية الشعر الجديد، فاننا نرجع هذه البداية فى غير تحفظ إلى العصر العباسى حيث ظهر على مسرح الشعر الإنسانى شاعران كان لهما دوى كبير فى عصرهما، وفى العصور التى تلتها، هذان الشاعران هما المتنبى وتلميذه

المعري، فكل الأوصاف التي أضفاها المؤلف على مدرسة العقاد، وشكري والمازني تصدق على هذين الشاعرين لأنهما تفاعلا مع الحياة بكل ما فيها، هذا التفاعل الذي يسند العقل الحصيف، والذكاء اللماح.

هذا، وقد أعجبني من المؤلف في هذا الفصل نقده للشعر الجديد الذي صب في قوالب الشعر القديم وأورد مثالا منه قصيدة يخيل للقارئ أنها جديدة في إطارها الموسيقي ولكنها في حقيقة الأمر تحمل نفس التفعيلات القديمة التقليدية للشعر العربي التقليدي ومجيئها على هذه الصورة تمويه يقصد به التضليل.

ومن هذه الملاحظات: عرضه لنماذج عديدة من صور الشعر المعاصر الذي خرج عن الأطار القديم للقصيدة، وقد دارت هذه النماذج حول شعر أحمد عبدالمعطي حجازي ولو لم يكن عنوان الكتاب «الشعر العربي المعاصر» لقلنا: له ذلك، ولكن من حقنا أن نتساءل: هل حجازي يمثل بشعره الحركة التجديدية في الشعر العربي بأسره؟ أكبر الظن أنه لو وقف على حركة هذا الشعر، ومدى استجابة الأدباء لها كان لا بد من عرض نماذج عديدة لشعراء مختلفين ليكون الحكم صادقا، والاستنتاج سليما.

على أية حال كانت: إن هناك تداخلا كبيرا في فصول هذا الباب، وما الفصل الثاني إلا تكرار في معظم أفكاره ومعانيه للفصل الأول، وما دام هناك ترابط وثيق بين هذين الفصلين، فلا داعي للتمدد، وما دامت الفكرة لم تستوعب أو تحدد أبعادها في كل فصل.

ومن هذه الملاحظات: ذلك التداخل الكبير بين الأبواب، وإذا صح التداخل بين الفصول في باب واحد، فإن هذا التداخل لا يصح أن يعلن عن نفسه بين الأبواب، لأن الأبواب وحدات فكرية مستقلة لا يمكن أن تتداخل، أو تتمازج، فمثلا الباب الثاني من هذا الكتاب عنوانه «قضايا وظواهر فنية ومعنوية» والباب الأول عنوانه «قضايا وظواهر فنية» فالباب الثاني إذن هو نفس عنوان الباب الأول بزيادة كلمة «ومعنوية» وعنوان الباب مفتاحه، والقارئ يصعب عليه أن يميز بين مفتاح ومفتاح، ما دامت الصفة واحدة والمسميات واحدة، قلت في نفسي حينما اختلط عنوان الباب الثاني بالباب الأول: إن المؤلف قد تأثر بهذا الشعر الجديد الذي يكون الغموض جزءا من كيانه وعنصرا من عناصر وجوده.

ومما يؤخذ علي المؤلف أيضاً أنه فى الفصل الأول من الباب الثانى تناول اللغة موضحة قيمتها ومكانتها، وهو حديث مكرر معاد، ولم ينس فى هذا الفصل أن يوجه نقده المر للغة العربية القديمة لأنها من وجهة المنطق لا تعبر عن التجربة الجديدة ومن هنا تميزت لغة الشعر المعاصر بعامة عن لغة الشعر التقليدية.

ولنا أن نسأل المؤلف هل اللغة العربية الفصيحة توصف بانها قديمة أو جديدة مع أنها قد استقرت أوضاعها، ونضجت أساليبها، وكمل بناؤها، وحفظت فى أخلد كتاب فى أقوى صورته. وأعظم بيانه، وأجمل أسلوبه، ومازالت إلى اليوم حية متحركة تسمى إلى الحياة بقديمين ثابتين؟

لعل المؤلف يقصد اللغة العامية إن كان الأمر كذلك فهذا موضوع آخر يتعلق بالدراسات اللغوية، وتطور الكلمات فى معركة تصارع اللهجات.

هذا، وينقص الكتاب فهرس تحليلى يجمع كل الأفكار التى تناولها فى بحثه، ويبدو من الصعوبة بمكان وضع هذا الفهرس التحليلى لاختلاط الأفكار بعضها ببعض مما يصعب وضع حدود أو معالم لها.



٢١. الشعر الجاهلي في ظلال التاريخ (*)

مولد الشعر العربي:

يردد نقاد الشعر العربي في هذه العبارة المأثورة: «الشعر ديوان العرب»، لانه مرآة نرى من خلالها كل ما نريد معرفته عن حياة العرب في جاهليتهم سواء اكانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية .

وتاريخ العرب في شعرهم حافل بأحداث الحياة من حب وبغض، ومدح وهجاء، وحرب وسلم.

وحيثما نتناول دراسة هذا الشعر من زواياه المتعددة، وجوانبه المختلفة تستبد بنا الحيرة، لان هذا الشعر الذي روى لنا، وسجلته دواوين العرب وجمع في المعلقات، والحماسة، والجمهرة، والمفضليات والأصمعيات، لا يمكن أن يولد عملاقا على هذا النحو من قوة الجرس، وحسن الإيقاع، وسمو المعنى، وإشراق اللفظ، وقوة التعبير، إنها ولادة - إن صححت غير طبيعية، لانها مخالفة لسنن الحياة،

وهذا الشك في ميلاد الشعر العربي يجعلني أرفض ما أورده الجاحظ في كتابه الحيوان ٧٤ /١ حيث يقول : «وأما الشعر العربي فحديث الميلاد، صغير السن، وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلل بن ربيعة .. إلى ان يقول : ويدل على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حجر:

ضيمه الدخلون إذ غدروا (١)
ولم يضع بالمغيب من نصروا
است غير يحكها الثفر
لا عور شانه ولا قصر

إن بنى عوف ابتنوا حسنا
ادوا إلى جارهم خُفارته
لا حميرى وفى ولا عدس (٢) ولا
لكن عوير وفى بذمته

فانظر كم كان عمر زرارة، وكم كان بين موت زرارة، ومولد النبي عليه الصلاة

(*) نشر في مجلة الشعر التي تصدر في القاهرة - وزارة الثقافة - يوليو ١٩٧٩.

(١) الدخيل : الذى يدخل الرجل فى أمره، ويصاحبه عليه، «هامش الحيوان» وفى الديوان ١٠٤ : «حبا بالباء، ورواية الجاحظ فى الحيوان: «حسنا» ويقصد به المعروف والجميل.

(٢) عدس: هو زرارة بن عدس، ورد ذكره فى الحيوان ٩٣: ٢، ٢٤٦.

والسّلام؟ فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتى عام».

من هذا النص نرى أن عمر الشعر العربى قبل الإسلام لا يتجاوز خمسين ومائة عام، وعلى أكثر تقدير لا يتجاوز مائتى عام فى رأى الجاحظ، على أن معظم النقاد لا يؤيدون الجاحظ فى قوله، بل يعتقدون أن الشعر العربى أقدم ميلادا من شعر امرىء القيس وغيره بدليل قول امرىء القيس نفسه :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

يقول ابن سلام: «وابن خذام رجل من طيء لم يسمع شعره الذى بكى فيه»^(١).

على أن أبا زيد القرشى يسوق لنا خبرا طريفا مؤداه أن أول من قال الشعر هو آدم عليه السلام. فعن أبى عبدالله المفضل بن عبدالله المحبرى قال : سألت أبى عن أول من قال الشعر؟ فأشددنى هذه الأبيات:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذى لون وطعم وقل بشاشة الوجه الصبيح

[بشاشة منصوب على التمييز والتقدير: وقل الوجه الصبيح بشاشة، وحذف النون لالتقاء الساكنين: التنوين والألف واللام].

وجاورنا عدو ليس يفنى لعين لايموت فنستريح

أهابل أن قُلت فإن قلبى عليك اليوم مكتئبٌ قريح

ثم سمعت جماعة من أهل العلم يأترون أن قائلها أبونا آدم عليه السلام حيث قتل ابنه قابيل هايبيل، فالله أعلم أكان ذلك أم لا؟ وذكر أن ابليس عدو الله أجاب آدم بهذه الابيات ، فقال:

ففى الفردوس ضاق بك الفسيح

وقلبك من أذى الدنيا مريح

إلى أن فاتك الثمن الربيع

بكفك من جنان الخلد ربح^(٢)

تنح عن الجنان وساكنيهـا

وكننت بها وزوجك فى رخاء

فما برحت مكأيدتى ومكرى

ولولا رحمة الرحمن امسى

(١) طبقات الشعراء ٢١.

(٢) جمهرة أشعار العرب ١: ٢٤، ٢٥ لآبى زيد القرشى، تحقيق على محمد الجاوى ط أولى - نهضة مصر.

وليس هناك أدنى شك في أن هذا الشعر تبدو عليه سمات الصنعة وعبارات التكلف، فنحن لا نعرف اللغة التي كان يتكلم بها «آدم»، ولا اللغة التي كان ينطق بها إيليس، فهذا الشعر لعب فيه خيال الرواة لا مرين:

الأمر الأول: اعتقادهم أن الشعر العربي قديم، فأرادوا أن يبالغوا في هذا الشعر فنسبوه لأول إنسان على ظهر هذه الأرض.

والأمر الثاني: إظهار مقدرتهم الفائقة في كثرة ما رووا من الشعر من عهد آدم إلى العصر الإسلامي.

على أية حال كانت، فإن المبالغة في ميلاد الشعر لم تقف عند هذا الحد، فنسبوا للملائكة شعرا، يقول أبو زيد صاحب الجمهرة: «روى أن بعض الملائكة عليهم السلام قال هذا البيت: لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى الذهاب»^(١).

وبالغوا أيضا فنسبوا للعمالقة اشعارا.

قال المفضل: «وقد قالت الأشعار العمالقة، وعاد، وثمود. قال معاوية بن بكر بن الحنتر بن عتيك بن قرمة بن جلهمة بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكان يومئذ سيد العمالقة، وقد قدم إليه قيل بن عير، وكانت عاد بعثوه ولقمان بن عاد، ووفدا معا ليستسقوا لهم حين منعوا الغيث، فقال معاوية بن بكر:

الايا قيل ويحك قم فهينم	لعل الله يَصْبِحنا غمـاـما
فيسقى أرض عاد إن عادا	قد أضحوا ما يُبينون الكلاما
من العطش الشديد بأرض عاد	فقد أمست نساؤهم أيامي
وإن الوحش تأتيهم جهارا	فما تخشى لعادي سهاما
فقبّح وفدكم من وفد قوم	ولا لُقوا التحية والسلاما ^(٢)

وكما نسبوا إلى قوم عاد شعرا لم يضمنوا أيضاً بهذه النسبة على قوم ثمود فمن ذلك قول مبدع بن هرم من ولد عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكان من مسلمي ثمود، فقال يذكر الناقة وفصيلها:

(١) جمهرة أشعار العرب ١/ ٣٥.

(٢) جمهرة أشاعر العرب: ٢٨٠، ٢٧.

ولاذ يصخرة من رأس رَضْوَى
 فلاذ بها لكيلا يَغْقروه
 بأْسْهم مُصدع شُلّت يَداه
 ثكلتم أَمُه وعقرتموه
 بأعلى الشُّعب من شَعَف مُنيف
 وفي تَلواذه مرُّ الحُنُوفِ
 تشق شِعافَه شق الخنيف
 ولم يُنظر به لهف اللهيف

الخنيف: جنس من ثياب الكتان، وهى الخنف، وأحدها: خنيف، ومصدع الذى رمى الناقة قبل أن يعقرها (١).

ولنقاد الشعر وقفات أمام هذه الأشعار متباينة، فأبو زيد القرشى حائر لايدرى أصواب نسبة هذه الأشعار إلى قائلها أم خطأ؟ فيقول فى استسلام يدل على حيرة: «فالله أعلم أكان أم لا؟» (٢).

وعند عرضه للشعر الذى نسب إلى العمالقة استأنس بشعر عباس بن مرداس فى ذلك فقال: ومصدق ذلك قول عباس بن مرداس:

فى كل عام لنا وفد نسيرهم
 كانوا كوفد بنى عاد أضلهم
 عادوا فلم يجدوا فى دار قومهم
 نختارهم حسباً منا وأحلاما
 قَبِيلٌ فأتبع عامٌ منهمُ عاما
 ألا مغانيبهم قفرا وأراما (٣)

فهذا الموقف المتردد الحائر من أبى زيد يشير فى وضوح إلى أنه يريد أن يصل إلى الحقيقة، ولكن فقدان الدليل يحول بينه وبين ما يريد.

أما الناقد ابن سلام الجمحى، فقد كان صريحا فى رأيه، جريئا فى نقده، ويكفى أنه وضع هذه الأشعار المنسوبة إلى آدم عليه السلام وإلى العمالقة فى قفص الاتهام، لأنها أفسدت الشعر، واعتدت على كيانه التاريخى فاضطربت المقاييس، واختلطت الأمور.

يقول فى صراحة الناقد البصير: «وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل منه كل غثاء محمد بن إسحاق مولى آل مخزومة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير،

(١) جمهرة أشعار العرب: ٢٧، ٢٨.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٢٤، ٢٥.

(٣) جمهرة أشعار العرب: ١، ٢٧.

فقبل الناس عنه الاشعار وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا، فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف السنين، والله يقول: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ (١) وقال فى عاد: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ (٢) وقال: ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٣).

وفى رأى أن الشعر العربى لم يكن حديث الميلاد كما اعتقد الجاحظ، ولم يكن قديم المولد كما ذكر بعض الرواة، لم يكن حديث الميلاد لأن الشعر العربى كان صورة للحضارة العربية فى الجاهلية، فحضارة صنعاء، ومعابد اليمن «ومعابد شبه الجزيرة التى ذكرها» ديودوروس، واسترابون وغيرهما كل أولئك أقدم بكثير من التاريخ الذى يضربه الجاحظ موعداً لمولد القصيدة العربية بصورتها المعروفة لنا اليوم» (٤).

وليس هناك شك فى أن هذه الحضارة تقتضى أن يكون الشعر العربى ركنا من أركانها ودعامة من دعائمها، هذه ناحية. وناحية أخرى ترجع إلى أن النمو الطبيعى للقصيدة وأوزانها وموضوعاتها، واللغة ونحوها، وأساليبها وإيجازها تستدعى أن تكون مرت قبل زمن امرىء القيس بأطوار كثيرة، وتعثرت فترات جمّة حتى اكتمل لها هذا الشكل الذى نجدها عليه فى شعر امرىء القيس ومن تبعه أو جاء بعده. ذلك الذى دفع بمؤلف غربى مثل دى فرجه إلى أن يقول فى عجب: «إن أصول هذا الأدب قد هربت منا لسوء الحظ، فهو حين يطلع علينا لأول وهلة يطلع علينا من قلب الصحراء تام الخلقّة، كما خرجت «منيرفا» مستوية فى ذهن «جوبتير» (٥).

ولم يكن الشعر العربى فى قدمه يصل إلى آدم أو إلى قوم عاد وثمود كما ذكر ذلك كثير من الرواة والمؤرخين وقد وضع الناقد ابن سلام النقاط على الحروف فى هذه القضية، لأننا لانعلم شيئاً عن طرق الرواية التى وصلت إلينا هذا الشعر، على أن ابن سلام - وإن أنكر هذا

(١) النجم: ٥١، ٥٠. (٢) الحاقة: ٨.

(٣) إبراهيم ٩ طبقات الشعراء ٨.

(٤) انظر: تاريخ الشعر العربى لنجيب محمد البهيتى ص ٤.

(٥) تاريخ الشعر العربى لنجيب محمد البهيتى ص ٥.

الشعر الضارب في القدم - فإنه لا ينكر أن هناك أشعاراً قيلت قبل شعراء الجاهلية الذين ولد الشعر على يدهم قبيل الإسلام كما يقول الجاحظ.

يقول ابن سلام: «ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قصدت القصائد، وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف»^(١). ثم أخذ يورد أشعاراً لشعراء أقدم من امرئ القيس وأصحابه كشعر العنبر بن عمرو بن تميم. ودويد بن زيد بن نهدي، وأعصر بن سعد بن قيس عيلان، وزهير بن جناب الكلبي»^(٢).

ويطالعنا السيوطي في كتابه «المزهر» برأى للإمام ثعلب في أماليه يهدم تاريخ الجاحظ لميلاد الشعر العربي فيقول: «وقال ثعلب في أماليه: قال الأصمعي أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم. ثم ضمرة رجل من بني كنانة، والأضبط بن قريع قال: وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمئة سنة، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير»^(٣). ويؤيد السيوطي هذه الرواية برواية ابن خالويه في كتاب ليس: أول من قال الشعر ابن خذام»^(٤).

كثرة الشعر الجاهلي:

إذا استبعدنا هذا الشعر القديم الذي قيل قبل الزمن الذي حدده الجاحظ نعجب كل العجب لهذا السيل الجارف من الشعر الجاهلي الذي روى لنا قبل الإسلام في فترة لا تتجاوز مائتي عام، وقد دفعت هذه الظاهرة العجيبة المؤرخ جورجى زيدان إلى عقد موازنة بين مرويات الشعر العربي في هذه الفترة، ومرويات الأمم الأخرى في جاهليتها فقال: «الألياذة والأوديسا هما معظم شعر اليونان في جاهليتهم لا يزيد عدد أبياتهما على ثلاثين ألفاً، و«المهابهاراته» عند الهنود لا يعدو عشرين ألفاً، و«الرمايانة» لا تزيد على ثمانين وأربعين ألفاً. وأما العرب فيؤخذ مما بلغنا عنهم من أخبارهم عما نظموا في نهضتهم الأخيرة قبل الإسلام أنه يربى على أضعاف ذلك وهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات.. وقد ذكروا أن أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار الجاهلية ١٤٠٠٠ ألف

(١) طبقات الشعراء ١٨.

(٢) انظر ص ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١ من طبقات الشعراء.

(٣) المزهر للسيوطي ٤٧٧/٢ عيسى الحلبي تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرون.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

أرجوزة غير القصائد والمقاطع، وكان حماد الرواية يحفظ ٢٧٠٠٠ ألف قصيدة، وكان الأصمعي يحفظ ١٦٠٠٠ ألف أرجوزة^(١).

ويعلق جورجى زيدان بعد هذه الموازنة بقوله: «فإنه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات وخصوصاً إذا اعتبرنا أن ما وصل إلى رواة الشعر فى الإسلام إنما هو بعض أشعار الجاهلية لأن كثيرين من رواة الشعر الجاهلى قتلوا فى الفتوح الإسلامية، فضاع ما كان فى محفوظاتهم من الأشعار^(٢). وكما أشاد جورجى زيدان فى العصر الحديث بهذه الكثرة من الشعر الجاهلى أشاد بها فى القديم نقاد الأدب، وبخاصة ابن قتيبة فى كتابه: «الشعر والشعراء» حيث يقول: «والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفذ عمره فى التنقيب عنهم، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه، ولا قصيدة إلا رواها» ويضرب ابن قتيبة الأمثلة على ذلك فىروى عن الأصمعي أنه «جاء فتيان إلى أبى ضمضم بعد العشاء فقال لهم: ما جاء بكم يا خبياء؟ قالوا: جئناك نتحدث، قال كذبتم، ولكن قلتم: كبر الشيخ فتلعبه عسى أن نأخذ عليه سقطه، فأنشدهم مائة شاعر. وقال مرة أخرى لثمانين شاعراً كلهم اسمه عمرو، قال الأصمعي، فعددت أنا وخلف الأحمر، فلم نقدر على ثلاثين^(٣).

ويخبرنا أبو الفرج الأصفهاني أن حماد الرواية أرسل إليه أمير الكوفة وقال له: «قد أتاني كتاب أمير المؤمنين الوليد بن يزيد يأمرنى بحملك، فحملت... فقال لى: أنت حماد الرواية فقلت له: إن الناس ليقولون ذلك، قال: فما بلغ من روايتك؟ قلت: أروى سبعمائة قصيدة أول كل واحدة منها: بانت سعاد^(٤).

مواطن الشعر الجاهلى:

على أن القبائل العربية فى العصر الجاهلى كانت متفاوتة الحظ فى نصيبها من الشعر العربى، فلم تكن كلها على درجة واحدة فى هذا الرصيد الشعرى، لأن الشعر العربى أخذ

(١) تاريخ التمدن الإسلامى جورجى زيدان ٣٤، ٢٥ ط رابعة . دار الهلال.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد شاکر ص ٦٠، ٦١ . دار المعارف بمصر.

(٤) الأغاني ٦: ٨٧. (دار الثقافة ببيروت).

ينتقل بين القبائل، تغذيه الأحداث، وتنميه ظروف الحياة، فأول ما ثور عرف من هذا الشعر «كان في قبائل ربيعة بنجد، والعراق، وبخاصة تغلب وبكر، أيام حرب البسوس، ومن أقدم شعرائها المهلهل. ثم تحول إلى قيس عيلان، وكانت شعوبها تملأ نجدًا، وأعلى الحجاز، ومن قبائلها عبس وذبيان، وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء ومن قيس انتقل إلى تميم وتميم مسعر الحروب، فاستقر فيها، وكانت أول نشوئها في تهامة، ثم نزحت إلى شرق نجد وبادية العراق، ولم يظهر في مدركة إلا في بطون سكنت البادية كهذيل وأسد، وبعض كنانة وقريش. وبهذا غلب الشعر على أهل أكثر البادية من مضر، وربيعة كما غلب على من ساكنهم بها من نازحى قبائل اليمن القدماء كطى وكندة وغيرهما. أما الحواضر فكانت قليلة في ذاتها وكذلك كانت قليلة الشعراء»^(١).

ولا ننسى أن الشعر الجاهلى كان ينبوع الغزير بالنسبة إلى فنون القول الأخرى من خطب، ووصايا وحكم وأمثال، وهذه الفنون جميعاً كانت تمد الرواة حينما يتقلون إلى البادية ببيض هائل من التراكيب والبناء في مجال اللغة والنحو.

وكانت القبائل العربية المتمثلة في قيس، وتميم وأسد هي التي أخذ عنها الرواة أكثر ما أخذوا. ثم تلا هذه القبائل في مجال الأخذ قبائل هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين.

يقول السيوطى في المزهري: «الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدى، وعنهم أخذ اللسان العربى هم قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب، والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين .. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم»^(٢).

الشعر الجاهلى والإسلام:

لما كان الشعر ديوان العرب، يقيدون فيه أفكارهم، ويسجلون فى كلماته نبضات قلوبهم، وخواطر نفوسهم وحرارة عواطفهم قدره الإسلام وأعطاه حقه من التكريم والإجلال، ولا أدل على ذلك من هذه الرعاية النبوية التى أحاطت بموكب الشعر العربى، فقد كان النبى عليه السلام يعجبه الشعر ويطرب لحكمه ويمدح فيثيب عليه، ويقول: «هو ديوان العرب» وهو القائل: «إن من البيان لسحراً»^(٣).

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى للسباعى ص ١٠٨ بتصرف .. مطبعة العلوم سنة ١٩٣٢.

(٢) المزهري ١/١٤٨. (٣) جمهرة أشعار العرب ٢٩.

وقصته مع النابغة الجعدى مشهورة رائعة تدل على حسن تقدير الرسول عليه السلام للكلمة الجميلة والبيان الساحر. فعن الشعبي بإسناده قال: أنشد نابغة بنى جملة النبي ﷺ هذا البيت:

بلغنا السماء مجدآ وجودآ وسوددا وإنما لترجو فوق ذلك مظهرها

فقال النبي ﷺ: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال إلى الجنة بك يا رسول الله، قال نعم إن شاء الله. فلما أنشده:

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادى تحمى صفوه أن يكدرها
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال النبي ﷺ: لا فض الله فاك. فبنو جمدة يزعمون أنه كان إذا سقط له سن أثبت الله مكانها أخرى، وغيرهم يزعم أنه عاش ثلاثمائة عام، ولم تسقط له سنة حتى مات^(١)، وحمل لواء رعاية هذا الشعر بعد الرسول عليه السلام الخلفاء والصحابة، وكان على رأس هؤلاء عمر بن الخطاب، فكثيراً ما كان ينصح ابنه عبد الرحمن فيقول له: يا بنى صل رحمك، وأحفظ محاسن الشعر فى أدبك، فإنه من لم يعرف نسيبه لم يصل رحمه ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ولم يقترف أدباً، وفى قول آخر له: «محاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق»^(٢). وقد حفلت كتب التاريخ والأدب بأخبار الشعراء، والاهتمام بهم ورصد الجوائز الثمينة لمن يحسن القول، ويصيب الهدف. وبلغ من تقدير المجتمع العربى للشعراء أنهم كانوا يلقبونهم بكلمات من أشعارهم تدل على قيمة هذا الشعر، ومكانته الكبيرة فى نفوسهم، فمنه بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر، وهو أعصر، وإنما سمي أعصر بقوله:

أعمير إن أباك غير لونه مر اللبالي واختلاف الأعصر
وخالد بن عمرو بن مرة سمي الشريد بقوله:

وأنا الشريد لمن يعرفنى حامى الحقيقة ما له مثل
وشاس بن نهر العبدى سمي المزق بقوله:

(٢) جمهرة أشعار العرب ٣٧، ٣٨.

(١) جمهرة أشعار العرب ١: ٣٣.

فإن كنت مأكولا فكُن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق
وعائذ بن محصن العبدى سُمى المثقب بقوله:
ظهري بكللة وسدلن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون
وزياد بن معاوية الذبياني سُمى النابغة بقوله:
وحلت من بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شئون
وشرحيل بن معد يكرب سُمى العفيف بقوله:
وقالت لى هلم إلى التصابي فقلت عفت عما تعلمينا
وثعلبة بن امرئ القيس سُمى قاتل الجوع بقوله:
قتلت الجوع فى السنوات حتى تركت الجوع ليس له نكير
وعبد الله بن عمر الجعفى سُمى الخليج بقوله:
كأن تخالج الأشطان فيهم شأبيب تجود من الغواذى^(١)

الشعر والرواية:

ولمكأنة هذا الشعر فى المجتمع الإسلامى، لأنه يمثل لغة القرآن الكريم مجرد لجمعه فئة من المخلصين للإسلام والعروية. فعملوا على جمعه ونشأت على يد هذه الفئة مدرسة الرواية، وكان من علماء هذه المدرسة أبو عمرو بن العلاء. قال عنه أبو الطيب اللغوى: «كان سيد الناس وأعلمهم بالعربية، والشعر، ومذاهب العرب»، وأبو عمرو كان يعرف لنفسه حقها فى مجال الرواية واللغة، فقد قال عن نفسه: «كنت رأساً والحسن حي» يعنى الحسن البصرى، وشعراء هذا العصر وعلى رأسهم الفرزدق كانوا يرجعون إلى أبى عمرو فى حل مشكلاتهم اللغوية والشعرية، ولا أدل على ذلك من قول الفرزدق فيه:

ما زلت أفتح أبواباً وأغلقها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار
ومات أبو عمرو سنة أربع وخمسين ومائة^(٢).

ومن علمائها يونس بن حبيب الذى يقول عنه أبو عبيدة: «اختلفت إلى يونس أربعين سنة

(٢) انظر مراتب النحويين ١٣-٢٠.

(١) انظر المزمهر ٢: ٤٣٤-٤٤٣.

أملأ كل يوم ألواحى من حفظه». ومات يونس سنة اثنتين وثمانين ومائة^(١) وقد ظفر هذا العصر بثلاثة من أئمة الناس تتلمذوا على أبى عمرو وأخذوا عن يونس وهم: أبو زيد، وأبو عبيدة، والأصمعى. يقول عنهم أبو الطيب اللغوى: «هم أئمة الناس فى اللغة والشعر وعلوم العرب لم ير مثلهم قبلهم ولا بعدهم، عنهم أخذ جل ما فى أيدي الناس من هذا العلم بل كله». أما أبو زيد فقد أخذ عنه اللغة أكابر الناس منهم سيويه، يحدث أبو زيد عن نفسه فيقول: «كان سيويه يأتى إلى مجلسى وله ذؤابنان قال: فإذا سمعته يقول: حدثنى من أتق بعربيته فإنما يريدنى»^(٢) ونصيب أبى زيد فى حفظ اللغة أكثر من نصيب صاحبيه فقد حدث ابن مناذر: «كان الأصمعى يجيب فى ثلث اللغة، وكان أبو عبيدة يجيب فى نصفها، وكان أبو زيد يجيب فى ثلثيها»^(٣). وقد توفى أبو زيد سنة خمس عشرة ومائتين^(٤). وأما أبو عبيدة معمر بن المثنى. فقد كان أعلم الثلاثة بأيام العرب وأخبارهم، وأجمعهم لعلومهم، ومات أبو عبيدة سنة عشر ومائتين أو إحدى عشرة، وقد قارب المائة^(٥).

وأما الأصمعى أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن أصمغ فقد كان أعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظاً، وقد تعلم نقد الشعر من خلف الأحمر.

ومما يدل على علمه بكلام العرب، وحفظه لمعانيهم، ووقوفه على أخبارهم ما حدثنا به الرياشى قال: «كنا عند الأصمعى فوقف عليه أعرابى. قال: أنت الأصمعى؟ قال نعم، قال: أنت أعلم أهل الحضرة بكلام العرب؟ قال: كذلك يزعمون، قال: ما معنى قول الأول:

وما ذاك إلا الديك شارب خمرة نديم الغراب لا يمل الحوانيا
فلما استقل الصبح نادى بصوته ألا يا غراب هل رددت ردائيا

فقال الأصمعى: إن العرب كانت تزعم أن الديك فى الزمان الأول كان ذا جناح يطير به فى الجو، وأن الغراب كان ذا جناح كجناح الديك لا يطير به، وأنهما تنادما ذات ليلة فى حانة يشربان، فنقد شرابهما، فقال الغراب للديك: لو أعرتنى جناحك لأيتيك شراب، فأعاره جناحه فطار ولم يرجع فزعموا أن الديك إنما يصبح عند الفجر استدعاءً لجناحه من لغراب، فضحك الأعرابى، وقال: ما أنت إلا شيطان^(٦).



(٣) انظر مراتب النحويين ٤١.

(٢) انظر مراتب النحويين ٤٢.

(١) انظر مراتب النحويين ٢١-٢٢.

(٦) مراتب النحويين ٥٣.

(٥) مراتب النحويين ٤٦.

(٤) انظر مراتب النحويين ٤٤.